

جمهورية مصر العربية
وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

نظرات على
انتصارات
العسكرية الوطنية المصرية

جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للإستعلامات

نظرات على

النضال الشعبى العسكرى الوطنى المصرى



الرئيس محمد حسني مبارك

إهداء

إلى الإنسان المصري المقاتل
الذي حمل السلاح دفاعاً
عن شرف الأمة
وقدسية التراب الوطني
وحرية شعب مصر...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ...

ليس هذا الكتاب عملا اكاديميا يتناول بالتمحيص العلمى الدقيق بدء تشكيل القوات المسلحة المصرية والتطورات العديدة التى لحقت بها والأدوار المتعاقبة التى لعبتها او مئات المعارك التى خاضتها وفنون القتال المختلفة التى استخدمتها ، منذ ان استقرت على هذا الوادى اولى المجتمعات البشرية المنظمة التى وجب ، بالضرورة ، حمايتها بقوة السلاح ..

وهو ليس بالمؤلف التاريخى الذى يتناول بالسرد والتحليل المجموعة الكاملة للمعارك التى شاركت فيها الجيوش المصرية عبر التاريخ الطويل لهذه الأمة ، وساهمت فى صنع ذلك التاريخ وتغيير مساره فى اتجاه أو آخر ..

وعلى ذلك فان هذا الكتاب لا يتوجه الى جمهور من المتخصصين ليقدم اضافة جديدة الى العلوم العسكرية او الى فنونها ، او الى علم التاريخ بشكل عام ..

هذا الموقف ، هو بالدرجة الاولى ، عملا اعلامى يستهدف ، بالتحديد ، استعراض اللحظات الكبرى لانتصارات العسكرية المصرية ، وابرار الدور الرائد لجيش مصر فى قلب وعلى راس حركتها الوطنية والقومية الرامية الى اقامة الوجود السياسى والفكرى والحضارى المصرى ، تحت حماية سلاحه الوطنى ، فى مواجهة الكيانات الأجنبية النازعة الى الهيمنة على ذلك الوجود وعلى دوائره الحيوية ..

هذا الكتاب هو احد اوجه اللقاء الضرورى بين رجال الفكر والسلاح ، فى اطار تلك « العروة الوثقى » بين فصائل الحركة الوطنية المتطلعة الى بناء النهضة المصرية الجديدة ..

انه احد الردود العلمية - التاريخية على تلك الحملة الشرسة التى صاغتها وقادتها دائما قوى الهيمنة الأجنبية ، وشاركت فى تنفيذها ، عمدا او جهالة - ويا للخرى ! - بعض الأقلام والأدوات المصرية او العربية ، ضد القوات المسلحة الوطنية ، فى محاولة للتقليل من شأنها او الانتقاص من دورها او الحد من التفاف الشعب من حولها او النيل من روحها المعنوية والقتالية ... فى محاولة ادهى وأخبث لكسر مصر ونهضتها ، ولواد دورها ورسالتها ...

سوف نلقى معا « نظرات على انتصارات العسكرية الوطنية المصرية » منذ عصور الفراعنة العظام وحتى اليوم ، ليس من أجل ازكاء أى روح « عدوانية شوفينية » لا مكان لها ، حقا ، فى وجدان او ثقافة الانسان المصرى المسالم والمتحضر .. ولكن من أجل ان نستمد من ذلك التاريخ القديم والمعاصر ، عبرة للحاضر والمستقبل : ان الحياة والحرية والتقدم والسلام ، تظل جميعها وهما سانجا ، سرايا خادعا ، دون ذلك الدرع الواقى : الجيش الوطنى القوى ..

ولن يغيب عن مخيلتنا ، ونحن نطالع هذا الكتاب ، ان جيش مصر قد اتسم بمجموعة من الخصائص المتعددة التى اسبغت عليه شخصية متميزة ، قد يختلف بها ، كثيرا او قليلا ، عن سائر الجيوش الأخرى فى المنطقة الواسعة التى نعيش فيها ..

فهو ، قبل كل شيء ، لم يكن خلال تاريخه الألفى الطويل ، قوة عدوان أو احتلال دائم .. كان قوة تأمين وردع ودفء .. وحتى في عصور الامبراطورية ، القديمة أو الحديثة ، حينما امتدت ذراع القوات المسلحة المصرية طويلا فيما وراء الحدود ، كان خروجها مستهدفا تأمين الوجود المصرى من أخطار عدوان قائم أو وشيك ، ثم كانت عودتها سريعة الى الوادى ، حيث شاء المصرى دائما — ربما امتدادا لعقائده الأولى — أن يعيش ، وفي ثراه يموت ..

ثم ان ذلك الجيش نابع من اعماق الشعب .. من جذوره الأكثر امتدادا في الأرض .. أنه اساسا جيش الفلاحين .. وحتى لو جاءت قياداته، في بعض المراحل التاريخية، من الأجانب أو المتمصرين، من المماليك أو الشركس أو من غيرهم ، فإن قوامه الأساسى ، قوته الحقيقية الضاربة ، كانت دائما وما تزال ، من فلاحى الأرض .. وهو بهذه الصفة التكوينية لا يمكن أن يكون سوطا ضد الجماهير الواسعة .. وهو لم يكن كذلك بالفعل .. ظاهرة فريدة ان تلك الحقيقة المتمثلة في أن جيش مصر لم يرفع السلاح ابدا ضد شعب مصر .. على مر الزمان الطويل لحياة هذه الأمة .. !

ثم أنه ذلك الجيش الذى انحاز في العصر الحديث الى قضية الحرية ، قضية الديمقراطية السياسية .. ليس من الفريد والنادر أن تقف قيادة جيش من جيوش العالم الثالث ، جيش الفلاحين المصرى بقيادة أحمد عرابى، في ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، ضد الاستبداد الخديوى العميل لقوى الهيمنة الأجنبية ، وتعتبر بقوة السلاح عن مطالب الأمة العادلة وعلى رأسها إسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس لنواب الشعب؟! وليس من الطبيعى عندئذ أن يكون أول مرسوم يصدره الخديوى الخائن ، في ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ — أى بعد أربعة أيام فقط من سقوط العاصمة في ايدى قوات الاحتلال البريطانى هو ، بالتحديد ، « الغاء » الجيش المصرى(*) .. ؟!

لقد انقسمت القوى السياسية المصرية منذ تلك الأحداث (الثورة العرابية ثم الاحتلال البريطانى) ورغم كل المسميات ، انقساما حادا الى حزبين حقيقيين متناقضين : حزب الداخل في مواجهة حزب الخارج .. حزب مصر ضد حزب عملاء وحلفاء قوى السيطرة الأجنبية .. حزب الوطنية والديمقراطية في مواجهة حزب الهيمنة الخارجية والاستبداد .. وفي قلب الحزب الأول وعلى رأس فصائله وقف دائما .. جيش مصر ..

تلك مجرد لمحات عاجلة ، أوردناها في تلك المقدمة السريعة ، لتلقى بعض الأضواء أو لتشكل بعض الخلفيات لتلك القراءة التى نقترحها لتاريخ المعارك الوطنية والدور القومى الرائد للعسكرية المصرية ..

ومرة أخرى نؤكد ... هذا الكتاب لا يستهدف جمهورا محددا من المتخصصين .. أنه موجه الى ذلك القطاع الأوسع والأشمل من المثقفين الوطنيين وانباء القوات المسلحة والشباب وكل الرجال والنساء الذين يحملون في قلوبهم مشروع رفعة مصر وتشديد صرح تقدمها .. والذين يعملون من أجل تأمين وجودها ونفوذها من خلال ذلك التوحيد والانصهار الواجب .. بين الفكر والعمل والسلاح ..

اكتوبر ١٩٨٤

الدكتور / ممدوح البلتاجى
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِمَصْرٍ
فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا
فَإِنَّ هَذَا الْجُنْدَ حَيِّدٌ
أَجْنَادُ الْأَرْضِ.

«حديث شريف»

مدخل

مصر .. التاريخ والحضارة ..

مصر ... التاريخ والحضارة (*)

العوامل الطبيعية التي تقوم عليها الحضارة :

هناك عوامل طبيعية تؤثر على أهمية الدولة ومكانتها بين بلاد العالم وتساعد على خلق مظاهر الحضارة وتنميتها، ولكن يجب ألا يغيب عنا أن العوامل البشرية وفي مقدمتها كفاية الإنسان وقدرته على استغلال العوامل الطبيعية وتطويرها لصالحه والتغلب على أضرارها هي الأساس في نشأة الحضارات وازدهارها .

والبلد العربي هو الذي يفرض نفسه حيناً بعد حين ، وجيلاً بعد جيل ، ويعمل على مسايرة ركب الزمان والتقدم والاستفادة بكل ما لديه من مقومات الحضارة وتطويرها بما يتناسب مع ظروف ومتطلبات العالم حتى لو غشيت فترات من الاضمحلال فسرعان ما ينفض عن نفسه ظلمات التخلف ويعود أقوى مما كان ويفدق على العالم الجديد من مظاهر الحضارة والمدنية .

أهم العوامل الطبيعية التي ساعدت على قيام الحضارة في مصر :

اعتدال المناخ :

تقع مصر بكامل مساحتها في المنطقة المعتدلة الشمالية من سطح الكرة الأرضية مما جعلها تتمتع بمناخ معتدل على مدار السنة وقدر محدود من الأمطار في فصل الشتاء وشمس مشرقة طول العام ورياح خفيفة تهب أحياناً من اتجاهات مختلفة في كل فصل من فصول السنة . وهكذا كان اعتدال المناخ من أهم الأسباب التي ساعدت على استيطان الإنسان لهذه المنطقة منذ الأزل ومكنته من خلق مظاهر الحضارة . . . وتطويرها على مر الزمن .

نهر النيل :

« مصر هبة النيل » ذلك لأن هذا النهر أمد مصر بقدر وافٍ من المياه العذبة التي تقوم عليها حياة الإنسان والحياة والنبات كما جلب لها كميات كبيرة من الطمي فزاد من خصوبة أرضها وحقق لمصر أول مظاهر الحياة والحضارة وجمع أهلها على صفائه ووحدتهم وعلمهم التعاون للاستفادة بخير أرضهم وزراعتها وقادهم إلى الكثير من العلوم حيث ارتبطت الزراعة والرعي بعلاوم الحساب والمساحة والهندسة وقامت بفضلها حرف جديدة مثل البناء وصناعة السفن والآلات والأدوات وغيرها .

الموقع الجغرافي :

مصر قلب العالم القديم والحديث . . فهي تتوسط قاراته الثلاث القديمة: أفريقيا وأوروبا وآسيا ، وتتحكم في أهم البحار . . البحر المتوسط والبحر الأحمر فهي حلقة الاتصال بين الأقطار في العالم الذي لا غنى له عن المرور

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكري » - المستوى الأول .

بها وقد أدى ذلك إلى انتفاعها اقتصادياً ، وحضارياً ، لكثرة احتكاك شعبها بشعوب عديدة ومخالطة لحضارات مختلفة مما ساعده على تنمية مظاهر الحضارة فنقل العالم كله عن مصر حضارتها على مر الزمن .

وكان لموقع مصر الجغرافي ووفرة خيراتها أثر ضار بها أيضاً حيث طمع فيها الطامعون فتعرضت لكثير من الهجرات والغزوات ولو أن هذا الضرر كان عاملاً هاماً من عوامل تقدم جيشها وساعدها على تنمية أهم مظاهر الحضارة ، وهو التفوق الحربي . كما أن طبيعة موقع مصر من الناحية الطبوغرافية ساهم كثيراً في حمايتها من وجهة النظر العسكرية فالبهار تحيط بها من جهة الشمال والشرق كما أن المرتفعات تحقق لها حماية طبيعية من الجانب الشرقي ، والصحراء الشاسعة تعتبر مانعاً له فاعليته من جهة الغرب والجنوب على السواء .

الثروة المعدنية والموارد المحلية :

حفلت تربة مصر بكثير من المعادن والأحجار الكريمة والصخور النادرة وقد بدأ عرف الإنسان المصري كيف يستعين بالصخور والأحجار في تنمية مظاهر الحضارة من تقدم في البناء وفنون النحت وصناعة الأواني هذا بالإضافة لما حققه من حضارة في مجال الزراعة ، ثم قام باستغلال خيرات الأرض من معادن أخرى على مر الزمان وعرف النحاس والذهب والحديد وقام بتشكيل تلك المعادن وخلق صناعات جديدة .

وهكذا كانت تلك الموارد المحلية عاملاً هاماً من عوامل قيام الحضارة في مصر .

وكان من أثر هذه العوامل أن قامت على أرض مصر منذ الأزل أول حضارة عرفها التاريخ ، وتمكن المصريون مع مرور الزمن من خلق العديد من مظاهر الحضارة وحققوا أكبر فائدة ممكنة من العوامل الطبيعية التي وهبها الله لمصر ، ونقلوا حضارات أخرى من بلاد مجاورة وأفادوا مما وصلهم من معتقدات وقاموا بتطويرها وتنميتها لخير العالم أجمع .

مظاهر الحضارة :

حتى يتبين لنا كيف كانت مصر أصل الحضارة ، وكيف استطاع المصريون أن يستفيدوا من العوامل الطبيعية لقيام الحضارة يلزم الإلمام بعناصر الحضارة عموماً قديماً وحديثاً .

فالحضارة هي التي تميز الإنسان بعقله الراجي عن غيره من سائر المخلوقات ولقد قال الله تعالى في القرآن الكريم « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »^(١) ومن البديهي أن يرشده عقله إلى الاستفادة بماديات الطبيعة وتحريرها لما يصلح له ويساعده على الحياة الكريمة الهائلة .

ومن الصعب أن نحدد عناصر الحضارة والمدنية وإنما يمكن أن نسوق أهم مظاهرها ومظاهر تطورها .

الوحدة :

لا شك أن الإنسان بعقله يدرك أنه وحده لا يستطيع تدبير كل احتياجاته ومن هنا يلزمه الاستعانة بغيره سواء

(١) الآية ٧٠ سورة الإسراء .

فى ذلك الأفراء أو الجماعات أو الدول ولذلك نرى العالم - بعد أن وصل إلى تلك الدرجة المرموقة من الحضارة والمدنية - يجد الاتحاد والتكتلات ضرورة ملحة فيسعى إلى تحقيقها بالسلم تارة وبالرب تارة أخرى .

الزراعة :

تعتبر الزراعة من أهم مظاهر الحضارة وهى فى نفس الوقت ضرورة من ضرورات الحياة ، وقديماً سخر الإنسان الطبيعة ليتمكن الحصول على ما يعتمد عليه فى معيشته ، وحديثاً يستعين الإنسان بالعلم مع موارد الطبيعة فيطور الزراعة بما يحقق له إنتاجاً أفضل وأوفر فوصل العلم إلى الآلات الحديثة ، وذلك لاستصلاح الأرض بالأساليب المستحدثة لزيادة الإنتاج مثل التوسع الرأسى فى الزراعة .

العمارة والبناء :

كان على الإنسان أن يجد مكاناً يأويه غير الكهوف والمغارات فأرشدته عقله إلى تعميم الأكواخ والبيوت وتطور فكره حتى بنيت العمائر والقصور واستعان بالفن فأمكنه تشييد أعظم البنايات وأروعها . وما كان اهتمام المصريين القدماء ليوجه إلى الأهرامات والمعابد بصفة أساسية إلا لأنهم كانوا يدركون أن الحياة الأخرى هى الأكثر دواماً فاتجهوا إلى تلك القبور ظناً منهم أنهم سيعيشون فيها حياتهم الأخرى .

التجارة :

التجارة مظهر من مظاهر الحضارة وهو تطور طبيعى للتعاون والوحدة ، يتم به للإنسان تحقيق متطلبات الحياة حتى لا يمكنه القيام بها بمفرده ويؤثر الموقع الجغرافى فى التجارة تأثيراً كبيراً فهو يساعد على انتعاشها ، كما أنها عامل هام من عوامل تقدم باقى مظاهر الحضارة .

الصناعة :

كانت الأحجار هى المادة الأولية التى استعان بها الإنسان على صنع ما يلزمه من أدوات أو أسلحة ثم عرف الفخار من الطين ، ووصل بعد ذلك إلى المعادن بأنواعها وارتفعت الصناعة ، ومع مزيد من العلم اخترعت الآلات والالكترونيات ووصل العالم فى عهدنا هذا إلى تحقيق ما نحن فيه من رفاهية نتيجة لتقدم الصناعة .

العلوم والفنون :

هو تطور الفكر الإنسانى لاستغلال الموارد وهو بلا شك من أهم مظاهر الحضارة وبالعلم أمكن تحقيق الكثير من مظاهر الحضارة وبصورة أكثر فاعلية مما دفع بالعالم إلى مزيد من الرفاهية وارتباط العلم بالعقل هو الذى وجه الإنسان دون غيره من المخلوقات لاستغلال الطبيعة وتسخيرها مع بقية المخلوقات لصالحه وحقق بذلك السيادة على وجه الأرض ، وبالعلم تمكن الإنسان من الإحاطة بكل ما سخره الله من موارد وأصبح هناك الكثير من العلوم كل يبحث فى جانب من جوانب الحياة فعرف الإنسان ، الفلك ، والحساب ، والهندسة ، والطب ، والاقتصاد وغير ذلك من العلوم .

وبالفن أمكن تطوير كثير من مظاهر الحضارة مثل العمارة والبناء ، والصناعة فكانت الزخرفة ، النحت ، الكتابة ، الرسم ، المصنوعات . والمصنوعات من شتى المعادن .

ولذلك تعتبر العلوم والفنون من أهم العوامل البشرية لقيام الحضارة وأهم مظاهر تقدمها على الإطلاق .

الآداب والحياة الاجتماعية :

إن من أهم ما يميز الإنسان على غيره من الكائنات الأخرى هو قدرته على التعايش وتنظيم العلاقة بين بني جنسه بصورة راقية ، تلك هي الآداب والحياة الاجتماعية ، ولذلك كانت عاملاً هاماً من عوامل قيام الحضارة وهي التي دفعت الإنسان إلى تطوير المظاهر الحضارية وساعدت على تنظيم معتقداته الدينية .

تنظيم الإدارة والحكم :

هو مظهر من مظاهر الحضارة أمثلته ضرورة الوحدة فمن الطبيعي أن يكون هناك نظام لتخديد التعامل بين مجموعة من الأفراد أو الجماعات أو الأقاليم بما يصلح معه أمر حياتهم ويحافظ على مظاهر الحضارة الأخرى ويعمل على تطويرها وإزدهارها ويحقق للجماعة الاستفادة بمواردها وإمكاناتها ويمنحها الأمن والسلام في داخلها أو من خارجها ، ولذا فأننا نجد الدول المتحضرة تحرص على جعل نظم الإدارة فيها على درجة كبيرة من الدقة حتى يمكن توفير متطلبات الحياة وإقرار الأمن الداخلي وتنظيم اقتصادها وحماية حدودها .

الاقتصاد :

هو مظهر حديث من مظاهر الحضارة . أمكن به تنظيم الاستفادة من باقي العناصر الأخرى مثل الزراعة ، والصناعة ، والتجارة وغيرها وتحقيق متطلبات الحياة للدولة والعمل على تنمية مواردها ، وتطوير إمكاناتها وحمايتها وتحقيق الاستقرار بها في الداخل والخارج ، ويعتبر تنظيم الاقتصاد في زمننا هذا من أهم مقاييس حضارة الدول .

الجيش وفنون القتال :

بالرغم من أن القتال في حد ذاته ليس مظهراً حضارياً ، فالإنسان منذ بدء الخليقة قتل أخاه الإنسان كما أن كل الحيوانات تقتل ، إلا أن وجود الجيش وتقدم وسائل القتال وفنونه يعتبر ضرورة حتمية لازدهار الحضارة وحماية تقدمها ومن الطبيعي أن يسعى الإنسان بكل الطرق للحصول على الخير وعلى رأس هذه الطرق طريق القوة ، فكان لزاماً على الدول المتحضرة أن تعمل على حماية مواردها ومظاهر الحضارة فيها بتقوية جيشها ورفع قدراته ، وأن يكون التطور في الجيش وفنون القتال متمشياً مع التطور في باقي مظاهر الحضارة ، ولهذا يعتبر وجود الجيش والتقدم الحربي مظهراً هاماً من مظاهر المدنية والحضارة .

المعتقدات الدينية :

• ما من شك في أن أصل العقائد الدينية لدى الإنسان يوحى من الله سبحانه وتعالى ، فأدم أبو البشر لا يغيب عنه الخالق ووحدانيته ، كما أرسل الله رسلاً وأنبياء إلى أمم وأجيال لا حصر لها ، ولكن كثيراً من الناس أدخلوا الجديد

في هذه الرسائل واعتقدوا في معتقدات أخرى من نسج خيالهم وأفكارهم ، وتطورت هذه العقائد واختلفت مظاهر الاهتمام بها وكان ذلك في حد ذاته مظهراً من مظاهر الحضارة أوضح كيف قام الإنسان بالاستجابة للعقيدة الدينية والانتفاع بها في تطوير العناصر الأخرى وخاصة في تنظيم الحياة الاجتماعية وآداب السلوك ويعتبر ارتفاع العقيدة الدينية والاستجابة لها مظهراً هاماً من مظاهر الحضارة وسبباً قوياً من أسباب تقدمها ولا يغيب عنا أن كثيراً من الدول في عصرنا هذا يرجع الفضل في تقدمها حضارياً إلى تمسكها بالقيم والأخلاقيات التي تحض عليها الأديان وأن أي تهاون في أي منها يعتبر نقيصة حقيقية وعلامة بارزة من علامات التخلف تدمنها بالتأخر أو الحيوانية . وعلى العكس فإن معظم الدول المتخلفة حضارياً نجدتها بعيدة عن جوهر الدين والحفاظ على أساسياته وإن بدا لها أنها متمسكة بعقيدتها شكلاً لا فعلاً .

وبعد أن عرفنا مظاهر الحضارة فإنه يمكننا أن نتبع تاريخ مصر القديم والحديث لنقف على الأهمية التاريخية لمصر قديماً وحديثاً .

الباب الأول

الجيش المصرى الفرعونى

الفصل الأول

تطور الجيش المصرى الفرعونى (*)

كان لطبيعة وادى النيل الجغرافية ، المحفوفة بالصحراء الشاسعة على الجانبين أثر كبير فى أن تكون نشأة الحضارة نشأة مصرية خالصة ، قامت على سواعد أبناء وادى النيل وحدهم . وكنتيجة طبيعية لتلك الطبيعة التى جعلت مصر شبه منعزلة عن جيرانها ، حدث نمو وتطور المدنية المصرية دون أن تتعرض لأى نكسات خارجية نتيجة لإغارة جيرانها . وقد أدى هذا كله إلى أن أصبحت سيناء والصحراء الغربية وبلاد النوبة ، فى عصور ما قبل الأسرات المصرية الأولى ، سداً منيعاً لكل غارة . كما أن سواحلها الشمالية — فى هذا الزمان — كانت آمنة ، حيث لم يكن لها أعداء لديهم أساطيل فى ذلك الوقت . . كل هذا أدى إلى شعور بالأمن والاطمئنان لدى المصرى القديم ، ساكن وادى النيل ، وبالتالي لم يبرز الاهتمام بتواجد جيش كبير فى تلك الفترة .

الحاجة إلى الجيش :

وما أن دخلت مصر معارك الوحدة الوطنية لتوحيد المقاطعات المصرية المختلفة منذ حوالى ثمانية آلاف سنة ظهرت الحاجة إلى توجيه الاهتمام بإيجاد تنظيم عسكري لكل مقاطعة ، تطور بعد ذلك إلى إيجاد جيش لكل مملكة عند توحيد المقاطعات المصرية فى مملكة الوجه البحرى ومملكة الوجه القبلى ، وقد استمر الحال على ذلك حتى بعد توحيد مصر نهائياً على يد الملك « مينا » حوالى عام ٣٤٢٥ قبل الميلاد مكوناً الأسرة الفرعونية الأولى . وكانت مدينة « منف » (ميت رهينة مركز البدرشين الحالية) مقراً لجيش الدلتا . أما مدينة « طيبة » (الأقصر الحالية) فكانت مقراً لجيش الصعيد . وكل جيش كان يتكون من الداخل من فرق تمثل كل فرقة مقاطعة (محافظة) من المقاطعات .

أول جيش فى التاريخ :

عندما تعرضت مصر ، لأول مرة ، لإغارات من قبل البدو على حدودها فى بداية الأسرة الثالثة فى حوالى عام ٢٦٨٦ ق . م سارع فرعون مصر فى هذا الوقت « زوسر » بوضع اللبئات الأولى فى بناء جيش مصرى ثابت ، ويمكن أن نعتبره أول جيش ثابت فى تاريخ العالم . وكان الفرعون نفسه يتولى قيادة هذا الجيش .

وفى العصر الفرعونى ، كان الجيش مقسماً إلى عدد من الفيالق ، فى كل فيلق عدد من الفرق ، ويسمى قائد الفيلق « أمرا مشع » وكانت الفرقة تسمى « عبرو » وتنقسم إلى عدد من السرايا ، وقائد الفرقة يسمى « خرب » .

وتنضم السرية حوالى ٢٠٠ فرد ، وتنقسم إلى عدد من القصائل كل فصيلة تضم ٥٠ فرداً ويطلق على قائد السرية « تاي سريت » ويسمى الجندى « نفر » أى الشاب المتباهى .

(*) وزارة الدفاع — هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكرى » — المستوى الأول .

كما كان لمصر القديمة أسطول يتكون من عدد كبير من السفن يصل طول بعضها إلى حوالى خمسين متراً وتسمى : « دبت عات » أى السفينة العظيمة ، وقد بلغ عدد سفن البعثات التى أرسلها الفرعون « زوسر » إلى لبنان لإحضار خشب الأرز حوالى أربعين سفينة فى البعثة الواحدة وكان المشرف على الأسطول يسمى « مدب دنت » أى باقى السفن وكان جميع أفراد الأسطول مستديمين وليسوا مجندين .

وكان من الضرورى لإدارة الجيش إنشاء مصلحة خاصة تسمى « بيت الأسلحة » ويتبعها أقسام التموين والتسليح وبناء سفن الأسطول والمكاتب العسكرية .

ولكى يتم توفير الأمن للبلاد كان لازماً أن يكون هناك دفاع عن الحدود المصرية ضد إغارات البدو ولهذا الغرض تم تقسيم حدود مصر إلى مناطق أطلق عليها اسم « أبواب المملكة » يحكم كل منطقة منها موظف ويحميها حصن به حامية ثابتة .

تطور الجيش الفرعونى (٢١٨١ – ٢٠٤٠ ق . م) « الدولة القديمة » :

أدت القلاقل الداخلية والصراعات بين حكام كل إقليم إلى اعتماد كل حاكم على جيشه الخاص لحماية إقليمه أو لفرض سيطرته على إقليم آخر ، وقد استعان بعض الحكام ببعض الجنود المرتزقة من النوبيين الساميين والليبيين وذلك لأول مرة فى تاريخ مصر .

تطور الجيش الفرعونى (٢٠٤٠ – ١٧٨٦ ق . م) « الدولة الوسطى » :

ظل لكل حاكم إقليم جيشه أو فرقته الخاصة التى تعمل تحت قيادته مباشرة أو تحت قيادة أكبر أبنائه ، وكان هؤلاء الحكام ينضمون بجيوشهم الخاصة إلى الفرعون فى غزواته . أما الفرعون نفسه فكانت له فرقته الخاصة التى أطلق على جنودها « أتباع الحاكم » ، وكانت تتألف من مجموعة من الضباط الأكفاء .

ثم تطور الجيش فى هذا العصر من ناحية التدريب والتسليح فأصبح تحت إشراف ضباط متخصصين متفرغين كما أصبح للجيش مظهر واحد فى الزى والتسليح وظهر الاهتمام الواضح بالتدريب العسكرى ، كما أعطى اهتمام خاص باللياقة البدنية .

مكونات الجيش :

اشتمل الجيش على حملة الرماح الذين كانوا يسرون فى أقسام ، فى كل قسم عشرة صفوف ، فى كل صف خمسة جنود ، وكان لهم زى خاص ، مسلحين برمح وخنجر ودرع .

ثم الرماة الذين كانوا يرتدون زياً أبسط من زى حملة الرماح ، مسلحين بقوس مع مجموعة من السهام فى جراب من جلد .

مهام الجيش :

كانت للجيش مهام سلمية وأخرى حربية ، تمثلت المهام السلمية فى مصاحبة البعثات التى يرسلها الفرعون إلى شبه جزيرة سيناء لاستحضار المعادن أو الحجارة المطلوبة للمعابد ، ثم مصاحبة البعثات البحرية التجارية إلى شواطئ

البحر الأحمر وفلسطين ولبنان لغرض التجارة . كما كان للجيش مهام حرية تمتثلت في حملات الغزو والفتح وخاصة في منطقة النوبة «جنوب مصر» .

تطور الجيش في (١٥٥٢ - ١٠٨٥ ق. م) «الدولة الحديثة» :

ويعتبر هذا العصر تطور شامل في طبيعة الجيش المصري ومكوناته ونظرياته العسكرية ، فقد اعتبر بحق عصر الإمبراطوريات المصرية العظيمة ، وعصر البطولات والأجساد العسكرية . . وكان لهذا التطور أسباب كثيرة أهمها : ضباغ الشعور بالأمن والأمان الذي تمتع به المصريون خلال عصورهم السابقة نتيجة لاحتلال المكسوس لمصر ، وهو أول احتلال أجنبي في التاريخ المصري . مما جعل المصريين يعتقدون مبادئ جديدة تحم عليهم فرض السلام بالقوة في المنطقة هذا بالإضافة إلى تولد روح عسكرية جديدة في نفوس المصريين نتيجة للصراع الطويل بين المصريين والفرقة «المكسوس» تلك الروح التي نشأ عنها جيش مصري من أعرق وأعظم الجيوش في تاريخ العالم القديم .

تطور تنظيم الجيش المصري :

اختلف تنظيم الجيش المصري في هذا العصر عن العصور السابقة ، حيث أصبح يتكون من المشاة والعجلات الحربية .

وهذا الجيش كان جيشاً نظامياً مستديماً يتكون من جنود محترفين مدربين ومؤهلين لخوض المعارك الكبرى ، وظل معظم الفترة التاريخية للأسرة ، ثم دخل في تكوينه قوات مرتقة من الساميين والآسيويين وعناصر ليبية ، وعناصر أخرى من بعض شعوب البحر الأبيض المتوسط (مثل أهالي جزيرة كريت) وذلك خلال حكم الأسرة ١٩ ، ٢٠ .

وكان أهم تطور حدث في الجيش هو استخدام العجلات الحربية التي يجرها الحصان . وكان سلاحاً هجوماً ، يتميز بسرعته في مفاجأة العدو ، وإلقاء الرعب والاضطراب بين صفوفه . وقد أخذ المصريون هذا السلاح عن المكسوس ، واهتم المصريون بتربية الخيول التي لم تكن منتشرة في مصر ، ثم قاموا بتصميم طرز مختلفة من العجلات الحربية . وبالإضافة إلى سلاح العجلات الحربية الهجومية نجحوا في إدخال عدد كبير من العربات لنقل الإمدادات التي كانت تجرها الثيران والحمير .

وفي ذلك الوقت ، كانت العجلة الحربية التقليدية تتكون من الجسم المحمول على عجلتين وعمود ، ويجرها زوج من الخيول التي كانت تلبس دروعاً محشوة لحمايتها في بعض الأحيان ، ولتحقيق السرعة المطلوبة ، والقوة لكي تتحمل عنف المعارك وضراوتها ، كانت العجلة تصنع من أنواع الأخشاب المتينة الجافة وتكسى بالجلد ، كما كان يدخل في صنعها أنواع مختلفة من المعادن . وكان لكل عجلة رجلان : سائق ماهر يتحكم في قيادة الخيل ، ومقاتل كفف مسلح بالحربة والقوس والسهم .

كما زاد تسليح حملة الرماح ، والرماة ؛ فاستخدموا أسلحة جديدة مثل المراتات والسيوف القصيرة والأقواس المركبة بعيدة المدى . . كما تم تزويدهم (بقميص الحرب) ، وهو قميص من الجلد أو مغطى بقشور البرونز لحماية الجندي من السهم والرماح .

إدارة الجيش :

ولتنظيم شئون الجيش تم تشكيل عدد من الإدارات أهمها « إدارة الحدود » وهي مسئولة عن الحدود المصرية ، وكانت تضم ثلاثة أقسام : قسم الحدود الشرقية ، وكان مركزه حصن « سيلة » وهي تل « أبو حيفة » الحالية ، ويتحكم في خطوط الاقتراب المؤدية إلى فلسطين ويسيطر على التحركات في منطقة الحدود المصرية . . وقسم الحدود الغربية ، ومدير هذا القسم كان يلقب باسم « حارس باب الغرب » ولم يكن يتبعه حصون بل كان يقوم بالحراسة « شرطة الصحراء » ، وقسم الحدود الجنوبية .

واستجدت في ذلك العصر أنواع الوظائف العسكرية فكان هناك « كاتب الجند » في كل وحدة عسكرية لتدريس الأوامر ، ومدير الكتبة الحربيين لتدوين التقارير عن المعارك أثناء الحملات الحربية ، ومدير مصبات البحر الذي يشرف على السواحل .

وأغلب الظن أنه لم تكن هناك رواتب ثابتة للجنود ، ولكن كان يصرف لهم الطعام أثناء الحملة ، علاوة على نصيبهم من غنائم الحرب ، أما الضباط فكانوا يكافأون بأراض معفاة من الضرائب مع حقهم في استمرار استغلالهم لتلك الأراضي طالما كانوا صالحين للخدمة العسكرية ، وفي حالة وفاة صاحب الأرض يتم نقلها إلى الإبن شريطة أن يحمل السلاح مكان والده . وفي بعض الأحيان كان يوهب للضباط بعض أسرى الحرب لاستخدامهم في منازلهم أو في زراعة أراضيهم .

جيش من أجل مصر :

كان الاعتقاد السائد قديماً أن الجيش هو جيش الفرعون ، ومعنى هذا أن الجيش كان أداة تابعة للحاكم ، يحقق بها أغراضه بصفة دائمة ، إلا أننا نجد - اعتباراً من الأسرة ١٨ - أن الجيش المصرى لا يذكر في النصوص المكتوبة باسم « جيش فرعون » أو « جيش الآلهة » أو غير ذلك من الأسماء التي توحى بالانحياز السلطة في قيادة ذات طابع إلهي . . ولكن أصبح الجيش المصرى يذكر باسم « جيشنا » ومعنى ذلك أن جيش مصر صار جيشاً للشعب كله ، وأن الحرب التي يقودها هذا الجيش ليست حرباً تخص فرعون وحده ولكنها حرب تهم كل مواطن في مصر .

وفي أرجاء العالم المعروف حينذاك ، في الشام والعراق والنوبة واليمن والصومال وفي ليبيا ، ارتفعت أعلام « جيشنا » أعظم الجيوش وأقواها ، ليسطر ملاحم بطولية ، يرددونها الأبناء والأحفاد على مر العصور ، يرددون فيها عظمة جيشهم الذي أخذ ينشر السلام والأمن في بقاع العالم وقتئذ ، ويبني ويرفع أول إمبراطورية في تاريخ البشرية كلها .

الفصل الثانى

احمى الاول وطرده الهكسوس من مصر

١ - أول احتلال أجنبي فى تاريخ مصر :

ساد مصر عهد رخاء وعمران وانتعاش اقتصادى ، فى عصر الدولة الوسطى فى الفترة من حوالى (٢٠٦١ - إلى - ١٧٨٥ ق . م) وفى هذه الفترة عادت البلاد موحدة تحت سلطة مركزية ، واستتب الأمن والنظام ، وارتقت الفنون والآداب والعمارة ، ولكن بنهاية هذا العهد ، ضعفت سلطة الفرعون ، وسرى الضعف فى أوصال الحكومة المركزية ، مما ساعد على بروز سلطة حكام الأقاليم ، الذين اشتد النضال فيما بينهم من جهة ، وفيما بينهم وبين الفرعون من جهة أخرى ، وكذلك تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش إلى الحكم ، فحلت الفوضى محل النظام ، وكثرت المؤامرات ، واندلعت الثورات فى أرجاء مصر ، وتسرب الفساد إلى كل مرافق البلاد . . وهكذا سقطت الدولة الوسطى ، وبدأ عصر اضطراب وتآخر ، يعتبر من أظلم عصور التاريخ المصرى القديم ، تولى الحكم فيه ملوك ضعفاء مصريون من الأسرتين ١٣ ، ١٤ .

وفى هذا الجو المضطرب المشحون بالفوضى ، بدأت بعض الهجرات العنصرية الجديدة تغد إلى مناطق غرب آسيا ، مما تسبب عنه كثير من المتاعب السياسية ، والقلقل الاجتماعية لسكان تلك المناطق ، فى سوريا وفلسطين ، على وجه الخصوص . وقد أدى ذلك إلى أن اندفعت بعض الجماعات الآسيوية فى هجرات متوالية إلى مصر ، وتسالت إلى المناطق شرق الدلتا ، ونظراً لضعف الحكومة المركزية فى مصر وقتئذ ، فقد تمكنت تلك الجماعات من الاستقرار فى بلدة « أواريس » جنوب صان الحجر الحالية شرق الدلتا ، ثم ما لبث هؤلاء المهاجرون الأجانب أن ارتقوا السلطة ولأول مرة فى تاريخ مصر ، تصبح خاضعة لحكم أجنبي من جانب هؤلاء الغزاة الذين كونوا الأسرتين الحاكمتين ١٥ ، ١٦ .

الهكسوس يحكمون مصر :

ظل الهكسوس يحكمون مصر مدة قرن ونصف من الزمان على وجه التقريب ، تراوحت خلالها معاملة الهكسوس للمصريين بين القسوة والشدّة وهدم المعابد المصرية فى أوائل حكمهم وبين محاولتهم التشبه بالمصريين وارتداء ملابسهم ، اكتساب العادات والتقاليد المصرية ، وكتابة أسمائهم باللغة الميروغليفية ، وذلك فى أواخر أيامهم .

كانت هناك محاولات من جانب المصريين لمقاومة هؤلاء الغزاة ولكنها كانت عديمة الجدوى نتيجة للفوضى والضعف السائدين فى البلاد ؛ علاوة على أن هؤلاء الغزاة كانوا يستخدمون أسلحة جديدة لم يألفها المصريون من قبل ، مثل الحصان والعجلات الحربية والسيوف المصقولة من البرونز والأقواس المزدوجة ، والحرايب ذات الأطراف العريضة .

ومع ذلك ، فقد كرمهم المصريون كرها ظلت مرارته في نفوسهم طوال فترة التاريخ المصري القديم كله ، حتى أنهم بعد أن نجحوا في إجلائهم عن مصر ، قاموا بهدم معابدهم والقضاء على أى أثر يدل عليهم فى أى مكان بمصر ، كما أطلقوا أسماء كثيرة تدل على مبلغ كراهيتهم لهم .

٢ - حرب التحرير المصرية الأولى :

وقع عبء تحرير مصر من هذا الاحتلال الأجنبي على عاتق أسرة وطنية مصرية هى الأسرة ١٧ التى حكمت منطقة طيبة (الأقصر الحالية) ، وفقاً لسلطات محدودة مستمدة من الهكسوس ، وقد بذل آخر ملوك هذه الأسرة الثلاثة جهوداً كبيرة حتى تمكنوا من استكمال تحرير مصر وطرد المستعمر الفاصب . وتجلت آيات البطولة والشجاعة التى أبدتها أبناء مصر فى أول حرب تحرير فى تاريخ البشرية منذ حوالى ٣٥٠٠ عام ، وشاركت بعض الملكات المصريات العظيمات فى تلك الحرب .

بدأت عملية التحرير على يد الملك « سفن رع الكبير » ، تشجعه زوجته الملكة (تنى شرى) ثم امتدّت فى عهد ابنه « سفن رع الابن » وزوجته الملكة « أياح حنب » ، التى تعتبر من أعظم ملكات مصر فى عهدها لتقدم كله ، فقد وقفت بجانب زوجها فى معاركه الطاحنة ضد الهكسوس حتى سقط كأول شهيد فى سبيل تحرير وطنه ، ثم حمل لواء حرب الاستقلال بعده ابنه الأكبر « كاموزة » الذى راح يقاتل الهكسوس بتشجيع من أمه الملكة « أياح حنب » ، وقد نقش على أوراق البردى وجدران المعابد يقول : « أريد أن أعرف معنى قوتى هذه ، حتى يكون هناك حاكم فى الشمال (يقصد حاكم الهكسوس) وآخر فى الجنوب . إننى سأصارع وأبقر بطنه . إن رغبتي هى أن أخلص مصر وأضرب الآسيويين ، أبحرت شمالاً فى عزم وقوة لأغلب الآسيويين ، وكان جيشى القوى أمامى كلفحة الاله .

وقد تمكن « كاموزة » من تحرير بعض مناطق الصعيد الخاضعة لحكم الهكسوس ، كما وصل إلى عاصمة الهكسوس « أواريس » ولكنه استشهد قبل أن يستولى عليها .

ولكن مصر استكملت تحرير أرضها على يد « أحس الأول » وهو الأخ الأصغر لـ « كاموزة » ، وابن كل من الملك « سفن رع الابن » والملكة « أياح حنب » ، التى فقدت زوجها ثم ابنها الأكبر فى حرب التحرير .

ويعتبر « أحس الأول » بطل استقلال مصر فى عهدها القديم بلا منازع فهو الذى طارد الهكسوس من وادى النيل ، وهو ملك من أعظم وأشهر ملوك التاريخ المصرى كله . وعلى الرغم من أنه ينسب إلى الأسرة ١٧ الحاكمة ، إلا أن المؤرخين وضعوه على رأس الأسرة الحاكمة ١٨ (الثامنة عشرة) ، وبدأوا بها عصر الدولة الحديثة فى مصر القديمة ، تلك الدولة التى سادت أعظم امبراطوريات العالم القديم كله .

قام « أحس » بتشديد الهجوم على الهكسوس فى عاصمتهم « أواريس » وذلك فى ثلاث حملات متتالية خلال عام واحد ، حتى تمكن من دخول المدينة كما قام بمطاردة الهكسوس من مصر عبر شمال سيناء إلى حصن « شاروهين » بمنطقة غزة بفلسطين الحالية ، حيث تحصنوا بها لمدة ثلاث سنوات ، تمكن بعدها من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه ، وفر من بقى من الهكسوس ، ولم يظهر اسمهم بعد ذلك .

استمر « أحس » فى السير بجيشه حتى وصل إلى بلاد « زاهى » (لبنان الحالية) محرراً انتصارات هائلة ، ثم قفل عائداً إلى مصر حيث قضى على بعض الثورات الداخلية فيها ، وهزم النوبيين الذين انتهزوا فرصة قتاله فى فلسطين ولبنان وحاولوا الهجوم على مصر من جهة الجنوب .

ثم تفرغ بعد ذلك إلى تنظيم حكومة البلاد ، وإصلاح ما فسد فيها خلال حكم المكسوس وحرب الاستقلال ،
فما استغذ الجزء الأكبر من فترة حكمه ، إلى أن مات وعمره يتراوح بين الأربعين والخمسين عاماً ، حوالي عام
١٥٥٨ ق . م .

آثار حرب التحرير المصرية :

تلقت الكرامة المصرية طعنة كبيرى من الاحتلال الأجنبى ، أصابتها فى ثقتها بنفسها ، وفى عقيدتها بأن الآلهة قد
اختصت مصر وحدها بالحياة الطيبة الآمنة إلى الأبد . وبدأ الشعب المصرى يفكر فى الوسائل التى يجب اتخاذها
للتصدي لأى استعمار أجنبى فى المستقبل .

وبالفعل حدث تطور كبير فى الفكر المصرى التقليدى ، الذى انحصر فى الأمور المتعلقة بوادى النيل وحده ،
وحل محله نظرة بعيدة المدى إلى حدود أمن مصرية على مسافات بعيدة عن أرض مصر . وتطور مفهوم السلام بعد
حرب الاستقلال لى يصبح سلاماً مفروضاً بالقوة ، ولكى تمنع الغزاة الأجانب من مجرد التفكير فى الإغارة
عليها . كما قامت مصر ببسط نفوذها على العالم القديم كله لتوفر الأمن لأبنائها .

ومن ثم بدأ عصر الإمبراطورية المصرية وهو ما يطلق عليه فى التاريخ المصرى القديم : عصر الدولة الحديثة ،
وارتفعت أعلام الجيش المصرى من منحى نهر الفرات بالعراق شرقاً ، إلى الشلال الرابع على نهر النيل بالسودان
جنوباً ، كان ذلك أحد النتائج المباشرة للاحتلال الأجنبى لمصر وحرب التحرير المصرية الأولى لطردهم الغزاة
« المكسوس » .

الفصل الثالث

تحتّمس الثالث ومعركة مجدو

ولد «تحتّمس الثالث» حوالي عام ١٥٠٤ ق. م ، وتولى حكم مصر في أول فبراير عام ١٤٦٨ ق. م ، وذلك بعد وفاة الملكة المصرية «حتشبسوت» ، وهي في نفس الوقت عمته وزوجة أبيه ، وقد استمر يحكم مصر إثنين وثلاثين عاماً متصلة ، إلى أن توفي حوالي عام ١٤٣٦ ق. م ، وفي خلال فترة حكمه قاد أكثر من ست عشرة حملة عسكرية ليوطيد سلطان مصر في كل أنحاء المعمورة المعروفة في زمانه ، وكانت أولى حملاته العسكرية بعد خمسة وسبعين يوماً من توليه الحكم أي في الخامس عشر من ابريل عام ١٤٦٨ ق. م ، وطوال فترة حكمه لم يعرف جيشه طعم الخزيمة .

ويعتبر تحتّمس الثالث أعظم ملوك مصر القديمة ، وأقدر قوادها في التاريخ القديم ، كان سياسياً بارعاً ، ورجل دولة محنكاً ، لعب دوراً هائلاً في تاريخ مصر القديمة ، ويكفيه فخراً أنه لا تذكر إسم إمبراطورية مصر القديمة ، إلا ويذكر إسم «تحتّمس الثالث» . هذا بالإضافة إلى أنه بطل معركة من أعظم معارك تاريخ العالم القديم هي معركة «مجدو» .

الإمبراطورية المصرية في عهد تحتّمس الثالث :

بسط «تحتّمس الثالث» النفوذ المصرى حتى بلدة «ثي» على نهر الفرات بشمال العراق وعلى فلسطين ولبنان وسوريا شرقاً ، كما امتد جنوباً حتى بلدة «نباتا» بالسودان . وشمل كذلك بلاد «نخنو» (ليبيا الحالية) . ووصلت السفن المصرية إلى بلاد «بننا» (عدن - واليمن الحاليين) . وأصبحت «طيبة» هي عاصمة أعظم إمبراطوريات العالم القديم كله . وامتد الطريق الذى يربط تلك الإمبراطورية من طيبة حتى بلدة «ثي» شمال العراق بطول حوالى ٢٠٠٠ كيلومتر ومن «طيبة» حتى بلدة «نباتا» بالسودان حوالى ١٤٥٠ كم ، وأخذ ملوك «بابل» في جنوب العراق ، «وآشور» في شمال العراق ، و«لاشيا» (جزيرة قبرص) يتوددون إلى مصر بارسال الهدايا الثمينة . ودفع الجزية التى كانت ترد من كل البلاد الخاضعة للنفوذ المصرى .

الجيش في عهد تحتّمس الثالث :

نظم «تحتّمس الثالث» الجيش المصرى تنظيماً عسكرياً رائعاً من ناحية التسليح والتدريب ، حتى أصبح أقوى جيوش العالم في عصره . كما أنشأ أسطولاً حريباً يعتبر حادثاً فريداً حينذاك . واستطاع «تحتّمس الثالث» أن يسيطر بهذا الأسطول - الذى أحضر أخشابيه من لبنان - على موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة موانئ فلسطين ولبنان ، وصارت مصر ، بهذا الأسطول ، سيدة بحار العالم القديم ، كما استخدم الأسطول لأغراض سلمية مثل جلب العطور والأخشاب الفاخرة لمصر .

توالت بعد حملته الأولى عام ١٤٦٨ ق . م ، التي استولى فيها على « مجدو » عدة حملات بلغت ست عشرة حملة ، وذلك لتوطيد سلطان مصر في أرجاء العالم المعروف وقتذاك . وفي حملته الثالثة ، تم الاستيلاء على « قادش » على نهر العاصى بسوريا ، وفي حملته الثامنة وصل إلى نهر الفرات ، حيث عبر وطارد ملك « متيانى » ، الذى ولى هارباً أمامه ، وأقام « تحتمس الثالث » لوحة تخلد نصره هذا على الضفة الشرقية لنهر الفرات بجوار اللوحة التي أقامها جده « تحتمس الأول » وكتب يقول : « انه دمر تلك البلاد المسماة « النهرين » والتي ولى ملكها هارباً من الخوف » . ويمكن القول أن هذا الملك نجح نجاحاً تاماً في القضاء على الآسيويين الذين اجتمعوا لمعارضة مصر .

نظام الحكم في عصر تحتمس الثالث :

برزت حكمة « تحتمس الثالث » السياسية عندما راح ينظم وينشئ حكماً مصرية سياسياً وعسكرياً وطيد الأركان ، في البلاد التي استولى عليها في آسيا ، حيث قام بتعيين مندوب سام مصرى لحكم المنطقة كلها ، وجعل من مدينة « غزة » مقراً له ، كما قام بتعيين مفتشين في المدن الهامة للإشراف على أعمال الأمراء المحليين ولقد بلغ من احكام سيطرته وحسن تنظيمه لتلك الإمبراطورية الواسعة أن نقش على المعابد المصرية « أن جلالة يعرف كل شيء يحدث ، وليس هناك أو هنا شيء لا يعرفه ، وانه مثل الإله ، « حوت » نفسه إله الحكمة في كل شيء » ، وانه لم يقم بأى عمل إلا أنجزه » .

ولربط أجزاء هذه الإمبراطورية الشاسعة ، المترامية الأطراف سعى « تحتمس الثالث » لتنظيم المواصلات والبريد لأول مرة في تاريخ العالم القديم ، حيث كان يسافر « مبعوثو الملك إلى جميع البلاد الأجنبية » وهم يركبون عرباتهم في تلك الأراضي الوعرة لكي يؤدوا واجبهم كرسى وسفراء لفرعون . وكانوا يحملون رسائلهم من طيبة عاصمة مصر إلى « بوغاز كوى » في الأناضول أو إلى « ثى » على نهر الفرات وأيضاً إلى « نباتا » على النيل بالسودان .

دبلوماسية تحتمس الثالث :

انتهج « تحتمس الثالث » فكرة دبلوماسية رائعة تدل على سعة أفقه ، وبعد نظره ، تمثلت في العفو عن الأمراء الأعداء ، بعد انتصاره عليهم ، إلا أنه كان عفواً مشروطاً بقسم الولاء والطاعة له ، ثم يأخذ أبناء هؤلاء الأمراء كرهائن لديه في مصر ، ثم يقوم بتعليمهم وتربيتهم على الثقافة والعادات المصرية . وعندما يحل الدور على هؤلاء الأبناء في حكم بلادهم يكونون قد تشرّبوا المدنية والحضارة المصرية ، وانتلث قلوبهم بحب مصر . وكان لهذه السياسة الحكيمة آثارها في تماسك الإمبراطورية المصرية لمدة قرن من الزمان بعد « تحتمس الثالث » ، وذلك لاستمرار ولاء هؤلاء الأمراء لمصر في كل المحن بعد ذلك ، كما عملوا على نشر الثقافة المصرية ، وحب مصر نفسها بين شعوبهم فأحال ذلك كراهية الأجانب لمصر إلى محبة وإعجاب وتقدير لها .

الإدارة الداخلية لمصر :

صارت « طيبة » العاصمة المصرية في عهد تحتمس الثالث . . عاصمة للعالم القديم كله ، وتدفقت عليها خيرات الدول الأجنبية كلها ، فأنشأ بها المعابد الضخمة ، وصار لها من الثروة ما لم يسمع عنها من قبل . ولم يقتصر نشاط

هذا الملك العظيم على الفتوحات الخارجية بل امتد أيضاً إلى الإدارة الداخلية لمصر حيث أرسى دعائم الأمن والاستقرار وشيد معابد وآثاراً عظيمة ، مازالت آثارها باقية حتى الآن ، تنطق بعظمة عصره وازدهاره .

وعندما توفي «تحتس الثالث» عام ١٤٣٦ ق . م ، قام المصريون بنسج الأساطير التاريخية والبطولات الرائعة حوله ، كنؤسس للإمبراطورية المصرية الأولى ، وكقائد وفاتح للعالم القديم المعروف آنذاك . وقد نقش على جدران المعابد المصرية في وصفه : «تحتس الثالث» الإبن المحبوب لآمون رع ، ومن جعل إسم مصر على الإمارات الأجنبية : فلسطين ، وسهل شاوون ، وممر مجدو ، وسهل عكا ، وسهل يسرين ، وبيت شان ، ودمشق ، وسهل حلب ، والهرين وجبال اليهودية وأفرايم . . بطل مصر النيل وحاميا وقائد جيشها العظيم في عربة من الذهب الخالص ، محلاة ومزينة بتناد الحرب مثل حورس ذى الذراع القوى ، وكلمه الحرب مثل «متو» الذى في طية ، بينا قوى آيه آمون تساعده . .

معركة «مجدو» :

ظروف ما قبل المعركة :

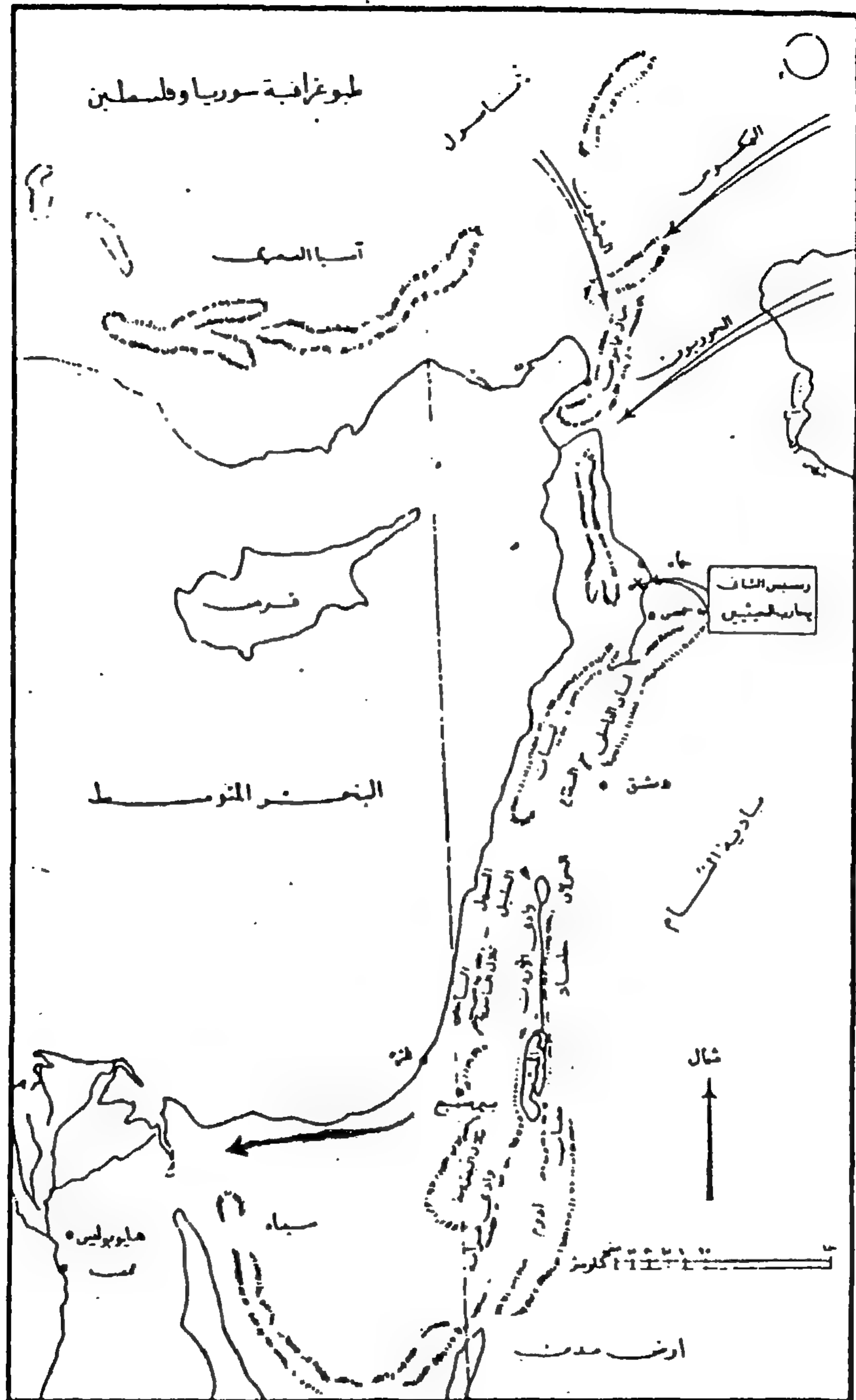
توصل المصريون - من خلال حروب التحرير - إلى المبدأ العسكرى القديم القائل : «إذا أردت السلام فتأهب للحرب» ، ونظرا لنجاح مصر في معاركها مع الهكسوس . قام فراعنة مصر «أحمس الأول» و«تحتس الثالث» بشن الكثير من الحملات الحربية في آسيا وأفريقيا لبط السيطرة والنفوذ المصرى على تلك البقاع تحقيقاً للمبادئ الجديدة التى اعتنقها المصريون بأن أمن وسلامة مصر لن يتحققا إلا بالسيطرة على البلاد الأجنبية قبل أن تقوم بشن هجومها على مصر ، تبلور ذلك فى النظرية العسكرية التى تفيد بأن «أحسن طريقة للدفاع هى الهجوم» . وقد استطاع المصريون القدماء فرض السلام بقوة السلاح ، وأجبروا الحملات الآسيوية والأفريقية على الاقتناع بأن مصر بلد لا يمكن التفكير فى انتهاك حرمة .

وفى عهد الملكة المصرية «حتشبسوت» ظهرت بوادر عدائية لمصر من جانب الأمراء الآسيويين ، بطريقة تنذر بالخطر ، وصار من اللازم القضاء على هذه البوادر فى مهدها .

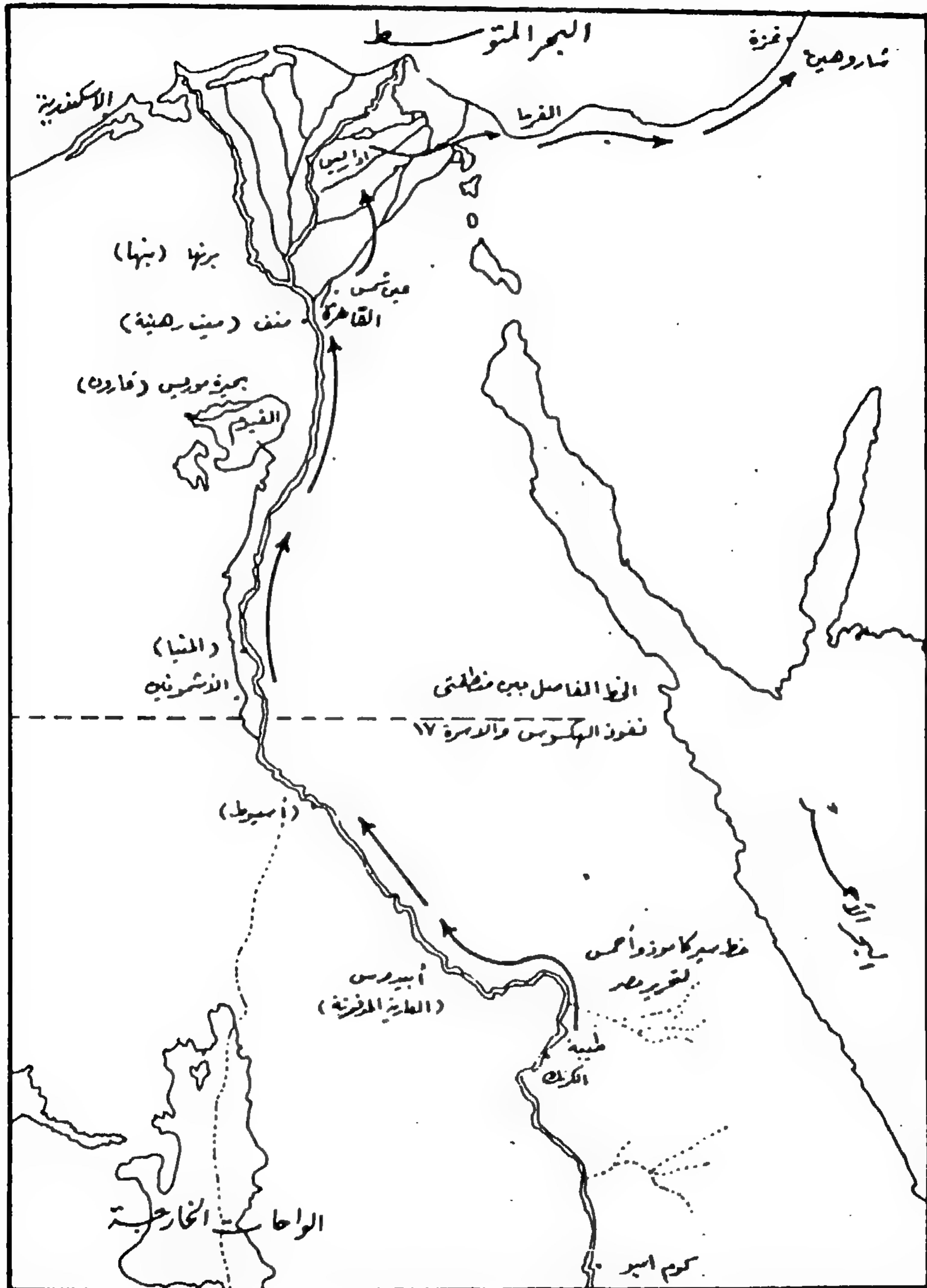
لاح ذلك من جانب أرض الشام والعراق التى كانت - حينذاك - مقسمة إلى دويلات صغيرة أو مدن تقوم بينها الحروب والمشاحنات ، ولم يحدث لما أن عرفت الوحدة الشاملة مثل مصر ، إلا أن عداءهم لمصر وخذل بينهم ، إذ اجتمع ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين أميراً تحت قيادة أمير «قادش» وأعلنوا ثورتهم على النفوذ المصرى فى بلادهم والخروج على طاعة فرعون مصر ، وتجمع جيش هؤلاء الأمراء فى «مجدو» .

منطقة العمليات :

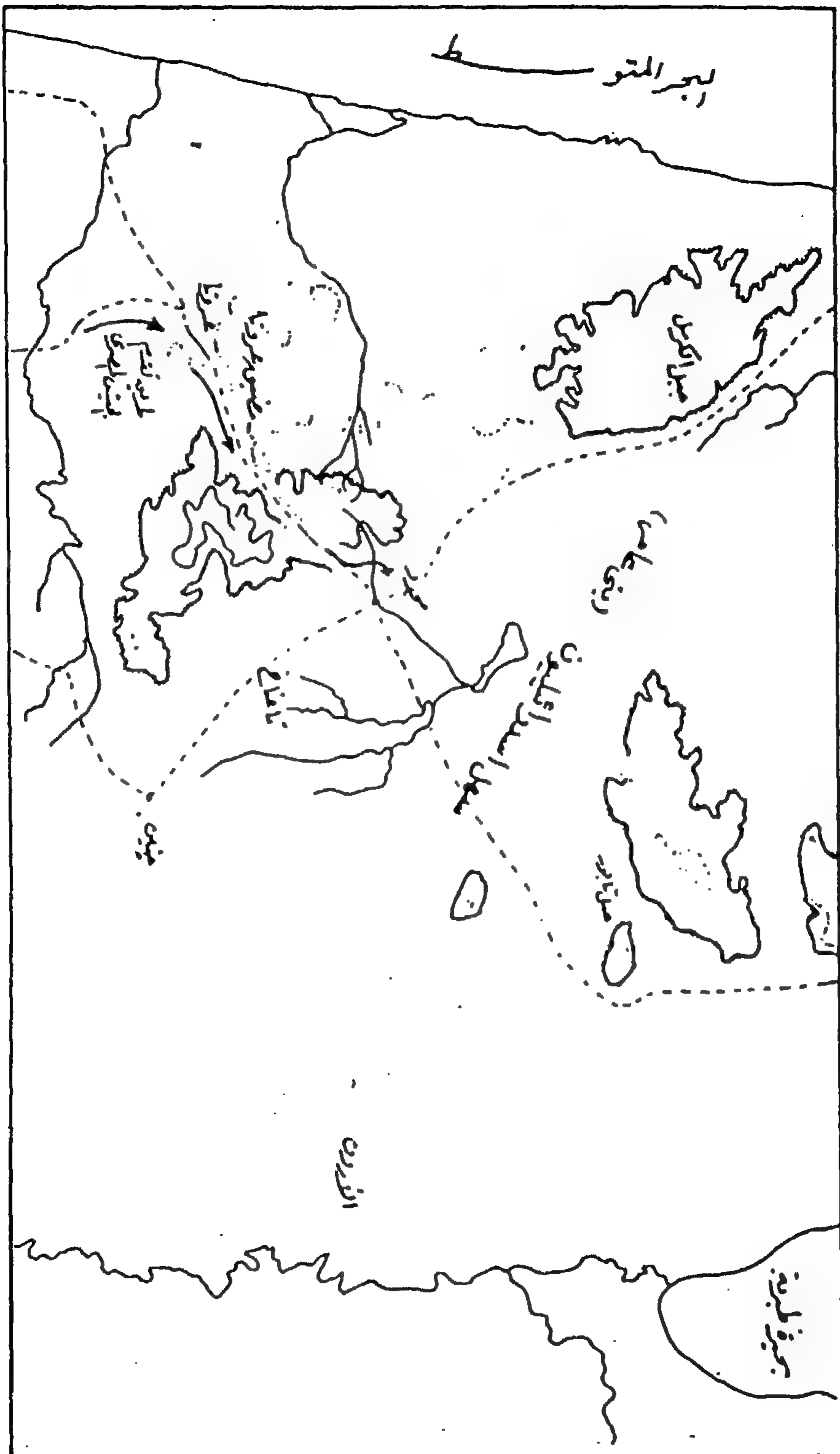
كانت «مجدو» (تل المسلم الحالية فى مرج بنى عامر شمال شرق جبل الكرمل شمال فلسطين) ، منطقة مواصلات هامة ، حيث كانت تتمتع بموقع استراتيجى ممتاز ، إذ تتفرع منها أربع طرق رئيسية ، الجنوى منها يسير بجوار الساحل مخترقاً جبل الكرمل ، ويصل حتى غزة ، والشمالى يسير بجوار الساحل فى اتجاه الساحل الفينيقى (اللبانى) . أما الطريقان الآخران فيتفرعان إلى الشرق ، أحدهما يتجه نحو دمشق والآخر تجاه سوريا الوسطى .



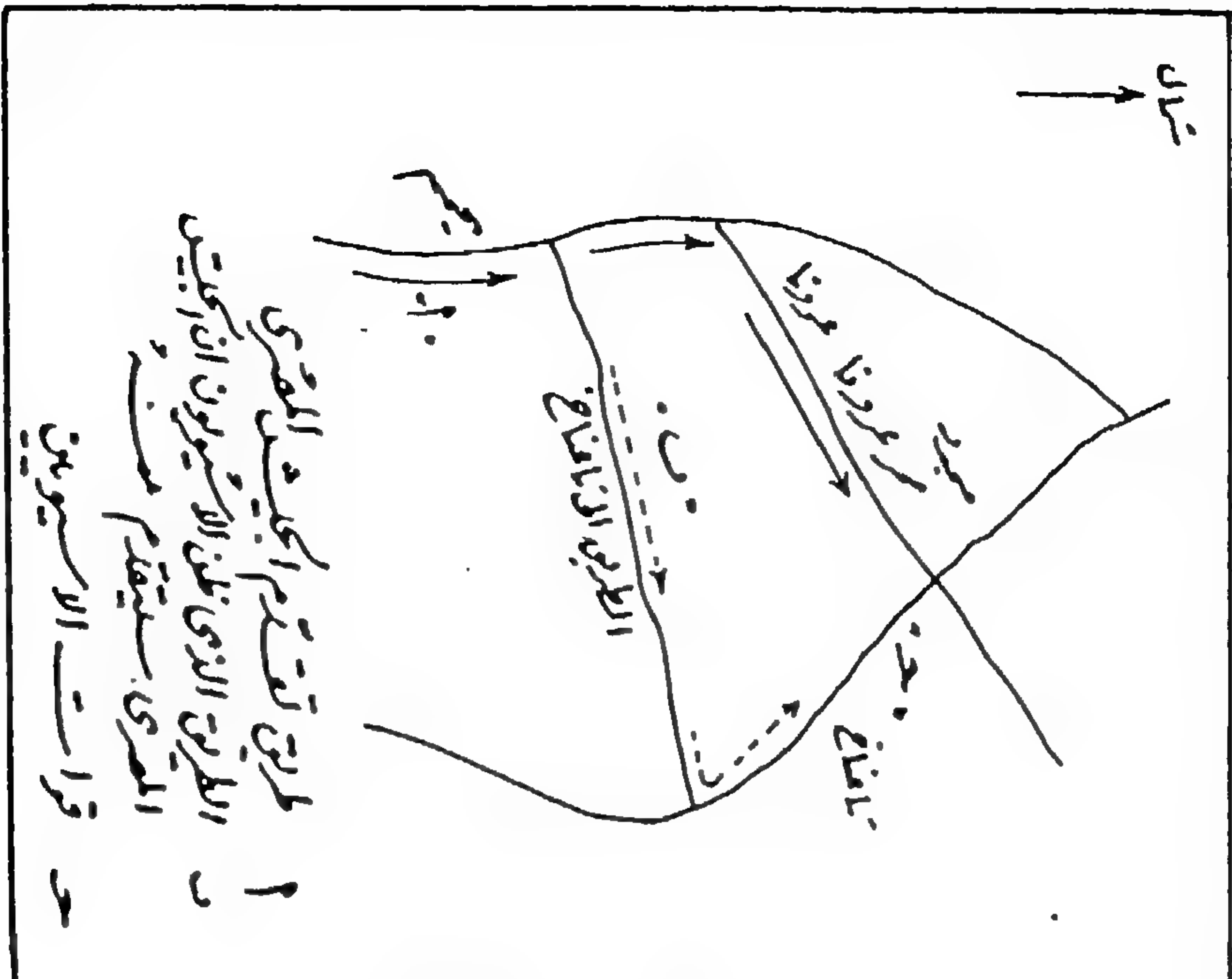
مصر في عهد الهكسوس



التحول إلى مجسّد

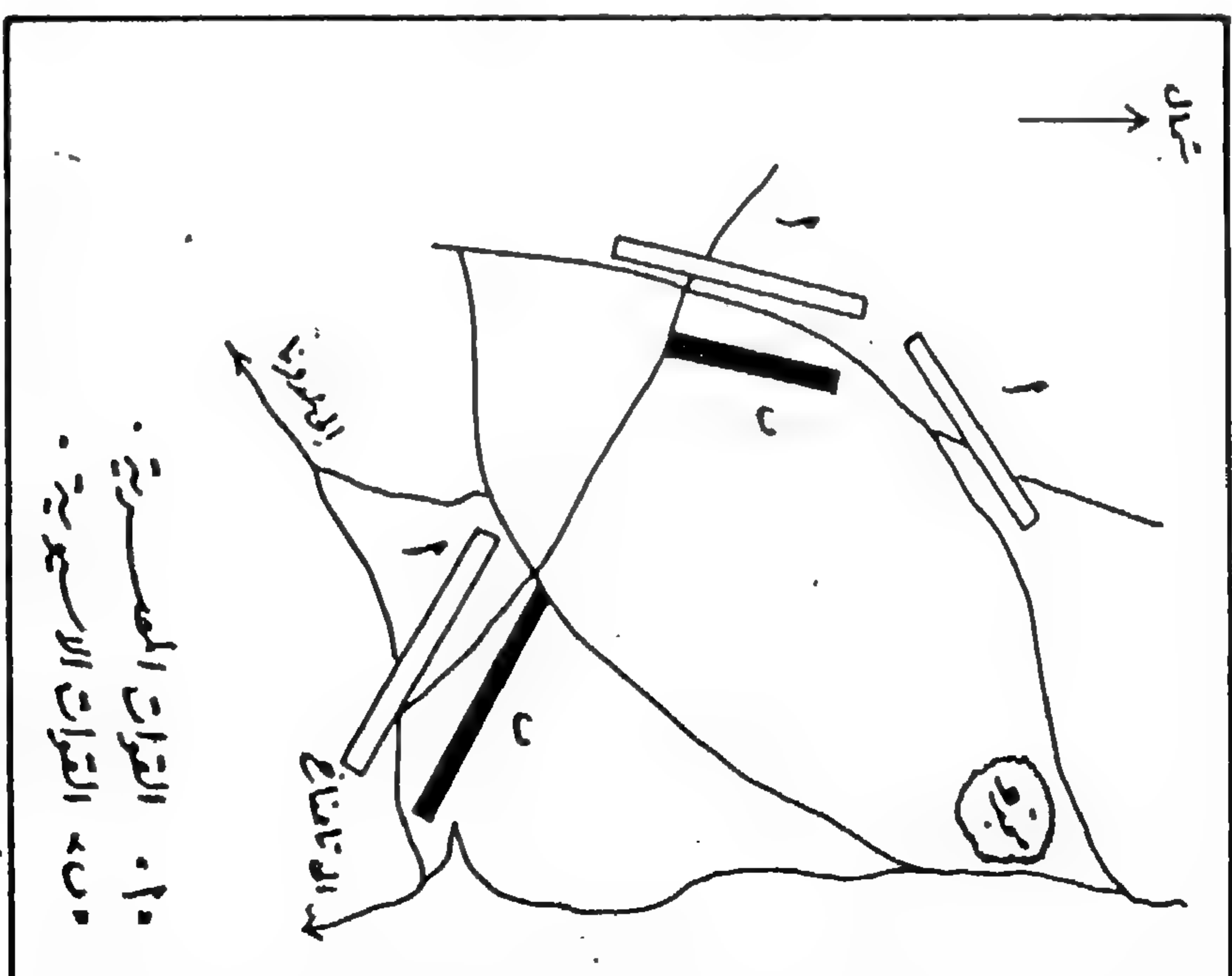


المرى ١



طريق تقدم البعث المصري

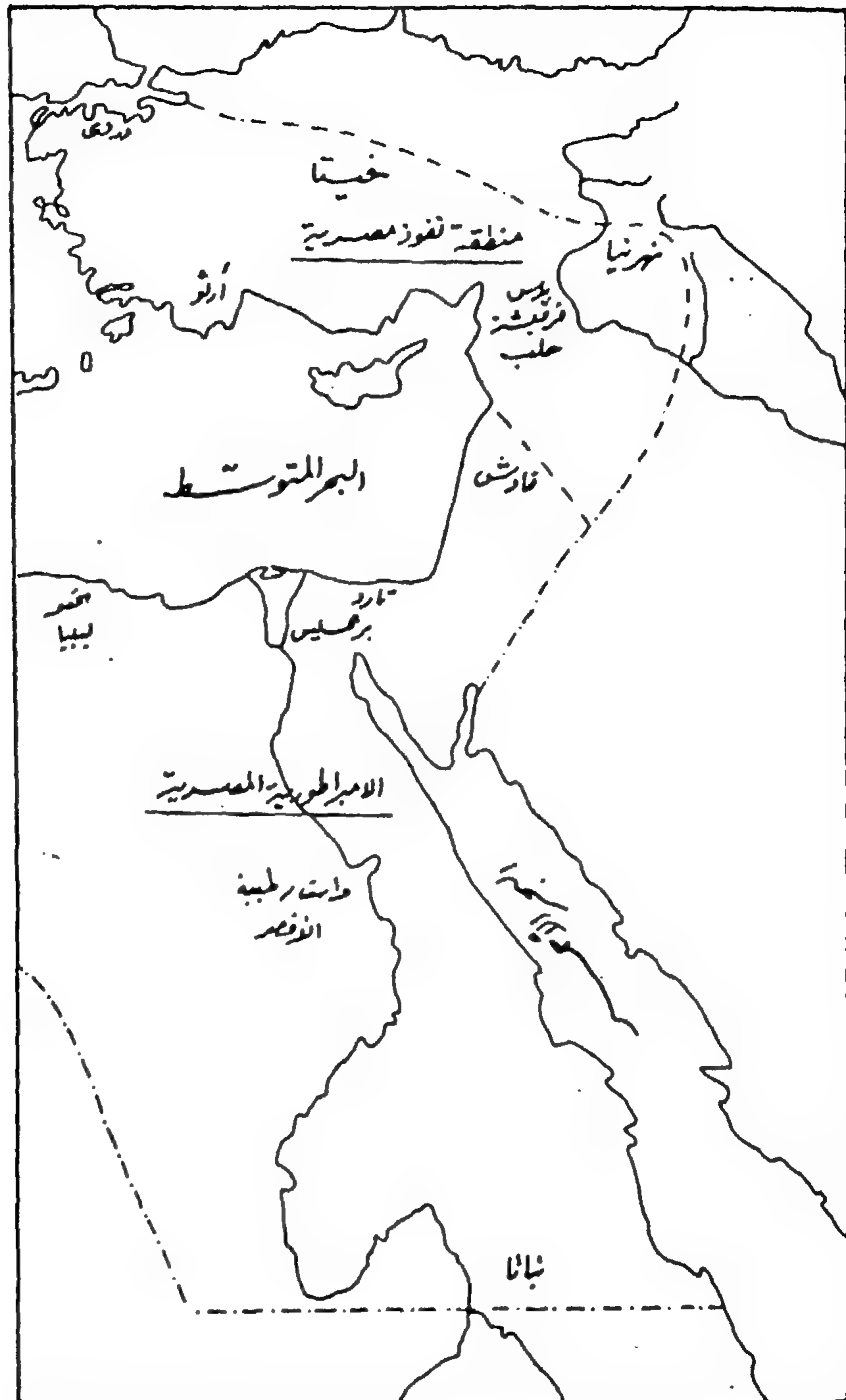
المرى ١



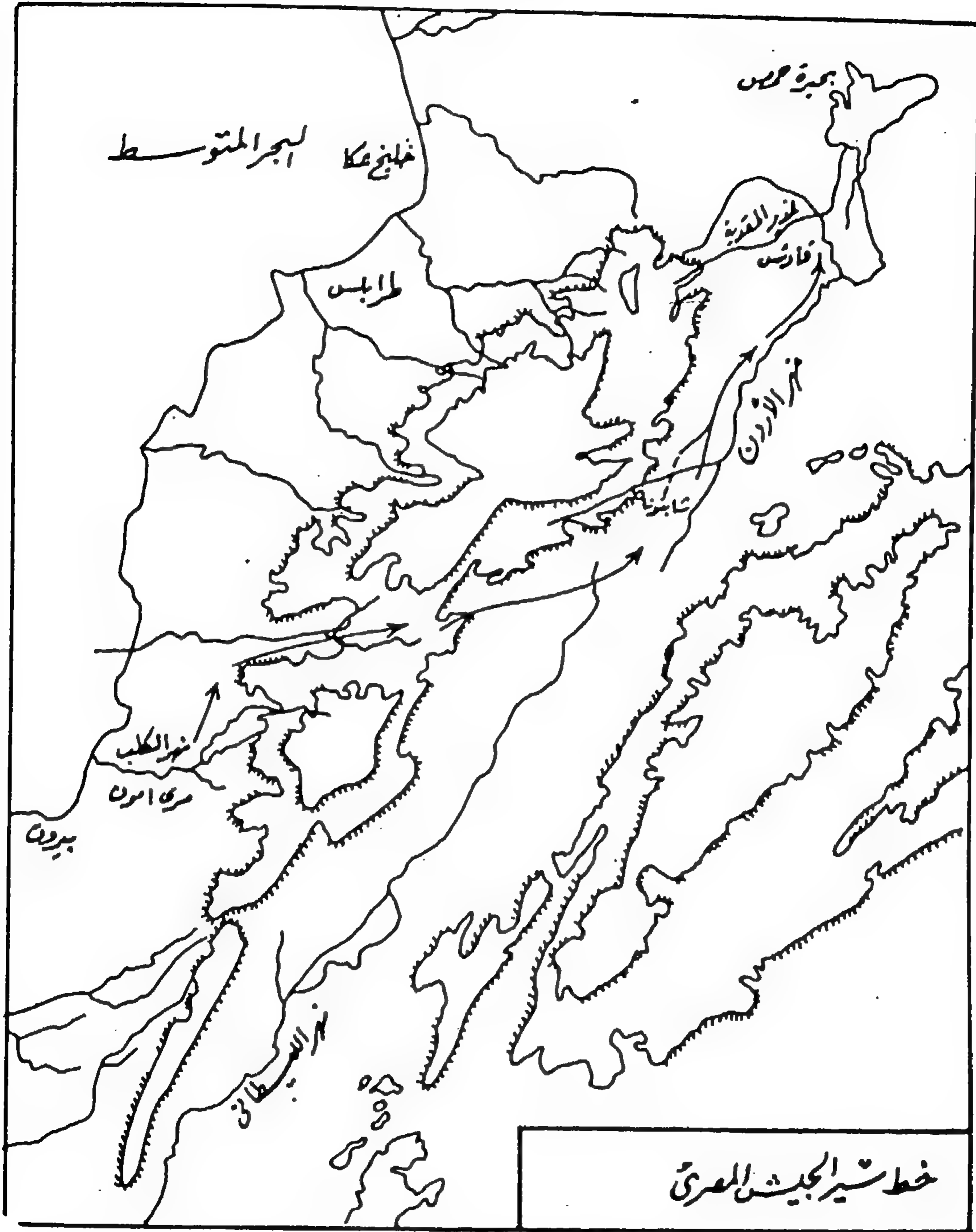
أوضاع القوات المتحاربة أثناء المعركة

١. القوات المصرية.
٢. القوات الاسيوية.

في مصر في عهد رمسيس الثاني

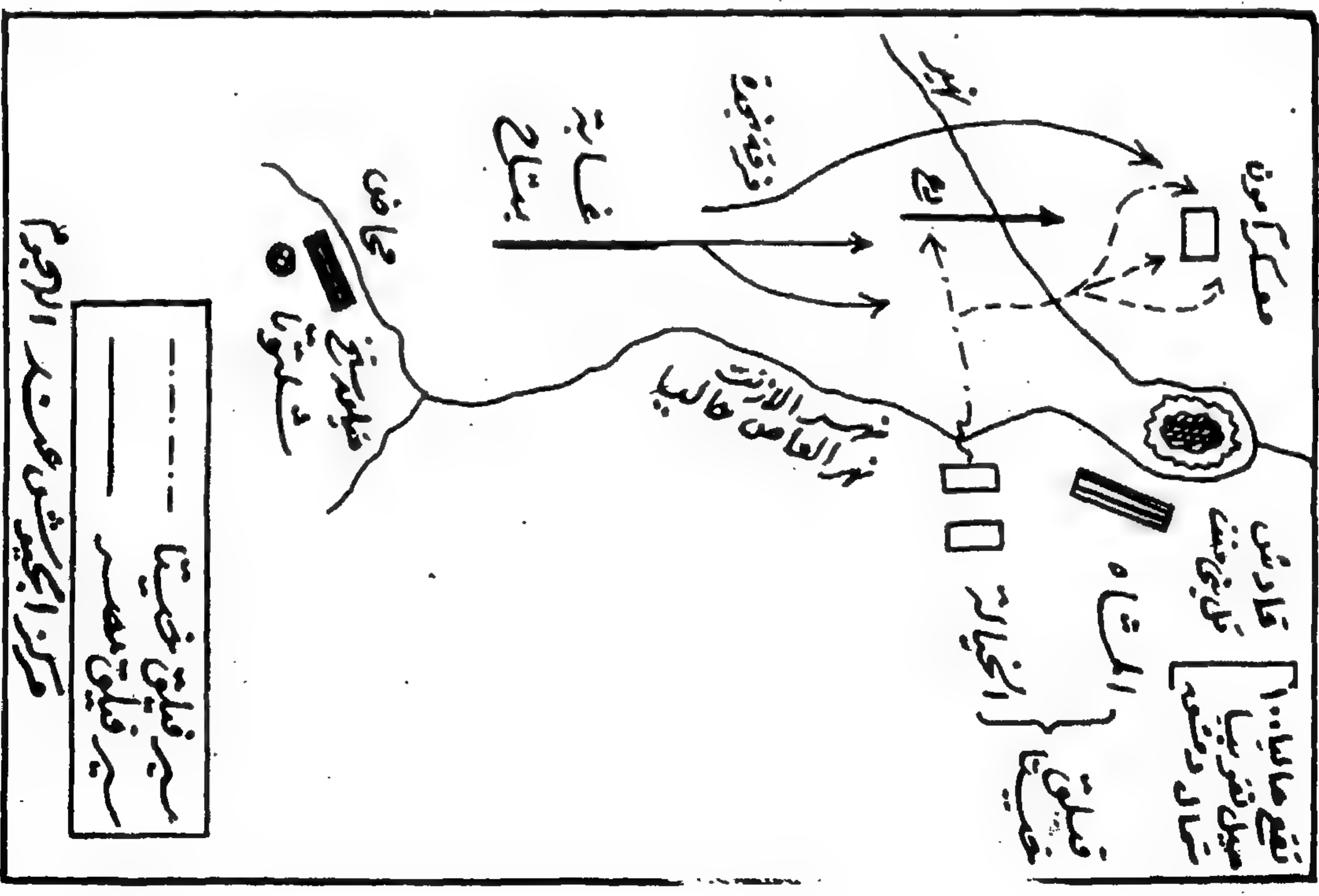


التحرك الى قادش



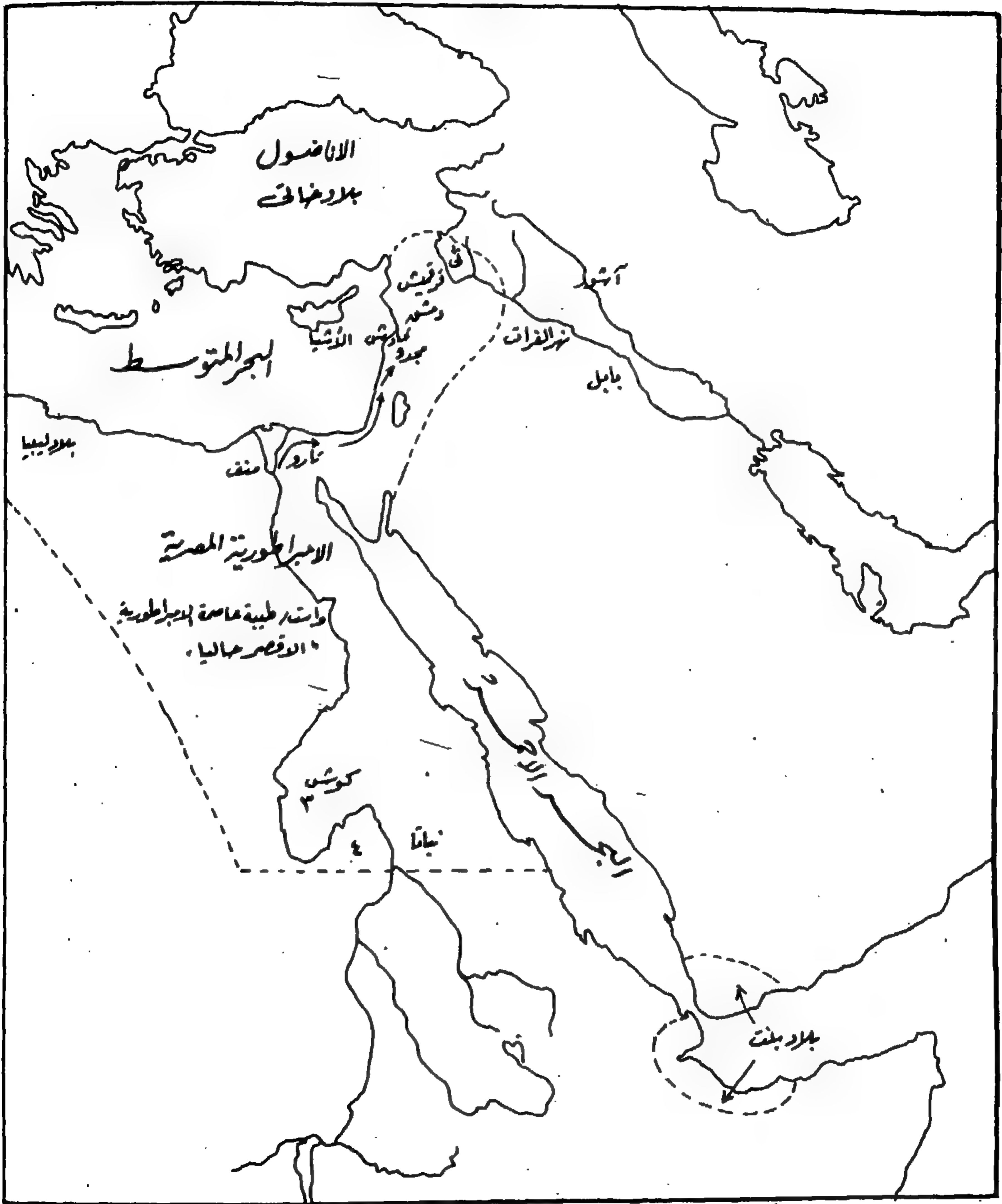


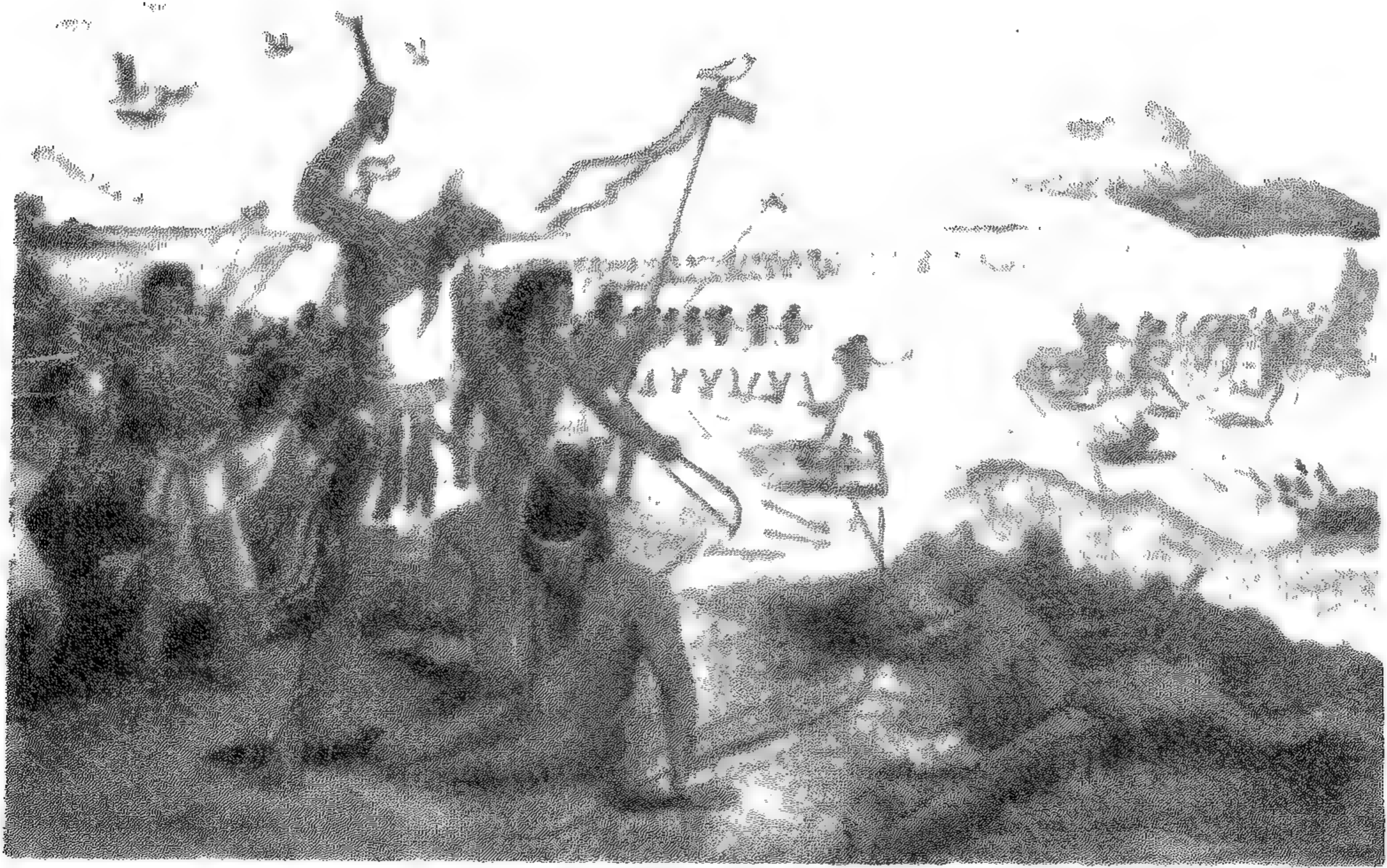
خط تقدم انجيش المصري



کروکی معرکه قادرش فی عهد محمد علی پاشا

مصر في عهد محمد الثالث





الملك « ميناء » في مبارك الوحدة
المصرية - حوالي عام ٢١٠٠ قبل الميلاد .



جندی حامل بطلة

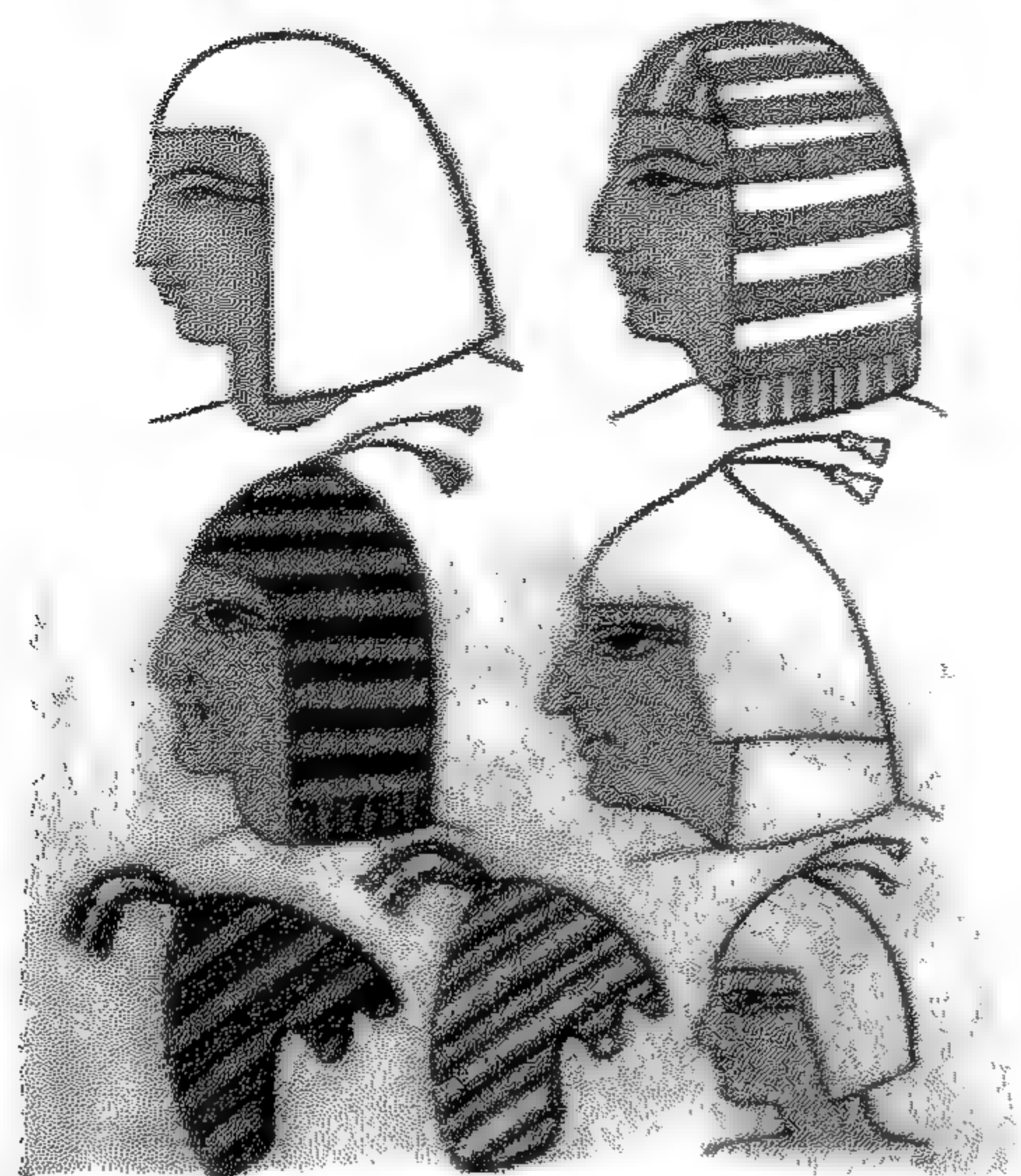


الملك « رمسيس الثاني » في مجلته الحربية أثناء القتال .

الملك « رمسيس الثاني » يستقبل مندوبي الممالك الآسيوية يعلنون خضوعهم للنفوذ المصري.



شؤون مختلفة DIFFERENTES CASQUES



أغطية رأس وخوذ مصرية قديمة .



الرأس والاذرع والارجل .

وهذا المكان يعتبر ممتازاً من الوجهة الدفاعية حيث يصعب اقتحامه ولاسيما من جهة الجنوب ، جهة الاقتراب المحتمل من قبل الجيش المصرى ، حيث كان هذا الطريق ممراً ضيقاً يخترق جبل الكرمل ، كما كانت المدينة محاطة بخندق عميق ، ومسورة بسور مرتفع لحمايتها .

الجيش المصرى يتحرك إلى الشام :

لم يكن قد مضى على تولى «نحتس الثالث» حكم مصر أكثر من خمسة وسبعين يوماً حتى انتفض للقضاء على أعدائه فى «مجدو» وكان ذلك فى الخامس عشر من ابريل عام ١٤٦٨ ق . م .

وتقول النصوص المصرية القديمة «لم يتأخر جلالاته فى التمدد نحو بلاد زاهى «فلسطين وسوريا الحاليين» ليقتل الخائنين الذين يعيشون فيها ، وليكافئ الموالين له»

ابتدأ «نحتس الثالث» تحركه من مدينة «ثارو» (القنطرة الحالية) إلى منطقة «مجدو» ، وبينهما مسافة تقدر بـ (٢٣٠ ميلاً) ، قطعها فى واحد وعشرين يوماً فقط على مرحلتين ؛ الأولى : من القنطرة إلى غزة فى فلسطين ومقدارها (١٥٠ ميلاً) ، اجتازها فى عشرة أيام ، بمتوسط خمسة عشر ميلاً فى اليوم الواحد ؛ والثانية : من «غزة» إلى جبل الكرمل بشمال فلسطين ومقدارها (٨٠ ميلاً) ، قطعها فى أحد عشر يوماً ، بمتوسط سبعة ونصف ميل فى اليوم ؛ وهى سرعة تعتبر خارقة بمعايير الفن العسكرى القديم حينذاك ، نظراً لأن هذا التقدم السريع كان يلزمه توفير الإمدادات للجيش من المياه والأغذية . وإذا أخذنا فى الاعتبار أن المرحلة الأولى ومقدارها مائة وخمسون ميلاً من القنطرة إلى غزة ، تمت فى أراض صحراوية جرداء ؛ كان معنى هذا أن الجيش الضخم كان يعتمد فى إمداده خلال تلك المرحلة ، ومدتها عشرة أيام ، على خط إمدادات من وادى النيل وخاصة ما يتعلق بالمياه ، مع تحالف وسائل النقل فى هذا الماضى السحيق .

الشورى فى الحرب :

عندما وصل «نحتس الثالث» إلى جبل الكرمل فى مايو عام ١٤٦٨ ق . م ، عقد هناك مجلساً حريماً لتشاور فى خطة الهجوم . وكان يرى أن الاقتراب من مدينة «مجدو» ، من الأفضل أن يتم عن طريق «مر» «غرونا» الضيق . ولكن قادة الوحدات العسكرية عارضوا الملك فى رأيه ، نظراً لأن ضيق هذا الممر سوف يضطر الجيش إلى السير فى خط واحد ، الأمر الذى يعرضه للخطر ، ويقضى على حرية المناورة أثناء عبوره الممر . . . ولكن «نحتس الثالث» أصر على رأيه ؛ معللاً ذلك ، بأن عبور الجيش من هذا الممر الوعر أمر غير متوقع من الأعداء ، نظراً لأنه طريق غير ممهّد ويستبعد عبور الجيش منه . وأن ذلك سوف يحقق المباغته التامة للعدو ، وأخذ على غزة ، وبذلك يتوفر أول عامل من عوامل النصر . . وتذكر النصوص المصرية القديمة إصرار الملك على رأيه العسكرى فيقول :

«سيتقدم جلالتي على طريق «عرونا» هذا ، ولتتبع جلالتي من يريد منكم أن يأتى لهؤلاء الأعداء الذين يمتقهم رع . . . أن يتساءلوا ، هل اتخذ جلالته طريقاً آخر لأنه بدأ يخاف منا . . . ؟»

قام الجيش المصرى بعبور «مر» «عرونا» الضيق ، بناء على قرار الفرعون ، واستغرق العبور يوماً كاملاً دون أن يشعر الآسيويون بذلك ، لعدم توقعهم أن يأتى المصريون من هذا الاتجاه أبداً . وبهذا تحقق للجيش المصرى عنصر «المباغته» ، الأمر الذى أحدث صدمة عنيفة فى نفوس الآسيويين ، فاختلف نظامهم ، وتفرقت صفوفهم ، وساد

الارتباك بينهم ، وهبطت معنوياتهم بينما ارتفعت معنويات الجيش المصرى إلى أقصى درجة ، نتيجة للمفاجأة المذهلة التى دبروها بحكمة ، ونجحوا فيها بامتياز ، وجنوا ثمارها فى غبطة .

والثى الجيشان ، ونشبت الحرب بينهما ، بعد أن أسفيا ليلة قبالة بعضهما . وعند الفجر ، خرج «نحتمس الثالث» على رأس قواته المصرية ، وماهى إلا ساعات . . . تمكن بعدها جيش مصر من حسم المعركة ، وإلحاق الهزيمة الساحقة بهذا التجمع الضخم من الأمراء الآسيويين الذى كان يضم ثلاثمائة وثلاثين أميراً ، وبعد تشتت هؤلاء الآسيويين ، لاذوا بالفرار تاركين وراءهم عرباتهم ومعداتهم ، ومن العجيب ، أن أهل مدينة «مجدو» حينما رأوا هزيمة هؤلاء الأمراء سارعوا بإغلاق أبواب مدينتهم على أنفسهم ، عندئذ كاد المهزومون ينجون عندما أوصدت أبواب المدينة فى وجوههم ، وأخلوا يصيحون ويصرخون ويثبون فى الهواء ، حتى أثار ذلك عطف أهل المدينة عليهم ، فشرعوا فى إنقاذهم بادلاء حبال ليتدخل بها هؤلاء المنكوبون ، ثم يرفعون إلى أعلى السور ، هذا بينما رماح المصريين وسهامهم تحصد أرواح الباقين .

ودارت الدائرة على مدينة «مجدو» ، حينما قام «نحتمس الثالث» بضرب الحصار عليها لمدة سبعة أشهر ، إلى شهر ديسمبر من نفس العام ، ولما أن خاب كل رجاء للمحاصرين فى النجاة من قبضة الحصار المصرى ، خرج المحاصرون يحاولون استدراج عطف «الفرعون» عليهم ، بإرسال أطفالهم حاملين أسلحتهم لتقديمها إلى «نحتمس الثالث» كمحاولة لنيل عفوهم . ونصف القنوش المصرية القديمة موقف أهل المدينة المحاصرين بهذا الوصف «يقفون فوق الأسوار ، يرددون المديح لجلالاتى ، يسألون أن أمنحهم أنفاس الحياة» . . .

ولقد برهن «نحتمس الثالث» على عظمته كرجل دولة محنك عندما أصدر عفوا عاماً بشأنهم ، بعد أن كان السائد فى هذا الزمان أن المنتصر يقتل أعداءه شر قتلة ، إلا أن فرعون مصر قد اكتفى ، بدهائه وفراسته ، أن يؤدوا قسم الولاء له طوال حياتهم ، كما سمح لهم بالعودة إلى بلادهم ليستأنفوا حكمها تحت مراقبة المفتشين والحاميات المصرية ولكى يضمن ولاءهم ، عمد إلى جمع أبناء هؤلاء الأمراء وأرسلهم إلى مصر كرهائن على أن يتم تعليمهم وتثقيفهم بالثقافة المصرية لكى يعود هؤلاء الأبناء كحكام على مدنهم وقد تشبعوا بالثقافة المصرية ، وعمرت أئمتهم بالولاء لمصر ، وأحاطت عقولهم بتصور السلام لدى المصريين .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، غنم الجيش المصرى غنائم كثيرة من هذه المعركة ، فن تمائيل للأمراء مصنوعة من الأبنوس المحلى بالذهب ، وحجر اللازورد إلى الطنافس والمحفات والأسرة المطعمة إلى أعداد كبيرة من الماشية منها عشرون ألف رأس من الضأن ، وألفان من الماعز هذا بالإضافة إلى ما غنموه من عتاد حرقى مثل : تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية ، وألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصاناً . . . وتذكر النصوص المصرية القديمة تلك الغنائم بقولها «كانت بساتينهم ملأى بالقواكه ، ووجدنا النيذ فى دنائهم ، كالماء فى كثرتة ، وكانت حبوبهم فى الأجران بعد درسها أكثر من رمال الشاطئ» ، واستولى الجيش على ما زاد عن حاجته ، وهذا ما جعل جيش جلالته ثملاً ومعتزلاً بالزيت فى كل يوم . . . كما لو كان فى أيام الأعياد فى مصر . . .

سوف تظل معركة «مجدو» ، التى حدثت منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام – إحدى المعارك الخالدة لا فى تاريخ مصر وحدها . بل فى تاريخ العالم أجمع ، بما حوته من تطبيق سليم لمبادئ الحرب الاستراتيجية العسكرية ، كما ستظل أيضاً درة ناصعة فى عقد التاريخ المصرى القديم . وقد أسفرت هذه المعركة عن «نحتمس الثالث» كقائد من عظماء القادة العسكريين فى التاريخ القديم، وكؤسس لمبادئ الحرب والاستراتيجية العسكرية الصائبة.

الفصل الرابع

رعسيس الثاني ومعركة قادش

رعسيس الثاني (١٣١٢ - ١٢٢٤ ق.م)

حفل التاريخ المصرى بأعلام شائعة من الحكام والقادة العسكريين ، برز من بينهم حلم ، رفوف طويلا في سماء مصر ، وظل اسمه مدوياً في آذان العصور ، ذلكم هو «رعسيس الثاني» ، ملك من أعظم ملوك العالم القديم ، وصفته الوثائق المصرية القديمة بأنه «أشجع الشجعان» ، مؤسس الإمبراطورية المصرية الثانية في تاريخ مصر القديم . . تولى الحكم بالاشتراك مع والده الملك «سيتي الأول» جرياً على سنة بعض القراعنة ، وكان عمره وقتذاك ستة عشر عاماً ، وحينما توفى والده بعد ست سنوات ، تولى حكم مصر وعمره إثنان وعشرون عاماً ، وظل حاكماً لمصر لفترة طويلة امتدت سبعة وستين عاماً متصلة ، ثم وافاه الأجل عام ١٢٢٤ ق.م ، على وجه التقريب ، وقد ناهز عمره التسعين سنة .

الإمبراطورية المصرية الثانية :

دخلت مصر في عصر جديد ، نتيجة الثورة الدينية التي رسم ملامحها الملك «أمنحيب الرابع» من الأسرة الثامنة عشر ، والملقب باسم «اختاتون» ، وكانت الثورة تستهدف توحيد الآلهة جميعهم في إله واحد ، وما إن حل عام ١٣٠٦ ق.م ، حتى زال حكم الأسرة الثامنة عشرة ، وتقلدت الأسرة التاسعة عشرة مقاليد الحكم في مصر ، وانطلقت هذه الأسرة للعمل بدون كلل لكي تستعيد مصر ممتلكاتها في غرب آسيا ، التي فقدتها نتيجة المشاكل الداخلية والصراعات الدينية . واعتنق ملوك هذه الأسرة الأفكار والمبادئ المصرية التي سادت بعد عملية التحرير الأولى لمصر من السيطرة الأجنبية ، وهي العقيدة ذاتها التي تقول إن أفضل طريقة للدفاع هي الهجوم ، وأن الدفاع عن سلامة واستقرار وأمن مصر لن يتحقق إلا بيسط النفوذ المصرى على مواطن الخطر في غرب آسيا والنوبة وشمال السودان لا في الانتظار للدفاع عن مصر عند حدودها الدولية .

ووقع العبء الأكبر في استعادة هذه الممتلكات على كاهل ملكين عظيمين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، هما : الملك «سيتي الأول» الذي حكم مصر من عام ١٣٠٤ - إلى عام ١٢٩٠ ق.م . والملك «رعسيس الثاني» الذي ظل يحكم مصر من عام ١٢٩٠ - إلى عام ١٢٢٣ ق.م . والأخير هو مؤسس الإمبراطورية المصرية الثانية في التاريخ المصرى القديم ، تميزا لها عن الإمبراطورية الأولى التي أسسها «نحتمس الثالث» قبل ذلك بحوالى مائتى سنة .

السياسة الداخلية .:

أرسي «رعسيس الثاني» دعائم ملكه على مبدأ «العدل أساس الملك» والعدل يتطلب صرامة لتنفيذ القوانين إذ لا يكتفى أن يرتفع شعار بل يجب أن تتوفر ضمانات الوصول إليه ، وقد توفرت لهذا الفرعون صفات عظيمة وسمات

شخصية أهله لذلك ، فكان صارماً في تنفيذ قوانين العدالة ، لدرجة أنه يعاقب كل من يتعدى على ملكية الغير وبخاصة المعابد المصرية بجمع أنفه ، وجلده مائة جلدة ، وكيه بالنار ، ويكون ملزماً بدفع غرامة تبلغ أحياناً مائة ضعف لما اغتصبه .

كما استطاع «رعسيس الثاني» أن يحفر اسمه في التاريخ المصري القديم بما شيد من المباني والعناصر الضخمة ، في طول مصر وعرضها ، عمراتاً لا مثيل له في السابق أو اللاحق . . فأقام معبد «أبو سمبل» على نهر النيل مباشرة جنوبي أسوان ، ويعتبر أعظم بناء منحوت من الصخر في تاريخ البشرية ، ويذكر بالفخر له أيضاً معبد «الرمسيوم» على الضفة اليمنى للنيل في مدينة «طيبة» (الأقصر الحالية) . وصارت مصر في عهده مركز إشعاع أدبي وفني حيث ازدهر الشعر والنثر والملاحم والعناصر بصورة متميزة .

وحقاً يتمكن «رعسيس الثاني» من السيطرة على تلك الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف ، وليكون قريباً من الممتلكات المصرية بغرب آسيا وفي ليبيا ، قام بنقل عاصمة مصر من طيبة إلى عاصمة جديدة بشرق الدلتا أطلق عليها اسمه وسماها بـ «رعسيس» ومكانها بلدة «قتير» الحالية جنوب بلدة فاغوس بمحافظة الشرقية .

حصن «رعسيس الثاني» مصر بأعظم جيش وأعظم أسطول أخضع بهما شعوب العالم القديم ، فحارب «شردانا» وهم أهالي جزر البحر المتوسط ، كما حارب «التمحو» ، أي أهالي ليبيا ، وتمكن من إخضاع بلاد النوبة بالإضافة إلى الإمارات الآسيوية في سوريا وشمال العراق وآسيا الصغرى ولبنان وفلسطين . وقد نقش انتصاراته على معابده بـ «طيبة» في ملحمة «قادش» التي تعد أول ملحمة كُتبت في التاريخ . ونصف الإمارات والدول التي انتصر عليها وانضوت تحت النفوذ المصري :

«بداية انتصارات ملك الوجه القبلي والوجه البحري» :

«وسر ما عت ستين رع ، ابن الشمس ، محبوب آمون ، رعسيس معطي الحياة مخلداً ، وقد أحرزها على بلاد نوبتا (آسيا الصغرى) وبلاد نهر نيا (شمال العراق) ، وبلاد أرثو (جنوب غربي آسيا الصغرى) وبلاد بدس (شمال سوريا) وبلاد دردني (منطقة الدردنيل) وأرض مأسا ، وأرض قديشيا ، وأرض لك ، وبلاد كركميس ، وأرض قدي ، وأرض كاثا ، وبلاد موشتات وجميع الأراضي الواقعة فيما بين العراق وسوريا وتركيا . وقد لقبه الشعب المصري «أشجع الشجعان» . وجاء في وصف شجاعته وبطولته على جدران المعابد المصرية القديمة : «... لا مثيل له في الرماية ، وقوته تفوق مئات الألوف مجتمعين ، وهو الزاحف في المقدمة ، الموغل في الجموع ، وقلبه مفعم بالشجاعة ، القوى حين ينازل القرن ، كالنار عندما تلتهم ، الثابت القلب كالثور ، المتأهب لساحة القتال ، لا يجهله أحد في الأرض قاطبة ، وهو من لا يقدر ألف رجل أن يثبتوا أمامه ، وهو من يتخاذل مئات الألوف عند رؤيته . . .» .

«ومات رعسيس الثاني عام ١٢٢٣ ق . م ، عن عمر يناهز التسعين عاماً ، بعد أن سطر اسمه في تاريخ مصر القديمة ، كملك من أعظم ملوكها ، ومؤسس إمبراطوريتها الثانية ، صاحب أكثر عدد من العناصر الضخمة التي شيدها لإنسان في تاريخ البشرية ، بطل معركة «قادش» وأشجع شجعان العالم القديم كله» .

معركة «لادش» :

أدت الصراعات الداخلية الناجمة عن الثورة الدينية ، بقيادة «اختاتون» إلى استنفاد جهد حكامها لإخضاع تلك الفتن ، وتراخى قبضتهم على أجزاء كثيرة في فتوحاتهم في غرب آسيا التي كان «نختمس الثالث» قد أحكم سيطرته عليها قبل ذلك بحوالى قرنين من الزمان ، هذا بالإضافة إلى أن أمراء تلك الفتوحات الذين كانوا يدينون بالولاء والطاعة لمصر أخذوا يتصارعون فيما بينهم . وأدى ذلك كله إلى أن انتهز «الحثيون» المنحركون في آسيا الصغرى ، هذه الفرصة ، وشرعوا في بسط نفوذهم على شمال ووسط سوريا ، وأخذوا يؤلبون الممالك والمدن الآشورية في محاولة لتوحيدهم ضد مصر ، مستهدفين إحلال نفوذ «الحثيين» محل نفوذ المصريين .

في هذا الجو المشحون بالفتن ، الحافل بالصراعات الداخلية سواء في داخل مصر نفسها أو في داخل فتوحاتها زال حكم الأسرة الثامنة عشرة ، وجاءت الأسرة التاسعة عشرة لتتولى مقاليد الحكم في مصر عام ١٣٠٦ ق . م ، ويمزى قيامها إلى القضاء على الفتن التي استشرت نتيجة للثورة الدينية ، وكذلك استعادة سيطرة مصر على فتوحاتها الخارجية ، وعلى أكتاف ملكين من ملوك هذه الأسرة هما : «سيتي الأول» (من ١٣٠٤ - إلى ١٢٩٠ ق . م) ، و«رعسيس الثاني» (من عام ١٢٩٠ - إلى ١٢٢٣ ق . م) وقع عبء إنجاز هذه الأهداف ، وتأسيس الإمبراطورية المصرية الثانية .

في هذا الوقت ، كانت هناك دولة فنية هي مملكة «خيتا» بزعملة الملك «مواتالو» ، يقوم بإدارة سياستها «الحثيون» بآسيا الصغرى (تركيا) ، وكان فرعون مصر : «سيتي الأول» قد دخل في صراعات طويلة مع هذه الدولة لاسترداد الفتوحات المصرية بآسيا الصغرى ، ولكنه حتى وفاته لم يكن قد تمكن من إتمام هذه المهمة إلا أنه قام بتوقيع معاهدة سلام معها إلى أن تحين الفرصة المواتية ، في وقت لاحق لاستعادة تلك الفتوحات . وكانت تلك المعاهدة لكلا الطرفين مسألة هدنة مؤقتة ، حيث سعى الملك «مواتالو» في محاولة لتجميع أمراء أقاليم آسيا ، الصغرى وشمال سوريا وشمال العراق ضد مصر ، كما انضم إليه أقوام من «الشاو» أي البدو المقيمين في فلسطين وسوريا ، وبذلك أصبح تحت قيادته جيش كبير جرار من العسكريين ، متحضر للقيام بمسح أي أثر للنفوذ المصري في آسيا ، ومحاولا ، بكل ما لديه من وسائل ، إثارة الفتن ، وإشاعة الاضطراب في البلاد الواقعة تحت السيطرة المصرية مستهدفاً استبدال النفوذ المصري بنفوذ الحثيين وبسط سلطانه على تلك الأقاليم .

إعداد الدولة للحرب :

اعتنق «رعسيس الثاني» مبدأ الهجوم كدفاع وقاى ضد أعدائه ، لذا نجده منذ بدء توليه حكم مصر عام ١٢٩٠ ق . م . وهو يخطط للقضاء على تحالف الأمراء الآشوريين ضد مصر قضاء نهائياً ، فسارع بالاستيلاء على ساحل فينيقيا (لبنان) حتى وصل إلى بيروت ، وأقام لوحة تين حدود إمبراطورية بمصر عند شاطئ النهر «الكلب» ، وفي نفس الوقت راح يحصن المدينة المصرية التي أقيمت عند مصب نهر «الكلب» وهي «مرى آمون» رعسيس ماعت ، وذلك كقاعدة بحرية له تستقبل إمداداته البحرية من مصر حتى لبنان ، إلى أن يتم دفعها بعد ذلك داخل الأراضي السورية .

تنظيم الجيش المصري :

وعندما انتهى «رعسيس الثاني» من «استعداداته العسكرية» كان رهن إشارته جيش مصري من أرق ما عرف العالم من جيوش تدريباً وتنظيماً وتسليحاً . . كان مقسماً إلى أربعة فيالق ، كل فيلق يحمل اسم إله من الآلهة المصرية وهي «آمون» و«رع» و«بتاح» و«ستخ» ، هذا بالإضافة إلى قوة خاصة أطلق عليها «جنود الفرعون الشباب» ، و«نمرن» وبلغ تعداد الجيش ما بين خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم حينذاك ، نظراً لمشاكل التموين والتحريك من مصر إلى سوريا .

تنظيم جيش «خيتا» :

هذا الجيش كان يتكون من فيلقين من المشاة ، يتراوح كل منهما من ثمانية آلاف إلى تسعة آلاف ، بالإضافة إلى عدد ضخم من عربات القتال يقدر بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة عربة ، كل عربة تحمل ثلاثة من المقاتلين ، وبذلك يصبح إجمالى هذا الجيش مماثلاً للجيش المصري أى ما بين خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من المقاتلين ، وبضفاف إلى كل جيش من الطرفين العربات والأفراد القائمون بالنواحي الإدارية والحراسة .

مخطة الهجوم المصرية :

وضع «رعسيس الثاني» هدفاً نصب عينيه وهو ضرب تجمعات الأعداء بقيادة ملك «خيتا» ، المجتمعين في مدينة «قادش» السورية ، وهي مدينة لما صيبت حينذاك نظراً لموقعها الاستراتيجى الواقع على نهر العاصى بالقرب من مدينة «حمص» السورية الحالية .

وترجع هذه الأهمية الاستراتيجية إلى ما تتمتع به من موقع يتحكم في النهاية الشمالية لإقليم البقاع اللبناني ، وكان لزاماً على أى قوات متجهة من لبنان إلى داخل سوريا أن تمر بهذا المكان .

تحرك «رعسيس الثاني» بجيشه ، من قلعة «ثارو» (القنطرة الحالية) ، في اليوم العاشر ، من الشهر التاسع ، من العام الخامس لحكمه أى في يوم ١٧ إبريل عام ١٢٨٥ ق . م تحرك من «ثارو» وسار بجوار ساحل البحر الأبيض المتوسط وذلك حتى وصل إلى القاعدة البحرية المصرية «مرى آمون رعسيس ماعت» ، التى كان قد أقامها على مصب نهر الكلب بلبنان ، ومنها انطلق غرباً إلى الداخل في اتجاه مدينة «قادش» وتقدر المسافة بين المكانين بحوالى ثلاثمائة وتسعين ميلاً ، قطعها في ثلاثين يوماً ، بمتوسط ثلاثة عشر ميلاً في اليوم الواحد ، وتلك سرعة قياسية حينذاك ، توضح مدى الجهد الذى بذله الجيش المصري في اجتياز تلك المسافة في هذا الوقت القصير نسبياً نظراً لإمكانيات ذلك العصر .

وحينما وصل «رعسيس الثاني» إلى المضيق الواقعة جنوبى «قادش» ، الموجودة الآن عند قلعة «الهرمل» ضمن هضاب وادى البقاع اللبناني ، عسكر هناك للراحة والاستعداد ، بعد هذا السير الطويل المضنى ، وكان بينه وبين مدينة «قادش» نفسها مسيرة يوم كامل ، ثم استأنف السير بعد ذلك جهة الشمال في اتجاه المدينة ، وقد سار بحذاء الضفة الشرقية لنهر «ألانت» (نهر العاصى الحالى) ، وكان على رأس فيلقه «آمون» وتتبعه على مسافات متفاوتة الفيالق الثلاثة الأخرى .

احتشد «رعسيس الثاني» أن جيش العدو لا يزال بعيداً في اتجاه الشمال ، وعند اقترابه من إحدى مخاضات نهر
الانت الواقعة عند بلدة «شيتونا» (ريلة الحالية) ، حضر إليه جاسوسان من العدو ، وأخبراه كلباً بأنهما ومواطنيهما
يرغبون في التخلص من جيش «خيتا» والإنضمام إلى المصريين ، وأن الملك نفسه قد تنهقر إلى مدينة «حلب» ،
السورية ومعه جيشه ، علاوة على أن الروح المعنوية لدى جيش الأعداء متدهورة ، وهو لا يرغب في قتال المصريين .

صدق «رعسيس الثاني» كلام الجاسوسين ، فأسرع على رأس فيلقه «آمون» في محاولة لاحتلال «قادش»
التي ظلها خالية من العدو ، بينما كان ملك «خيتا» وجيشه مختبئين شمال شرق مدينة «قادش» ، وعندما وصل
«رعسيس الثاني» في تحركه إلى مكان غرب مدينة «قادش» على الضفة الغربية من نهر «الانت» (العاصي الحالي) ،
وكان يحيط به حرسه الخاص فقط ، عسكر هناك وقت الظهيرة ، انتظاراً لوصول باقي قوات الفيلق «آمون» ،
أما الفيلقان : «رع» و «بتاح» فكانا على الطريق يقومان باختراق غابة «أرناتاني» ، بينما كان فيلق «سنخ»
في المؤخرة بعيداً عن باقي القوات المصرية .

هجوم الحيتيين :

في ظل هذا السلام ، من وجهة نظر «رعسيس الثاني» الذي كان جالساً على أريكته الذهبية ، جرى «بالجاسوسين»
السابقين المقبوض عليهما حيث أفشيا الأخبار الصحيحة وهي أن ملك «خيتا» ليس في مدينة «حلب» بل هو على
وشك الهجوم من موقعه الآن ، من مدينة «قادش» نفسها .

وسرعان ما أدرك «رعسيس الثاني» خطورة الموقف ، فبادر بإرسال وزيره إلى فيلق «رع» الذي كان قد
انتهى من عبور النهر وأصبح على مقربة من مؤخرة فيلق الفرعون «آمون» ، وذلك لتحذيره من هجوم العدو
المباغت ، ولكن قبل أن يصل الوزير إلى الفيلق لتحذيره كان العدو قد شن هجومه على فيلق «رع» الذي أخلته
المفاجأة ، فانطلق جنوده مهرعين إلى معسكر الفرعون ، والعدو يتعقبهم في مطاردة وحشية وقد ساد الرعب وانتشر
الفرع والهلع .

استعادة التوازن :

في الليلة الظلماء يفقد البدر ، في هذا الوقت العصيب ، من تلك المعركة الفاصلة في التاريخ القديم ، أظهر
«رعسيس الثاني» كفاءته ومهارته العسكرية كقائد من ألمع القادة في العالم القديم ، وكأشجع الشجعان كما حكمت
عنه الأساطير المصرية القديمة ، إذ استطاع أن يحيل الهزيمة إلى نصر ، هزيمة الجيش المصري الميثوس منه ، الذي بددته
المفاجأة ، ومزقت صفوفه ، قد تحولت إلى نصر عندما راح القائد «الفرعون» يلطم فلول المدعورين من فيلق :
«آمون» و «رع» ، وثبت يقاتل بكل بسالة جيش عدوه الملك «خيتا» ، وعندما استعادت قواته توازنها نتيجة
حنكته وبراعته ، كانت بقية جيوشه قد أشرفت على الوصول ، يتقدمهم القوات الخاصة والمسماة «جنود الفرعون»
والشباب . نعرن .

وعندما رأى جيش «خيتا» ذلك الطوفان المفرق المادر من رجال العسكرية المصرية ، ولى هارباً ، وقد منى
بجسائر فادحة ، وكان من بين القتلى كثير من أسرة الملك وموظفيه .

نتائج معركة « قادش » :

كان لموقعة « قادش » نتائج سياسية بعيدة المدى أهمها :

تكوين الإمبراطورية المصرية الثانية :

حيث مهدت هذه المعركة الطريق أمام مصر لتكوين إمبراطوريتها الثانية ، كما زرعت الثقة وأثمرت الكفامة العسكرية للفرعون « رعحسيس الثاني » وجيشه ، تلك الثقة التي آزرتة في حروب امتدت خمسة عشر عاماً متتالية بعد هذه المعركة ، ومكنته من إنجاز انتصارات عسكرية متتابة ، ووطدت نفوذ وسيطرة مصر على إمبراطوريتها خلال الفترة التاريخية اللاحقة من حكم الأسرة التاسعة عشرة .

تأمين حدود مصر :

فقد كان للهزيمة النكراء ، التي حاققت بتحالف الأمراء الآسيويين المتآمرين ضد مصر ، في تلك المعركة ، والشجاعة الفائقة التي أبدتها الفرعون والجيش المصري ، أثرها في أنه لم يدر بخلد أية دولة أو مدينة في العالم القديم فكرة تنازع السيطرة أو النفوذ المصري طوال فترة حكم « رعحسيس الثاني » .

معاهدة سلام :

وعندما مات ملك « خيتا » « مواتالو » ، وتولى حكم مملكته أخوه « خاتوسيل » ، سارع بتقديم الصداقة والولاء لفرعون مصر وأبرم معاهدة سلام دائم مع مصر عام ١٢٧٠ ق . م ، تعتبر نموذجاً فريداً في تاريخ العلاقات السياسية بين البلدين في هذا الماضي العتيق . واحتوت المعاهدة على الأقسام الهامة التالية :

احتوى القسم الأول على مقدمة تاريخية عن الحروب بين مصر « وخيتا » وتأكيدها على أن الملكين الحاليين يبدان الحرب ويريدان السلام .

وشمل القسم الثاني اهتماماً ملحوظاً على عدم الاعتداء المتبادل ، وأن أمير « خيتا » لن يقوم من الآنـبأى اعتداء على مصر ، أو يأخذ منها شيئاً ، والمقصود بأرض مصر هنا هي فتوحاتها في آسيا .

وتضمن القسم الثالث ما يمكن أن نسميه « حلفاً دفاعياً » بين مصر و « خيتا » ضد أية قوة ثالثة تحاول أن تنازع أياً منهما في ممتلكاتهما ، وكذلك ضد أية ثورات محلية داخلية .

وتناول القسم الرابع موضوع تسليم اللاجئين السياسيين إلى بلادهم ، سواء كانوا من ذوى النفوذ وأمراء أو نبلاء ، أم كانوا مواطنين عاديين ، مع معاملتهم معاملة حسنة ، وعدم التعرض لهم بقتل أو تشويه أو حرمان من العائلة أو البيت ..

وتعرض القسم الخامس ، لما تعرضت له وثائق هذا العصر القديم من ذكر أسماء الشهود الذين حضروا توقيع المعاهدة ، ويكفونون من الآلهة ، كما هي العادة ، طبقاً للعقائد القديمة ، وإذا كان كل من الملكين قد أقسم اليمين أمام تلك الآلهة الشهود ، فإن نقض المعاهدة يعتبر من أبشع الذنوب . وقد كتبت المعاهدة على لوحين من الفضة ، احتفظ كل طرف بلوح منها .

استرضاء مصر :

وأفضت تلك المعركة فيما بعد إلى أن سعى الملوك والأمراء الآسيويون بخطيون ود مصر ، ويتحفون فرعونها بالهدايا والعطايا ، انقاء لفضيلها عليهم ، للدرجة أن سارع ملك « خيتا » نفسه ، بتقديم إبنته كزوجة لفرعون مصر « رمسيس الثانى » ، إظهاراً للولاء له ، ونم هذا الزواج عام ١٢٥٦ ق . م .

الأمن والطمانينة :

عاشت مصر بعد معركة « قادش » فترة سلام ناعمة بنحيرات امبراطوريتها العظيمة ، ونحت حكم ملكها « رمسيس الثانى » الذى رفعته تلك المعركة إلى مصاف الأبطال فى التاريخ القديم ، لما كان لها من نتائج طيبة على المدى البعيد . . . وكما تذكر النقوش المصرية القديمة « أشجع الشجعان صد جميع البلاد بالرهبة منه ، بينما شجاعة جلالاته هى التى حمت جيشه ، فقدمت جميع البلاد الأجنبية المديح لمحياء الحميل » . . .

لقد كانت معركة « قادش » ملحمة شجاعة وصمود ، وبطولة نادرة للجيش المصرى بكل المعايير والمقاييس العسكرية الحديثة .

الباب الثاني

مصر الإسلامية

وإدى النيل فترك ابنه عبد الله مع معاوية بن أبي سفيان على قوات الحصار ونحرك مع جيشه في ذى الحجة عام ١٨ هـ إلى مصر .

حالة مصر قبل الفتح الإسلامى :

كانت مصر دولة مستقلة يحكمها المصريون منذ أن طرد أحسن المكسوس في القرن ١٦ ق . م (١٥٧٠) ق . م وذلك لمدة ٦٢٠ سنة ثم تعرضت للحكم الليبي حوالى ٢٠٠ سنة وأغاريت عليها النوبة سنة ٧٥١ ق . م حوالى مائة سنة ثم تركوا حكمها للاشوريين وتمكنت من الاستقلال بعد ذلك على يد الملك بسمتك سنة ٦٦٣ ق . م .

ولم يدم استقلال مصر طويلا فقد تعرضت للغزو الفارسي الأول بواسطة قبيز سنة ٥٢٥ ق . م وحكم الفرس مصر حتى سنة ٣٣٢ ق . م عندما فتحها الاسكندر الأكبر وهزم الفرس وظلت مصر ولاية مقلونية واستقل بها بطليموس (أحد الولاة اليونانيين) وقامت بها دولة البطالمة حتى انتهت بموت كليوباترا ودخول الرومان مصر سنة ٣٦ ق . م .

وهكذا أصبحت مصر ولاية رومانية دخلتها التعاليم المسيحية ودانت كلها بهذا الدين وكانت عاصمتها الإسكندرية خلال دولة البطالمة وأثناء حكم الرومان ولذلك قل شأن « منف » العاصمة القديمة ، وكذا مدينة أون (عين شمس) حيث حظت الإسكندرية بأكبر اهتمام خلال قرون الحكم الرومانى .

وحدث قتال بين الروم والفرس في مصر عندما حاول الفرس العودة إليها سنة ٦١٦ م وأقاموا بها تسع سنوات ثم تمكن هرقل من إجلائهم وكان ذلك خلال بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت الآيات « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون في بضع سنين » .

عهد الإضطهاد الأعظم :

كان حاكم مصر في ذلك العصر من قبل هرقل هو المقوقس ، وقد عينه الإمبراطور الرومانى ليحمل أهل مصر على الإلتزام بالمذهب الموحد الذى أقره أساقفة الشام وبيزنطة ولكن المصريين عارضوا هذا المذهب وتمسكوا بمذهبهم فلجأ إلى حملهم على ذلك بالقوة واستخدم في ذلك أسلوباً وحشياً شمل جميع أنواع التعذيب حتى سمي هذا العهد « بالاضطهاد الأعظم » وقد دام عشر سنوات وكان أكثر من عانى من هذا التعذيب أساقفة مصر الاقباط وهاجر كثير من المصريين إلى بلاد النوبة وأثيوبيا . هربوا بدينهم من اضطهاد الروم . وساء حكم الرومان في هذا العهد فقد استولوا على غلات البلاد ومصنوعاتها ، واعتبروا الأرض ملكاً لهم وفرضوا مزيداً من الضرائب على المصريين بل إن القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر تعطلت في عهد « قوكاس » قبل دخول الفرس إلى البلاد ولم يهتم أحد بإعادتها فتدهورت التجارة وكانت كل هذه العوامل سبباً في بنفخ المصريين لحكم الروم .

طبيعة أرض مصر في عصر الرومان : (لوحة رقم ١٣) :

وقد كانت طبيعة أراضي مصر تختلف في ذلك العهد عن عصرنا الحاضر فقد كان النيل سبعة أفرع متفرع جميعها شمال مدينة منف العاصمة القديمة وتصب في مياه البحر المتوسط فيما بين شرق بور سعيد بحوالى ٢٤ ميلاً إلى شرق الإسكندرية ويخرج من هذه الفروع عدد كبير من الترع لتغذى شمال مصر حتى كانت الأراضي الخضراء

تغطي المنطقة من القرما شرقاً حتى إقليم برقة غرباً . . كما كانت آثار القناة المفضرة بين النيل وخليج السويس لازالت باقية ولكنها معطلة منذ زمن قريب ، وهي ممتدة من النيل إلى البحيرات المرة ثم إلى الخليج . .

أما سيناء فلم يكن بها اختلاف عن وضعها الحالي إلا أن الطريق الذي كان معروفاً في ذلك الوقت هو الطريق الساحل الشمالي (٦٠) ويمتد من العريش حتى القرما وكان امتداد مصر جنوباً حتى بلاد النوبة عند أسوان .

أما أهم المدن في مصر آنذاك ، فكانت :

العريش : وهي مدخل مصر من جهة الشرق . .

القرما : وهي شرق بورسعيد الآن قرية من البحر وتقع على الفرع الشرقي للنيل .

بليس : في مكانها الحالي .

هليوبوليس : وقامت على انقاض مدينة أون القديمة وسميت عين شمس .

مصر : مدينة جديدة على النيل وتقع شرق النيل وتسمى أحياناً منف لأنها تقابلها على الضفة الأخرى .

منف : عاصمة مصر قديماً وكانت تنافس يجمها الإسكندرية في ذلك الوقت وتتميز عنها بوجود الأهرامات المتعددة حولها . وكانت تسمى أحياناً « مصر » .

الإسكندرية : تقع على ساحل البحر المتوسط شمال بحيرة مريوط وتحيط بها من الغرب ترعة تسمى ترعة الثعبان وكانت حصينة بأسوارها وحصونها رائعة في عمارتها وزخرفتها وتحتوي على العديد من المعابد والكنائس والقصور البديعة .

نظام الدفاع عن مصر :

وكان الرومان قد ركزوا الدفاع عن مصر في منف والإسكندرية ولكن ذلك لم يمنع من تواجد بعض الحصون في أماكن متفرقة على طرق الاقتراب إلى أهم المناطق الحصينة وهي الدلتا وذلك على النحو التالي :

الدفاع عن مصر (منف) :

حصن بابليون :

هو أقوى الحصون في ذلك الوقت وكان موقعه في منطقة مصر القديمة اليوم وكان متين البنيان قوي الأسوار بناه الرومان ليكون حامية مدينة منف ويشرف بناؤه على مسافات بعيدة في جميع الاتجاهات . ويقع الحصن على النيل وعليه أكبر أبرابه .

حصن الروضة :

ويقع على الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة . فيحقق بذلك الحماية لمدينة منف من جهة النيل ويتحكم في أي تحركات من جهة الجنوب أو في المجرى عموماً .

حصن أم دفين :
عند قرية أم دفين التي كانت في موقع الأربكة الآن وكانت على الفرع الشرق للنيل وبها مرفأ سفن كثيرة
ولها حصن منيع ..
الدفاع عن الإسكندرية :

أما الدفاع عن الإسكندرية ، فقد تضمن :
حصن كريون الذي يتكون من عدد من الحصون المتجاورة المنيعة التي تقع إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية
وقد وضعت في طريق التقدم إلى العاصمة ، كذلك كانت أسوار الإسكندرية عالية ومنيعة وقد نصب الرومان
خلفها المنجنيق وكانت حاميها تبلغ ٥٠ ألف جندي .
الدفاع على طرق الاقتراب :

(أ) حصن الفرما :
يقع على هضبة قرب البحر المتوسط على الطريق إلى مصر من سيناء عند قرية الفرما وهو حصن منيع الأسوار
له مرفأ على فرع النيل وبه كثير من التكتلات الإدارية . كما يمكن إمداده من النيل . ويعتبر الموقع الحصين الذي
يحمي مدخل مصر الشرق .

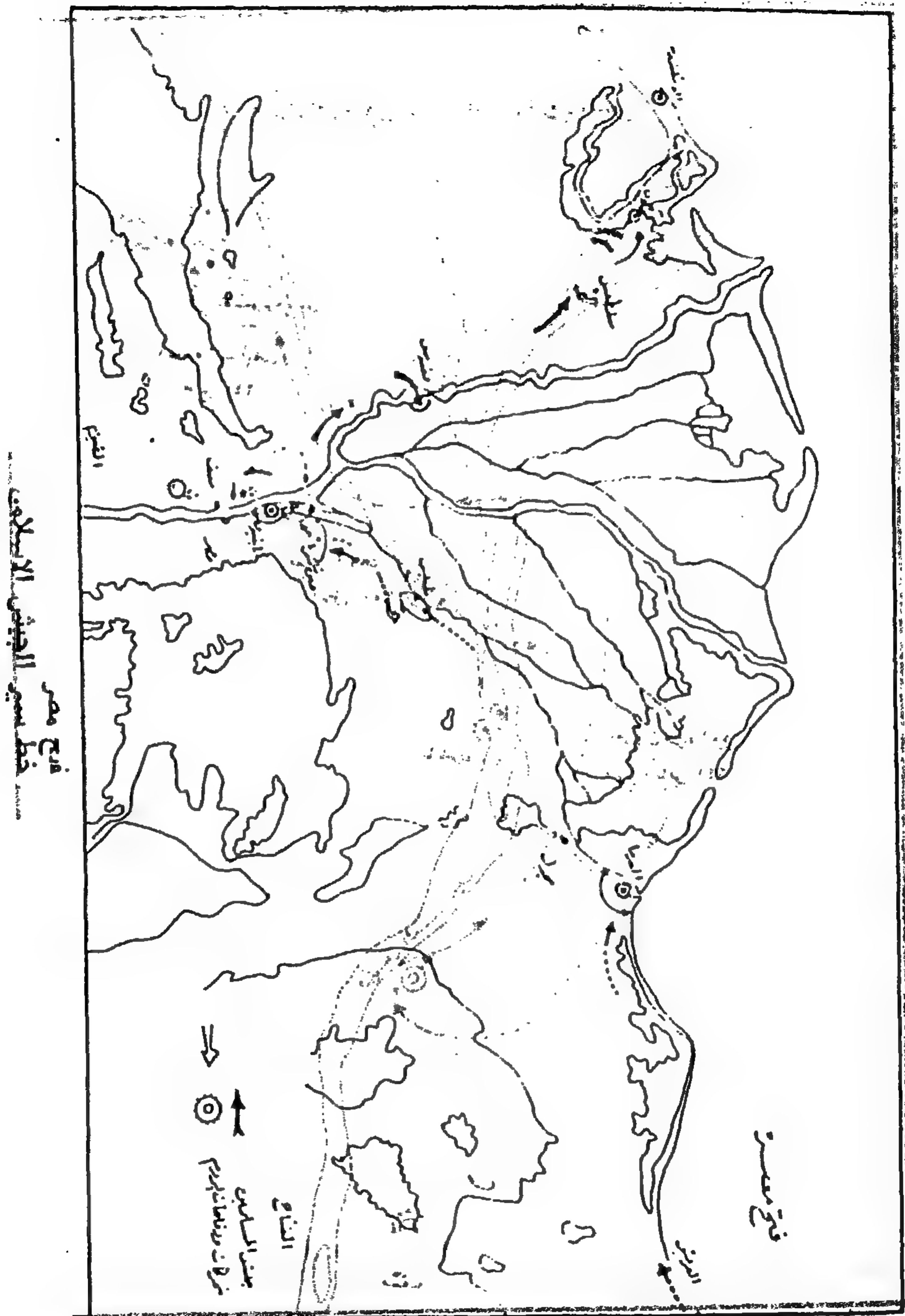
(ب) حصن الفيوم :
على الطريق بين مصر والإسكندرية شمال منوف على الفرع الغربى للنيل وعلى الضفة الشرقية له . ويتحكم
في الطريق إلى العاصمة .

(ج) الدفاع عن الفيوم والصعيد :
وضع الروم قوة خفيفة الحركة مخفية في مناطق النخيل غرب النيل شمال الفيوم لتكون بمثابة إنذار مبكر لقوات
الدفاع عن الفيوم .

كما وضعت عدة وحدات من الجيش الرومانى في الفيوم لمواجهة أى حملات تتجه جنوباً ولم يرد ذكر حجمها
إلا أنها كانت من القوة بحيث يمكنها حماية صعيد مصر .

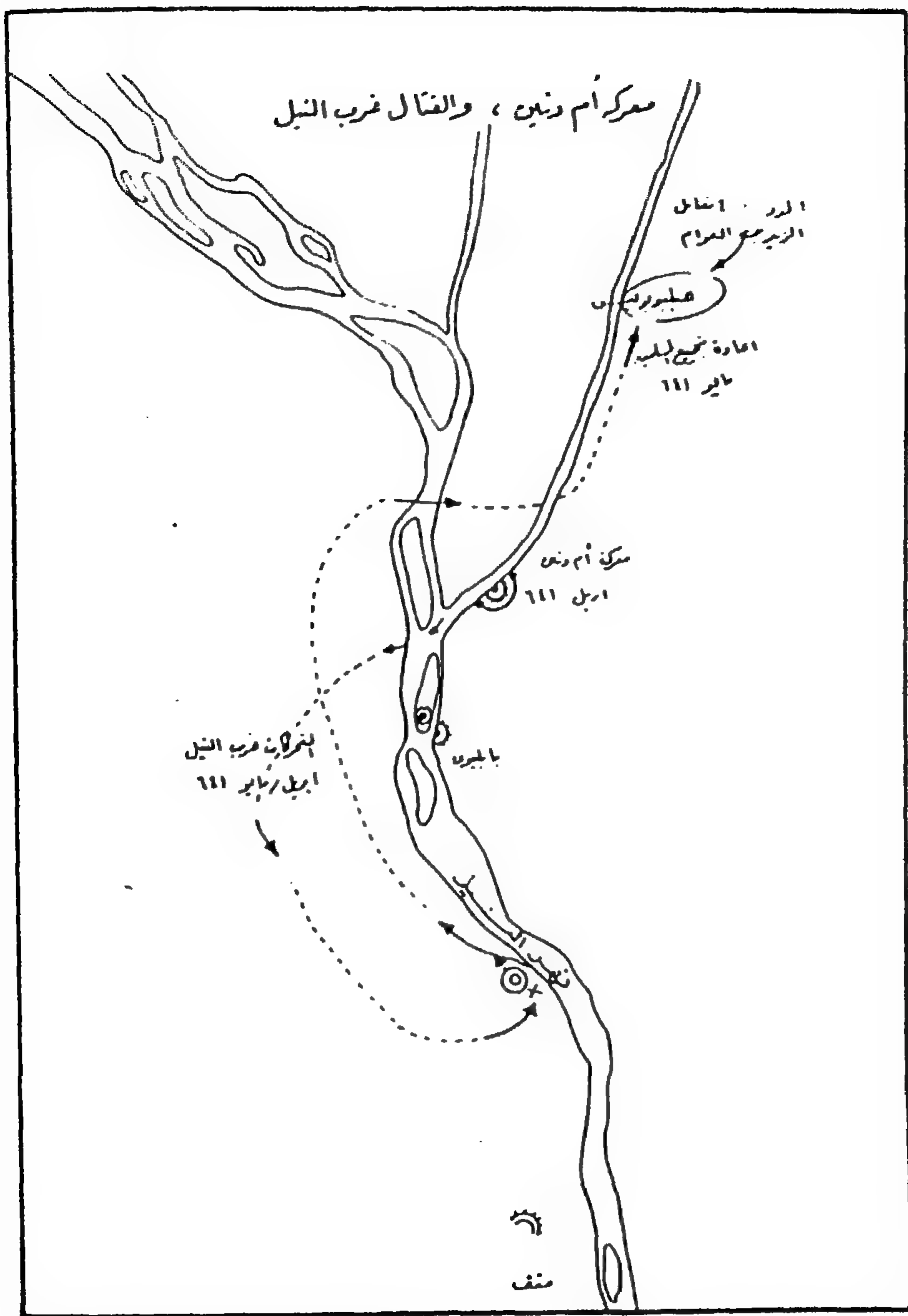
.....
.....
.....

.....
.....
.....

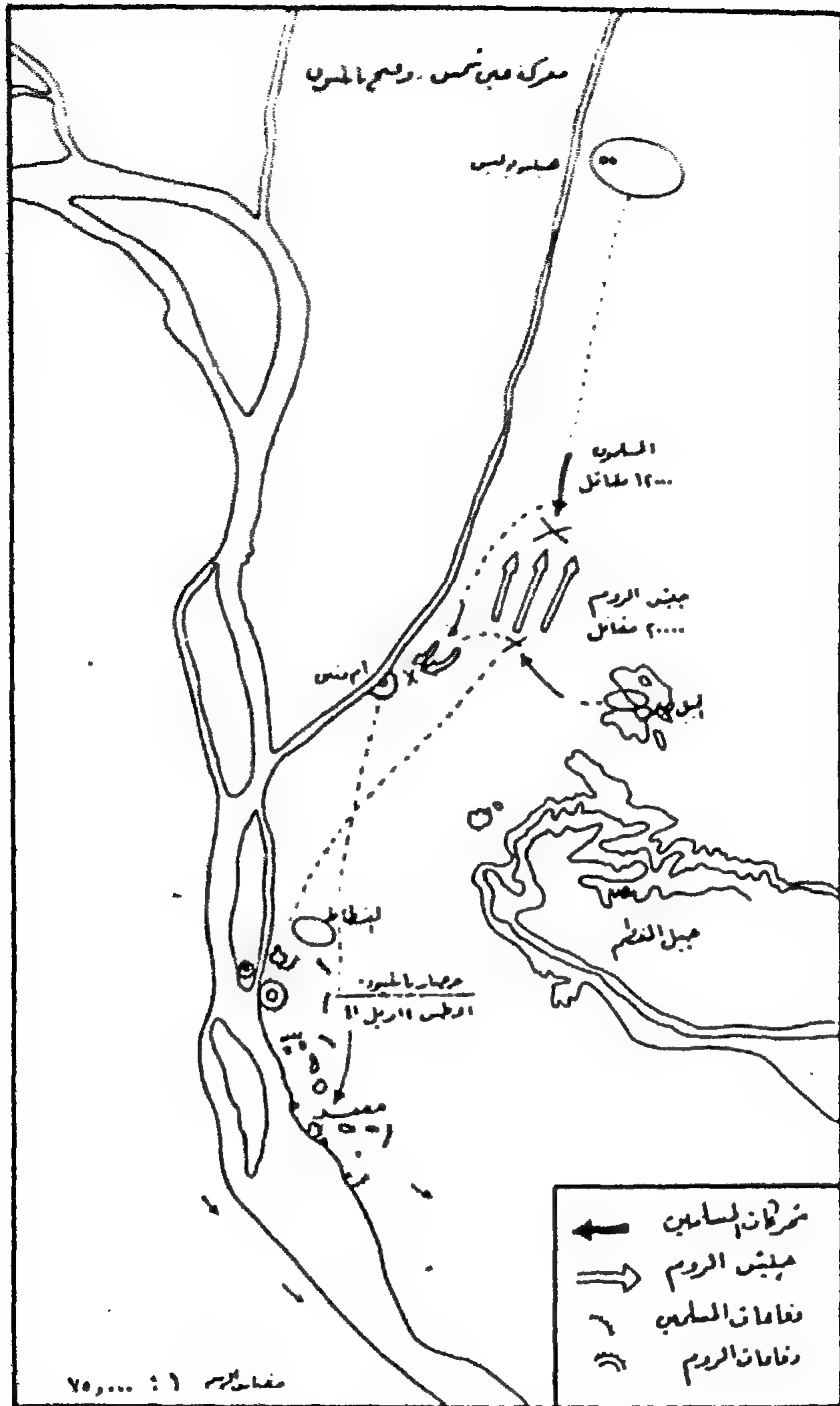


فندق مسند
خط سبي الجيش الاسلامي

مركز



فتح مصر



فتح مصر (مصر الإسلامية)

الفصل الثاني

معارك فتح مصر (*)

تحرك الجيش الإسلامي لفتح مصر .

ترك عمرو الجيش الذي يحاصر قيسارية كما هو وأخذ معه حوالي ٤٠٠٠ مقاتل فقط وأرسل مع رسول الخليفة يطلب ممدداً من المدينة .

وتحرك عمرو بن العاص إلى العريش فبلغها يوم عيد الأضحى سنة ١٨ هـ الموافق ١٢ ديسمبر ٦٣٩ فدخلها بدون مقاومة ولم يكن بها أى قوات للروم . ثم تابع سيره غرباً بمحاذاة الساحل حتى بلغ الفرما ولم يصادفه أحد حتى بلغها .

حصار الفرما :

كان عمرو يعتمد التباطؤ في تحركه حتى يدركه المديد الذي طلبه من الخليفة فلما بلغ الفرما وجد بها قوات للروم صدته على دخولها فضرب عليها حصاراً . والغالب أن قوة الروم في الفرما كانت كبيرة بدليل أن عمرو لم يحازف باقتحامها . ويؤكد ذلك أن المقوقس لم يتأخر بإرسال قوات أخرى لنجدها .

معركة الفرما : (يناير ٦٤٠ م) .

دام الحصار شهراً كاملاً وكان الروم يدفعون خلال هذه الفترة بمشاهير قتالهم تجاهم الجيش المحاصر ثم تردوا إلى حصونها مرة أخرى مما يزيد من فاعلية الدفاع . فلم يكن لدى عمرو ما يكفيه من الإمدادات الإدارية مما دفعه إلى إرسال كتاب من جيشه في شتى الاتجاهات قامت بتعطيلات إغارة في المناطق القريبة وجاءته بما يحتاجه من مطالب إدارية لإعاشة قواته .

عند ذلك رأى قائد الحصن الروماني أن نفوذ الحصار قد طالت فقام بتنفيذ عملية بقوات أكبر بغرض تشتيت جيش المسلمين وفك الحصار ولكن المسلمين تصدوا لهم واشتد القتال حتى اضطر الروم للارتداد فانهزم عمرو الفرصة وأمر قواته بمضاعفة الضغط عليهم وتعقبهم حتى سبقهم إلى أبواب الحصن فسيطروا عليه ولم يكن عمرو من دخول المدينة وظفر بعدد كبير من جيش الروم ردهم بعض حصونها وأحرق السفن الراسية في النيل وقتل من الروم عدداً كبيراً .

معركة بلبيس : (مارس ٦٤٤ م) .

قام عمرو باحتلال مدينة الفرما فترك فيها جزءاً من جيشه لتكون معقلاً يؤمن الطريق إلى فلسطين حتى يطمئن

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية : « المرجع العسكري » - المستوى الأول .

لوصول المدد إليه . وانضم إلى عمرو بعض قبائل البدو المحيطين بالمنطقة فذهبهم إلى جيشه ونحمله يزيد بنف في
بقية مجلد ، ثم القصاصين حتى بلغ بليس في فبراير سنة ٦٤٠ .

تحرك الأَطْرِبُون (١) على رأس جيش قوامه ١٢,٠٠٠ من الفرسان وحاول أن يأخذ المسلمين على غرة ولكن
عمرو كان دائماً على حذر فللارته معركة حامية قتل فيها عدد غير قليل من العرب كما قتل من الروم ١,٠٠٠ قتل
وأُسِرَ ٢,٠٠٠ وانتهزم الأَطْرِبُون وورد أنه قتل (٢) وكان ذلك في مارس سنة ٦٤٠ .

أعاد عمرو تجميع جيشه في منطقة بليس وأطال المقام فيها حوالي شهر وكان يرى إلى إخضاع الوقت حتى يصله
المدد وفي نفس الوقت تمكن خلال هذه الفترة من الاتصال بالمصريين في المناطق المحيطة وكسب ولائهم .

معركة أم دين : (أبريل سنة ٦٤١) :

عادت قلوب الروم من بليس فتحصنت بمصر عند بابليون وأم دين ولم تحرك عمرو من بليس إلا بعد أن كتب
إلى الخليفة عمر يستعجله بشأن المدد ثم أرسل عناصر الاستطلاع لمعرفة أوضاع عدوه قبل أن يفاجئه فلم يلبى تحصن
الروم وتأكد له أنه لن يتمكن من اقتحام بابليون ففكر في مهاجمة الجانب الأضعف فوجه جيشه شطر أم دين
وحاصرها لينع عنها المدد .

وقد استعان عمرو بما حوله من مصادر للاعاشة فأعانه ذلك على استمرار الحصار حتى جاءت الأخبار بوصول
المدد من أمير المؤمنين ، وكان الروم يخرجون إلى العرب المحاصرين في دوريات قتالية وما أن رأوا وصول المدد
إليهم حتى انتفضوا عن ملاقاتهم والخروج إليهم .

وهكذا تمكن عمرو خلال فترة الحصار من معرفة مداخل الحصن ومخارجه ونقط الضعف فيه ، فلما وصلت
الإمدادات وكانت تصل إلى ٤,٠٠٠ جندي تمكن من حشد كل قواته ومهاجمة الحصن فم له النصر وقتل عددا كبيرا
من الروم وأسر عددا آخر وسيطر على أم دين وعلى السفن الراسية في مرفأها .

القتال غرب النيل :

لم يكن المدد الذي وصل إلى عمرو كافياً حسب تقديره لاقتحام حصن بابليون كما أنه أراد أن يجمع معلومات
كافية فلم يهاجم الحصن وإنما استغل المراكب التي وجدها في أم دين وعبر النهر إلى الضفة الغربية وضلل بذلك الروم
عن معرفة وجهته وتوقعاته لا محالة سيجده إلى العاصمة (الاسكندرية) .

ولكن عمرو بن العاص وجه جيشه جنوباً إلى الفيوم وأبتعد عن النيل فسلك الصحراء حتى لا يتعرض لقوات

(١) سبق لعمرو بن العاص أن واجه الأَطْرِبُون في فلسطين .

(٢) كتاب الفاروق عمر ج ٣ صفحة ٩٩ وقد ورد في بعض الروايات أن المقومس أرسل بعض أساقفته للمفاوضة
عمرو فدعاهم إلى الإسلام فطلبوا مهلة وحادوا إلى المقومس ولكن الأَطْرِبُون رفض هذا الأسلوب ولم يجيبه إلا بقاءه المنطوق قبل
أن تنتهي المهلة ليحقق المفاجأة . .

لروم قبل أن يتوغل في المنطقة ويعرف المعلومات الكافية عنها . . وقد تمكن من الحصول على مطالبه الإدارية التي تكن جيشه من القرى المجاورة للوادي بعد الإغارة عليها .

علم عمرو أن الروم قد خصصوا قوة استطاع تقوم بمتابعتهم وهي مخفية بين النخيل على الضفة الغربية للنيل لتكون على اتصال به فضايف من سرعته جنوباً ثم انقض علىها من الخلف وتمكن من محاصرتها وقتل أفرادها عن آخرهم^(١) وقام الروم بهجوم مضاد بواسطة القوات المتجمعة في القيوم على جيش المسلمين في منطقة المعركة ولكن عمرو كان قد تحرك بجيشه بعيداً عن هذه المنطقة وعاد أدراجه بين الفيافي في الصحراء فتيقن الروم أنهم نجحوا في رده على أعقابهم .

معركة عين شمس : (يونيو سنة ٦٤١) :

علم عمرو بن العاص أن المدد الجديد قد وصل إلى بلييس فخشي أن يتمكن الروم من قطع الطريق بينه وبين المدد وهو على الضفة الغربية للنيل ، خاصة وأنه يعلم أن حصن بابليون لازال بكامل قوته فأسرع بالعودة من أقصر طريق مستترا بالظلام وعبر النيل شمال أم دينين لكيلا يتعرض للروم فيؤخره ذلك عن الوصول إلى هدفه . وتمكن من الالتقاء بالزبير بن العوام^(٢) الذي كان على رأس المدد في منطقة هليوبوليس ولم يكن بهذه المدينة إلا أطلال فقام عمرو باتخاذها كنقطة تجمع حيث تتوفر بها الماء كما يوجد بها هيئات يمكن الاستفادة بها في المراقبة وفي ستر الجيش . وبدأ ينظم جيشه ليقوم بالمعركة الفاصلة .

خطة عمرو بن العاص :

علم عمرو أن الروم قد جمعوا قواتهم وعزموا على مهاجمته فقام بتوزيع قواته للقاء عدوه فوضع كتيبة (٥٠٠ رجل) بقيادة خارجة بن حذافة في منطقة أم دينين وأرسل كتيبة أخرى إلى منطقة تسمى قلعة الجبل فانحسروا في منار بني وائل بالجبل الأحمر ، وجعل هذه التحركات ليلاً فلم يشعر بها أحد . وفي أول ضوء تحرك بجيشه للقاء جيش الروم الذي كان قد اتخذ طريقه من حصن بابليون لمقابلة عمرو عند عين شمس .

سير المعركة :

تحرك جيش الروم في عشرين ألف مقاتل بين البساتين قاصداً عين شمس وانحدر عمرو بباقي جيشه حتى بلغ موضع العباسية واستعد للقاء الروم في السهل .

ولما تقدم الروم النحم الجانبان في معركة جنيفة وعلا غبار المعركة . وبناء على تخطيط عمرو انحدرت كتيبة قلعة الجبل فهاجمت مؤخرة الروم بعنف بالغ فأصيبوا بالذعر من هول المفاجأة واضطربت صفوفهم وتجمع عدد كبير منهم يريدون أن يلوذوا بحصن أم دينين .

(١) كانت هذه القوة حوالى كتيبة بقيادة رجل اسمه حنا وقد حزن الروم لقتله .

(٢) جاء الزبير بن العوام بكتاب من عمر بن الخطاب يقول فيه إنى قد أمدتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل رجل مقام ألف مثل الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعجدة بن الصامت وخارجة بن حذافة . وأعلم أن معك اثني عشر ألفاً ولا تغلب اثني عشر ألفاً من قلة . . . كتاب الفاروق عمر ج ٢ صفحة ٩٩ .

وتعرض الروم لمفاجأة أخرى عند أم دنين عندما برزت كتيبة خارجة من حذافة من اتجاه غير متوقع وأوغل فيهم فلما أدى إلى زيادة ارتباكهم وتفرقهم . وقد هلك عدد كبير من الروم في المعركة أثناء الانسحاب خاصة في النيل عندما اتسموا النجاة في ركوب السفن التي على النهر .

ومال عمرو بن العاص يبعثه بعد أن طارد الروم فدخل أم دنين مرة أخرى وهرب باقي الروم إلى بابليون استعداداً للقاء آخر مع العرب .

ونحرك عمرو بعد ذلك إلى مصر فاستولى عليها دون التعرض لحصن بابليون ووزع قواته في المنطقة شمال الحصن حيث أقيم فيها فسطاط عمرو^(١) .

معركة بابليون :

حصار الحصن :

لم يلبث الروم الذين لجأوا إلى حصن بابليون أن ركبوا السفن واتجهوا شمالاً على صفحة النيل في اتجاه الاسكندرية واحتل معظمهم حصن « نقيوس » كما أدخل الرومان منطقة الفيوم واتجهت هذه القوات شمالاً إلى الاسكندرية . وقام عمرو بتشكيل عدد من الكتائب الخفيفة وأرسلها بسرعة - مستغلاً نجاحه في معركة عين شمس في عدة اتجاهات وتمكن من السيطرة على الفيوم ومنطقة غرب الدلتا حتى المتوفية وأصبح متحكماً في جميع الأراضي حول حصن بابليون ، ولعله قصد بذلك أن يشعر حامية الحصن باليأس .

لم يتابع عمرو مسيرته إلى الاسكندرية قبل أن يستولى على بابليون حتى لا يشتت قواته كما أنه علم أن وقت الفيضان قد اقترب فجمع قواته شرق النيل وأحكم الحصار حول حصن بابليون . . وأرجأ اقتحامه إلى ما بعد انحسار مياه الفيضان مما يسهل عليه مهاجمته ويفت في عضد حاميته نتيجة لطول فترة الحصار . وقد بدأ حصار الحصن خلال شهر أغسطس .

السعى للصلح :

كان المقوقس في الحصن وظل يحرض الرومان على القتال فاستخدموا المنجنيق والسهام فلم يؤثر ذلك على القوات المحاصرة . وبعد أن دام الحصار أكثر من شهر وأيقن المقوقس أن المدد لن يتيسر وصوله قبل عدة أشهر . نظراً لأثر الفيضان على الأراضي المحيطة كما أن السفن لن يمكنها التحرك من الشمال إلى الجنوب بسهولة عكس التيار في هذا الموسم بالذات . وأحس بقوة العرب فتصح القادة الذين معه بالسعى للصلح مع المسلمين وبعد أن أقنعهم برأيه أرسل إلى عمرو في طلب الصلح وذلك خلال شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ .

وقد احتبس عمرو رسل المقوقس عنده يومين ثم ردهم إليه بشروطه « إما الإسلام أو الجزية . أو الحرب » وكان المقوقس يرى أن المسلمين في ظروف صعبة لتعرضهم لفيضان النيل فلما علم رد عمرو وسأل رسله عن أحوال

(١) بني عمرو بن العاص في هذا الموضع بعد ذلك مدينة الفسطاط ولذلك سميت بهذا الاسم .

المسلمين^(١) صيب لأمرهم ، ثم عمل على مصالحتهم ، وطلب مقابلة رسل من طرف المسلمين لتوقيع الصلح .
أرسل عمرو عبادة بن الصامت في عشرة من المسلمين ، وحاول المقوقس أن يصرفهم إلى غير ما بلغه من الحصال
الثلاث ولكنهم أبوا - فطلب الهدنة لمدة شهر ولكن عمرو أمهلهم ثلاثة أيام فقط .
فتح بابليون :

رفض الروم الحصال الثالث واستعدوا للحرب ووجدوا المهلة التي رخصها عمرو فرصة لمفاجأة المسلمين
وأخلعهم على غرة فخرجوا بكامل أسلحتهم قبل انتهاء تلك المهلة وباغتوا العرب .
ولكن جيش المسلمين لم يفاجأ وإنما أمرعوا إلى سلاحهم وقاتلوا الروم قتالا شديداً وقتلوا منهم أعداداً كبيرة
ثم تكاثروا عليهم ومنعواهم من العودة إلى حصونهم وهزمهم شر هزيمة .

عاد المقوقس مرة أخرى ينادى بقبول الصلح مع عمرو على أن يدفعوا الجزية دينارين على كل فرد من أهل
مصر من القبط - ولكنه طلب أن يبقى الجانبان كل في موضعه حتى يوافق هرقل إمبراطور الروم على الصلح .
ووافق عمرو على ذلك وحمل المقوقس الصحيفة وسافر إلى الاسكندرية ومنها إلى القسطنطينية لعرضها على هرقل .
رفض هرقل الموافقة على الصلح وعزل المقوقس وأمر بأن يقاتل جيش الروم الغزاة وعلم عمرو ذلك في نهاية
عام ٦٤٠ فأنهت الهدنة وعاد القتال بين الطرفين وتحصن الروم خوفاً من هجوم العرب ولم يأتهم مدد وطاق الحصار
حتى شهر مارس سنة ٦٤١ وأوشك ماء النيل على الجفاف ومات هرقل قبل ذلك في فبراير وصم المسلمون من طول
فترة الحصار .

وقد صمم الزبير بن العوام على ارتقاء أسوار الحصن وطلب من المسلمين أن يكبروا عندما يسمعوا تكبيره
فوضع سُلماً واعتل الحصن ولما كبر وكبر المسلمون فزع الروم وظنوا أن المسلمين قد اقتحموا عليهم حصنهم فساد
المرج والمرج وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه فدخل المسلمون شاهرين سيوفهم وكان ذلك في الأيام الأولى من
شهر إبريل سنة ٦٤١ واستسلم الروم وطلبوا مصالحتهم على أن يغادروا الحصن بدون أسلحتهم وأمتعتهم فقبل عمرو .
ولكنهم قبل أن يرحلوا من الحصن قتلوا كل من حبسوه من القبط المصريين .

أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يستأذنه في التحرك إلى الاسكندرية فوصله الإذن بذلك بعد شهر واحد
من تمام الاستيلاء على بابليون .

فتح الاسكندرية :

تولى حكم الإمبراطورية الرومانية بعد هرقل الإمبراطور قسطنطين ابنه فأرسل في طلب المقوقس ليستعين به .

(١) قال رسل المقوقس : « رأينا يوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إلهم من الرفعة » ليس
لأحدهم في الدنيا رغبة ولا شهوة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيقهم
من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويحشمون في صلاتهم « فقال المقوقس » والذي
يخلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها .

في قتال العرب وأعد جيشاً كبيراً بقيادة تيودور ليكون مدداً لقوات الروم في مصر . وما لبث فسطاطين أن مات فخلعه ابنه . ولم يمنع هذا من خروج الجيش ووصول القوقس إلى الاسكندرية في سبتمبر سنة ٦٤١ بينما كان عمرو ابن العاص يحشد أهل أحيائها عند كربيون .

التحرك إلى الاسكندرية :

تحرك عمرو من بابلون بعد استلامه الإذن من الخليفة في مايو سنة ٦٤١ فالتزم الجانب الغربي لقرع النيل وركز في الاستيلاء على حصن نقيوس (شمال منف) الذي كان على الضفة الشرقية لبحر النيل وقابل في طريقه بعض المقامات عند طرنوط (جنوب منف) فتغلب عليها بسهولة .

ولم يكن من السهل على عمرو عبور النهر مع انخفاض الماء فيه في ذلك الوقت من السنة . كما أنه خشى أن يتركه شوكة في ظهره ولم يكذب فكر في خطته حتى فوجيء بحامية الحصن تخرج إليه عبر النهر في السفن فجمع قواته من القرسان وهاجمهم أثناء نزولهم إلى الضفة الغربية وطاردوهم إلى الماء ورموهم بالنبل ، فتخلى الروم أن يتبعهم المسلمون فنجحوا فانسحبوا بسفهم إلى الشمال وهربوا إلى الاسكندرية فاستسلم من بقى من الروم في نقيوس ودخلها عمرو بدون مقاومة . وقتل مكل من فيها .

وقد أرسل عمرو قوة لمطاردة الفارين من حصن نقيوس وجعل عليها شريك بن سمي ، فلما اقترب منهم وجدوه على قلة . فالتفتهم فنادوا إليه وأحاطوا به فاستنجد بعمرو فأرسل إليه مدداً فلما رأوا المدد تركوه واستمروا في سيرهم إلى الاسكندرية وقد سمي هذا الموقع بـ كرم شريك .

وهنا جمع عمرو بقية جيشه واستمر في السير إلى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا على يد سلططين (جنوب منفون بـ ستة أميال) فدارت معركة عنيفة انتهت بفرار الروم وهربوا إلى حصن كربيون .

معركة كربيون : (سنة ٦٤١) :

كانت قوة جيش المسلمين بعد معركة بابلون ١٥,٠٠٠ أو تزيد ذلك لأن الخليفة أمد عمرو بمدد علاوة على من انضم إلى جيش المسلمين من المصريين بينما جمع الروم بكل قواتهم في كربيون وكان تيودور قد وصل بالمدد إلى الاسكندرية فسارع للقاء عمرو عند كربيون .

وتقابل الطرفان عند كربيون واشتد القتال وكانت كفة الروم أرجح لكثرة عددهم ولكن المسلمين بذلوا غاية جهدهم ، واستمرت المعركة سجلاً لعدة أيام ترجح تارة في جانب الروم وتارة في جانب المسلمين وقتل عدد كبير من الجانبين وبعد أكثر من عشرة أيام تمكن المسلمون من اقتحام حصن كربيون وانسحب الروم إلى الاسكندرية .

حصار الاسكندرية :

لم يتوقف عمرو عند كربيون إلا ريثما يعيد تنظيم قواته ثم استأنف السير إلى الاسكندرية وأندفع بكل قواته من جهة الشرق وهي الجهة الوحيدة التي يمكن الاقتراب منها وهمل المسلمون مكبرين ولكمهم فوجئوا بالحجارة الثقيلة

نهال عليهم بمنف بالغ فقد قصفت الجانبين قلائف متلاحقة سيئت أضرارا كبيرة بالمهاجمين مما أدى إلى ارتداد جيش المسلمين .

وقد أعاد عمرو تجميع قواته شرق المدينة وعسكر في هذه المنطقة شهرين كاملين منتظرا أن يخرج له الروم ليقاثلهم ولكنهم ظلوا متمسكين بمحصونهم فحاول مهاجمة المدينة من جهة المكس إلا أن الروم دفعوا بقوة كبيرة من جهة البحيرة وقامت بقتال المسلمين وقتلت منهم ١٢ رجلا ثم عادت مسرعة إلى الحصن قبل أن يلحق بها عمرو .

وكان عمرو قد نبذ فكرة اقتحام المدينة ببيشه عنوة وهي على هذه الدرجة من المنعة والقوة وخشى على جيشه من الملل واليأس فشكل عدداً من الكتاب وأرسلها في جهات مفرقة من الدلتا لمطاردة الروم وبقي يباقي الجيش محاصرا الاسكندرية وقد دام هذا الحصار أربعة أشهر أو تزيد .

دخول الاسكندرية :

وصلت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستعجله في فتح مصر وبدأها بقوله : « أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاثلون منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب حلوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا يتصر قوماً إلا بصدق نياتهم » وحته في نهاية كتابه على الدعاء إلى الله يوم الجمعة ثم مهاجمة المدينة مرة واحدة .

وقد قام بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الجند ثم اتبع ما فيه وتم له اقتحام المدينة عنوة في أول المحرم سنة ٢٠ هـ أحد أيام شهر نوفمبر سنة ٦٤١ ولم يرد تفصيل فتح الاسكندرية في رواية أحد من المؤرخين بل أن بعضهم ذكر أن المقوقس جمع الجزية وحملها إلى قائد المسلمين وبذلك تم الفتح . إلا أن هذا المؤرخ ، وهو «بتلر» في كتاب فتح العرب لمصر ، لم يؤكد أن هناك صلحاً جرى بين عمرو والمقوقس غير صلح بابليون . ولا غرابة في أن يكون المقوقس قد سعى في جمع الجزية والاتفاق مع عمرو على أسلوب إجلاء الروم عن مصر كلها . وذلك بعد فتح الاسكندرية عنوة كما ورد في رواية جميع المؤرخين .

تحليل فتح مصر :

تظهر لنا أحداث فتح مصر أن عمرو بن العاص كان على درجة كبيرة من الدهاء وحسن تقدير الموقف فقد سبق له زيارة مصر وكان يعرف مدى ما وصلت إليه من تفكك ، كما كان يعلم كثرة خيانتها ولذلك أصر على محاولة إقناع عمر بن الخطاب بتزوها .

وقد كانت قوة الروم في مصر لا تقل عن ١٥٠ ألف جندي . فكان لدى الروم في حصن الفرما ما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ بدليل إحجام عمرو عن المجازفة بمهاجمة الحصن في أول الأمر . وكان جيش الأطربون في معركة بليس ١٢,٠٠٠ - كما يعتقد أن قوة الروم في أم دنين لا تقل أيضاً عن ١٠,٠٠٠ وفي بابليون أكثر من ٢٠ ألفاً بدليل أن هذا البلد تمركز في معركة عين شمس لمقابلة عمرو ، هذا بخلاف باقي الحصون مثل نقيوس والروضة والفيوم وغيرها من مدن الوجه البحري ، خاصة عند تانيس ودمياط التي ورد أن عمرو أغار عليها قبل عين شمس وكان بها ٢٠,٠٠٠ كما كان بالاسكندرية ٥٠,٠٠٠ غير ما كان في كريون ولم يكن جيش عمرو يزيد عن ١٥ ألفاً بعد المدد الثالث ، كما جاء في معظم كتب المؤرخين . أي أن المقارنة كانت ١٠ : ١

وكان تنظيم الدفاع عن مصر متوازناً ولكنه كان يفترض إلى المرونة فقد لاحظنا أن كل حصن كان به القوة الكافية التي تتميز بالنشاط في محاربة الحصم ، ولكن على المستوى العام لم يحاول الرومان توجيه الضربات لإنقاذ حصن محاصر أو قطع الإمداد عن العرب وكان ذلك ممكناً بالقياس إلى قلة عددهم وعدم إلمامهم بظروف الأرض— كما أن الروم كان لديهم من القوات ما يمكنهم من القيام بمثل هذه الضربات .

تميز عمرو بن العاص بالتحمل وتنفيذ مبدأ المخاطرة المحسوبة فلم يكن يقوم بمهاجمة الحصن إلا بعد عمل تقدير موقف سليم لقواته ومقارنتها بعدوه وتنفيذ ذلك في الوقت المناسب عقب عملية مطاردة بحيث يضمن التمكن من أسباب النجاح .

نجحت كفاءة عمرو في خطته الدفاعية المحكمة في معركة عين شمس عندما تمكن من توجيه الضربات إلى أجناب ومؤخرة عدوه ، واستطاع بذلك أن يتغلب عليه ، بينما فشل قائد الروم في اغتنام أفضل الفرص عندما كان العرب محاصرين بمياه الفيضان حول بابلون .

نجحت كفاءة القائد العربي في قيامه بتنفيذ الإغارات على القرى والأقاليم المجاورة فجلب الاحتياجات اللازمة لقواته ، وبث الذعر بين المصريين . ويعتبر ذلك نوع من الحرب الوقائية الذي كان له أثره ، إذ كان المصريون بصفة مستمرة متعاونين مع العرب ضد الروم ، كما تبين في أقوال كثير من المؤرخين .

الفصل الثالث

النصر العظيم في « حطين » (*)

إن استعراضاً دقيقاً وموجزاً لوقائع معركة (حطين) الحاسمة التي شكلت نقطة تحول بارزة في التاريخ الحربى للناصر صلاح الدين الأيوبي ، والتي كانت معركة فاصلة بين الجيوش الإسلامية من جهة وجيوش الصليبيين من جهة أخرى ، ليؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن العسكرية المصرية كانت تقف بكل أصالتها خلف هذا النصر العظيم الذى أحرزه الجانب الإسلامى ، فإننا حينما نقوم باستعراض القوات التي استنفرتها الناصر صلاح الدين من الدول الإسلامية التي كانت قد وحدت تحت رايته ، فلسوف نتبين أن جند النبل كانوا يشكلون قسماً واضحاً ومؤثراً من هذا الجيش الإسلامى الكبير والذي جمع جند مصر وسوريا وحلب والجزيرة العربية وديار بكر .

ومكذا يمكننا أن نلقى بنظرة فاحصة على قوات الجانبين عشية القتال في حطين :

أولاً : قوات صلاح الدين :

كانت القوة الضاربة لصلاح الدين مقسمة إلى ثلاث فرق يقود كل منها أحد القادة العظام ، وفي ليلة المعركة قام القائد الأعلى باستعراض قواته التي تألفت من نحو ٢٥ ألفاً (١٢) ألفاً من الفرسان ومثلهم من المشاة) ويعين ابن أخيه « تقي الدين عمر » لقيادة الميمنة ، والقائد الشهير « مظفر الدين كوكبرى » لقيادة الميسرة بينما تولى بنفسه قيادة القلب .

كانت فرق صلاح الدين مقسمة إلى لواءات يقود كل منها أمير ، ثم كتائب يقودها أمراء أصغر ، مكون كل منها من مائة فارس ، فطيلخانات (٤٠ - ٧٠) فارساً ، وهي السرية الحالية ثم « جند الحلقة » (٤٠) فارساً وهي الفصيلة ، وأخيراً أمراء العشراوات وكل منها مكون من عشرة جنود ، وهو ما يعرف حالياً بالجماعة .

ثانياً : قوات الصليبيين :

في عام (١١٧٨ ميلادية) حينما وقعت معركة « حطين » كانت القوات الصليبية تحتل الأجزاء الساحلية من فلسطين بالنظر إلى اعتمادها على خطوط مواصلاتها البحرية عبر البحر المتوسط إلى أوروبا لإمدادها بالرجال والعتاد والأسلحة . أما تحصيناتهم فكانت تعتمد على سلسلة من القلاع القوية في الدفاع والهجوم ، وبذلك ارتكزت استراتيجيتهم على الحصون من جهة ، وعلى الساحل للتموين والإمداد من جهة ثانية . أما على طول الحد

(*) من دراسة المؤرخ المسكرى محمد فيصل عبد المنعم .
« الناصر صلاح الدين » - دار المعارف - القاهرة ، تحت الطبع .

الجنوبي لفلسطين - صحراء النقب - فقد أقام الصليبيون سلسلة من القلاع تبدأ من «زعبرة» على الطرف الجنوبي لبحيرة «طبرية» فالكرك ومعاب ومونفريل وساموا والكرمل وبيت جبريل ودروم .

وخلف هذا النظام الدفاعي ، أقيمت قلاع بفورت وشطنوف وفوار وصفد والقسطل وغيرها بهدف الدفاع عن وديان بحيرة طبرية والأنهار المتفرعة منها ، بينما أقيمت في الشمال سلسلة أخرى من الحصون في عكا والكرك (غربي حمص) وبازين (المشرقة على جبال لبنان) ، بينما تم تحصين مدن «صور» و«صيدا» و«بيروت» تحصيناً قوياً للغاية .

وقد حشد الصليبيون - عشية حطين - جيشاً يتألف من نحو ٥٠ - ٧٠ ألفاً من الفرسان والمشاة ، وبذلك بلغت نسبة التفوق العددي على قوات صلاح الدين ٢ - ١ ، في حين تولي قيادة قوات المقدمة «ريموند» ، وقاد الملك «جى» قوات القلب ومعه بطريرك «عكا» حاملاً خشبة الصليب المقدسة ، أما المؤخرة فتألفت من فرسان «الداوية» و«الاستبارية» .

سير المعركة :

بعد أن عقد الناصر صلاح الدين اجتماعاً حريماً في «عشري» مع كبار قادته وبحضور أخيه الملك العادل استقر رأيه على الدخول فوراً في معركة فاصلة ضد قوات الصليبيين ، ونبذ أسلوب الدفاع حتى لا تنزعزع ثقة الجند ، كما عرض صلاح الدين على المجلس خطته بعد «حطين» ، والتي قرر فيها أن يتبع كسر الصليبيين في «حطين» بالعمل على غزو فلسطين والمناطق الساحلية على أساس المبادأة بالهجوم «فالمبادأة بالهجوم على العدو» - على حد تعبيره - «تجعله متقاداً لرغباتنا وتجعل مصائب الحرب على رأسه» .

وهكذا قاد صلاح الدين جيوشه يوم الجمعة ٢٥ ربيع أول ٥٨٣ هـ - ٣ يولييه ١١٨٧ م . في اتجاه بحيرة طبرية بحيث يستند ظهرها إلى البحيرة حتى يحول بين العدو ومياهاها ، وللعمل على استدراج قوات الملك «جى» للدخول معه في معركة فاصلة يتم له فيها تدميرها بالكامل ، وعندما قام صلاح الدين بالمرور على قواته التي احتلت الجهة الغربية للبحيرة ، كانت قد احتشدت حيث أراد القائد الأعلى بالدقة : أمام «أرض القتل» !

ومع الخيوط الأولى لفجر السبت الرابع من يولييه ١١٧٨ م ، نشب القتال بين الفريقين عندما التحمت فرسان صلاح الدين مع فرسان الملك «جى» في مشهد رهيب ينخطف الأبصار حيث اختلطت الخيل بالأجساد والسيوف والرماح ، بينما انعقدت فوق ساحة القتال سحابة هائلة من الأتربة ، أما الأرض فقد غطتها جثث القتلى من الجانبين .

في البداية حاول فرسان الصليبيين اختراق صفوف خصومهم والتقدم نحو بحيرة «طبرية» وينابيع المياه بوادي حمام حول قرية «حطين» ، وهنا تقدم الناصر صلاح الدين على رأس فرقة القلب ليقوم بتحطيم محاولات الصليبيين بعد أن أحدث في صفوفهم ارتباكاً عظيماً ، على حين نجح في عزل مؤخرتهم عن بقية الجيش . وفي ذات الوقت أمر القائد العظيم فرقة المزارقين^(١) فأشعلوا هشيم الحشائش بالنار التي سرعان ما تأججت تحت أقدام حوافر الخيل فأحدثت بين صفوف الصليبيين هياجاً شديداً .

(١) المزارق : عود من الخشب المجوف من القصب الفارسي ، وفيه ستان يشبه الرمح المجوف وبداخله سهم مهلك ، وهذا الرمح يمكن أن يملن به أو «يزرق» به ، وهو من أسلحة القتال الفعالة في ذلك العهد .

وهنا اجتمع فيط الحمر اللانح وشمس يوليه الحارة مع العطش والنار والدخان لتدور الدائرة على جيش الملك «جى» ، وعندما رأى (ريموند) شدة هجمات فرسان صلاح الدين وخرج موقف قواته ، قاد هجمة مستميتة على مينة وميسرة جيش صلاح الدين في آن واحد ، لتجلى عبقرية القائدان العريبان «تقى الدين عمر» و «مظفر الدين كوكبرى» اللذان أفسحا له طريقاً للتقدم بين فرقتيهما فانخرق صفوف المسلمين وهو يحسب ذلك نصراً ، وهنا أغلقا عليه دائرة الحصار ليقوم جنود «مظفر الدين كوكبرى» - الذى قال عنه صلاح الدين فيما بعد أنه لو لم تكن له إلا واقعة «حطين» لكفته - بالميل مائة رجل وأحد على فرسان «ريموند» الذى لم يجد له سيلاً للخلاص إلا بمحاولة التخلص من المعركة والفرار إلى «صور» ومنها إلى قاعدته بطرابلس بعد أن تكبدت قواته خسائر فادحة بما أضعف صفوف الصليبيين فلتحق به «بول» «قائد الاستبارية» و «وياليان» أمير «بيت جبريل» - و «رينولد» أمير «صيدا» وغيرهم .

ويقود الناصر صلاح الدين هجمة بارعة على قلب جيش الصليبيين ليبدد قسماً كبيراً منهم ، وبذلك أدرك الملك «جى» أنه لا نجاة له إلا بالقتال حتى الموت ، فحمل على قوات صلاح الدين حملة مستميتة أحبطتها صلابة قوات المسلمين الذين رنت عيونهم نحو القائد الأعلى ، فأحاطت بجيوش الملك «جى» احاطة السوار بالمعصم ، وهنا قام الملك «جى» بمحاولة الأخيرة فصعد بقواته إلى تل «حطين» محارلاً اتخذ مواقع بلحيته في هذا المكان المرتفع انتظاراً لنجدات لن تأتي !

وعند ذلك أصدر صلاح الدين أوامره بملاحقة قوات الصليبيين التي تداعت تحت وطأة ضربات فرسان المسلمين حيث دار هناك قتال دام رهيب انتهى في مغرب شمس ذلك اليوم المشهود بسقوط خيمة الملك الصليبي واستيلاء فرسان صلاح الدين عليها ، وهنا تزل الصليبيون من أعلى التل وقد رفعوا أيديهم مستسلمين بعد أن ألقوا أسلحتهم ، ليتم أسرهم وعلى رأسهم الملك «جى» .

وعندما كان قرص الشمس يميل إلى الغروب ، سرح القائد صلاح الدين ببصره في ميدان المعركة الذى اصطبغت رماله باللون الأحمر من كثرة ما أريق فوقها من دماء .. كانت الهزيمة التي أصابت زهرة شباب الجنود من جيش الصليبيين ساحقة حقاً .

وكما هي العادة في المعارك الكبرى ، كانت الخسائر الفادحة قد أصابت جيوش الملك «جى» في خلال الانسحاب المذعور ، حيث قام فرسان صلاح الدين في القضاء على البقايا الضعيفة من فرسان الصليبيين ، بينما بدأت قوات المشاة في جمع الأسرى والخيول والأسلحة التي سبجها أصحابها ..

كان واضحاً تماماً للناصر صلاح الدين في تلك اللحظات أن الروح المعنوية لأعدائه قد اهتزت اهتزازاً عنيفاً ، حيث تظل الحسارة المعنوية في المعارك بمثابة العامل الرئيسى لتحقيق النتائج الحاسمة، لقد كانت هجمات جيوش صلاح الدين على فرق الصليبيين المدرعة الشجاعة الجماعية داخل تشكيلات الملك «جى» المنضمة جيدة التدريب ، لتصبح المقاومة الفردية أمراً مستحيلاً ، وهكذا أصبح الخطر بالنسبة لجنود الصليبيين عقاباً أليماً بدلاً من أن يكون حافزاً على اقدام .

وهكذا كانت أبعاد هذا النصر العظيم في «حطين» بمثابة بداية النهاية للوجود الصليبي في الأراضي المقدسة ، ففي نفس هذا اليوم الذى لا ينسى ، قر قرار القائد المتصر صلاح الدين على تغيير استراتيجيته في الكفاح المسلح

ضد الوجود الصليبي في فلسطين ، وذلك باتباع أسلوب الفريجات المتلاحقة دون هوادة ، ذلك الأسلوب القتالي الذي طبقه صلاح الدين في دقة مثيرة وبراعة أذهلت خصومه وأطاشت صوابهم ، ونعني به أسلوب الحرب الخاطفة وحرية الحركة .

بعد « حطين » :

لم تكن « حطين » مجرد انتصار عسكري في موقعة حربية جرت بين المسلمين والصليبيين في ربوع الأراضي المقدسة ، بل يمكن اعتبارها بمثابة « بداية النهاية » لتلك المملكة التي أقامها الصليبيون في فلسطين والشام في القرون الوسطى ، وإذناً بأقول نجمهم ، فإلى جانب أسر ملكهم ونبلائهم وضياع هبة المملكة وسلطانها الفعلية إلى غير رجعة ، فقد كان من آثارها ذلك النقص الملحوظ الذي أصاب الصليبيين بعد سقوط زهرة فرسانهم في « حطين » ما بين قتل وأسير ، « فن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتل » على حد تعبير المؤرخ « أبي شامة » .

لقد تجلت عبقرية الناصر صلاح الدين بعد موقعة « حطين » مباشرة ، حيث خلص من تقدير موقفه وموقف خصومه تقديراً سليماً بعيد النظر ، فأيقن بعد تلك المعركة الفاصلة أن الصليبيين باتوا تحت رحمة ، وهنا قرر قراره على انتهاج أسلوب الحرب الخاطفة وحرية الحركة بهدف الضرب على الحديد الساخن منزهةً تلك المرة التي أصابت الروح المعنوية لأعدائه بعد انكسارهم الحاسم في « حطين » ليستولى على المدن والقلاع الصليبية بأقصى قدر عرف في ذلك العصر من خفة الحركة وقوة الصلعة .

كذلك ينبغي الإشارة هنا إلى أن صلاح الدين بقراره هذا كان يهدف — على الجانب الآخر — إلى منع التجددات والإمدادات التي كانت تتوالى على أعدائه من الطريق الأوحده الذي كان يربطهم بالقارة الأوروبية آنذاك ونعني به طريق البحر ، وأخيراً كان هذا القرار يكفل تأمين خطوط مواصلات صلاح الدين البرية الطويلة والتي كانت تربط أطراف مملكته الشاسعة في الشام ومصر .

لقد عكست تلك النظرة الاستراتيجية الثاقبة لصلاح الدين في أعقاب « حطين » عن فكر عسكري ناضج مكث من تقدير أبعاد المعرفة العميقة للمعطيات السياسية العليا للدولة ، ومن ثم انطبقت إدارته للحرب على السياسة ، ليصبح صلاح الدين « رجل دولة » بالمعنى الحقيقي إلى جانب كونه قائداً عسكرياً طبقت شهرته الآفاق .

كما يجدر بالذكر كذلك ، أن الناصر صلاح الدين أدرك إدراكاً عميقاً بأنه لن يتمكن من غرس الفضائل الحربية لدى قواته العسكرية والتي كانت تعتمد على النظام الإقطاعي إلا من منبعين رئيسيين لا غنى عنهما معاً ، الأول هو سلسلة من الحروب والانتصارات العظيمة ، أما الثاني فهو نشاط الجيش الذي عمل على الوصول به إلى أقصى قدر من الجهد ، وهكذا فكلما كبر الجهد الذي كان يطالب به القائد الأعلى جنوده ، كلما ازدادت ثقته في الحصول عليه وبنلك اعتر جند صلاح الدين بتخطي المخاطر أكثر من اعتزازهم بالفرار منها .

بن فكي الكاشة :

لم يضع صلاح الدين وقتاً بعد « حطين » ، فلكي يضع هذا القرار الاستراتيجي موضع التنفيذ ، بادر على الفور بإصدار تعليماته إلى أخيه الملك العادل في مصر ، يأمره فيها بالزحف على رأس قواته على فلسطين من اتجاه

الجنوب الغربي ، بينما قام بقيادة قوات الشمال ميمماً صوب عكا بمحصولها المنيع القوية بهدف إحكام طرفي الكاشة على بيت المقدس – قدس أقداس المسلمين والتي أحكم الصليبيون قبضتهم عليها – من الشمال والجنوب في آن واحد .

لقد شكل هذا التصميم على احتلال عكا أولاً تطبيقاً مثيراً ودقيقاً لنظرية « الاقتراب غير المباشر » INDIRECT APPROACH والتي قام الكابتن « سير بازل ليدل هارت » البريطاني بوضع أسسها بعد صلاح الدين بأكثر من سبعة قرون من الزمان ، كذلك أدرك القائد العربي العظيم تمام الإدراك أن سقوط عكا المنيع بعد نصر « حطين » الحاسم ، سيكون بمثابة المسار الأخير في نعيش مملكة الصليبيين بالشام ، لتسقط بعدها « بيت المقدس » في يده كالثمرة الناضجة .

ويصاب من يقتنى آثار تحرك صلاح الدين على رأس جيوشه في القطاع الشمالي للشام بالدهشة من تلاحق ضرباته السريعة – كسيل جارف من النار – والتي وجهها نحو قلاع الصليبيين ومدنهم المحصنة ، والتي سرعان ما تهاوت تحت وطأة ضرباته القوية بعد ذلك .

الفصل الرابع

معركة المنصورة (*)

هكذا كانت مصر — منذ القدم — الصخرة التي تحطمت عليها أحلام الطامعين وغزوات المغامرين . . . ولعل من أروع ما سطر التاريخ العسكرى ذلك الدور الحاسم الذى قامت به القوات المصرية فى تحطيم الغزوة الصليبية التى استهدفت مصر والعرب فى القرن الثالث عشر الميلادى .

إن استعراضاً موجزاً ودقيقاً لدور مصر التاريخى الذى فرضه عليها القدر لحماية الأمة العربية جمعاء من غزوات التار والمغول والصليبيين وكافة الهجمات الاستعمارية الضارية عبر القرون ، ليثبت لنا — بما لا يدع مجالاً للشك — أصالة هذا الشعب العربى فى مصر وعراقته وجهاده المتواصل فى الذود عن الوطن العربى الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج .

إننا هنا نتعرض لواحدة من أهم وأخطر تلك الغزوات الشرسة ، التى بدأتها جيوش الصليبيين هناك فى الشرق — على ثرى الأرض الطيبة فى فلسطين وقادها ملك فرنسا بنفسه — لويس التاسع — على رأس جيش ضخم من غلاة المتعصبين الذين تسرّوا تحت ستار الدين — وهو منهم يراء — ذلك الدين الذى تدعو تعاليمه التى بشر بها السيد المسيح عليه السلام إلى المحبة والحب والخير .

جامعوا فى غزوة صليبية مدعومة بالفرسان والمدافع وآلات التدمير والملاك ، ليوطلوا أقدامهم فى مصر ، حتى يتم لهم القضاء على الأمة العربية بعد أن تسقط درة الشرق وعاصمة العرب ولكن هذا الشعب المكافح الذى استنفره وحشد طاقاته هذا العدوان السافر قام عن بكرة أبيه ، ليخوض معركة خالدة فى دمياط والمنصورة ثم له فيها القضاء على هذه الغزوة الظالمة ، وهكذا دقت مصر العربية المسمار الأخير فى مصير الحملة الصليبية بأسرها والتى اضطرت بعد تلك الهزيمة إلى الانحسار ، ليعود من تبقى من هؤلاء الغزاة إلى البلاد التى وفدوا منها .

الدفاع عن دمياط :

فى أواسط القرن الثالث عشر وفى عام ١٢٤٨ ميلادية على وجه التحديد — كان الملك الشاب لويس التاسع ملك فرنسا يضع اللمسات الأخيرة لحملة الصليبية التى استهدفت غزو مصر والاستيلاء عليها . وبينما كان حاكم مصر آنذاك السلطان الصالح نجم الدين — حفيد الناصر صلاح الدين العظيم — موجوداً فى الشام لإخضاع بعض الاضطرابات هناك تناهت إلى أسماعه الأنباء الأولى عن هذه الحملة الأوروبية والتى كانت قد أبحرت بالفعل تقصد الشواطئ المصرية. ويشاء سوء طالع هذا الحاكم الشجاع ، أن تتضاعف همومه ، حين أصيب فى تلك الأثناء بالتهاب رئوى خطير ، ليعود إلى مصر محمولا على محفة ، لعجزه عن امتطاء صهوة جواده .

(*) المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم .

حينما وصل السلطان نجم الدين بن أيوب إلى « أشموم » - بالقرب من المنصورة - في نيسان (ابريل) ١٢٤٩ كانت كل الدلائل تشير إلى أن هدف الحملة الصليبية هو احتلال دمياط ، ثم استكمال السيطرة على بقية أنحاء البلاد . . .

وهكذا أصدر نجم الدين تعليماته بالبدء فوراً في تقوية وسائل الدفاع عن المدينة وتخزين المؤن والسلاح فيها ، بعد أن تم حشد حامية قوية للدفاع عنها . وبينما كانت هذه الإجراءات تجري أرسل السلطان جيشاً تحت قيادة فخر الدين - أمير المماليك البحرية - إلى الجانب المثل على النيل من دمياط بهدف منع نزول الصليبيين على الشاطئ ، بينما قام السلطان نفسه بالمرابطة على رأس قواته في موقع حصين أمام المدينة استعداداً للقتال الوشيك .

إنذار ورفض :

يذكر المؤرخون أن الملك لويس التاسع - ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية - قد أبحر من ميناء مرسيليا في ٢٥ آب (أغسطس) عام ١٢٤٨ على رأس أسطول بحري ضخم تحرسه قوة عظيمة من سفن القتال ، في نحو ١٨٠٠ سفينة تحمل ٨٠ ألف مقاتل بمؤنهم وعتادهم وخيولهم . .

وفي يوم الرابع من يونيو ١٢٤٩ ، وصل الأسطول الفرنسي إلى المصب الشرقي للنيل ، حيث قام بالنزول إلى المياه الضحلة قرب الشاطئ آلاف الفرسان تحت خوذاتهم القولاذية اللامعة ودروعهم الثقيلة ، حاملين سيوفهم المستقيمة ذات الحدين ورماحهم الطويلة . . وقد امتطوا ظهور الخيل ، ليتبعهم حملة الأقواس . . وقد حجبت الأفق صفوف المشاة المترصة تحت قيادة مليكهم الشاب . . بينما ارتفع العلم الملكي أمامهم .

وهكذا رست سفن الغزاة في دمياط ، على الجانب الآخر من النيل ، وتقدم رسول الملك لويس التاسع حاملاً إنذار الملك إلى السلطان نجم الدين بن أيوب . . كان الإنذار يقول :

.. أما بعد ..

« فإنه لم يخف عليك أتى أمين الأمة العيسوية . . كما أتى أعترف بأنك أمين الأمة المحمدية وأنه غير خاف عليك أن أهل الجزائر والأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار . . وقد أبديت ما فيه الكفاية . . وبذلت لك النصيح إلى النهاية . . فلو حلفت بكل الإيمان ، ودخلت على القساوسة والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصليبان ، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك . . فإن كانت البلاد لي فهي هدية وقعت في يدي . . وإن كانت البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة إلى . . وقد عرفتك وحلرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضاء . »

وصل هذا الإنذار من الملك لويس التاسع إلى السلطان نجم الدين ، وهو يعاني من وطأة المرض الشديد .. وما أن قرأه حتى أغرورقت عيناه بالدموع ، وقال رافعاً يديه إلى السماء « إنا لله وإنا إليه راجعون . . »

ثم أملى على القاضي بهاء الدين زهير رده ورد مصر على هذا الإنذار المتعجرف ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . وسلام الله وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، .
فلأنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فلتعلم أننا أرباب السيوف ، ما قتل منا فرد
إلا جددناه ولا بنى علينا باغ إلا دمرناه .

فلو رأت عينك - أيها المفرور - حولنا سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وأخربنا منكم
ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تقول بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره
عليك . فهناك تسمى بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب يتقلبون . . . فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على
أول سورة النحل : « أقر الله فلا تستعجلوه » . . . وكن على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وتعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع
الصابرين » وإلى قول الحكماء : « ان الباغي له مصرع ، وبغيك فيه مصرعك . . . وإلى البلاء يقلبك . . . والسلام » .

في اليوم التالي لوصول هذا الرد الشجاع الذي بلور موقف مصر الأبية دائماً ، وأوضح حرصها على القتال
حتى النهاية دفاعاً عن بقائها وحماية الأمة العربية ، إزاء هذا الجيش المتفوق عدداً وعدة ، والذي كان يجمع خلاصة
تقدم أوروبا وخبراتها القتالية وتقدمها التكنولوجي ، نقول في اليوم التالي دارت معركة قصيرة بين الفرسان الصليبيين
والقوات المصرية (من المماليك البحرية) بقيادة الأمير فخر الدين يوسف انتهت باستيلاء الفرنجة على دمياط
وغنموا ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة الكثيرة والأقوات والذخائر وغيرها .

وعندما وانت السلطان نجم الدين بن أيوب أبناء هذه الهزيمة ، وهو في فراش مرضه ، أمر باعدام خمسين رجلاً
من رجال حامية المدينة . . . ثم أصدر أمراً عاماً بالانسحاب إلى المنصورة ، حيث بدأت إجراءات الاستعداد للمعركة
الفاصلة الوشيكة ، كما أقبل المجاهدون من عامة الشعب لينضموا إلى المقاومة الشعبية التي أخذت في مناوشة الفرنجة
والإغارة على معسكراتهم ليلاً ، كما قاموا بأخذ العديد من الأسرى ونقلهم يومياً إلى القاهرة ، في محاولات مستمرة
لخفض الروح المعنوية للغزاة ، يقابلها ارتفاع مقابل في معنويات الجيش المصري الذي بدأ يحشد للدخول في المعركة .

الحرب للحياة :

وبينما مصر كلها تتأهب للحرب ، مات السلطان في يوم ٢ نوفمبر عام ١٢٤٩ ، وهنا بدأ دهاء الملكة شجرة الدر ،
التي أخفت نبأ وفاته حتى لا يتسرب الخبر إلى الفرنجة ، ثم استدعت الأمير فخر الدين وولته قيادة الجيش دون أن
يلدرى أحد بوفاة السلطان .

ما أن استقر الحال بجيش لويس التاسع في مواقعه بدمياط حتى بدأ العمل على تحصين معسكره بالأسوار والخنادق
والتاريس ، فنصب جنوده المنجنيقات وقاذفات الأحجار وراحوا يلقون بالصخور على جيش المصريين عبر ترعة
أشمون (أشمون) لعلهم يزحزحونهم عن مواقعهم ، بيد أن المصريين أجابوا ضربة بضربة وحجراً بحجر . . . وحمل
وطيس التراشق بينهما ليل نهار ، حتى أصيب جيش الفرنجة بنحساتر فادحة ومن ثم أدرك الصليبيون أن المصريين
يفوقونهم في هذا النوع من القتال الثابت ، فقر قرارهم على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم الخاطف ، والدخول
في معركة فاصلة ، واعتقد الفرنسيون أن بإمكانهم تحقيق النصر فيها ، وخاصة بعد أن بدأ المصريون يفتنون في ابتكار

وسائل اختطاف جنود الفرنجة من معسكرهم على الشاطئ الآخر ، عن طريق السباحة بها خلال الظلام ثم الإغارة على معسكرات الصليبيين والعودة بأسرى .

هذه الصواريخ الرهية :

وهنا استخدم المصريون - وللمرة الأولى في تاريخ الحروب الصواريخ أرض - أرض . الأمر الذى شكل تفوقاً تكنولوجياً أحرزه المصريون للتغلب على التفوق الأوروبي في أساليب القتال ومعدات الحرب . فالتى الرعب في قلوب الفرنجة ، ورفع معنويات القوات المصرية .

لقد أعطتنا الأميرة (أنا كومينا) - ابنة إليكسيوس كومنينوس الذى شهد الحروب الصليبية - وصفاً دقيقاً لهذه الصواريخ التى كانت « مزيجاً من الرعب والموت » على حد تعبيرها ، في كتابها عن سيرة أبيها حيث صورت لنا مدى روعتها حين تعلق في السماء وحين تشتعل ، ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الجنود وتفتك بالخيول .

لقد وصفت هذه الصواريخ فقالت : ان المصريين قد صنعوها من النحاس ، بفوهة تشعل منها وفي مؤخرها قوس ينطلق ليدفعها للأمام ، وبدخلها مزيج من النفط والزيت والكبريت المحمد ، بنوع من الصمغ القابل للاشتعال . وكان المصريون يطلقونها من مدافع المنجنيق فتفجر بقوة الاصطدام ليندلع منها لهب لا يمكن لإنسان أن يخمده ، وبذلك ينتشر شررها في كل مكان ليحيل ما حوله جحيماً .

أما الفارس المؤرخ « دى جوانفيل » - مؤرخ حروب لويس التاسع ومستشاره الخاص - فيصف المفاجأة التى أصابت جيوش لويس التاسع ، بعد أن استخدم المصريون صواريخهم الجهنمية للمرة الأولى ، حيث يقول :

.. وفي الليل .. أتى المصريون بآلات عجيبة ووضعوها تجاه الأبراج التى كنا نقوم على حراستها أنا والسير « والتر كوريل » ثم قذفونا منها بشيء ملأ نفوسنا بالدهشة والرعب .. نار كأنما هى الدنان المشتعلة وذيلها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، لها دوى كالرعد كأنما هى طير جارح يشق الهواء ، ولها ضوء ساطع عظيم من جراء انتشار اللهب الذى يحدثه الضوء حتى أنه يمكن رؤية كل ما فى المعسكر كما لو كنا فى وضوح النهار . لقد رمانا المصريون فى هذه الليلة ثلاث مرات بتلك الآلات الجهنمية العجيبة وزاد فى دهشتنا وذعرنا ، ما قام به هؤلاء المصريون ، حينما وضعوا قواذفهم تجاه حصوننا الخشبية ، ليفتحوا علينا فجأة باب جهنم ، فتندلع النار فى أبراجنا ، وتمتد ألسنتها لتلتهم كل ما تصل إليه

إزاء هذا الذعر الذى نزل بالفرنسيين من جراء استخدام المصريين لهذا السلاح الجديد قرر الملك لويس التاسع المبادرة بالهجوم فوراً على قوات القائد فخر الدين ..

وفى يوم ٥ فبراير من عام ١٢٥٠ قام الملك الشاب بقيادة جيشه ليفاجئ القوات المصرية مفاجأة تامة داخل معسكرهم ، الأمر الذى دفع بالقائد فخر الدين إلى امتطاء صهوة جواده قبل أن يرتدى دروعه ، حيث اقتحم صفوف الصليبيين على رأس قوة صغيرة فى شجاعة تادرة ، إلا أنه سقط تحت سنابك الخيل ..

وهكذا فتح الباب أمام جيش لويس التاسع لدخول المنصورة ..

القتال داخل المنصورة :

اتجهت قوات الصليبيين أحد أبواب المنصورة تحت قيادة الكونت « دارتوا » - شقيق الملك لويس التاسع - وكانت مفاجأة تامة جديدة للصليبيين ، حينما قامت قوات المماليك البحرية بمباغثة الصليبيين وردهم على أعقابهم لتطارد قلوبهم في كل مكان ، وتتعمقهم في الأزقة والشوارع ، فلما لاذوا بالبيوت للاختباء بها ، انهال عليهم سكانها بالضرب ، وتساقطت فوق رؤوسهم القذائف من الأسطح والنوافذ . .

وكان على رأس هذه القوات الباسلة من المماليك البحرية التي فاجأت الصليبيين بهذا الهجوم البارح ، قائد سيكون له شأن عظيم في تاريخ مصر بعد عشر سنوات بالدقة ، هو الظاهر بيبرس البندقدارى ، الذى حكم مصر سبعة عشر عاماً حكماً مجيداً .

ويصف لنا المؤرخ « دى جوفانفيل »^(١) القتال خلال هذه المعركة التى قتل فيها من الصليبيين ١٤٠٠ فارس وكثير من نبلاء فرنسا . . يقول :

« . . . فيها أظهر الطرفان مهارة فائقة وصلابة فذة . . . وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداماً وجراً . . . إذ أن القتال فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع ، إنما كان صورة مروعة للحمة هائلة اشبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف والرماح مختلطة بعضها ببعض . . . فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال . . . هنا وهناك . . . على الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهر ، صيحات ترأر ، وأنان ترفر . . . وكأس الموت على شفاه القتلى تدور . . . وأنداك طارت ضربة طائشة فأصابت الكونت « دارتوا » الذى خر صريعاً على القور ، فأخذ القائد المصرى درعه وسيفه ورفعهما أمام جنوده صائحاً : « هذا هو درع الملك وسيفه . . . إن الملك عدوكم قد مات . . . » .

المعركة الحاسمة :

ونقرب من يوم المعركة الفاصلة ، والتقى فيها المصريون تحت قيادة القائد (أقطاي) الذى تولى قيادة الجيش بعد مصرع القائد فخر الدين . لقد كانت تلك المعركة التى أبلى فيها جند مصر وزهرة شبابها بلاء حسناً ، هى المسار الأخير فى نمش تلك الحملة الصليبية التى استهدفت غزو مصر ، فانقلبت الآية ، ليدفن نبلاء فرنسا وأوروبا تحت أرضها الطيبة . . أما مليكهم الشاب ، الملك لويس التاسع ، فقد حل ضيفاً على مصر كأسير حرب كما سئرى . .

إننا نستقى أحداث تلك المعركة الفاصلة مما كتبه المؤرخ الفرنسى « دى جوفانفيل » ذاته يقول :

« أرسلت الشمس أول خيوطها . . ورأينا الأرض كأنها تتحرك أمام ناظرينا . . وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون أسلحتهم ، ويتهادون على ظهور جيادهم فى منظر رائع ، ووقفوا تجماعاً فى أبداع نظام . . وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة ، حجب من كثرتهم أمامنا وجه الأيق . . فأحاطوا بجيشنا كله ، وعلى الأثر تبدى

(١) « جان دى جوفانفيل » مستشار الملك لويس التاسع - صعبه فى حركته على مصر عام ١٢٤٨ ، قام بتاريخ هذه الحرب بدقة حيث ذكر أنباء المارك الحربية بالتفصيل وبجيد ، كما قام بوصف أحوال مصر وصفاً شائعاً وفريداً ، ترجمت مذكراته إلى اللغة الإنجليزية .

من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يعرف البصر مداها ، فاصطفت في المؤخرة على نسق عجيب ، ولاح القائد المصري على رأس جيوشه بنظمها ويرتب صفوفها وأماكنها ، فلما انتهى من ذلك ، تقدم وحده على ظهر جواده ، وصرح البصر في قواتنا . . فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا أوفر ، وبانقاصها في الأماكن التي يرانا فيها أقل قوة .. وظل هذا القائد منهمكاً في تلك العمليات حتى إذا ما انتصف النهار ، وقف وسط جنوده في مهابة وجلال ، وبإشارة من يده دوى في الفضاء فجأة صوت الطبول ودوى التفرير ، وكأنما زلزلت الأرض زلزالها وانتفضت السماء بقصف الرعود ، فامتلاّت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين ما دق سمعهم من قبل مثل هذا الصوت الرهيب .. ثم بدأ الحيلة والمشاة في السير معاً في خطوة واحدة وفي كل جانب وبدأ الهجوم . .

ويستطرد المؤرخ الفرنسي قائلاً : « وتقلت فرق العدو على مسرح القتال بنظام عجيب ، كأنما لاعب ماهر ينقلها على رقعة الشطرنج ، واندفع مشانهم نحو رجالنا في الوقت الذي أطلقوا فيه على فرساننا صواريخهم الجهنمية ، وبعدها انقض فرسانهم في سرعة عجيبة وحماسة هائلة على فرقة الكونت (دانجو) فأزلقوا بها هزيمة نكراء ، وكان الكونت متصباً على قدميه ومعرضاً نفسه للخطر المحقق ، لولا أن أنقذه أخوه الملك وردّ المصريين عنه . إلا أن جيش لويس كان قد أصيب بضربة قاضية . . فن الفرق السبع التي يتألف منها ، أيدت اثنتان إحداهما بقيادة « فرايار وليم دى سنالك » قائد الفرسان الداوية ، وكان قد دخل المعركة بمن تبقى على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة ، ولما كان يعلم بضعف قواته فقد أقام أمام عسكريه حاجزاً من كتل الخشب ، إلا أن هذا لم يخن شيئاً . . فقد قام المصريون باحراقه بصواريخهم الملتببة ، وأطبقوا على رجال الفرقة في عنف بالغ . . وسرعان ما قضوا عليهم قضاءً مبرماً ، وكان قائدها « دى سنالك » قد فقد إحدى عينيه في معركة يوم الثلاثاء التي أسلفنا ذكرها ، ففقد الثانية في هذه المعركة . . ثم سقط قتيلاً وهو يدافع لآخر رمق دفاع الأبطال . . أما الفرقة الأخرى التي أبادها المصريون فكانت بقيادة الكونت « دى بوانتييه » وهي مؤلفة في أغلبها من المشاة ، أما الكونت فكان ممتطياً صهوة جواده ، لقد أباد المصريون هذه الفرقة عن آخرها وأسروا قائدها ، الذي تمكن فيما بعد من الهروب . .

القوة الضاربة لجيش الصليبيين :

وهكذا انكسرت القوة الضاربة للجيوش الصليبية ، فبعد انتهاء معركة المنصورة في ٣ شباط (فبراير) من عام ١٢٥٠ م وتوقف القتال . . تفشت الأوبئة في معسكرات الصليبيين الذين لم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا بالقائها في النيل والقناة . .

يعطينا المؤرخ « دى جوانفيل » صورة أليمة للحالة التي وصلت إليها قواتهم ، حين طفت هذه الجثث بعد أيام قلائل على صفحة المياه ، ليصبح هذا المنظر الكئيب للجثث المشوهة « هو كل ما تبقى من أولئك المحاربين التمساء » على حد تعبير المؤرخ الفرنسي .

رحلة العذاب والموت :

في الرابع والعشرين من فبراير من نفس العام ، وصل « توران شاه » - ابن السلطان الصالح نجم الدين - من العراق . وما أن دخل المنصورة حتى نودى به سلطاناً على مصر خلفاً لوالده ونقلت إليه الملكة « شجرة الدر » السلطة . . وعندئذ فقط أعلنت وفاة السلطان الصالح نجم الدين .

أما الصليبيون ، فقد دارت المفاوضات بينهم وبين الجانب المصرى ، وأدى إصرار المصريين على أخذ الملك لويس التاسع إلى فشل المفاوضات ، وهكذا لم يبق أمام هذا الجيش المهزوم إلا أن ينسحب تحت ضغط الجيش المصرى ، فى ظروف بائسة تحف به أعظم الأخطار ، فى مسيرة طويلة على الجسر الطينى العالى على حافة النيل ، بدأت فى مساء الخامس من نيسان (ابريل) حين تحركت قلوب الصليبيين فى اتجاه الشمال ، مخلفين وراءهم أكديساً مكسمة من الخيام والذخائر والمهمات وآلات القتال غنية طيبة للمصريين ..

وخلف هذا الجيش البائس ، تحركت القوات المصرية لتقوم بالإغارات المتصلة - ليل نهار - على مؤخرة جيش الصليبيين التى وضعت تحت قيادة السير « والتر دى شاتيلون » للدفاع عنها وحماية الجيش من هجمات المصريين وهكذا تبع الجيش المصرى هذه القوات المنسحبة فى حالة يرثى لها ، حتى غادرت الأراضى المصرية تجر أذيال الخيبة والفشل ..

أما الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الشرسة ضد مصر ، فقد قامت القوات المصرية بأسره مع معظم النبلاء الفرنسيين .. ويروى « دى جوفانيل » قصة اعتقال مليكه - كما سمعها منه شخصياً - فيقول :

« .. تخلف الملك عن فرقته .. لينضم إلى المؤخرة التى كان يقوم بحمايتها السير « والتر دى شاتيلون » ، وكان يمتطى صهوة جواد صغير .. لم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين « سير جيوفرى سيريجين » الذى دافع عن مولاه حتى بلغ الإعياء بالملك مبلغاً عظيماً ، فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة « منية أبى عبد الله » على مسيرة بضعة أميال من المنصورة - وهناك أحاط بهم المصريون - فأصبحت المقاومة آتنت عتياً .. فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم المصريون على حياتهم ، وكان عددهم يربو على الخمسمائة ومعظمهم من الفرسان النبلاء ، وهكذا قبض المصريون على الملك ونقلوه إلى إحدى السفن إلى المنصورة ، ليوضع فى الأسر بدار إبراهيم بن لقمان - كاتم سر السلطان - وهناك قيدوه بالسلاسل وأبقوه فى حراسة الحراس الذين تلقوا التعليمات بمعاملة الملك الأسير بما يليق بمقامه من الإجلال والاحترام ! » .

مصر قلعة العرب :

وهكذا كسرت مصر الروح الصليبية التى سادت القرن الثالث عشر الميلادى ، ذلك أن المملكة الصليبية فى الشام وبيت المقدس . ما لبثت بعد فترة وجيزة من تلك المعركة الفاصلة أن تقلص ظلها ثم زالت ، بفضل المقاومة الباسلة التى أبدتها مصر ، وروح القتال المنظمة التى قاد بها المصريون الحرب فى هذه الغزوة الشرسة التى استهدفت القضاء على العرب والإسلام فلم يكدر يمر واحد وأربعون عاماً على انتهاء معركة المنصورة الخالدة هذه حتى قام سلطان مصر الأشرف باحتلال عكا - فى ١٨ مايو ١٢٩١ - وبذلك قضت مصر على البقية الباقية من الوجود الاستعماري فى بيت المقدس .

الفصل الخامس

جيش مصر يحقق نصراً خالداً على التتار في عين جالوت (*)

التار قادمون :

وكانما كانت هذه الأمة الإسلامية على موعد مع القدر ، ففي عام ٥٤٩ هـ . ولد في الصين رجل خاف بهيمة
الدموية على البشرية جمعاء لحقبة طويلة ، استخدم هذا الرجل قلراً من القسوة البائسة أدت إلى انقراض دول
والإطاحة بعروش راسخة وقتل الآلاف من البشر بدون ذنب جنوه ، وذلك من خلال سلسلة من الفتوحات التي
نشبها الأساطير والتي لا تدانيها فتوح الاسكندر الأكبر والرومان ، في مزج غريب ليكل ضروب الإفراط من كل
نوع بين الوحشية والفظائع والمذابح التي تثير القلب والنفس والعقل جميعاً ، والتي صنعت انتصارات مدوية كأنها
المعجزات .

هذا الرجل هو « جنكيز خان » - قائد التار - والذي بسط سلطانه في فترة وجيزة من الزمان من حدود الصين
على المحيط الهادي شرقاً حتى قلب أوروبا وعواصم الشام غرباً .

ويجمع المؤرخون على أن « جنكيز خان » هذا كان يبدو وكأنه يفوق البشر في جبروته كأنه مطرقة ضخمة
ابتليت بها البشرية فتجرد من الشفقة والرحمة ، بل كان أقسى الغزاة الذين عرفهم العالم ، فان الدم الذي سفك
بأمره والعمران الذي خرب على يديه ينذر أن يحدث مثله في أية فترة من فترات التاريخ .

بعد وفاة « جنكيز خان » الرهيب ، تولى « مكوقان » - حفيده - عرش التار ليستدعي أخاه « هولاكو خان »
بعد أن أمده بجيش جرار من التار ذوي الخبرة في القتال والحروب ، وأصدر إليه تعليماته ليتقدم من « توران »
إلى إيران حتى « أقصى بلاد مصر » ، مروراً بالعراق « فلماذا تكبر واستعصى خليفة المسلمين هناك ، فألقه بغيره
من المالكين » .

ولم يضيع « هولاكو » وقتاً ، حيث بادر حفيد « جنكيز خان » الرهيب على الفور باجتياح إيران على رأس
جحافل جرارة أبادت الحرث والنسل هناك قاضية قضاء مبرماً على طائفة الإسماعيلية بها .

العالم الإسلامي وجهاً لوجه أمام التار :

في تلك اللحظات التاريخية الحالكة ، رابطت جيوش التار بقيادة « هولاكو » - الذي لم يهزم أبداً - على حدود
الأمة الإسلامية في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر ومملكة الصليبيين في فلسطين ، ليتتاب الملح حكام تلك الممالك
الذين رأوا في خصمهم الدموي عدواً لا يقهر . .

(*) بقلم المؤرخ المسكري محمد فيصل عبد المنعم .

وهكذا قدر على الخليفة المستعصم بالله - آخر خلفاء العباسيين - أن يواجه قدره إزاء ذلك الانذار المتعجرف الذي أرسله إليه « هولاكو » والذي يوجه فيه إلى الخليفة أمراً مباشراً وواضحاً لا دوران فيه : « بادر بردم الخنادق وهدم الحصون وتوجه إلى مقابلتنا ، وإلا فانتا مستعدون لقتالنا » ، واعلم انني إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد ، فسوف لا تنجو مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض ا .

وجاء إلى « هولاكو » رد الخليفة الذي قبل التحدي دون أن يستند على معطيات واقعية . . . وإذا كنت تريد الحرب والقتال . . فلا تتوان لحظة . . فان تحت امرتي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والمشاة على أهبة الاستعداد للقتال ا .

وهكذا زحفت جيوش التتار من أطراف بلاد الروم نحو بغداد التي حوصرت من كل اتجاه زهاء شهر دار خلاله قتال دموي انتهى بقتل الخليفة المستعصم بالله بطريقة وحشية موهلة في القسوة ، في حين أمر « هولاكو » بقتل جنود الجيش العباسي - بعد استسلامه - عن بكرة أبيهم ، أما بغداد العاصمة الإسلامية ومحط أبصار المسلمين فقد اجتاحتها جمافل التتار ليأتوا على كل ما فيها ، فخربت المساجد وهدمت القصور وأبيح القتل والسطو والنهب دون حد ، وسفكت الدماء في أسلوب وحشي لم تشهد له البشرية مثيلاً من قبل ، حتى قدر المؤرخون المعتدلون القتل في هذا الهجوم الكاسح ما بين ٨٠٠ ألف ومليونين من المسلمين .

إن ما نود الإشارة إليه هنا أن سقوط بغداد على هذا النحو المأساوي ، أوقع العالم الإسلامي في حالة رهبة من الفزع والذهول والحيرة ، ليصبح مجرد ذكر اسم « هولاكو » مثيراً للفزع في أشد القلوب قوة وثباتاً بين أمراء الأمة الإسلامية حيث كانت تلك المأساة بمثابة لطمة قاسية وبلاء شديد نزل على الإسلام والمسلمين الذين فقدوا خلافتهم العباسية التي كانوا يتطلعون إليها باعتبارها رمزاً للممالك الإسلامية جميعاً ، كما كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام بالنظر لتفوقه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً . بعد سقوط بغداد في براثن التتار ، وجدت الأمة الإسلامية أن قلبها النابض قد توقف ، وأن هبتها قد ضاعت .

جيوش التتار على أبواب مصر :

وبينما انعقدت سحب اليأس والفزع في سماء المنطقة ، بادر « هولاكو » على رأس جيوشه بالزحف على بلاد الشام التي كان يتقاسم حكمها آنذاك كل من الصليبيين والأرمن وحكام المسلمين من أحفاد الناصر صلاح الدين العظيم ، والذين كانوا يحكمون في « فيارقين » و « كيفا » والكرك وحلب ودمشق وحماة وحمص .

في شهر رمضان من عام ٦٥٧ هـ ، زحف التتار من « أذربيجان » صوب سوريا لتسقط « فيارقين » بعد أن أبدى المدافعون عنها ضروياً منقطعة النظير من الشجاعة والإقدام ، وقتل الملك الكامل شر قتلة ، حين أمر « هولاكو » بتقطيع لحمه قطعاً مع إجباره على بلع هذه القطع حتى مات ، ثم أمر بقطع رأسه وحملها على رمح والطواف بها في البلاد السورية لتعلق في نهاية المطاف على سور « باب الفرايدس » بدمشق ، حتى يكون عبرة لمن يعتبر من بقية أمراء الشام .

وعلى الأثر سقطت « نصيبين » و « حمص » وحران والرها والبيرو ثم حلب ، ليعم الرعب كل بلاد الشام ، وهكذا تقدم « هولاكو » مباشرة إلى دمشق الفيحاء التي كان أهلها قد علموا بما حل بأهل البلاد المحتلة من تشريد وتقتيل ، فسارع وجهاء المدينة إلى « هولاكو » يقدمون إليه التحف والهدايا فدخلها دون قتال .

وخلال الأسابيع الثلاثة التي أعقبت فتح « دمشق » ، أتم التار فتح سوريا ، ثم تقدموا إلى غزة دون مقاومة ، وهكذا أصبحت جيوش الدمار والموت على باب مصر الشرق تماماً .

موعد مع القدر :

وانه لمن المناسب الآن تماماً أن نحاول إلقاء نظرة ثاقبة على الموقف داخل مصر التي كانت في تلك اللحظات على موعد مع القدر ، حيث قدر عليها التصدي لتلك المطرقة التي ابتليت بها البشرية . . في حين بات الناس في أرجاء البلاد يتوجسون خيفة ويتنظرون أحداثاً جساماً في ظل هذا الجور النعسي المشيع بالتوتر والقلق الذي ساد أنحاء العالم الإسلامي ، كانت مصر تحت حكم السلطان الطفل « الملك المنصور » الذي كثرت مفااسده وشغل عن شئون الملك باللهو ، بينما سرى الخوف من التار إلى مصر لكثرة اللاجئين إليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام واللين راحوا يتحدثون بفظائع التار ووحشيتهم ، حتى أيقن الشعب في مصر بأن هؤلاء الغزاة إنما هم قوم لا يغلبون .

وعلى الجانب الآخر ، وقف « قطز » - المملوك نائب السلطنة والبلاد - يرقب الأحداث وقد حز في نفسه أن تترك البلاد في هذه الفترة الحاسمة لهذا الملك الطفل الذي التفت من حوله بطانة السوء وأصحاب المطامع في حين رأى الناس في « قطز » أصلح الجميع لتولى حكم البلاد لصالحه وقوته وشدة بأسه وجهاده السابق في قتال الصليبيين في المنصورة والشام ، وكأنما كانت الأقدار تعد هذا القائد العظيم ليدخل التاريخ الإسلامي من أوسع أبوابه وأمجدها ، ففي وسط هذا الظلام الحالك الذي خيم على أمة الإسلام والمسلمين ، وحيث لم تعد هناك في الأفق بادرة أمل مضيئة ، قام « قطز » بخلع السلطان الطفل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر بعد أن تلقب بالملك المظفر . معلنا بيانه للناس :

« إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم لتقيموا على السلطنة من شئتم ، وإذا كان فيكم من يرى نفسه أقدر مني على الاضطلاع بهذا الأمر ، فليتقدم لأحله على فيعني من هذه التبعة العظيمة ويتحمل مسؤولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله » .

من « هولاءكو » إلى سلطان مصر :

بعد أن تولى « قطز » عرش مصر وعمله رسل « هولاءكو » عام ٦٥٨ والذين سلموه إنذاراً من « ملك الملوك » شرقاً وغرباً الخان الأعظم إلى الملك المظفر « قطز » قال فيه :

« إنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى ، فلألكم من سيوفنا خلاص ولا من مهايتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والمساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فابشروا بالمذلة والهوان . فلا تعليلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترى نحوكم شرارها ، فلا تجلبون منا جاماً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خائبة ، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم » .

من أجل التوصل إلى الهراو :

ما أن وصل رسل « هولاكو » يحملون هذا الإنذار إلى سلطان مصر الجديد « قطز » ، حتى بادر - على عادة ذلك العهد - يجمع « مجلس الجيش » برئاسته وعضوية أتابك العسكر وقضاة المذاهب الأربعة والأمراء وعددهم ٢٤ أميراً .

قرأ عليهم السلطان « قطز » إنذار هذا « الرب في السماء والحاكم على الأرض » كما كان يدعو نفسه في تجميع غريب ، ثم طلب الرأي والمشورة . ليندأ « ناصر الدين قيبرى » في استعراض دمية هذا السفاح الرهيب وكيف قامت جيوشه باخضاع البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى أبواب مصر ، كما لو كان قد اختص بالتأييد السماوى « ... فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان ، فليس في ذلك عيب أو عار » .

وتعاقب الأمراء المصريون الذين عكست كلماتهم صورة للحالة النفسية السيئة التي كان الجميع يشنون تحت وطأتها . كانوا يعنون تماماً الحكمة من « رأس الذئب الطائر » في بغداد ومدن الشام وغيرها ، واختتم الأمراء كلمتهم بعرض رأى كبيرهم الذى قال : « انه ليست لنا طاقة ولا قدرة على مقاومة وقاتل التار ، وليكتنا نرى أن نرسل لهولاكو خطاباً لطيفاً نتق به شره ولتفق معه على مال تؤديه له كل سنة لتلا يهاجنا فيأتى على الحرث والنسل ، فلا فائدة من مقاومة التار والذين معهم أنفع من الشدة » .

« قطز » يقبل التحدى :

في تلك اللحظات الدقيقة التي كان يتقرر فيها مصير الأمة الإسلامية بأسرها لأجيال طويلة قادمة ، تكلم الرجل الذى وضعته الأقدار ليوقف مد التار العالى ، قال الملك المظفر « قطز » :

إن الله تعالى يقول في كتابه : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . وأنتم تريدون أن تغلبوا الآية لنقول : « تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون » ؟ ثم قام إلى كبيرهم ، واختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه وهو يقول :

« إن السيف الذى يجنب حامله عن القتال ، تخليق بأن يطمع به » .

« ... وإنا الآن أمام اختيار بين ثلاثة : الصلح أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن ، وسأستبعد الأمر الأخير ، فإنه لا وطن لنا إلا مصر ، كما أرى أن نستبعد كذلك رأى الأول بالصلح مع التار فهم قوم لا يوثق بعهودهم ، والرأى الأخير عندى هو أن نستعد للقتال ، فإذا انتصرنا فهو المراد وإلا فكيف نكون مسلمين أمام الله ؟ » .

ثم أمر الملك المظفر باحضار رسل التار (١٥ رجلاً) بين يديه ، ليأمر بقتلهم وتعليق رؤوسهم في القاهرة ، بعد أن نودى بأمرهم بين الناس ، وسيقوا في موكب عظيم ، راكبين الجمال التي شدوا على أفتابها بالحبال ووجوههم إلى أذيلها ، حتى وصل الموكب الكبير - على صوت الطبول - إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ليقطع رأس الرسول الأول ، وعند « باب زويلة » علق رأس الرسول الثانى ، وفي « باب النصر » علق رأس ثالثهم ، والرابع « بالريدانية » ، ثم أنزل الباقون ليقتلوا دفعة واحدة وعلقت رؤوس الجميع على « باب زويلة » .

وفي ذات اليوم ، أمر الملك المظفر « قطز » باستعراض عظيم للقوة ، سار فيه الجيش المصرى فى ميدان « الريدانية » حيث أقبلت - أمام سرادق الملك والأمراء - فرق الفرسان والمشاة والمنجنقات والمجانة فى أعداد كبيرة شاكية السلاح حتى ازدحمت بهم الطرق والميادين .

وفي مساء ذلك اليوم الذى اتخذ فيه الملك المظفر قرار الحرب ، والذى علقته فيه أول رؤوس التتار فى القاهرة كانت مصر قد ألقت القفاز فى وجه حاكم الأرض : هولاكو الرهيب .

يقول المؤرخ « رينسان » فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية » :

« ... من سوء حظ التتار ، أن توغلهم فى فلسطين قد أثار دولة إسلامية كبرى لم تكن قد تعرضت للهزيمة على أيديهم ، وهى مصر ، التى قبلت التحدى الكبير على الفور » .

العمل من أجل جمع كلمة المسلمين :

لا شك أن الملك « قطز » كان قد تولى حكم مصر فى فترة حالكة وفى ظل ظروف لا يحسد عليها على الإطلاق ، حيث كانت تواجهه المتاعب فى الخارج والداخل على السواء ، بعد أن قام بعض أمراء المسلمين فى بلاد الشام بالاتصال بهولاكو وتقديم فروض الطاعة له ، بينما وقع عدد من دولها تحت الاحتلال التتارى بالفعل ، لتتفرق الأمة الإسلامية - التى كافح الناصر صلاح الدين طويلاً من أجل توحيدها - وأخيراً كانت تواجهه العديد من الخلافات بين أمراء المماليك وطائفة المغزية والأيوبيه وغيرها داخل مصر .

بادر « قطز » بأعداد الجيش المصرى للحرب واستكمال عدته وأعدته ، فى ذات الوقت الذى عمل فيه على إقامة جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وأمرائها ، فبادر بالكتابة إلى كل منهم رسالة يشرح لهم فيها بأنه قد عقد العزم على قتال جماعى للتتار وأنه قد أعد لهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وأنه مصمم على تخليص بلاد المسلمين من رجسهم باعتبار أن بلاد الشام هى حصون مصر الأممية ووقوعها فى أيدي التتار يعرض سلامة مصر للخطر الداهم .

فى تلك الرسائل التاريخية ، يؤكد « قطز » بأنه لن يسمح لأحد من أمراء الشام بالاستسلام للتتار وأنه سيعاقب من يمالئ الأعداء منهم بانقتل وتوريث بلاده لمن هو أحق بها منه بمن قاتل التتار « وإذا لم يستطع أحدكم الوقوف فى وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه ، فعنه أن يلحق بالديار المصرية حيث يجد منها التكرمة والحفاوة حتى يجين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الإسلام والمسلمين » .

لقد تجلت حكمة « قطز » السياسية بصورة جليلة فى تلك الرسالة التى كتبها إلى الملك العادل فى الشام ، والتى طمأنته فيها وعرض عليه إمداده بجيش مصرى كبير لمعاونته فى التصدى للمغول ، أنه فى تلك الرسالة يقسم بأغلظ الإيمان أنه لا يتنازع فى الملك ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، كما يعرض عليه فيها بأن يقدم إليه مع جيشه ، وإذا كان لا يطمئن إلى حضوره فإنه مستعد لأن يسير إليه الجيش محبة من يختاره : « ... وإن اخترتني خدمتك ، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم إليك . فإن كنت لا تأمن حضوري ، سيرت إليك العساكر محبة من تختاره » . فى يقينى ، أن الملك المظفر « قطز » كان - بالعمل على توحيد الجبهة الإسلامية على هذا النحو - قد خط السطر الأول فى وثيقة النصر المرتقب .

الإعداد للحرب :

قام الملك المظفر بالشروع فوراً في إعداد الأمة للحرب ، لم يعرف للراحة طعماً شهوراً طوالاً حيث قام بتوطيد أركان عرشه بين عواصف الفتن والمؤامرات ، في حين أخذ إعداد الجيش يجرى على قدم وساق بهمة لا تعرف الكلل ، في الوقت الذي عمد فيه إلى رفع الروح المعنوية في مصر ضارباً بشدة على أبدى أولئك الذين راحوا ينشرون روح المزينة والتخاذل بين الصفوف ، وبذلك أترل السكينة والطمأنينة في قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترتجف هلعاً من ذكر التار مذكراً لإياهم بأن مصر التي قضت على جيوش الصليبيين منذ قليل ، لقادرة بعون الله على القضاء على جمافل التار أعداء الإسلام والمسلمين ، ومن الجدير بالذكر ، أن هذا الشعور بالثقة قد تمكن من الجميع ، حتى كف الفاسقين عن السرقة وارتكاب المعاصي ، وامتألت المساجد بالمصلين ، ولم يبق للناس من حديث في كل مكان إلا حديث الحرب والجهاد .

« كيتوبوقا » بطل التار :

في تلك الأثناء ، وصلت أنباء إلى « هولاكو » تفيد بوفاة أخيه الأكبر « منكرو خان » في الصين ، وتنازع أخويه الآخرين على تولي العرش ، وبذلك قر قراره على العودة بقدم من جيشه ، بعد أن سلم القيادة إلى القائد « كيتوبوقا » على رأس القوة الباقية وقوامها نحو عشرة آلاف فارس من المحاربين الأشداء ، موصياً إياه بتحقيق المهمة التي جاءوا من أجلها والقتال « حتى الموت » لفتح الدولة الباقية في العالم الإسلامي والتي لم تكن قد فتحت بعد : مصر .

ويحدثنا المؤرخ « ابن تغرى بردى » عن القائد التارى « كيتوبوقا » فيقول :

« كان « كيتوبوقا » عظيماً عند التار ، يعتمدون على رأيه وشجاعته وحسن تدبيره ، وكان بطلاً شجاعاً ومقداماً . خبيراً بالحروب وفتح الحصون والاستيلاء على الممالك ، فهو الذي فتح بلاد العجم والعراق : وكان « هولاكو » ملك التار يثق به كل الثقة ، ولا يخالفه فيما يشير إليه ويتبرك به . »

لقاء عاصف في غزة :

بعد أن استكمل الملك المظفر « قطز » إعداد الجيوش المصرية للحرب ، قام باستعراضها وهو مرتد لباس الحرب ، ثم قام الجيش — على عادة ذلك العصر — بحلف اليمين أمامه ، ليتسلم عناد القتال من خزانة السلاح ، وأخيراً قام بتعيين قادة الفرق والأجنحة ، في حين تولى بنفسه قيادة القلب ، وعين القائد « بيبرس البندقدارى » على رأس مقدمة الجيش ، وكان قائداً عبقرياً أثبت كفاءة عسكرية في الحروب السابقة وتحقيق الانتصارات على الفرنجة المرة تلو الأخرى ، وبعد ذلك ، أصدر أوامره إلى « بيبرس » بالتقدم على رأس المقدمة إلى غزة التي كان التار قد قاموا باحتلالها تحت قيادة « بايلر » التارى الذي بادر بالكتابة إلى قائده الأعلى « كيتوبوقا » ينبئه بأنباء ذلك الزحف المصرى الذى تواترت إليه الأنباء بشأن اتجاهه نحوه ، وجاءه رد قائده : « قف مكانك وانتظر حضورى » ، ولكن « بيبرس » لم يمهله ، حيث قاد قواته في وثبة خاطفة اقتحم بها المدينة لتسحب جيوش التار — للمرة الأولى في تاريخهم الدامى الطويل — على ساحل فلسطين الشمالى ، في حين تعقبهم القوات المصرية حتى شاطئ نهر العاصى .

صداء الانتصار على التتار في غزة :

كان للنصر الحافظ الذي أحرزته القوات المصرية الأمامية على جيوش التتار في غزة ، أصداء واسعة في كافة مدن الشام التي كانت معظمها قد خضعت للتتار ولحلفائهم من المسيحيين الشرقيين .

في دمشق ، ثار المسلمون على حكامهم من الصليبيين الذين كانوا قد عملوا على إذلالهم تحت حكم المغول ، كما تشجع المسلمون في بقية مدن الشام التي كانت قد وقعت تحت نير الاحتلال التتاري فثاروا على حكامهم القساة . أما الصليبيون في الشام — وبخاصة في عكا — فقد أثارهم أحداث التخريب التي ارتكبتها قوات التتار في مدينة « صيدا » آنذاك ، فقرروا الوقوف ضد هذا العنصر القاسي الوافد من الشرق ، حتى ولو أدى الأمر إلى التحالف مع المصريين ضد « كيتوبوقا » التتاري .

القتال في جهة واحدة :

وهنا تتجلى حكمة « قطز » السياسية ، ففراه يبادر على الفور إلى مسالة الصليبيين بغية التفرغ للقتال في جهة واحدة ، على أن يتفرغ لتصفية حسابيه مع أعدائه الصليبيين بعد الانتهاء من أمر التتار .

فما أن انتهت معركة غزة ، حتى أرسل طلباً إلى الحكومة الصليبية في عكا يطلب منها فيه السماح لقواته بالعبور عبر الأراضي الساحلية التي كانت القوات الصليبية تسيطر عليها ، حتى يتمكن من مواجهة جيوش التتار ، وهنا وافق الصليبيون على طلبه حيث وجدوا في قتال ملك مصر مع التتار فرصة للانتقام منهم : للتخريب الذي أحدثوه في « صيدا » من جهة ، ولتخوفهم من وحشية التتار ونواياهم العدوانية التوسعية من جهة أخرى .

يروى لنا المؤرخ « المقرئ » قصة « قطز » مع الصليبيين قبيل خروجه للقتال ضد التتار فيقول :

« ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة (بعد انتصار بيبرس على بادر) وأقام بها يوماً ثم رحل عن طريق الساحل إلى مدينة عكا وبها يومئذ الفرنجة فخرجوا إليه وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم بأن يكونوا لاله ولا عليه ، وأقسم لهم بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المصريين ، رجع إليهم وقتلهم قبل أن يلتقي التتار » .

وهكذا قام الصليبيون في عكا بتقديم التسهيلات الحربية للجيش المصري حين سمحوا لبيبرس بالمرور على رأس قواته في الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها بجذاء الساحل ، إلى جانب قيامهم بعمليات إعادة التنظيم والتبوين للجيش المصري تحت أسوار عكا .

يعلق « رينسان » في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » على ذلك فيقول :

« ولا شك أن قيام الفرنجة بتموين جيش المصريين قد أعطى ميزة كبيرة لهم تمتعوا بها ، إذ أتاح للجيش المصري — تحت قيادة قطز — فرصة مواتية للقاء العدو على أهبة الاستعداد » .

ويكشف لنا كفاح الملك المظفر « قطز » ضد التتار ، عن مواهب قائد حربي عظيم حقاً ، حيث يمكن التعرف على سلامة نظراته العسكرية من استعراض التعليمات التي قام بإصدارها إلى القائد الشجاع « بيبرس البندقداري » والتي تضمنت المبادئ التالية :

– إن الهجوم خير من الدفاع في مقاتلة التار .

– البدء – على الفور – بدفع دوريات مسلحة بقوة لاستطلاع تحركات جيوش التار وتشكيلاتهم . ونود الإشارة إلى أن هذا الإجراء العسكري الذي لا يزال في مقامة القرن العسكري اليوم ، لم يكن أمراء المسلمين يتبعونه من قبل في قتالهم ضد التار ، والذين كانوا يكتفون – عندما تصلهم تهديدات « هولاءكو » – بالعمل على تقوية الدفاعات والحصون ، مؤثرين السلامة بالدفاع خلف الأسوار دون أن يدركوا أنهم بذلك إنما يوقعون أنفسهم في فخ لا فكاك منه .

– « افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك » : كان « قطز » يعلم كذلك عقيدة التار التي كان « جنكيز خان » قد أرساها والتي تقول : « افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك » ، كما كان على علم كذلك بعمليات الخداع والتمويه التي برعت جيوش التار في اتباعها من بعده .

إن الدراسة المتأنية لاستراتيجية الملك المظفر « قطز » ضد التار في معركة « عين جالوت » تثبت لنا بصورة لا تقبل الشك أنه قد بناها على نسق أساليب قتال المغول من حيث الخداع والتظاهر بالخزيمة والفرار بغية استدراج العدو ثم العودة بسرعة خاطفة كاللهب للقضاء عليه .

كذلك توضح لنا وقفة قصيرة نستعرض فيها طبيعة الأرض في منطقة القتال ، ان الملك المظفر « قطز » قد قام باستغلالها إلى أقصى حد لصالحه ، حيث كانت المستنقعات التي تنتشر حول بلدة « بيسان » تحدد – بالضرورة – تقدم جيوش المغول في اتجاه الجنوب الغربي دون سواه ، وعليه فقد خطط « قطز » خدعة باهرة قضت بدفع طلائع القوات المصرية – تحت قيادة ركن الدين « بيبرس » – للاشتباك مع قوات التار ، ثم التظاهر بالخزيمة والفرار بغية استدراج التار نحو الثغرة المروكة عمداً بين جناحي القوات المصرية ، وعندما يتدفع نحوها العدو اندفاعه المبهود ، وبعد أن تتوغل قواته داخلها مسافة كافية ، تقوم القوات المصرية المضاربة بالاطباق عليها من خلف التلال للأجهزة عليهم .

تشكيل القتال للمعركة :

بعد النصر الأول للجيش المصري في غزة ، تقدم الملك المظفر « قطز » على رأس بقية الجيش للانضمام إلى قوات ركن الدين بيبرس هناك ، واجتمع « قطز » و « بيبرس » ليتناقشا سويا خطة المعركة الوشيكة ، وعندما حل الظلام قام الملك المظفر بالمرور على الجنود ، يرتبهم ويكثر عليهم التأكيد في البقطة وأخذ الأهمية ويحثهم على الجهاد ويشوقهم إلى الجنة .

كذلك قام « قطز » بتحديد تشكيل القتال بحيث يقود ركن الدين بيبرس الميسرة ، والأمير « بهادر » الميمنة ، في حين تولى الملك بنفسه قيادة القلب .

المعركة :

أشرق صباح يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وقد اصطف الجمعان المتضادان اللذان تأمبا للقتال ، وقد سيطرت عليهما رهبة الموقف – كان بكل جندي على الجانبين يعلم تماماً أن القتال الوشيك سيحدد مصير المنطقة بأسرها .



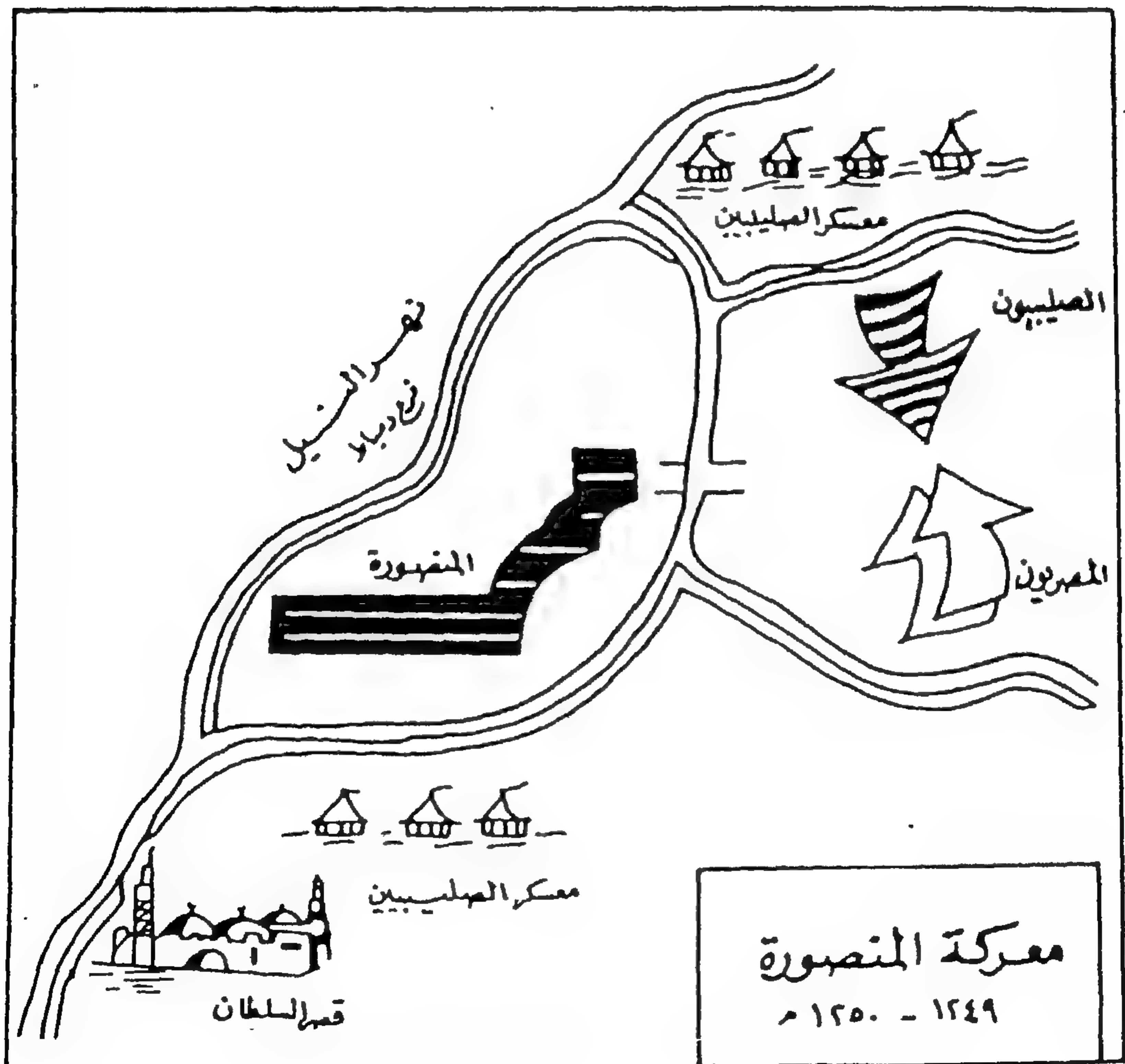
الجيش المصرى بقيادة السلطان « صلاح الدين الايوبي »
عقب انتصاره فى معركة « بيت المقدس » عام ١١٨٦ م .



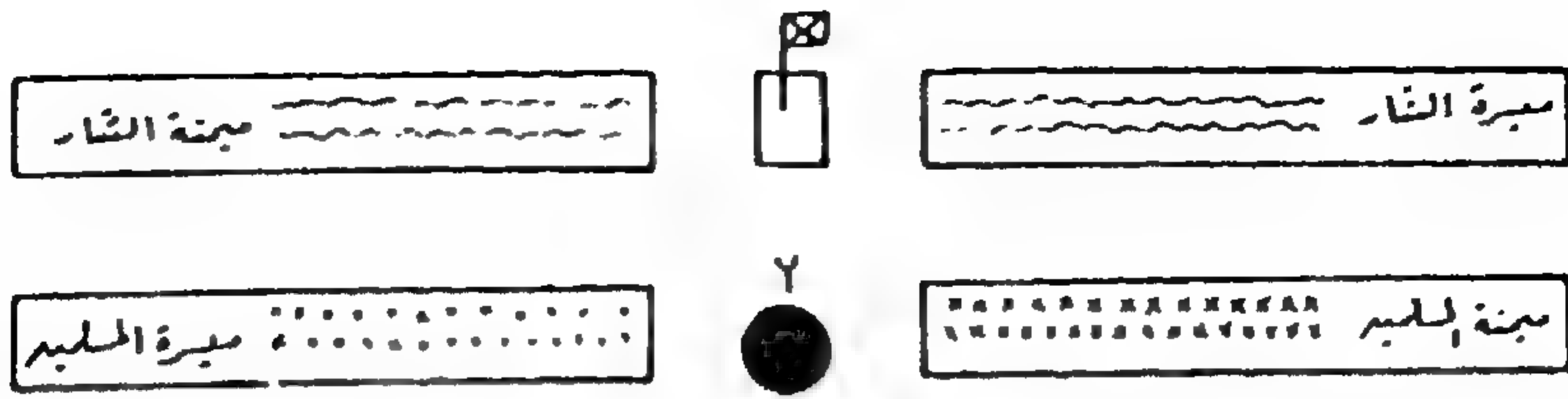
الملك الفرنسي « لويس التاسع » بعد هزيمته من الجيش
المصرى في « المنصورة » عام ١٢٤٩ م ووقعه في الأسر .



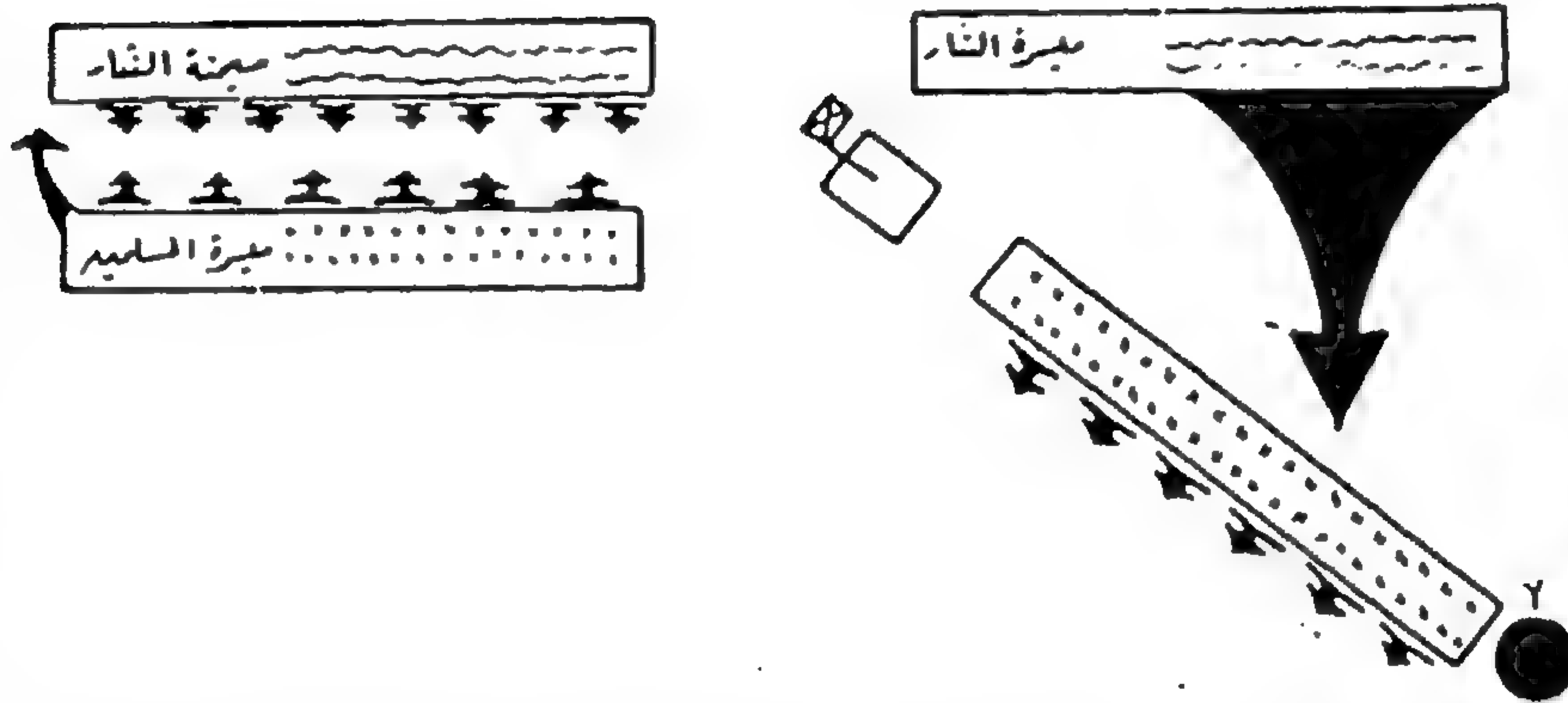
انتصار الجيش المصرى على الصليبيين في معركة « حطين » عام ١١٨٦ م .



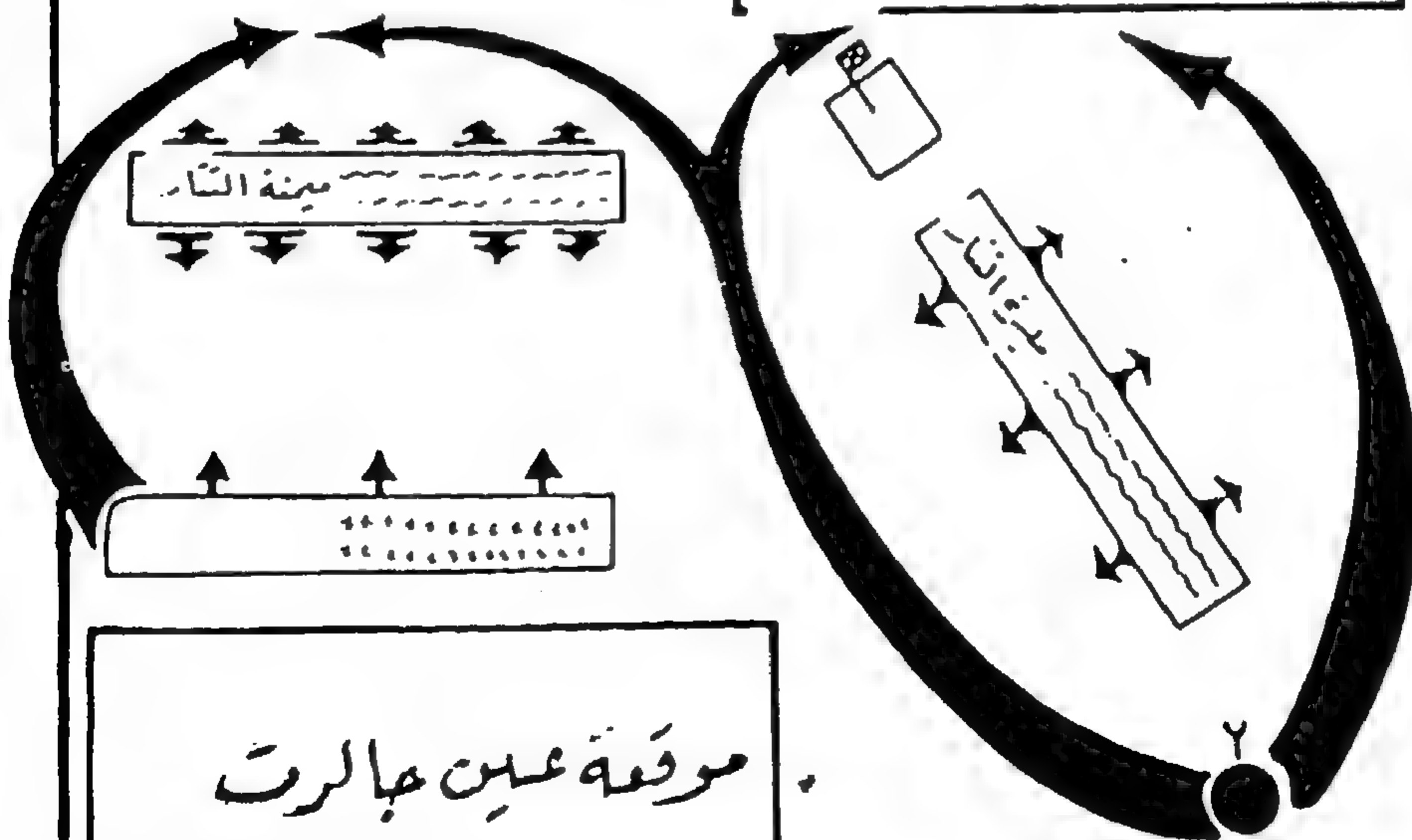
١ - تشكيل القتال



٢ - هجوم المتار



٣ - استعادة التوازن



موقعه عين عمارت

تقدم « كيتوبوقا » - قائد التار - في خيلاء ممتلئاً صهوة جواد أبيض ، وقد أمسك بيديه سيفان على عادة التار ، بعد أن ألقى بنظرة طويلة إلى رجاله يشجعهم ويحثهم على القتال . وعلى الجانب الآخر ، كان الملك « قطز » على ظهر حصانه الأرقط يستكمل التماسات الأخيرة لخطة التي تم الإتفاق عليها مع ركن الدين بيرس ، وأخيراً أخذ مكانه في قلب الجيش الإسلامي ، بينما أحاطته ثلة من أشجع فرسان المسلمين في شكل نصف دائرة .

بدأ القتال عندما أطلق « كيتوبوقا » صيحة الحرب المائلة ، في نفس الوقت الذي دقت فيه طبول الجيش الإسلامي وانطلق الفريقان لنهال السهام القاتلة من جانب التار على جيش المصريين حتى اشتد الأمر عليهم ، ولكنهم ما لبثوا أن اندفعوا نحو العدو خلف الملك المظفر « قطز » الذي أشار بيده للاندفاع لتصافح الصفوف الأمامية من القوتين بالسيوف ، وليبدأ القتال الذي استبسل فيه الجانبان استبسالاً عظيماً .

كان بالإمكان في تلك اللحظات بالذمة ، أن يلاحظ الجنود المسلمين ابتسامة راضية ارتسمت على أسارير الملك الذي انشرح صدره عندما وجد أن رجاله يتفوضون على التار ، لقد أيقن آنذاك أنهم بدأوا يتخلصون من عقدة الخوف من جنود هذا الجيش الذي لا يقهر .

ولكن سرعان ما هجم فرسان التار كسيل جارف من النار هجمة عنيفة على ميمنة الجيش الإسلامي التي تراجعت على الأثر تحت وطأة الضغط التاري ، وفي تلك اللحظة ، قام الملك المظفر « قطز » بتنفيذ خدعته المخططة من قبل بالانسحاب على رأس القلب إلى الخلف وتبعته قوات القلب ثم قوات الميمنة ، تتبعهم قوات التار وقد حسبوا ذلك نصراً .

في تلك الأثناء ، كان واضحاً لقطز أن « كيتوبوقا » يبنى تطويق ميسرة المسلمين (تحت قيادة ركن الدين بيرس) الذي قام بمحاربه رجاله على الصمود والاستبسال ، فتجروا ثبوتاً عظيماً حتى كثر القتل فيهم وفي أعدائهم .

وهنا تقدم الملك المظفر « قطز » كالسهم ، فكشف عن خوذته وألقى بها إلى الأرض ، صارخاً بأعلى صوته « وإسلاماه » ليحمل بمن معه حملة قوية على ميسرة التار وقلبيهم وردد معظم الجند الإسلامي صيحة الملك المائلة ، وحملوا حملة قوية انتمشت بها الميمنة الإسلامية التي تقدمت ببطء شديد من جموع التار ، ثم قاد هجوماً خاطفياً بقسم من القلب فيما بين ميسرة العدو وقلبه ، في حين أمر الأمير « بهادر » فرسان الميمنة بالانتشار في اتجاه الشمال الشرقي لتطويق ميسرة التار .

بعد قتال عنيف ، تمكن الملك « قطز » وفرسان القلب من توسيع الثغرة في صفوف التار بين الميسرة والقلب ، لتندفع إليها القوات المصرية . وهنا أمر الملك « قطز » باستكمال تطويق ميسرة العدو ، فاندفع بقية القلب الإسلامي إلى الثغرة لمعاونة ميسرة المسلمين ، على تطويق من لم يتمكن من الفرار .

ونعطينا المراجع التاريخية وصفاً مؤثراً ودقيقاً لقتال الملك المظفر « قطز » الذي بدأ في ساحة المعركة حاصر الرأس وقد احمر وجهه فصار كقطعة من الذهب يعلوها اعصار من الدخان الأسود ، وهو يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمن وذات الشمال ، فكلما اعوج له سيف التمس سيفاً آخر ، ثم قاد هجمة خاطفة بقسم من القلب فيما بين ميسرة العدو وقلبه معلناً للأمير « بهادر » - قائد الميمنة - بعزمه على تطويق ميسرة العدو ، وهكذا أمر « بهادر » رجاله بالانتشار إلى الشرق والشمال ، في حين أخذ الملك (قطز) يحث فرسانه على توسيع الاختراق في صفوف التار

لفتح ثغرة واسعة بين ميسرة العدو وسائر جيشه ، ولم تزل هذه الثغرة تتسع بما اندفع إليها من صفوف المصريين حتى أمر الملك « قطز » باستكمال تطويق ميسرة العدو ، وهكذا اندفع بقية القلب الإسلامي إلى الثغرة لمعلونة ميسرة المسلمين على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب وميسرة العدو ، وبذلك تم حصار جيش التتار في هاتين الدائرتين وحبل بينه وبين الفرار ، وقام الجيش الإسلامي بتوجيه هجمات ساحقة من جميع الاتجاهات على قوات التتار ضرباً بالسيوف وطلعاً بالرماح حتى امتلأ الغور بدمائهم وأشلأهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل من « ساقهم » الذين تمكنوا من الفرار إلى تل مجاور حيث راحوا يمحطون المسلمين بوابل من سهامهم ، ولكن قوة من فرسان المسلمين قامت بمطاردتهم وقاتلهم حتى سحقهم سحقاً .

في نهاية ذلك اليوم المصيب ، كتب الله النصر للمسلمين على جيوش التتار التي لم تهزم قط من قبل ، أما الملك المظفر « قطز » فخر على أرض المعركة ساجداً شاكراً لله تعالى على هذا النصر العظيم ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تنهمر على خديته حتى اختتم صلاته ، فامتطى صهوة جواده ، وخطب في جيشه قائلاً :

« أيها المسلمون . . ان لساني يعجز عن شكركم ، والله وحده قادر على أن يميزكم الجزاء الأوفى . لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم . قال الله تعالى : « ان تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال عز وجل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

« أياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله ، انه ذو القوة المتين ، وما يدريك لعل دعوات اخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حدثتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم - يوم الجمعة - وفي هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم ، والرماح التي بها طعنتم ، والقسي التي عنها رميتم واعلموا أنكم لم تنهوا عن الجهاد وإنما بدأتموه . وان الله ورسوله لن يرزيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ألا فرحوا على اخوانكم الذين علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والخير ، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد في سبيله ، وما عند الله خير وأبقى » .

يعطينا « رشيد فضل الله الحمداني » - مؤرخ حروب التتار - وصفاً دقيقاً لسير القتال ، فكتب :

« أقبل « كيتوبوقا » كأنه بحر من اللهب ، معتمداً على قوته وسطوته ، وكان « قطز » قد عبأ الجيش في كمين وأعدده خير إعداد ، ثم ركب هو بنفسه وثبت مع نفر قليل من الجند وقابل « كيتوبوقا » مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس في « عين جالوت » فقفز التتار سهامهم وحملوا على المصريين ، فراجع « قطز » ولحقت بجنوده الهزيمة ، وهنا تشجع التتار وتعقبوه وقتلوا كثيراً من المصريين ، إلا أنهم عندما بلغوا الكمين الذي دبره قطز انشق عليهم من ثلاث جهات ، وأغار المصريون على جنود التتار ، وهنأرى « قطز » خوذته وصاح بأعلى صوته : « وإسلاماه » وحمل بنفسه ومن معه حملة جباذة ، وقاتلهم قتالاً مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار ، حتى تعلرت المقاومة على جيش التتار ولحقت به الهزيمة آخر الأمر » .

(١) جامع التواريخ : « تاريخ المغول » - المجلد الثاني - ج ٢ - الترجمة العربية - ص ٣١٢ وما بعدها .

وحين قامت بعض فرق التار بالهجوم إلى قم الجبال والمرتفعات ، تعقيم المصريون وأفتوهم من آخرهم ، بينما هرب من سلم منهم إلى الشرق ، وهكذا دخل الملك « قطز » دمشق في آخر شهر رمضان فاستقبله الأهالي بالابتهاج .

نهاية درامية للقائد التتار :

كذلك يعطينا المؤرخون وصفا دقيقا لنهاية القائد السجاح « كيتوبوقا » على يد الملك المظفر « قطز » ، فيقولون أن القائد التتاري قد قاتل قتال الأبطال حتى بعد أن انفض عنه جنوده في ختام المعركة ، فظل يكر على القوات المصرية ، وحينما زين له بعض رفاقه الحرب من ساحة القتال صاح فيهم قائلا :

« لا مفر من الموت هنا . . قالموت مع العزة والشرف خير من الحرب مع اللذ والهوان » وظل يقاتل إلى أن كبا به جواده فأسره المصريون ، ليحمل مكبلا إلى « قطز » الذي بادره قائلا :

« أيها الرجل الناكث بالعهد . . ها أنت بعد أن سفكت كثيرا من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة ، قد وقعت أخيرا في يدي » .

وفي وقاحة ، أجاب قائد التتار :

« أيها الفخور المغرور . . لا تتباه كثيرا بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قتلت على يدك ، فإنني أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا نخدع نفسك بهذه المصادفة ، ولا بهذا الفرور العابر ، وأعلم أنه حين يبلغ « هولوكو » العظم نأ قتل ، فسوف يغلي غضبا ، وستطأ سنابك خيول التتار البلاد من « أندريجان » حتى الديار المصرية ، ان هولوكو ثلاثمائة ألف فارس مثل « كيتوبوقا » وهنا أمر الملك المظفر « قطز » بقتل « كيتوبوقا » جزاء وفاقا لما ارتكبته قواته من جرائم ووحشية بالغة ينذر أن تشهد لها البشرية مثيلا ، ففصل رأسه عن جسده لتحمل إلى مصر ، حيث أخذت مكانها اللائق إلى جانب رؤوس التتار الأربعة التي علقت من قبل على أبواب القاهرة .

آثار عين جالوت :

تعتبر موقعة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة في التاريخ الإنساني بأسره ، فهي لم تكن قتالا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها قواعد وقوانين متعارف عليها ، وإنما كانت حربا همجية شنتها قبائل بربرية متوحشة سفاكة للدماء مخربة للعمران ضد سكان المدن في كل مكان .

ويمكن أن نطلق لخيالنا العنان لتصور النتائج التي كان من شأنها أن ترتب على انتصار المغول في هذه المعركة .

فلا شك أن انتصار هذه القبائل البربرية كان من شأنه القضاء التام على حضارة العالم شرقا وغربا ، ومن هذه الزاوية تكن موقعة « عين جالوت » قد تركت في تاريخ البشرية أثرا أشد وأقوى مما تركته كل هذه المعارك ، لقد رأينا كيف قامت جماعات التتار بهدم الحضارات ودمق الأهالي والبعث بالأديان والمقصدات في إيران والعراق والشام ، وما كان هذا المصير المؤلم ليصبح من نصيب مصر وحدها في حال انتصار التتار ، بل كان من شأن الأمة العربية كلها أن تدخل في عصر مظلم حالك طويل بعد انهيار مصر تحت وطأة التتار .

ولو انتصر التار ، لو اصلوا زحفهم إلى ليبيا وبلاد النوبة ، ولاسرد الفرنجة بيت المقدس ولتضاءل شأن الإسلام إلى أدنى حد ، الأمر الذى كان من شأنه تغيير مجرى التاريخ .

يقول « رينسان » فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية »^(١) :

« بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة : بغداد وحلب ودمشق ، تراءى كأن الإسلام فى غرب آسيا قد حانت نهايته . إلا أن ما أحرزه المصريون من انتصار ، أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له ، فلو أن التار تمكنوا من التوغل فى مصر ، لما بقى للمسلمين فى العالم دولة كبيرة شرقى بلاد المغرب » .

إن انتصار المصريين فى « عين جالوت » لم ينقذ مصر فحسب من وحشية التار ، بل أنقذ بلاد الشام كذلك ، لأن التار - بعد تلك الضربة القاضية التى تزلت بهم - لم يعد لهم مقام فى الشام ، بعد أن جردوا من أية قوة تحميهم وتزود عنهم ، اللهم إلا إذا جاءهم موجات أخرى ضخمة من جنوب آسيا لإعادة الكرة من جديد ، وهو ما لم تعد تسمح به ظروفهم وأوضاعهم الداخلية بعد « عين جالوت » .

وفى هذا يحدثنا المؤرخ « رشيد الدين المملاانى - فى كتابه « جامع التواريخ »^(٢) :

« وقد أراد هولاء أن يرسل جيوشاً مرة ثانية إلى الشام للانتقام لمقتل قائده « كيتوبوقا » . ولكن لم تكن الظروف فى ذلك الوقت تسمح بذلك ، بسبب وفاة « منكوك خان » وبسبب الخلافات التى ظهرت بينه وبين أقاربه . ولهذا عدل عن الفكرة .

القضاء على خرافة :

كانت معركة « عين جالوت » بمثابة سد منيع حال دون تقدم التار إلى مصر كما تقدم . بعد أن قضى المصريون فى تلك المعركة الفاصلة على تلك الخرافة التى كانت تقضى بأن التار إنما هم قوم لا يقابون . وعلى الرغم من أن الهزيمة لم تلحق شخصياً بهولاءكو . إلا أنها مثلت ضربة قاصمة أنزلها المصريون بجيوش التار ، ولا شك أن تلك الهزيمة التى أصابهم ، بالإضافة إلى مصرع القائد التارى « كيتوبوقا » كانت بمثابة صدمة عنيفة أصابت « هولاءكو » المتعجرف والذى ما أن بلغته أنباء مقتل قائده الكبير ، حتى تأثر تأثراً شديداً وأقسم على أن يغسل العار الذى لحق بالتار . وأراد أن يرسل حملة عسكرية جديدة إلى بلاد الشام ومصر ، غير أن الظروف لم تمكنه من ذلك .

قلبت موازين القوى ! :

كذلك قلبت نتائج معركة « عين جالوت » الموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام رأساً على عقب ، حيث اعتمد الصليبيون فى تلك الفترة فى بقائهم بفلسطين على ذلك التنافس الذى كان يحدث بين الأيوبيين هناك ، والمماليك فى مصر . ولكن انتصار المصريين فى « عين جالوت » غير بشدة من موازين القوى لغير صالح الصليبيين فى الشام ، إذ ترتب عليه قضاء المماليك على بقايا الأيوبيين الذين خانوا أوطانهم وتعاونوا مع « هولاءكو » فكتبوا

(١) تاريخ الحروب الصليبية - الترجمة العربية - ج ٢ ، ص ٥٢٧ و ٥٢٨ .

(٢) جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢١٧ .

بذلك صك عدم اهليتهم للبقاء ، وهكذا عادت وحدة مصر والشام تحت حكم المالك في مصر ، وهي الوحدة التي طالما ذاق الصليبيون من أمرها الكثير .

حمت أوروبا من سطوة التار :

كذلك كان خطر التار قد عم البلاد الإسلامية قيل « عين جالوت » ، وامتد إلى شرق أوروبا وكان « هولاكو » وخلفاؤه من بعده يعدون للقيام بغزو أوروبا بأسرها وتخريب حضارتها ، وذلك بعد تمام استيلائهم على منطقة الشرق الإسلامي عبر الصحراء الغربية - نفس طريق الحرب الذي طالما سلكه الغزاة والفاطحيين في مختلف العصور - ولكن عندما كسر المصريون شوكة التار في « عين جالوت » انهارت آمالهم وضعفت همهم وبذلك فقط توقف المد التاري الكاسح .

لقد تنبه بعض المؤرخين الأوروبيين إلى تلك الحقيقة ، فاعترفوا بأهمية « عين جالوت » وذكروا أنها لم تنقذ مصر والشام من خطرهم فحسب ، بل خلصت كذلك العالم الأوروبي والمدنية الأوروبية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا آنذاك طاقة على دفعه^(١) .

أعطت المسلمين درساً في التضامن ضد الخطر :

كذلك أعطت نتائج معركة « عين جالوت » درساً في التآزر والتضامن في مواجهة الأخطار الخارجية ، فعندما ظهر خطر التار واشتدت وطأتهم في بلاد الشام آنذاك ، سعوا إلى تحصين أنفسهم بالتضامن ليسيروا قلما في طريق الجهاد ، حتى تمكنوا - في النهاية - من تحرير أوطانهم من التار وحماية الإسلام من الأخطار العظيمة النازلة به حتى يستعيدوا مكانهم بين الأمم باعتبارهم رسل الإنسانية ومنقذوها .

لقد كان انتصار المسلمين في هذه الموقعة الفاصلة أمراً جعل الأوروبيين يدركون تماماً أنهم قادرون على حماية أنفسهم وأن لديهم الإمكانيات التي تكفل خدمة البشرية ورفع حضارتها في مدارج الرقي والازدهار .

يقول « سيدو » في كتابه « تاريخ العرب العام » :

« لقد وجد التار حيناً أغاروا على الشعوب الإسلامية في النصف الأخير من القرن ١٣ في مقاومة المصريين وشجعائهم حاجزاً يتعذر اقتحامه ، وانضمت عدة قبائل إسلامية إلى الجيوش المصرية فساعدتها على تحقيق النصر ، ولم يتردد الظاهر بيبرس - أمير أمراء الممالك البحرية - في الدفاع عن الإسلام ، في حين لم يفكر أمير آخر في الهرض بهذا العبء ، لقد كان « بيبرس » سياسياً عنكاً كما كان قائداً ممتازاً » .

أما ذلك الرجل العظيم الذي اقترن اسمه بهذا النصر الكبير في « عين جالوت » إلى الأبد ، فيصفه المؤرخ « بن تغردى بردى »^(٢) بقوله :

« كان « قطز » بطلا شجاعاً مقداماً حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير وله اليد البيضاء في جهاد التار ، عوض الله شبابه بالجنة ورضى عنه » .

(١) Browne: A Literary Hist. of Persia, IV P, 6; Gamb. Med. Hist. vol, VI PP, 28, 43, 44.

(٢) بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - الجزء السابع - ص ٨٤ .

الباب الثالث

معارك الجيش المصرى فى الشام

الفصل الأول

في مواجهة الجيوش التركية^(١)

للمؤرخ العسكري : محمد فيصل عبد المنعم

اعتباراً من عام ١٨٣١ نشبت الحرب بين مصر وتركيا ، على أراضي الشام ، التي كانت تمثل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية واسعة الأرجاء .

ولقد اختلف المؤرخون في ذكر أسباب ودوافع هذه الحرب . . وان اتفقوا جميعاً على أن السبب الرئيسي لها كان ينحصر في التوايا السيئة التي كان يكنها سلطان تركيا لمصر في شخص واليها (محمد علي)^(٢) .

إلا أن الأمر الذي نستهدفه من بحثنا هذا وتحليلنا لمعارك الجيش المصري ضد الجيوش التركية ، إنما هو في واقع الأمر بيان لتوضيح بسالة الجندي المصري الذي كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بالقتال سواء للدفاع عن وطنه أو لتحطيم جيوش عدوه وتأمين حدوده . . وهذه هي الزاوية التي ينبغي أن تسلط عليها كافة الأضواء ونحن بسبيل الدراسة لهذا العرض التاريخي المدعم بالأسانيد والوثائق .

قوة الجيش المصري في بداية حرب الشام :

كانت قوة الجيش المصري النظامي ، حينما أعدت حملة الشام ، تبلغ نحو ٧٠ ألفاً موزعين بين الأسلحة على الوجه التالي :

١٨ آلاى مشاة .

٨ الآيات خيالة .

١ آلاى مدفعية .

وحدات من المهندسين واللغامين والقوات غير النظامية . .

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(٢) والمدير بالذكر أن السلطان العثماني لم يوافق على تولية (محمد علي) حكم مصر عام ١٨٠٥ إلا مكرها . . حيث لم يدع فرصة بعد ذلك لنزله أو التآمر عليه إلا واغتنتها . . ففي عام ١٨٠٦ حاول نقله إلى ولاية (سالونيك) ، وفي عام ١٨١٢ عين (لطيف باشا) أحد رجال الحكومة المصرية - لولاية مصر على أن يطيح بمحمد علي - كما قام في ذلك الوقت بمنح (خسرو باشا) - أحد أعداء (محمد علي) منصب الصدارة العظمى . .

- أوردنا هنا أهم الدوافع ، معتمدة اغفال بعض الأسباب الفرعية مثل سوء التفاهم الذي ساد بين (عبد الله باشا الجزائر) والي (عكا) و (محمد علي) بسبب هجرة الفلاحين من مصر إلى ولايته . . أو عدم وفاء الأول بدين عليه لمحمد علي . . الخ... - كان تعداد مصر في ذلك الحين نحو الأربعة ملايين نسمة . .

القوات المصرية التى خصصت لحملة :

وقد بلغت القوات البرية التى خصصت لحملة الشام نحو ٢٥ ألفا من الجنود بالإضافة إلى ٣٠٠٠ من الحياة (الفرسان) وذلك على النحو التالى^(١) :

- ٥ آليات مشاة (آلاى ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ وآلاى الحرس) .
- ٤ آليات خيالة (آلاى ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ المدرعة والرماحة) .
- ١ أورطة مدفعية (تحتوى على ٤٠ مدفع ميدان و ٢٠ مدفع حصار و ١٠ هاونات) ودعمت فيها بعدد :
٤٠٠ جندي من المهندسين .
١٢٠٠ خيالة (من البدو) .

الاسطول :

كما تألفت القوات البحرية المصرية المشتركة فى الحملة من ٢٣ سفينة حربية تحت قيادة أمير البحر (عثمان نور الدين باشا) منها ٧ فرقاطات و ٦ قروية و ٣ أباريق و ٧ سفن مدفعية علاوة على عدد من الناقلات الصغيرة .

القوات العثمانية النظامية

وبحسب هنا أن نعرض إلى بيان حالة الجيش التركى الذى أعده السلطان (محمود الثانى) على الخط الحديث بعد فضائه على القوات « الإنكشارية » خلال مذبحة ١٦ يونية ١٨٢٦ الرهيبة .

قائد الجيش :

كان على رأس الجيش العثمانى السر عسكر « حسين باشا »^(٢) ذو الميول الرجعية الجامدة غير الخبة للتطوير فى أساليب القتال ، الأمر الذى دعا السلطان إلى أن يعين معه قائداً آخر هو « محمد باشا » الذى تولى قيادة كافة الوحدات المنظمة عدا قوات الحرس ، وكان الأخير متطور الفكر ميالاً إلى التجديد والتطوير ، مما قسم الجيش التركى إلى قسمين ، قسم (المحافظين) بقيادة السر عسكر « حسين باشا » وقسم (المجددين) بقيادة « محمد باشا » ، أما باقى قادة الجيش ، فكانت تعوزهم الكفاءة ويفتقرون إلى مؤهلات القيادة الناجحة .

القوات :

بلغ تعداد الجيش العثمانى نحو ٦٠ ألفاً من الجنود من بينهم ٤٥ ألفاً من وحدات النظام الجديد ، يمثلون آلة القتال الفعالة ، ولكن كانت تنقصهم أيضاً أهم مقومات النجاح - النظام - وذلك فضلاً عن ميلهم إلى الاسراف ورغبتهم فى الحصول على الغنائم^(٣) .

(١) خصص لكل آلاى خيالة ٢٠٠ جبل لنقل المتاع والمياه - كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل احتياجاتها .
(٢) وهو الذى قام بإيادة (الانتكشارية) - بدأ حياته حمالاً فجاسوساً ثم قائد قلعة ثم جلاداً ثم باشا الباشوات - قلده السلطان (محمود) رتبة مشير ولقبه بالمشير الأكرم كما ولاه مصر وكريت والحبشة .
(٣) التاريخ الحربى لمصر محمد على باشا : التأميم عبد الرحمن زكى .

تقرير رسمي يصف حالة القوات العثمانية :

وفي تقرير رسمي عن حالة الجيش العثماني عام ١٨٣٦ جاء فيه ^(١) :

« من حسن بكباشي طوبجي غارديا إلى سامح بك في ٢٨ جمادى الآخرة عام ١٢٥٣ هـ .

أصدر الحاج علي باشا أمراً إلى علي بك أمير الآي الثاني أخرجته إلى التدريب ، ولما بلغني هذا الخبر توجهت إلى مكان التدريب فجلست في موضع اتفرج فيه على تدريب الآي المذكور فرأيتهم يتدربون تدريب المتأورة فحسب ولا بأس في تدريبهم ، وقد شأمت في ذلك اليوم الحاج علي باشا وأيوب باشا لواء رديف (قونية) حضرا مكان التدريب وبما أن الآي المذكور لم يستعمل اليوم السلاح في ميدان التدريب ، وكانت دواب الفرسان والمدفعين في المرعى ، فلم تتيسر لي مشاهدة تدريباتهم وحركاتهم الخاصة في استعمال السلاح ومع ذلك خطر على بالي أنني أستطيع أن أكون فكرة عن كيفية تدريباتهم بكل من مهارة ضباطهم ، فبدأت أحدث الضباط الذين يترددون على التاجر سالف الذكر باختلاف صنوفهم سواء كانوا من ضباط المشاة أو الفرسان أو المدفعية ، فسألت كل صنف منهم - فيما يختص بطائفته عن أصول التدريب ، فأجابوا : نحن لا ندرى أصولاً أو قوانين مثل العساكر المصرية وإنما شأننا أن نخرج إلى التدريب فتدرب ، وقد علمت من أفادتهم أيضاً في تدريباتهم وحركاتهم وسألهم أيضاً عن الطريقة التي يسلكونها في تأديبهم لمن يرتكبون مخالفات أو جرائم ، فعرفت أن ذلك ليس خاضعاً للقانون أو النظام وإنما يؤدب كل ضابط من كان في معيته بما يراهي له ، وقد يحدث أحياناً أن يموت أحد المذنبين تحت الضرب . . سمعت ذلك من (يسقى) كبير أطباء الآي الثاني ، حتى قيل أنه بلغ عدد الذين ماتوا من جراء الضرب ١٦ جندياً قيدت أسماؤهم في دفتر الطبيب المذكور . . وظاهر من هذا أن الجيش المصري كان يفضل الجيش العثماني في نظامه يؤيد هذا القول ما رواه المارشال « فون مولتكة » ^(٢) عن حالة الجيش العثماني الذي كلف بتدريبه فترة طويلة من الزمن ، وما ذكره المارشال « مارمون » ^(٣) في رحلته الشيرة التي استعرض فيها - عام ١٨٣٤ - بعض فيالق الجيش المصري فأعجب بكفاءتها وحسن نظامها قائلاً :

« كان لواء المشاة المؤلف من الآي التاسع والآي العشرين في طريق السويس للابحار منها إلى الحجاز لتجدة الجيش المصري فيه ، واستعرضت بنفسى هذا اللواء فقام أمامى بمناورات دامت ٣ ساعات في سهل العقبة فأعجبت به بما أعجاب ، وإذا كان عساكره في مقبيل السن وحديثي العهد بالانتظام في صفوفه ، فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الأعلى للجيش في تشكيله ونظامه ، والحق أن العساكر الذين استعرضهم يميلون إلى الدقة والنظام والدراية بالفنون

(١) وثيقة رقم ٢٥٥ - ١٢٥ عابدين تحت عنوان (حالة الجيش العثماني في قونية عام ١٨٣٧) .

(٢) Moitké, helmuth briefuler zustande und begeben heiten in der turkei aus den Jahren, Berlin, 1841.

(٣) المارشال مارمون : دوق دى راجوز - أحد قادة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ - عين قائداً لاسكندرية والبحيرة وبنى حصن (كوم الناطورة) و (كوم الدكة) . . وسمى الأول (حصن كافاريللى) باسم قائد فرقة مهندسى تلك الحملة الذي قتل خلال حصار (عكا) وسمى الثاني (حصن كريتان) باسم الكولونيل (كريتان) من قسم المهندسين والذي قتل في معركة (أبي قير) بين الفرنسيين والجيش التركي ودفن فيه وكان (مارمون) مقرباً لتابليون الذي رماه إلى رتبة (مارشال) . . ولكنه خافه ولم يمن ثمار تلك الحياة ، حيث قامت الحكومة الفرنسية التي خلفت حكومة (نابليون) بطرده من الحملة ، فقام بزيارة في بلاد الشرق وزار مصر عام ١٨٣٤ حيث أكرم (محمد علي) وقادته وطلب منه استعراض الجيوش المصرية البرية والبحرية وتكوين ملاحظاته عليها .

المسكينة ، وقد رأيت في قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة وشهدت أيضا الآلاى السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنوده فى الحملة أكثر من عشرة أشهر ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستعملون أسلحتهم بكل مهارة وكفاءة .

وصف طبيعة مسرح العمليات

يمكن تقسيم مسرح العمليات الذى جرت على أرضه المعارك إلى ٤ مناطق تتباين فى الإتساع ، وتمتد من الشمال إلى الجنوب - متوازية تقريبا .

وأولى هذه المناطق :

منطقة الشاطئ وتتكون من عدة سهول ساحلية تختلف فى اتساع رقعتها ، ويفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات إلى ساحل البحر المتوسط ، مثل (الكرمل) فى لبنان وجبل (أحمر داغ) بالقرب من (انطاكية) - ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل (شارون) الذى يبلغ متوسط عرضه هناك ١٥ ميلا ، وكثيرا ما تنحدر السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة مع مجارى المياه ووديان الأنهار كسهل (ازدرائيلون) شمال الكرمل ووادى العاصى (الأورنت) المتاخمة لأنطاكية ، غير أنه فى الوسط - حول طرابلس وبيروت - تضيق المنطقة الساحلية وتمثل شريطا وعرأ للغاية .

المنطقة الثانية :

وتشتمل على الجبال المشرقة على السهل الساحلى وتتكون ثلاث سلاسل جبلية « الانصارية فى الشمال - ولبنان فى الوسط - وأفرايام ويهودا فى الجنوب » والسلسلتان الأوليان عبارة عن جبال شامخة تصل فى بعض مناطقها إلى ارتفاع ١١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليل ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم ، كما تحتوى ثانيا وقيم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

أما المنطقة الثالثة : فتشتمل على الأودية العميقة التى تسلك فيها الأنهار الثلاثة (العاصى - الليطاني - الأردن) . ويصب الأولان فى البحر مباشرة - أما الأخير (الأردن) ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق كما يتميز العاصى والليطاني بخصوبة وديانها الفسيحة ، أما وادى الأردن فضيق لا يتيسر عبوره إلا فى مناطق محدودة ، بينما يمتد وادى الأردن إلى الجنوب حيث يتصل بواضى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة.

أما إلى الشرق من منطقة الوديان فتقع الهضبة الشرقية الشامخة (جوف سوريا) وهى منطقة مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ومتصلة بالصحراء القاحلة فى كثير من المواضع ، ومع ذلك تكثرت بها المناطق الحصينة الوافرة المياه والثمار ، كالأراضى الواقعة حول حلب ودمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حداً فاصلا تصلح فى ثنياه العمليات الحربية الواسعة الحركات .

التقسيم الإداري للشام :

أما التقسيم الإداري للشام فقد كان مقسماً إلى ولايات هي :

- ١ - ولاية حلب : وهي القسم الشمال من البلاد .
- ٢ - ولاية بيروت : وتشمل السواحل البحرية وما بينها وداخل البلاد من اللاذقية شمالاً إلى حيفا جنوباً .
- ٣ - ولاية الشام (سوريا) وقاعدتها مدينة (دمشق) وتشمل داخل البلاد وشرقها .
- ٤ - متصرفية القلمس : وتتضمن جميع البلاد الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .
- ٥ - متصرفية لبنان : وكان لها نظام خاص واستقلال إداري ووال تعينه الدول بالاتفاق مع الباب العالي كل ١٠ سنوات وموقعها في أواسط بلاد الشام ، بين ولايتي سوريا وبيروت .

وصف حال البلاد قبل حرب الشام :

قبل دخول القوات المصرية أرض الشام كان الخراب يشمل البلاد فالضرائب فادحة ، والظلم متفش حتى أصبحت البلاد على شفا الدمار والإفلاس الشام .

الخطة المصرية العسامة

تتطابق إلى مدى بعيد - الخطة المصرية لفتح الشام بخطة (نابليون) مع فارق وحيد ، حيث لم تكن لمصر السيادة البحرية التامة في شرق البحر المتوسط نظراً لوجود الاسطول الانجليزي في تلك المنطقة .

وقد قسمت وحدات الحملة إلى قسمين : القسم الأول تحت قيادة (ابراهيم باشا) الذي اتخذ البحر طريقاً يصل به إلى (يافا) وكانت قاعدته (العريش) - أما القسم الثاني فكان تحت قيادة (ابراهيم يكن) والذي تحرك برا من (الحانقاه) - وقد حدد موعد تحرك الحملة في أوائل عام ١٨٣١ إلا أن انتشار وباء الكوليرا في مصر ، قضى على حوالي خمسة آلاف من رجال الجيش الأمر الذي أدى إلى تأخير تحرك طلائع الجيش من معسكر (الحانقاه) بقيادة اللواء (ابراهيم يكن) - مارا ببليس والصالحية فقاطية فبئر العبد - والعريش حتى خان يونس وغزة ومنها إلى يافا^(١) حيث تقابلت قواته مع وحدات (ابراهيم باشا) الذي نزل بها بجراً وعلى الفور اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقلعت وحدات خفيفة أخرى تحت قيادة (حسن بك المناسرتلي) واستولت على (صور) و (صيدا) و (بيروت) و (طرابلس) .

(١) حينما رسا الأسطول المصري تجاه (يافا) توجه وجهاء المدينة إلى (ابراهيم باشا) وعرضوا عليه التسليم ، فوافق وأنزل سرية استولت على مدافع قلعة المدينة (٤٧ مدفعاً بذخائرها) ومواقعها الحربية .

القوات المصرية تنشىء جسراً للإمداد :

كان لابد - إزاء حملة كبيرة بهذا الحجم - من قيام الحكومة المصرية بإنشاء جسر بحرى - برى لضم إمداد القوات بمختلف الاحتياجات المطلوبة لها من ذخائر وتموين . . . الخ .

وبناء على ذلك فقد أقامت الحكومة نظاماً إدارياً بكل فيه كل من الإمداد البحرى والإمداد البرى بعضهما البعض ، فبينما كانت المؤن والذخائر والاعتدة ترسل - على السفن من الموانئ المصرية إلى ثغور الشام تم إنشاء المخازن والمستودعات فى تلك الثغور^(١) .

وثيقة رسمية توضح الموقف الإدارى للحملة :

وفى وثيقة هامة - تمثل تقريراً من المهندس (قاسم أغا) كتبه عام ١٨٣٢ (٢٤ رمضان ١٢٤٧ هجرية) - نقرأ آراء هامة بخصوص التخطيط الإدارى^(٢) ونقلها فيما يلى :

« بما أن الجيش المصرى قد أصبح بعيداً عن مصر وبحول بينه وبينها الصحراء وأن طريق البحر ليس بمأمون دائماً وأنه ليست هناك غلال لتموين الجيش بسبب ما استحکم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء ، اقترح ما يلى :

أولاً : مد خط من مصر وإنشاء اشنة للغلال على خط مستقيم بطول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية (فى الصالحية وقايطية والعريش وغزة وبافا وحيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وما إليها ..) ويودع فى كل من هذه الشئون مقدار كاف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤونة الجيش من مصر إلى كل النقط حتى المعسكر .

ثانياً : ينشأ فى (دمياط) مستشفى كبير ليرسل اليه من الجيش العسكر المرضى والضعاف للمعالجة فيه - وتنشأ فيها أيضاً أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد فيعين منهم احراس فى الشئون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآليات - وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث تبقى الآليات التى يكون منها كاملة العدد ويحفظ أيضاً الطريق المشترك الذى بين مصر وبر الشام وتقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق المختار من مصر إلى الشام » .

السلطان العثمانى يتأهب للحرب

أصدر السلطان أوامره إلى القائد التركى (حسين باشا) بتنظيم الجيش فى الأناضول وفى ذات الوقت قام السلطان بتعيين (عثمان باشا اللبيب) حاكماً على (طرابلس) رغم ما كان معروفاً من الحصومة الشديدة بين القائدين .

أما الحامية المصرية الموجودة فى (طرابلس) لحمايتها فكانت لا تزيد عن ٣٠٠٠ جندى (الآلاى ٨ المشاة) تحت قيادة القائمقام (ادريس بك) علاوة على بعض قوات الاعراب والدروز بقيادة الأمير (خليل) أحد أبناء الأمير (بشير الشهابى) .

(١) يعود الفضل فى وضع هذا التنظيم والإشراف على تنفيذه إلى (نظيف بك) مدير مستودعات التموين فى ذلك الوقت .

(٢) وثيقة رقم ٢٢٢ عابدين - تقرير مقدم من المهندس (قاسم أغا) .

نصر سريع للقوات التركية :

حالف الحظ القائد التركي (عثمان باشا) ، حين تقدم القائد المصري القاتمقام (ادريس بك) على رأس أروطة إلى السهل المكشوف خارج المدينة لمهاجمة القوات التركية (المتخوفة عدة وعددا) الأمر الذي نتج عنه إبادة الكتيبة وتقهقره مع قلول قواته إلى الخلف .

الحامية المصرية بطرابلس تلقن الأعداء درسا قاسيا :

شجع النصر السريع الذي أحرزه القائد التركي (عثمان باشا) على تدعيم معسكره أمام طرابلس ، وفي ٣١ مارس قام بمهاجمة المدينة ، فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع (مصطفى بربر) ومعهم ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير (خليل) وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، كما أبدت ضروبا من الجرأة والشجاعة أنزلت بالأعداء هزيمة منكرة ، فر على أثرها الجنود الأتراك في اتجاه (مينه) .

الجيش المصري يستولى على طرابلس :

حينما وصلت أنباء معركة (طرابلس) إلى قيادة الجيش المصري الذي كان يحاصر مدينة عكا المنيعه ، قررت إحكام الحصار عليها مع التقدم في ٢٩ مارس على رأس قول مؤلف من عشرة آلاف جندي (منها آلاى الحرس والآلاى السابع الحياالة وستة مدافع) في اتجاه (صيدا) و (بيروت) ، وفي ٤ أبريل وصلت القوات المصرية إلى (بادرون) على مبعده ٦ ساعات من طرابلس - وما أن علم القائد التركي (عثمان باشا) بذلك حتى استولى عليه الفرع ، فترك مدفعيته وعتاده وولى الادبار مع جنوده إلى منطقة (حماة) حيث عسكرت طلائع الجيش التركي .

وفي اليوم التالي دخل الجيش المصري مدينة (طرابلس) ظافرا ، لبتابع مطاردة قوات (عثمان باشا) فتجاوزت قواته لبنان ، مدركة (حصص) وبذلك أصبحت القوات المصرية مشرفة على وادي (الأورنت)^(١) وعلى مسافة مرحلتين جنوبي (حماة) - معقل الجيش التركي .

(١) نهر ينبع في لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماة وأنطاكية ويصب عند السويدية ويعرف باسم (نهر العاصي) - التاريخ الحربي لعصر محمد علي - القانمقام عبد الرحمن زكي .

الفصل الثاني

معركة الزراعة : ١٤ أبريل ١٨٣٢

القوات المصرية تهزم القوات التركية :

حينما قدرت القيادة المصرية موقفها عقب دخولها (حمص) قررت العودة إلى (عكا) وبالفعل تحركت القوات المصرية في اتجاه (خان قصير) حيث عسكرت في سهل الزراعة (جنوبي حمص) ، ولكن (عثمان باشا) اعتقد أن القوات المصرية قد تراجعت عن موقف ضعف ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالي المنطقة والأكراد وفرسان العرب (نحو ١٥ ألفا) وتوجه بهم لمقاتلة الجيش المصري الذي كانت قيادته قد دبرت خطة محكمة ، وذلك بتقسيم قواتها إلى قسمين وحشدت خلف كل قسم منها مدفعية في مواقع مستترة عن بصر العدو ، مع خداعه وإيهامه بالتزام جانب الدفاع ، وبالفعل خدع القائد العثماني وهجم بكل وحداته على القسمين اللذين لبثا ساكنين حتى أصبح العدو على مسافة قريبة جدا فارتد المصريون بسرعة هائلة خلف المدافع ليصبوا حممها على الأتراك الذين أصيبوا بجسائر فادحة ، واختل نظام جيشهم وأصبحت قيادته بحالة من الذعر ، فارتدت جموعه خائبة مهزومة ليطاردهم الفرسان المصريون حتى دفعت بفلولهم إلى نهر (الأورنت) حيث مات الكثير منهم غرقاً ، وهكذا انتهت معركة الزراعة في الرابع عشر من أبريل ١٨٣٢ - بهزيمة الجيش التركي وارتداد (عثمان باشا) إلى (حماة) في انتظار وصول الإمدادات لاستئناف القتال .

الجيش المصري يؤمن بعلبك :

وفي انتظار جولة جديدة بين المصريين والعثمانيين قامت القيادة المصرية بتأمين مدينة (بعلبك) التي تم احتلالها ببعض الوحدات التي استدعيت من حول (عكا)^(١) .

أهمية موقع (بعلبك) :

وتقع مدينة (بعلبك) التاريخية في وادي نهر الليطاني الذي يربط قسماً لبنان (الداخلي والخارجي) ويصل بين وادي نهر الأردن ونهر الأورنت (العاصي) كما تنبع من تلك المنطقة الأنهار الثلاثة (الأردن - الليطاني - العاصي) مكونة أخلاوداً طويلاً يكاد يكون موازياً للبحر المتوسط وقد مرت ببلبك أكثر الحملات العسكرية في التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب ، بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي الهام الذي يسيطر على الشام بأكمله ، كما أنها تقع على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس ، وقد كان تقدير القيادة المصرية أن السيطرة على منطقة (بعلبك) وما حولها يحول دون وصول الإمدادات إلى الأتراك كما يمنع قدام أية قوة لمعاونة « عبد الله باشا الجزائر » لفك الحصار عن (عكا) وذلك بعد أن أمنت القوات المصرية أجنابها باطمئنانها إلى مسلك اللبنانيين الموالي نحوها .

(١) وكانت تتألف من الآلاي ١٢ المشاة والآلاي الثالث يدعمها ٢ بطاريات مدفعية ميدان انضم إليها فيما بعد الآلاي ١٨ المشاة (من طرابلس) والآلاي ١١ المشاة (الذي وصل حديثاً) وآلاي الحرس والآلاي الحياطة السابع ، وبذلك أصبح مجموع القوات المصرية المرافقة في (بعلبك) أربعة آلايات مشاة - ٢ آلاي خيالة - قوات مدفعية - وحدات معارضة - علاوة على بعض القوات غير النظامية .

الفصل الثالث

معركة عكا (٢٧ مايو ١٨٣٢)

صفحة مجيدة في تاريخ الجيش المصرى :

استقر رأى القيادة المصرية بعد تحصين (بعلبك) وتأمين شمال سوريا ووسطها على القيام بهجوم كاسح ضد (عكا) التى كانت لا تزال تحت الحصار ممثلة شوكة فى الجنب الأيسر للجيش المصرى ، ولم تكن معركة (عكا) بالمعركة العادية ، فمكا هذه بعينها هى التى تحطمت على أسوارها عجلة الحرب الفرنسية تحت قيادة (نابليون) الشهيرة ، وكانت بحصونها وقلاعها وأسوارها الضخمة تمثل صخرة قوية تقف فى وجه المهاجمين على مر العصور خاصة وأن حاكمها (عبد الله باشا الجزائر) كان قائداً ثابت الجنان وقديراً على القتال^(١) .

المعركة :

وفى ٢٧ مايو ١٨٣٢ قامت القوات المصرية المحاصرة لعكا بالمهجوم عليها هجمة قوية وقاومت حامية المدينة مقاومة بأسلة استمرت طوال نهار ذلك اليوم المنضب بالدماء ، فلما آذنت الشمس بالمغيب حمل المهاجمون حملة جديدة قوية أبدوا فيها من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع خلالها (عبد الله باشا الجزائر) ورجاله دفاع الأبطال ، ولكن بحلول الظلام كانت حصون المدينة الحصينة تنهوى حصنا عقب حصن فى أبدى جنود مصر الذين عاهدوا الله على تحقيق النصر مهما غلت التضحيات^(٢) .

(سنت جون) يصف خطة استيلاء المصريين على (عكا) :

وقد وصف مستر (سنت جون)^(٣) معركة استيلاء الجيش المصرى على (عكا) وصفا مسهباً جاء فيه :
« كانت أوامر القيادة المصرية صباح يوم ٢٦ مايو ١٨٣٢ إلى كبار ضباط القوات المهاجمة كالآتى :
اللواء أحمد المونوكلى يتوجه بلوائه ومعهم الكنايب الأولى من الآلاى الثانى المشاة للهجوم على برج (قبو برج - قلعة الباب) .

(١) فى خلال معركة (عكا) أصدر سلطان تركيا مرسوما يرمى فيه مصر بالمروق عن الإسلام أتبعه فى ٤ مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وإبراهيم وإباحة دمائهما وكان السلطان قد أعلن الحرب رسمياً على مصر فى ٢٣ ابريل من نفس العام .

(٢) كانت (عكا) محصنة بأسوارها المتينة تحميها عدة أبراج من جهتي الشرق والشمال ، كما كانت مباني الحكومة محاطة بأسوار عالية ، أما من جهة البحر ، فكانت الأسوار أقل متانة بينما كانت المياه قليلة العمق لا تسمح برسو السفن الكبيرة على مقربة منها ، كما كانت جميع الحصون بحالة جيدة ومدفعية الحامية قوية ومياها وافرة ولديها كيات كبيرة من المؤن والذخائر بما يكفيها لتحمل حصار طويل ، وقد زاد (عبد الله باشا الجزائر) فى استحكاماتها القديمة بمد فتل (نابليون) أمامها فصارت أقوى مما كانت .

(٣) سنت جون (مصر تحت حكم محمد على) - الجزء الثانى - ص ٩٤٣ - ٩٩٦ .

الكتيبة الثانية المشاة تهاجم الثغرة المقابلة للذي صالح .

الكتيبة الثالثة بقيادة (عمر بك) تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية .

قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة القوات المهاجمة عند الحاجة كما صدرت الأوامر إلى كتيبة من الآلاى العاشر للوقوف تحت الثغرة الثالثة للفرض سالف الذكر .

كتيبة أخرى تقوم بنقل السلام قبل الساعة الأولى بعد منتصف الليل إلى الخندق الواقع بجانب (قبر برج) مع استعدادها للقيام بالمهجوم عند صدور الأوامر بذلك .

المهندسون العسكريون يقومون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع خلال الظلام أثناء قصف المدينة بالمدفعية .

وفي صباح يوم ٢٧ مايو عقب شروق الشمس أصدر القائد العام الأوامر بيده المهجوم واستمر القتال طيلة اليوم وفي المساء سقطت عكا في قبضة المصريين .

ومن ثم جاء أعيان المدينة يلتزمون الرحمة ، وقد أجبروا إلى طلبهم في أريحية وشجاعة ، ولما كان من الطبيعي أن يقوم الجند بأعمال النهب في المدينة المفتوحة ، مثلما يفعل زملائهم في الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، فقد قام القائد العام في اليوم التالي بإعادة النظام إلى المدينة ، كما أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيبرد إليه إذا وجد ، مع إصداره الأوامر لجنوده بإعادة ما في حوزتهم من أسلاب وغنائم .

خسائر حامية (عكا) :

كانت قوة حامية (عكا) في بداية الحصار تبلغ نحو ستة آلاف مقاتل لم يبق منهم وقت سقوط المدينة سوى ٤٠٠ فقط (١) .

خسائر المصريين :

وكانت خسائر المصريين خلال معارك عكا كما يلي :

١٤٢٩ جريحاً و ٥١٢ قتيلًا

حسب التفصيل التالي :

قتلى	جرحى
١ قائم مقام	١ قائم مقام
٢ قائد أورطة	١ بكباشى
٢ صاغ	٢ قائد أورطة
٣ يوزباشى	٢ صاغ
١٥ ضابطاً (رتباً أخرى)	٨ يوزباشى
٤٨٩ جندياً	٤٧ ضابطاً (رتباً أخرى)
	١٣٦٨ جندياً

(١) بلغ عدد ما ألقته المدفعية المصرية على (عكا) ٣٠ ألفاً من القنابل الضخمة و ٢٠٠ ألف من الطلقات الصغيرة .

التقرير الرسمي للقائد المصرى عن معركة (عكا) :

وفيما يلي نذكر نص التقرير الرسمي للقائد العام للقوات المصرية عن معركة (عكا) وسقوطها :

وبعد أن أطلقت بعض طلقات المساون مؤذنة ببدء الهجوم قصدت في الحال إلى البطارية التي كانت خلف
الفصيلة المنوط بها الزحف على الزاوية وكنت قد عهدت إلى (ابراهيم باشا يكن) بالمهجوم على الثغرات التي من ناحية
الباب ووقفت الأورطنان الثانيتان من كل من الآلايين الخامس والعاشر إلى جانبي كجنود احتياطية وانخذت
الأورطة الرابعة من الآلاى الثاني كجيش احتياطى للقلب الذى بقيادة (ابراهيم باشا يكن) ، وهذا الفرق في توزيع
القوات الاحتياطية ناشئ من أنه كان من المنتظر أن تحدث مقاومة شديدة من ناحية برج الخزانة الذى كان يوجد
به (عبد الله باشا الجزار) نفسه ، وكنت قد اعزمت الهجوم من ناحية الخان القريب من البحر ، ولكن بعض المخبزين
من أهل المدينة المحاصرة جاءوا إلى معسكرى في الليلتين السابقتين وأخبروني بأن أربعة ألغام وضعت تحت هذا الخان
من انقبابل الكروية الصغيرة والرصاص ، فخسرنا عدداً من العساكر ، ولم نوفق إلى النجاح ، وامناز قائد الأورطة
الموكول إليها هذا التسلق باليسالة النادرة والإقدام العجيب ، وفي ثغرة الزاوية لم تطلق عساكرنا النار إلا بعد أن
انخذت منها مركزا لها ، أما (باب عكا) فإن عساكرنا ما كادوا يهزلون في الخندق حتى بدأوا بإطلاق البنادق
وصعدوا إلى قمة الثغرة وتبعهم في الحال عساكر الأورطين الأولى والثانية من الآلاى الخامس ، وتقدمت جنودنا
في جهة الزاوية حتى بلغت الباب الذى بالقرب من قلعة الخزانة - إلا أن (عبد الله باشا) خرج من البرج على جمع
من رجاله وصددهم إلى ما وراء الخندق شاهرا سيفه أمامهم وأخذت قنابل العدو الكروية تنساقط على جنودنا فراجعوا
حتى وصلوا إلى بطارية منصوبة على مسافة أربعين خطوة من تلك المنطقة ، فاجتهدت ومعى أميرالاي الفرقة الخامسة
في إعادتهم للقتال ، وفي أثناء ذلك كان حامل العلم قد تقدم إلى الأمام فاستأنف عساكرنا الحملة بعنف وما هي
إلا هنية حتى بلغت أسفل الذروة التي كان العدو يحتلها ، وللقاهم من أعلاها برى الأحجار عليهم ، ثم اجتازوا
الذروة وعادوا إلى النقطة التي كانوا قد وصلوا إليها في المرة الأولى فرفع المحصورون عندئذ علمهم على البرج
الصغير الذى كان بين برج الخزانة وبرج الزاوية^(١) وهناك اجتمعوا ثم حملوا من جديد على عساكرنا وصددهم
إلى الزاوية فألقى فريق منهم بنفسه في الخندق وتراجعوا حتى بلغوا حافها الأخرى ، أما الباقون فصعدوا على
الثغرة ووالوا إطلاق البنادق فأخذ الضباط عندئذ يدافعون عند الثغرة وسيوفهم مسلولة بأيديهم ، وبذلك تيسر صد
العدو من جديد ، وجمع المحصورون في النهاية جموعهم ولموا شعهم فشتوا عساكرنا بعد أن ألقوا بثلاثين منهم
في الخندق ولكنهم ما لبثوا أن صعدوا ثانية لأن عساكرنا أوغلوا في الزحف من ناحيتهم حتى لم يبق بينهم وبين البرج
سوى مسافة صغيرة جدا ، فأمرت على الفور (عمر بك) بأن يقيم استحكما ويتفرغ للدفاع عنه منفذا أمرى طبق
المرام فكان الأميرالاي أحمد بك ، قائد الفرقة الخامسة من الفرسان ومعه بعض جاويشينا قد اعتلى الثغرة وأخذ
يشجع عساكرنا الذين صب عليهم العدو من بنادقه نيرانا حامية ، وانقطع إطلاق النار بعد ذلك من الجانبين في
منتصف الساعة السادسة مساء ، وفي أثناء ذلك دعوت رئيس المهندسين وأمرته باستكشاف نقطة وقع نظرى عليها
بالقرب من الباب وخيل إلى إمكان التسلق منها فعاد بعد بضع دقائق مؤكدا صلاحيتها للتسلق فعرضت على رئيس
إحدى أورطه الآلاى العاشر أداء هذه المهمة برجال أورطته فأطاع ، ومع أنه حصر ثلاثين قتيلا وستين جريحا
فقد حمت عليه الاستمرار في التسلق فنجح بمهارة فائقة وشجاعة نادرة واستولى على الخان واتخذة موقعا لجنوده .

(١) وذلك علامة على التسليم ، وواضح إنها كانت للدفاع فحسب .

وكان أول الصاعدين على السور أميرالاي المدفعية (سليم بك آرتوز) ومعلم الفرسان (ابراهيم أغا الرثماني) من مدينة (دير القمر) ووراءهما (ابراهيم باشا يكن) نفسه ، ولكن دصاصة أصابت (ابراهيم الرثماني) من سور (عكا) الداخلى فقتلته .

وعلى حين فجأة اندفعت إحدى فرق الفرسان المصرية إلى داخل المدينة فلم يجد المحاصرون إلا سيلة واحدة هى التسليم ، وقد تعاون الفرسان مع إحدى أوط الآلاى العاشر المشاة فى ذلك الاقتحام النهائى ،

من تقرير (ابراهيم يكن)^(١) :

كما أنه من المناسب أن نذكر فيما يلى مقتطفات من تقرير (ابراهيم باشا يكن) الذى يقول فيه :

« قبيل شروق شمس يوم الأحد صعدت الأورطة الثانية من الآلاى الثانى الذى يقوده الأميرالاي (اسماعيل بك) إلى البرج الذى تم الهجوم عليه فى الحملة الماضية وتسلفت الأورطة الأولى التى كان يقودها (أحمد بك) الأسوار التى إلى يمين البرج (قبو برج) وبعد أن رفعت الأورطتان الأعلام المصرية على هذا البناء ضيقوا من المحاصرين حتى اضطروا إلى التقهقر إلى نصف ارتفاع الثغرة ، وكنت وقتئذ أتقدم للامام مع الأورطة الرابعة فإذا بثلاثة ألقام كان العدو قد لغم بها البرج تنفجر ، فراجع عساكرنا . وكان القائد العام يهاجم بعنف فى جهة الزاوية لأن الأعداء الذين فرض علينا قتالهم انتقل معظمهم إلى الجهة المتقدمة فاغتم الضباط هذه الفرصة لحث العساكر على الزحف فاندفعوا نحو البرج اندفاعاً شديداً وبعد ما استولوا عليه انجهوا نحو اليمين ثم وصل المهندسون العسكريون ومعهم حزم كبيرة من الخشب وفروع الأشجار وسلات اسطوانية ليقوموا بها استحكاما ، وكان جنودنا قد غنموا مدفعا من مدافع البرج فاستخدموه فى ضرب داخل الموقع وبعد ساعة من إقامة الاستحكام حمل العدو ثلاث مرات ولكن على غير جدوى : . وفى هذه المعركة قتل الأميرالاي (اسماعيل بك) وقبيل الساعة الخامسة مساء استولت الأورطة الأولى من الآلاى العاشر على الخان بين (قبو برج) و (برج الانجليز) ومن ثم طلب المحاصرون الأمان . . . الخ^(٢) .

المصريون يتجهون شمالا

الجيش التركى يحمشد فى (قونية) :

لم يكد شهر مايو ينتصف ، حتى كانت معظم وحدات الجيش التركى تحت قيادة (حسين باشا) قد احتشدت فى (قونية) - شمال طوروس - كما قامت بعض التشكيلات باحتلال (أدنه) جنوبا . . ثم تقدمت فى يونيو ١٨٣٢ إلى (انطاكية) ، مع القيام بتحصين (حصص) واحتلالها .

الحكومة المصرية تدعم قوات الشام :

أما على الجانب المصرى فقد كانت الروح المعنوية بين الضباط والجنود مرتفعة بسبب الانتصارات المتوالية التى أحرزوها تحت أفق مشتعل بالنار خلال فترة الأشهر الستة المنصرمة ، كما قامت الحكومة المصرية فى نفس الوقت

(١) وكان يلقب (ابراهيم الصغير) . .

(٢) من تقرير ابراهيم باشا يكن بتاريخ أول المحرم سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢/٥/٣٠) .

بتدعيم قوات حملة الشام بالآليات المدرية بصفة مستمرة ، فوصلت إليه الآليات المشاة ٥ ، ١٨ ، ٢٠ والآليات
للتامن الحياالة علاوة على ٣٠٠٠ من البنادق الحائز وتكلفة لمرتبات الحرب في الوحدات العاملة ، في ذات الوقت
الذي راصلت فيه الدمن المصرية نقل العتاد والأسلحة إلى موانئ الشام التي أصبحت جميعها تحت سيطرة المصريين^(١).

الانجساع إلى دمشق :

وفي ٩ يونية عام ١٨٣٢ تقدمت القوات المصرية في جيش مؤلف من نحو ١٨ ألف جندي قاصدة (دمشق)
بهدف تأمين الشام بأكملها ، وذلك تطبيقاً للمبدأ الذي كان (نابليون) قد أعلنه من قبل : ان النصر يجب تدعيمه
بتقدم الكتائب بقوة .

وفي ٤ يونية وصلت طلائع القوات المصرية إلى ضواحي (دمشق) برفقة الأمير (بشير الشهابي) على رأس
١٨ ألفاً من المقاتلين ، عقب اشتباك قصير مع الأتراك الذين ولوا الأدبار سريعاً ، حيث احتلت القوات المصرية
عاصمة الشام يوم ١٦ يونيو في مشهد فرح واعتباط بينها وبين الأهالي الذين رحبوا بها ترحيباً حاراً ، وهكذا تم
اختيار (دمشق) مقراً للحكومة المصرية بالشام بعد أن عين (ابراهيم يكن باشا) حاكماً عليها على رأس حامية مؤلفة
من الآليات الثاني المشاة وأورطة من الآليات الخامس والآليات الثامن .

(١) قامت القيادة المصرية في ذلك الحين بإصلاح مينائي (حكا) و (حيفا) بمساعدة مهندس فرنسي لتصبحا قاعدتين
وطيئتين لحملة المصرية بالشام ، وذلك بمعمونة ٤٠٠ من جنود المهندسين و ٢٠٠٠ من العمال ، كما كان الآليات الماشية
ووحدة من الحياالة يقومون بحراسة خطوط مواصلات القاعدة .

الفصل الرابع

معركة (حمص) (*)

كان احتلال الجيش التركي لأنطاكية وحمص^(١) - والمسافة بينهما لا يستهان بها - خطأ بالغاً من الوجهة العسكرية ومخالفة واضحة لمبادئ الحرب واتباع مبدأ (الحشد) ، وقد استغلت القيادة المصرية هذا الخطأ على الفور ، حين قررت الاتصال بمقدمة الجيش التركي ومحقها ، ثم مهاجمة باقي الجيش بعد ذلك ، وهكذا غادرت القوات المصرية دمشق ، متوجهة نحو حمص ، التي كانت الحامية التركية بها حينئذ تصل إلى نحو ٣٠ ألف مقاتل^(٢) .

القائد العثماني والحق من النصر على (الفلاحين المصريين) :

كان (محمد باشا) - قائد الحامية العثمانية بحمص واثقا من الانتصار على أعدائه (المصريين الفلاحين) - على حد تعبيره - بل لقد اعتقد أنه سيفوز لاجالة في معركة (حمص) وبنال المجد بمفرده . . وفي صبيحة يوم ٧ يولية وصل إلى المدينة ، وكانت أسوارها في حالة طيبة ، يعكس حال قواته التي أنهكها التعب وأسقمها السير الطويل وهزتها الهزائم المتتالية التي ذاقوا مرارتها على أيدي أبناء وادي النيل .

وفي نفس اليوم - ٧ يوليو - أيضا كانت وحدات الجيش المصري^(٣) قد قامت بحركة التفاف واسعة أوضحت عقبها على مسيرة خمس ساعات من (حمص) .

موقف محير :

ما إن أدرك القائد العثماني تخرج الموقف ، حتى جمع كبار ضباطه للمشاورة في الأمر ، الذي أشار بعضهم بالتقهقر المنظم إلى موقع آخر بينما أشار البعض الآخر بالتحرك لاقتضاء على الجيش المصري على الفور .

واخذ القائد القرار : البقاء لقتال الجيش المصري وإبادته : فليتزّم خطة الدفاع ولتكن أسوار (حمص) وقنواتها المتعددة ومبانيها الحصينة موانع حصينة يقاتل من خلفها .

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) تقع مدينة (حمص) على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي وموقعها غاية في الأهمية حيث تمثل ملتقى عدة طرق ، نظراً لوقوعها على طريق (بعلبك) و (دمشق) جنوباً - وطريق (انطاكية) ، و (حلب) شمالاً .

(٢) كان القائد التركي (محمد باشا) قد وصل إلى « حمص » بعد أن استدعى بعض وحداته من (بعلبك) و (طرابلس) .

(٣) كانت القوات المصرية تتألف من ثمانية ألوية من المشاة وستة ألوية خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية (مجموع

القوة ٣٠ ألف مقاتل) علاوة على قوة البدو .

وهكذا وضعت الخطة التركيبية :

وزع (محمد باشا) قواته على شكل صفوف : في الصف الأول ٤ آليات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق وتستند ميمته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر العاصي وميدريته على الصحراء ، وخلف الصف الأول ، وضع الصف الثاني وبه آليات مشاة وآليات خيالة عبر الطريق بين نهر العاصي ودمشق ويدعم قلب وميمته الصف الأول ، وإلى شرق الطريق المذكور ، وضع آليات آخر من الخيالة لتدعيم ميسرة الصف الأول .

أما الصف الثالث - الذي امتد بين نهر العاصي وضبعة خربة ، ويمتد حوالي ١٨٠٠ متر عن جنوب شرق قلعة (حمص) فوضع به قواته غير النظامية وآليات من الخيالة لحماية ميسرته .

أما بالنسبة للمدفعية فقد وزعها قطعة قطعة بين صفوف وحداته سالفة الذكر بمعدل مدفع في كل أورطة ومدفعين في كل آليات خيالة ، مع وضع ٢١ مدفعاً في مواقع مختارة خلف ميمته قواته .

تحركات الجيش المصري :

في فجر الثامن من يوليو بدأ الجيش المصري مسيرته متجها جنوب (حمص) بتشكيل القتال التالي :

الآليات ١٢ المشاة .

الآليات ٢٣ المشاة .

الآليات ١٨ المشاة .

آليات الحرس .

الآليات الخامس المشاة .

الآليات الحادي عشر المشاة .

وقد سارت كل أورطة في تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآليات الثامن فقد وضع في الاحتياط خلف منتصف القنوة .

أما المدفعية فقد تم وضع ٤ بطاريات منها في الصف (الخط) الأول والثاني .

كما تم توزيع قوات الخيالة كالاتي :

٣ آليات على كلا جانبي التشكيل كله ، في الميمته والميسرة ، بينما تحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الاجتباب للقوات الاحتياطية .

وقد كان هذا التشكيل يسمح للقوات المصرية بالمناورة حسباً تعليمه طبيعة الأرض خاصة شرق ضبعة الخربة التي كانت طبيعتها تسمح للمصريين بالقيام بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك ، أضعف نقطة في خط دفاعهم حيث لم تكن تتركز على موانع قوية تمكنها من كسر حدة الهجوم المصري .

الخطة المصرية للهجوم :

صدرت تعليمات الهجوم للقوات المصرية وكانت كما يلي :

١ - يقوم قلب الجيش المصرى ، بهجوم على مواجهة الجيش التركى بكل قوته ، بطنى بمشاته ونجياته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التضاف واسمة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم مخادع بمؤازرة نهر العاصى لشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأول والثانى وبذلك يربك عملهما نهائيا .

- يتجه لواء الخيالة الثانى (الآلايان ٢ ، ٤ والآلاى الثالث - الرماحة المدفعين) نحو الضبعة المهلمة وعند وصوله لأنسب المواقع يفتح تشكيله بين الضبعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) ويلتف حول ميسرة مؤخرة الأتراك .

- آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ يدعمان القوة السابقة وتفتح تشكيلها عند وصولها إلى غرب وجنوب غربى الضبعة المهلمة .

- بطارية مدفعية تتخذ مواقعها المناسبة تجاه الضبعة .

- أثناء اجراء هذه التحركات تأخذ الآلايات ١٣ ، ١٨ مواقعها فى الأمام وبأخذ الآلاى الخامس موقعه بدلا من الآلاى الثانى عشر وتفتح وحداتها على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

- فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين نهر العاصى والقناة لمهاجمة ميمنة الأتراك ويوضع كاحتياطى لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى .

المعركة ٦ يولية ١٨٢٣ :

ما أن بدأت القوة المنفصلة (الآلاى المشاة والآلايان ٦ ، ٧ خيالة وبطارية المدفعية) التقدم نحو الأرض الواقعة بين نهر العاصى والقناة حتى سيطر الرعب على قلوب الأتراك ، فاضطر القائد العثمانى إلى إصدار أوامره إلى أوطنين فى اليمن لتغيير مواجهتهما لصد الهجوم المفاجئ ، وما أن حلت الساعة الخامسة حتى بلغ القتال عنفوانه حين اشتد قصف المدفعية المصرية على صفوف الأتراك التى سادها المرح والمرج ، وباتت طلقات مدفعيتها غير محكمة الإصابة نتيجة لعنف نيران المدفعية المصرية .

وفى اللحظة الخامسة ، بدأ الهجوم الساحق حين تحركت آلايات الخيالة (٢ ، ٣ ، ٤) - وكانت على الميمنة - شرقاً حسب الخطة الموضوعه ، للقيام بحركة الالتفاف حول ميسرة الأتراك ، وتحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضبعة المهلمة بنحو ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ ياردة لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين على مقربة من الضبعة ، وكان الهجوم شديداً ومحكما ، فراجع الأتراك وتفرقوا واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضبعة وحدائق (حمص) ، وعندما رأى الفرسان الترك النظاميون ماحل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وكادوا ينجحون فأمدت القيادة المصرية فرسانها بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدفعية فأوقعوا بهم وفرقهم ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تنهقرت إلى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتغلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركي الذي اصطدم ببنيران المصريين المحيطة ، في الوقت الذي لم تملك مدفعيته بملاونة كافية من النيران ، فقد بدأ في التقهقر ، وقام (محمد باشا) بتقدير الموقف الذي أصبح حرجاً بعد أن أصبحت مبعته ووسطه في حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع ، وكان ينبغي عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعززها المراكز التي ضفت ويقوم بهجوم مضاد في ناحية الضيقة لكنه لم يفعل ، وأخيراً وجد حلاً يائساً يخرجهم من ورطته فأمر آلاى الخيالة في مبصرة صفه الثاني بهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا إلى الضيقة ، كما أمر آلاى مشاة في قلب الصف الأمامي^(١) للقيام بالمعركة بالأسلحة الأيضا لاحتحام الآلاى المصري الثاني عشر ، وأسرع آلاى الخيالة بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعاقبات هجومه غير منظم ، وقابلته مدفعية الحرس ببنيرانها المحيطة - فدار وولى الأدبار ، أما آلاى المشاة (التركي) فتقدم من القلب بالأمر الذي صدر إليه ولكنه توقف تحت تأثير بنيران الآلاى الخامس المصري ، ثم هاجمه من الجنوب الآلاى الثالث عشر المصري في تشكيل مدرج من الميمنة ، ولكنه لم يفعل شيئاً لمقاومة هذا الهجوم .

وما أن حل الظلام حتى أخذ القائد العثماني يبحث عن وسيلة لينقذ بها نفسه واقتدى الضباط بقيادتهم وهكذا بدأت الفوضى والذعر ، ينتشران حين جاء دور الجنود لتركوا صفوفهم ويولوا الأدبار مدحورين .

وتقدمت القوات المصرية الظافرة لتدخل المواقع التي تركها الأتراك ، ولتعيد تنظيم صفوفها على شكل مربع - المدفعية في الزوايا الأربع - وهكذا انكسر الجيش التركي مرة أخرى في تلك المعركة - معركة حمص التي عرفت عند المصريين بيوم (هزيمة البانواب) ، ودخل الجيش المصري المدينة صباح يوم ٦ يولية بينما كان الأتراك يتقهقرون في غير انتظام جنوب (حلب) و (انطاكية) بعد أن تركوا جيادهم في المدينة ليمتطيها مشاة أبناء وادي النيل .

خسائر الطرفين :

الأتراك :

بلغت خسائر الأتراك في معركة (حمص) ٢٠٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ أسير كما استولت القوات المصرية على عشرين مدفعا للعدو علاوة على الذخائر والعتاد ومعظم جياد الجيش التركي .

المصريون :

أما المصريون فقد بلغت خسائرهم ١٠٢ قتيل و ١٦٢ جريحاً .

الماريشال (فيجان) يصف انتصار المصريين :

ويصف الماريشال (فيجان) حركات المعركة من الجانب المصري ، فيقول : إن كل دقائق الخطة المصرية كانت محكمة ، كما اتسمت بالنشاط والبراعة في تنفيذها ، حيث اتفقت الأوضاع التي اتخذتها القيادة المصرية كل الاتفاق مع التكتيك المثالي والحالة التي يستطيع بها تنفيذ المناورة من تقدم أو هجوم جانبي أو بالمواجهة أو حتى التقهقر - الأمر الذي لم تفكر فيه أبداً - كما كانت الوحدات المصرية موزعة بعمق كاف يسمح لها بالسيطرة على تنفيذ الحركات وفقاً لما ينبغي أو كما يقول حرقياً :

«La manœuvre était en germe dans le dispositif de son armée»

(١) كان هذا الآلاى يرتكز على آلاى المبصرة في الصف الثاني .

كما كانت حركة الالتفاف ، حول وجنب القوات التركية رائعة محبوبة في تفاصيلها ومجموعها ، كذلك كان هجومها على مبصرة الترك مع استخدام نيران المدفعية يسيران حسب خطة موضوعة لاهباء أو ارتجالا وبذلك حققت القوات المصرية في تلك المعركة مبادئ الحرب من المرونة والسرعة والمفاجأة والحشد .

الماريشال (فيجان) : الجيش المصرى أحرز الكثير من الانتصارات :

ويضيف الماريشال (فيجان) :

و لقد كانت الفرق المصرية في حالة جيدة رغم أن مظهرها لم يكن ليرى لأولئك الأوربيين الذين اعتادوا رؤية الجندي الفرنسي أو الألماني بمظهره الفخم وهو متقلد سلاحه ، غير أن أهم شيء في الواقع هو أن هذا الجيش كان يجيد القتال ، ولهذا أحرز الكثير من الانتصارات ، كما صمد إزاء الهزائم دون أن تفتر له همة أو تلين له قناة . . . ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه مما يشرف هذا الجيش أن حكومة (شارل العاشر) فكرت في الاستعانة به حين أعدت حملتها على بعض المستعمرات . . .

جيشان شرقيان وجهها لوجه :

ففي معركة (حمص) تقابل - وجهها لوجه - جيشان شرقيان خاضعان لنفس الظروف من ناحية التسليح وأسلوب الحرب ، ولكن النصر كان حليف الجانب الذى تفوق في تنظيمه ونظامه في القتال وروحه المعنوية كما انتصرت خفة الحركة والسرعة إزاء الجمود التركى ، وهكذا عا الجنود المصريون هزيمتهم - أو هزيمة أسلافهم - التى لحقت بهم عام ١٥١٧ في معركة (مرج دابق) حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الفورى .

الفصل الخامس

معركة (بيلان) ٣٠ يولية ١٨٣٢ (*)

تقدم القوات المصرية في اتجاه (حلب) :

عقب هزيمة الجيش العثماني أمام (حمص) دخلت القوات المصرية المدينة في التاسع من يوليو متجهة نحو (حلب) ثم (حماه) التي بلغت في اليوم التالي ، وذلك بغرض مطاردة قوات العدو ومنعه من إعادة التنظيم فاحتلت (ما هنيكة) يوم ١١ و (معار) و (نعمان) يوم ١٢ و (تل سلطان) يوم ١٣ و (وزيتان) يوم ١٥ .

القائد التركي يصر على أن يرتوى جواده من ماء النيل :

حينما بلغت مسامع (حسين باشا) سردار الجيش العثماني أنباء هزيمة جيش (محمد باشا) في (حمص) ارتد بقواته إلى (حلب) واتخذ مواقعه بها وبادر إلى طلب المؤونة والرجال من أعيانها الذين كانوا يبغضون الحكم العثماني ، فأبوا السماح لجنوده بدخول مدينتهم إلا بالنسبة للجرحي والمرضى فقط ويحاول (حسين باشا) الاحتفاظ بهدوئه ليقول لمرافقيه من القادة (إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء فقد صمم على الارتواء من ماء النيل) وهكذا - وإزاء موقف أهالى (حلب) من رفضهم لإيواء جنوده اضطر السردار العثماني إلى مغادرة ضواحيها على رأس قواته قاصدا الإسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثماني - بعد أن استقر رأيه على إقامة تحصيناته في مضيق بيلان^(١) الذى تسمح طبيعة أرضه بالدفاع .

القوات المصرية تصل (انطاكية) :

وكان الجيش المصرى قد بلغ خلال سيره الطويل (حلب) يوم ١٧ يولية ثم استأنف التقدم يوم ٢٥ يوليو مستهدفا (انطاكية) وذلك على محورين :

الأول : مؤلف من الجنود غير النظاميين الذين اتخذوا طريقهم إلى انطاكية مباشرة . والثانى : يتألف من القوات النظامية التي عبرت مضيق (كليس) والتفت شمال (انطاكية) بهدف تطويقها من الخلف .

وفي يوم ٢٨ يولية وصلت القوات المصرية تجاه (انطاكية) حيث تمت عدة مناوشات بين البدو وبعض الوحدات التركية ، لتدخل المدينة عقبا ، وهكذا وقفت القوات المصرية - يوم ٢٩ يولية - أمام جبال (أمانوس)^(٢) .

(*) محمد فيصل عبد المنعم « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) تقع مدينة (بيلان) جنوبي الإسكندرونة وشمال المضيق والجبل المروني باسمها ويصل إليها طريقان : طريق من (كليس) وطريق من (انطاكية) ويقترب الطريقان في سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان في المضيق جنوبي (بيلان) حيث يكونان طريقاً واحداً يصل إلى المدينة .

(٢) أحد شواب جبال (طرروس) شاهقة الـ (١٨٠٠ متر) والذي يجتازه مضيق (بيلان) الذي يفصل بين سهل (انطاكية) وخليج الإسكندرونة أو يفصل بين سوريا وكليكية وهو المر الذي اجتازه جميع القادة عبر تاريخ الحروب لفتح الشرق ، من مصريين و آشوريين و فرس و اغريق و رومان و عرب و افرنج و ترك و سوام . .

مواقع الجيش التركي الدفاعية :

القائد العثماني يتبع أسلوب الدفاع الخطي :

تألف الجيش التركي تحت قيادة (حسين باشا) من نحو ٤٥ ألفا من الجنود من جميع الأسلحة علاوة على ١٦٠ مدفعا ، وكان هذا الجيش يربط في مواقع منيعة على قمم جبال (بيلان) حيث احتشدت المشاة (٥ أروط) فوق هضبة (١) عالية تعاونها بعض قطع المدفعية التي وضعت على مرتفع قريب من الطريق ، كما أقام الأتراك أمام صفوف المشاة بعض الموانع وزعت خلالها المدفعية بينما وضعوا آلايين من الخيالة في واد ضيق يقطع الطريق جنوبي (بيلان) :

أما مؤخرة الأتراك والمؤلفة معظمها من المشاة فكانت موزعة على خط واحد فوق قمة (أمانوس) وهكذا نلاحظ للوهلة الأولى أن السردار (حسين باشا) قائد الجيش التركي لم يكن موقفا في وضع خطته الدفاعية ، حيث اتبع أسلوب الدفاع الخطي في توزيع قواته ، بينما أهمل تماما مبدأ العمق . . الأمر الذي حرره من حرية القيام بالمناورة على نطاق واسع عند نشوب القتال فيها بعد . .

خطط الجيش المصري :

عسكر الجيش المصري في السهل المنبسط تحت مضيق (بيلان) غرب الطريق الواصل من (كليس) و (أنطاكية) بينما اتخذ المشاة مواقعهم في الصفوف الإمامية وخلفهم الخيالة والمدفعية في الوسط وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

قرار القيادة المصرية :

اجتمعت القيادة المصرية لبحث الخطة وتقدير الموقف وقد استقر رأيها على اتباع الخطة التالية :

الأخذ بخطة الهجوم في اليوم التالي (صباح ٢٩ يولية) مع القيام بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك من الجانب تمهيدا للاحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتحركة في الوسط مما يجعل مشاة الأتراك هدفاً لنيران المدفعية المصرية ، وفي ذات الوقت تدفع قوة للاحاطة بميمنة الجيش التركي (كما اتبع في معركة حمص) وقد كانت خطة الالتفاف المذكورة تتطلب تدبير القوات الآتية :

٤- آلايات مشاة - ٣ آلايات خيالة - ٤ بطاريات مدفعية ميدان بينما يقوم الأميرالاي (حسين بك المانسترلي) بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدم على طريق (بيلان - أنطاكية) على رأس الآلاي ١٣ المشاة تدعمه بطارية مدفعية (وقد قام بالتنفيذ فعلا) بينما يتبعه الآلاي الخامس الخيالة كقوة احتياطية .

أما اللواء الثاني الخيالة والآلاي السادس (الرماحة المدرعة) فقد كلفا بالعمل بين القوتين المذكورتين ، ومساعدة إحداهما عند الضرورة بينما يوضع الآلاي ١٨ المشاة وبطارية مدفعية ميدان في الاحتياط .

(١) كانت هذه الهضبة تفصل ميمنة الجيش إلى طريق وعري يحترق جبال (أمانوس) آتيا من (خان قرموط) إلى (بيلان) .

المعركة

المدفعية المصرية تصب الجحيم على القوات العثمانية

ما أن شاهدت القيادة التركية تقدم شعبى الهجوم المصرى حتى بادرت بفتح النيران الشديدة فى اتجاه تقدميهما ففجرتهما القذائف بعنف ، وفى الحال قامت المدفعية المصرية (الموجودة بالشعبة البنى) بعمليات القصف المضادة بنيران محكمة للغاية وشديدة التأثير - كما فتحت فصيلة القناصة (من الحرس) تشكيلهما بسرعة واخترقنا غابة صغيرة مفتوحة الجبهة برصاصها السريع ، لتلحق بهما بعد قليل أورطة من الحرس مدعمة بالمدفعية واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ليستمر وصول بقية آلاى الحرس بسرعة مع أفراد الآلاى الثامن فى موجات متتالية وفى ذات الوقت كان الهجوم بالمواجهة (بقيادة المانسترلى) يسير على ما يرام وقد نجحت بطارية المدفعية الملحقه به فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك وهنا انحرف آلاى المشاة الثالث عشر إلى غرب طريق (أنطاكية) وهاجم ميمنة العلو ، بينما أخذ الآلاى ١٨ مكانه ، فى الهجوم العنيف ضد قوات الوسط (القلب) وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولية تهاً للالتفاف على ميسرة العلو فلم ينتظر (حسين باشا) اللطمة المسددة نحوه وعمل على التقهقر السريع نحو (بيلان) وهنا انتهز القناصة المصريون الفرصة فهاجموا على بطارية مدفعية تركية (٦ مدافع) وقاموا بإيادة أطقمها وتدمير المدافع ، وحين حاولت بعض آليات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام تصدت لها نيران قوات الحرس الأمر الذى جعلها تسرع نحو (بيلان) بدون انتظام .

وهكذا خلا الطريق إلى (بيلان) من القوات التركية ، لتواصل القوات المصرية التقدم بسرعة الأمر الذى تسبب فى حرج مركز قلب الجيش التركى ، التى أدركت قيادته أن خط الرجعة إلى (بيلان) قد أصبح مقطوعاً بوصول المصريين إلى الطريق فلاذ العلو بالفرار وتخلّى عما تبقى له من مواقع ، بعد أن تبعثرت وحداته فى الجبال وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الأتراك حيث وصل رماته ومدفعيته إلى اكمة قرية من أقصى الميمنة ولما رأى العلو ما حل بالميسرة تخلّى أيضاً عن مراكزه وتقهقرت فلوله فى الجبال .

خسائر الجانبين :

بإستيلاء المصريين على مواقع الأتراك الحصينة انتهت معركة (بيلان) بهزيمة تامة للجانب العثمانى بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات خسر فيها الجيش التركى ٢٥٠٠ قتيل و ٢٠٠٠ جريح وأسير كما غنم المصريون الذين لم تتجاوز خسائرهم ٢٠ قتيلاً نحو ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والعتاد .

ما بعد (بيلان)

قضت القوات المصرية المنتصرة ليلة ٢٩ يولية فى مواقع الأتراك عدا أورطتين أمرتا بدخول (بيلان)^(١) وفى ٣٠ يولية أتمت القوات احتلال (بيلان) . . أما الخيالة - تحت قيادة عباس باشا حلمى - فقد سلكت طريق

(١) انفصل عنهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرعة لاستكشاف الطريق إلى الإسكندرونة .

(الاسكندرونة) حيث استولت على كليات هائلة من الغنائم بالإضافة إلى ١٤ مدفعا وكليات من الأطعمة تكفى لمدة أربعة شهور ، لم ينعف الوقت القائد التركى لتدميرها .

احتلال الإسكندرونة :

وقد احتلت القوات المصرية كذلك ميناء (الاسكندرونة) ، كما اندفعت قوات الخيالة إلى (باباس) بعد أن أسرت نحو ١٤٠٠ تركى ، كما سلمت (انطاكية) و (اللاذقية) و (السويدية) . أما (حسين باشا) - القائد التركى فقد أسرع نحو (أدنة)^(١) بعد أن اجتاز بقلوله مضيق (طوروس) . وبعد قليل احتلت القوات المصرية (أدنة) و (طوروس) . وبعد أيام كان علم مصر يخفق عاليا على مرتفعات (أورفا) و (عينتاب) و (مرعش) و (قيصرية) . . .

موقف بريطانيا من نجاح المصريين :

كانت السياسة البريطانية إزاء نجاح القوات المصرية واكتساحها للجيش التركى ووقوفها تجاه الآستانة غامضا ، حيث كانت تلك السياسة تقف فى مفترق الطرق . . فن جهة كانت بريطانيا ترى قيام مصر بتأسيس دولة عربية قوية تقف فى وجه التيار السلافى الروسى . . ومن جهة أخرى كانت تود تدعيم موقف تركيا وتقويتها لتظل حاجزا تجاه ذلك التيار ، مع هدم الامبراطورية المصرية الناشئة لخطورتها على طريقها إلى الهند : درة التاج البريطانى^(٢) .

ولقد ظل موقف بريطانيا فى منتصف الطريق ، فوقفت مترددة ، لا تقاوم المصريين ولا تظاهر السلطان . . إلى أن أنكشف هذا الموقف فيما بعد كما سيرد ذكره .

أما الموقف الفرنسى ، فقد كان أكثر وضوحا ، حيث قامت فرنسا بإبلاغ الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة ما بسبب ضعف قواته العسكرية إزاء القوات المصرية الفتية المتزايدة مجرأ وبرأ .

(١) تعتبر (أدنة) مفتاح الزحف على الأناضول .

(٢) لم تكن قناة السويس قد شقت فى ذلك الحين .

الفصل السادس

معركة قونية (٥)

القوات المصرية في مواجهة العاصمة العثمانية

موقف الجيش العثماني :

عقب الهزيمة الساحقة التي نزلت بالجيش العثماني في معركة (بيلان) . . وفي أواخر أكتوبر أعاد الأتراك تنظيم صفوفهم مرة أخرى استعداداً لمنازلة الجيش المصري في جولة جديدة .

وهكذا انتظم الجيش الثاني التركي في ٨٠ ألفاً من الجنود موزعين على أقسام أربعة على النحو التالي :

القسم الأول : ويتألف من ٢٠ ألفاً من الجند النظاميين ويتمركز في (اشقودرة) التي ضمت أيضاً القيادة العليا للجيش ومقر الوزير .

القسم الثاني : ويتألف من ٢٠ ألفاً من الجنود في (أرضروم) ويحتشد بين (سيواس) و (قيصريه) تحت قيادة (عثمان باشا) والي (طرابزون) .

القسم الثالث : ويتألف من ١٠ آلاف جندي تحت قيادة (سليمان باشا) ويحتشد في منطقة (طوروس) على مسيرة الجيش المصري لستر منطقة (صاتالبا) .

أما القسم الرابع : فقد تألف من فلول الجيش التركي ويتألف من نحو (٢٠ - ٣٠) ألفاً من الجنود بقايا جيش (حسين باشا) ويحتشد في منطقة (قونية) تحت قيادة (رؤوف باشا) .

السلطان ييث الحماس في نفوس جنوده :

ولم يدخر السلطان العثماني وسعاً لبث الحماس في نفوس جنوده الذين أصبحوا وسيلته الوحيدة والأخيرة للبقاء على كيان دولته . فأقام لهم طواير العرض وقام بمقابلة الضباط وأقام لهم الولائم كما وزع عليهم النقاشين ومنحهم الرتب المتعددة وخلع عليهم كسوات التشرية والسيوف كما داوم على حضور الصلوات مع جنود جيشه . . وكانت آخر كلمات السلطان إلى قائد جيشه الذي منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب تشجيعاً له . . . أنقذ الدولة فإن شكرى لك ولمساكرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد . . .

(٥) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

موقف الجيش المصرى :

وعلى الجانب الآخر . . كان موقف الجيش المصرى عقب معركة (ييلان) كما يلى :

١٠ آلايات من المشاة - ١٢ آلايا من الفرسان - بعض وحدات المدفعية - ٥٠٠٠ جندي (وحدات مساعدة)

- ٢٠٠٠ من البلو :

ومما يذكر أن نصف هذه القوات قد صار تخصيصها للقيام بواجبات حراسة خطوط المواصلات بين مصر والشام والدفاع عن الحاميات الرئيسية وبذلك يمكن القول بأن ٢٧ ألفا فقط من مجموع القوات المصرية كانوا يمثلون القوة الضاربة للجيش وهكذا كان التفوق العددي إلى جانب الترك بنسبة ٣ : ١ .

السيطرة على مضيق (طوروس) :

تمكنت القوات التركية من السيطرة على مضيق (طوروس) الحاكم بينما اتخذت القوات المصرية موقف الدفاع بناء على تعليمات الحكومة المصرية من القاهرة . وهكذا انتهت القيادة المصرية بالشام إلى اتخاذ القرار بالاستيلاء على هذا المضيق دون انتظار تعليمات ، ولما كان التنفيذ سيتطلب أولا ضرورة الاستيلاء على (هرقله - أركلى) ، فقد قامت القوات المصرية بالفعل بالاستيلاء عليها يوم ١٥ أكتوبر . . كما صدرت الأوامر باتباع القوات لطريقين^(١) خلال التقدم إلى (هرقل) : القوات غير النظامية والبلو تتخذ الطريق الأيمن للهجوم على (شفت خان) بينما تتقدم قوة مختلطة من الخيالة والمشاة والمدفعية على الطريق الأيسر لمهاجمة (نمرود) .

وفي ١٨ أكتوبر وصلت تلك القوة إلى (نمرود) بدون قتال ، بينما وصلت القوة الأولى إلى (طوروس) لتجتاز مقدمتها مضيق (كوك بوغاز) حيث اعترضتها قوة تركية مؤلفة من المشاة والفرسان في نفس الوقت الذي قامت فيه قوة تركية أخرى باحتلال المرتفعات الهامة ، الأمر الذي دعا القائد المصرى (سليم بك) إلى إصدار الأمر بفتح نيران شديدة على الأتراك ، كما أمر خياله باقتحام صفوفهم فتمكن من تشتيتها وإحداث الذعر بين أفرادها بعد أن قتل منهم ٢٠٠ جندي وأسرت ٣٠٠ .

ويستمر (سليم بك) على رأس قواته في مطاردة فلول الأتراك بهدف إزالة المقاومة الشديدة التي أبدوها . . ثم يواصل المطاردة عبر طريق (هرقل) .

احتلال هرقل :

عندما بلغت مسامع (ابراهيم باشا) أنباء هذا القتال العنيف ، بادر في ٢٣ أكتوبر - إلى مغادرة (نمرود) متقلما على رأس القوات إلى (هرقل) عبر جبال (طوروس) ، وقد قامت القوات التركية باخلاء المدينة فور ظهور طلائع المصريين يوم ٢٥ أكتوبر .

(١) أحد الطريقين يمر خلال (منارة خان) و (شفت خان) و (أولان كيشلى) و (شابان) والثاني يمر من خلال (طوروس) و (نمرود) و (شاكال) و (زليينسا) .

الموقف السيامى

خيم على مسرح العمليات هدوء نسبي استمر ثلاثة أسابيع . . كانت الاتصالات السياسية خلالها مستمرة بين الدول الأوروبية والباب العالى من جهة - وبينها وبين الحكومة المصرية من ناحية أخرى . . وقد أرسل (ابراهيم باشا) رايه إلى والده بالقاهرة والذي يتلخص فى ضرورة التقدم إلى (قونية) تمهيدا لوثبة ثانية يهدد بها السلطان العثمانى . . بينما كان (محمد على) يرى عدم تجاوز (قونية) . . خشية اغضاب الدول الأوروبية .

التقدم إلى (قونية) :

وفى ١٦ نوفمبر صدرت التعليمات للقوات المصرية بالتقدم إلى (قونية)^(١) على النحو التالى :

تسير المشاة فى قولين :

قول اليمين ويتألف من الحرس والآلاى الرابع عشر .

وقول اليسار ويتألف من الآلاى الثالث عشر والثامن عشر .

على ألا يتعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى الثالث فى الصف الأول .

والآلاى الرابع عشر فى الصف الثانى .

أما المدفعية فى تشكيل القطاع أو بالأصناف (الجماعات) كما يسمح الطريق على أن توضع مدفعية فى رأس القول على ميسرة الآلاين ١٤ ١٨٠ بينما يسير لواء الخيالة الثانى فى المقدمة على قولين :

الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى الثالث عشر المشاة :

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب التالى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه - متاع المدفعية - فالحياة - فالمشاة ، مع عمل الترتيبات اللازمة للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

التحرك :

وفى ١٧ نوفمبر تحركت وحدات الجيش المصرى على النحو السابق بيانه فى نظام كامل وبلون صعبة أو مقاومة حيث غادر قول اليمين (كارخان) متجهاً الى (شوميرة) ليلتقى بقول اليسار .

(١) كان هناك طريقان يؤديان إلى (قونية) : الطريق الأيمن ويمر بمدن (كيجير - كارابونار - كاتانيه - ايزميل - قارخان) والأيسر ويمر بمدن (كارمان - كاسابا - شوميرة) .

المسلمو ينجس قونية :

فى نفس يوم التحرك علمت القيادة المصرية بأن الأتراك أخلوا (قونية) فى الليلة السابقة فلم تضيق وقتا وبادرت بدفع بعض القوات خفيفة الحركة والمدفعية فى اتجاه (قونية) حيث دخلها ليلة ١٧ نوفمبر . . وفى الصباح توجهت نحو (آق شهر) قوة للمطاردة مؤلفة من الحيلة المنظمة والآلى الرابع الحيلة وبطاريات مدفعية تمكنت من إلحاق بحرس المؤخرة التركى فى ضواحي (ايلجون) وانزلت به خسائر فادحة ، كما أسرت بعض قواته وعادت مسرعة إلى (قونية) إلحاق بالقوات الرئيسية من جديد .

تحركات الجيش التركى :

وصل (رشيد باشا) إلى (آق شهر) ونزل فى (قديم خان) على مبعدة ٩ ساعات من شمال غربى (قونية) على رأس جيش بلغ تعدادة نحو ٥٤ ألفا من الجنود موزعين على النحو التالى :

٥٤ أورطة مشاة - ٢٨ بلوك خيالة - ١٠٠ مدفع - ٢٠ ألفا من الجنود النظاميين .

مقدمات المعركة :

فى ١٨ أكتوبر ، تعرض قول تركى لازمه سوء الطالع فى قرية (سيلة)^(١) المنيعه وكان يحتلها ألفا مصرى حيث دارت معركة - دعمت خلالها القوة المصرية بآلى مشاة وأورطة من الآلى التاسع عشر والآلى الثالث خيالة وخمسة فارس وبطارية مدفعية . . وكانت نتيجة المعركة ارتداد القوة التركية منهزمة بعد أن تركت خلفها ٥٠٠ أسير وثمانية بيارق وخسة مدافع وكية وفيرة من العتاد والذخيرة .

الأتراك فى قبضة القوات المصرية :

وفى اليوم التالى هاجمت القوات المصرية فى تشكيل يتألف من الحرس و ٣ آلايات خيالة و ٣ بطاريات مدفعية حامية تركية كانت تحتل (دوكوزلوخان) التى تبعد ٣ ساعات من (قونية) على الطريق المؤدى إلى (لاديك)^(٢) ، ولم يضيق الأتراك وقتهم فبادروا إلى التسليم منضمين إلى زملائهم أسرى الأمس فى قرية (سيلة) .

المعركة : (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) :

كان يوم المعركة - الجمعة ٢١ من ديسمبر عام ١٨٣٢ - يوماً شديداً البرودة ، كما كان الضباب ينجم على ميدان المعركة للدرجة حالت دون اكتشاف كل من القائدين المتصارعين لمواقع جيش خصمه .

مسرح المعركة :

تقع مدينة (قونية) فى ملتقى طريق الأناضول وتستند على شعاب جبال (طوروس) ، كما يحيط بها سور منيع - أما الأراضى التى دارت عليها المعركة فتقع أمام المدينة فى الاتجاه الشمالى الغربى حيث تمتد هضبة خصبة بينما يستند الميدان فى الغرب على ميول تلال (سيلة) - كما تحدها من الشرق طائفة من المستنقعات ، أما الطريق بين (لاديك) و (الآستانة) فيمر فى منتصف ميدان المعركة تماماً .

(١) تناقصت القوات المصرية فى (قونية) إلى ٢٠ أورطة مشاة و ٢٤ بلوك خيالة و ٤٨ مدفعاً بسبب سحب بعض وحداتها لحماية خطوط المواصلات التى طالت عقب التقدم الطويل فى سوريا الشمالية .

(٢) وتقع على بعد ٨ كيلومترات شمال غربى (قونية) .

تقدير الموقف من وجهة النظر المصرية :

توقعت القيادة المصرية أن (رشيد باشا) سبلجاً إلى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة الممتدة بين جبال (سيلة) ومنطقة المستنقعات وأنه يستهدف الاستيلاء على (قونية) بالالتفاف حول مبسرة الجيش المصرى . . وبعد أن قلّرت القيادة الموقف قررت مفاجأة (رشيد باشا) قبل أن يفتح قواته في تشكيل القتال ، بحيث لا تبدأ المدفعية المصرية القصف إلا بعد أن تصبح القوات التركية داخل المرمى المؤثر ، وبذلك ييسر استخدام قوات الجناح الأيمن على أحسن وجه .

الجيش المصرى يتخذ تشكيل القتال :

وهكذا اتخذ الجيش المصرى تشكيل القتال في ٣ صفوف يرتكز وسطها على طريق (لاديك) على النحو التالى :

الصف الأول : بقيادة (سليم بك المانسترلى) ويتألف من الآلايين ١٣ و ١٨ .

الصف الثانى : بقيادة (سليمان بك الفرنساوى) ويتألف من الآلايين ٣ و ١٤ وعلى بعد ٥٠٠ خطوة من الصف الأول في تشكيل قول مزدوج .

أما الاحتياط فتحت قيادة (سليم بك) ويتألف من آلاى الحرس على بعد ٣٠٠ خطوة من الصف الثانى في تشكيل قول مزدوج ويدعمه لواء الخيالة الأول والثانى .

وإلى الطرف الأيمن في المؤخرة قوات الدلاة والبلو .

أما المدفعية فتألف من ٣ بطاريات في الصف الأول موزعة في اليمين والقلب واليسار .

بطاريتان في وسط الصف الثانى — بطارية في الاحتياط خلف الحرس وكأجراء احتياطي لتلافى حركات التطويق التى قد يقوم بها العدو ، أمرت جميع آلايات مشاة الصف الثانى بتعيين أشرطة مشاة في تشكيل مربع على كلا الجانبين على مسافة ٢٥٠ متراً من الآلاى .

أوضاع الجيش التركى القتالية :

أما (رشيد باشا) فقد قام بتوزيع قواته على النحو التالى :

الصف الأول : في تشكيل مفتوح — أما الثلاثة الأخرى في تشكيل منضم بالأورط . . وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس والآلايين خيالة أما الصف الثانى فتألف من آلايين مشاة وآلايين خيالة وبالنسبة للصفين الثالث والرابع فقد تألف كل منهما من آلاى مشاة .

وفي المؤخرة ، إلى اليمين واليسار فقد وضع قواته غير النظامية والألبانيين وجنود البوسنة من المشاة والخيالة .

أما المدفعية فوزع بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين في كل أشرطة مشاة وأربعة مدافع في كل آلاى خيالة .

كما قام (رشيد باشا) بقيادة قوات الميسرة بنفسه (ربما لأنها كانت تمثل أضعف نقطة) بينما تولى (سعد الله باشا) قيادة قوات القلب و (خير الدين باشا) قوات الميعة .

أما المسافة بين القوات المصرية والتركية فكانت تبلغ نحو ٣٠٠٠ متر .

الأتراك يبدأون بقصف المدفعية :

تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ٦٠٠ متر من مواقع القوات المصرية ، وعند الظهر بدأت المدفعية التركية في إطلاق قذائفها على المصريين الذين لم يجابوا على القصف كالأوامر .

وعلى حين فجأة . . استهلت المدفعية المصرية في أعظم حشد - القصف على طول الجبهة بنيران شديدة متواصلة ، واشتد القصف من الجانبين حتى أصبح ميدان المعركة جزءاً من الجحيم .

الضباب ينقشع :

وفي لحظة انكشف فيها الضباب ظهرت للمصريين نقطة الضعف لدى الجانب التركي ، والتي كانت تتمثل في وجود ثغرة طولها ١٠٠٠ متر بين الخيالة التي تتألف منها ميسرة الجيش التركي والمشاة الأمر الذي جعل الميسرة في شبه عزلة عن بقية الجيش .

المصريون يستغلون الموقف :

وانتهزت القوات المصرية الفرصة بسرعة فزحفت قوة الحرس والفرسان^(١) واجتازت (عين مياه) بقليل ثم انعطفت يساراً حيث ميسرة الأتراك وقامت بالمحجوم عليها هجوماً كاسحاً مدعماً بقصف المدفعية وقد بلغ من شدة الهجوم ما جعل مواقع الأتراك تهتز هزاً عنيفاً وتفقد توازنها مما اضطرهم إلى التقهقر في غير انتظام شمالاً في اتجاه المستنقعات ، وبذلك تم تدمير ميسرة الجيش التركي . وبينما كانت القوة المصرية في سبيلها للتقدم نحو (خان قديم) إذ أبصرت إلى اليسار الآلاى السابع عشر التركي متقدماً في تشكيل منضم للأطباق على الميعة المصرية ، فغيرت القوة المصرية اتجاهها وقامت - بعد أن تم تدعيمها بالآلاين ١ و ٢ خيالة وبطارية مدفعية - بمهاجمة الآلاى التركي الذي انهالت عليه النيران المركزة من كل صوب وأحاط به المصريون ، فسلم جنوده أسلحتهم وأصبحوا أسرى لدى الجيش المصرى .

قائد الجيش التركي يقع أسيراً في أيدي المصريين :

عندما أدرك (رشيد باشا) أن ميسرته قد دمرت ، أراد أن يلحق بها لجمع شملها فضل الطريق في الضباب الكثيف حتى وقع أسيراً في أيدي القوات المصرية التي جردته من سلاحه واقتادته إلى القيادة العامة .

(١) وكانت تتكون من آلاى الحرس واللواء الرابع خيالة تحت قيادة (أحمد باشا المونوكل) مدعماً ببعض قطع المدفعية والآلاى الخيالة الثانى .

المطاردة :

أمرت القيادة المصرية قواتها الاحتياطية (عدا وحدة مدفعية وأورطة مشاة) بالتقدم مع قوات الحرس في طريق مواز لطريق (لادبك) للقضاء على القوات الاحتياطية العثمانية بعد أن تم تدعيمها بنصف بطارية مدفعية والآلى الثانى الخيالة . . بينما تابع الآلى الرابع مطاردة خيالة الأتراك في المستنقعات حتى وصل إلى النخان ولحق بآلى الحرس في الوقت الذى كان يهجم فيه الآلى التاسع عشر المشاة التركى . . بينما نيران المدفعية المصرية تنصب في إحكام كالجحيم عليه حتى عم الفرع في قلب القوات التركية وفر الجنود غير النظاميين إلى نلال (سيلة) عن طريق (لادبك) وفي الساعة الخامسة من مساء يوم المعركة ، كان القتال لا يزال مستمرا بعد أن حاول الأتراك الاعتماد على قوات المينة في الصمود ونحويل المعركة لصالحهم إلا أن القوات المصرية قابلت ذلك بقصف مدفعى عنيف قضى على ما تبقى من الجيش التركى ، حيث حصد صفوفهم حصداً واستمرت الملاحمة ثلاث أرباع الساعة لتسفر عن كسر هجمة الأتراك وهزيمتهم مع تشييت كافة وحداتهم في السهل وفي (قونية) .

هزيمة الجيش العثمانى :

انتهت المعركة أمام (قونية) بهزيمة قوات الإمبراطورية العثمانية هزيمة ساحقة بعد أن دام القتال خلالها سبع ساعات . . بلغت خسائر الأتراك فيها ٦٠٠٠ أسير على رأسهم قائد الجيش وعدد كبير من الضباط علاوة على ٣٠٠٠ قتيل و ٤٦ مدفعاً وعدد كبير من الأعلام العسكرية .

خسائر المصريين :

أما خسائر القوات المصرية فلم تتجاوز ٢٦٢ قتيلاً و ٥٣٠ جريحاً .

عاصمة الأتراك في متناول الجيش المصرى المنتصر :

وهكذا أضحت الأبواب المؤدية إلى عاصمة الأتراك مفتوحة على مصراعها في مواجهة الجيوش المصرية المنتصرة بعد انتهاء معركة (قونية) التى فقد السلطان العثمانى بانتهاها جيوشه التى كان يعول عليها للقضاء على المصريين .

موقف الدول الأوروبية :

بدأت القيادة المصرية في (قونية) - عقب النصر المؤزر الذى أحرزته على القوات العثمانية - تعيد تنظيم قواتها ، رغم رغبتها في مطاردة فلول العدو ، حيث كانت تعليمات الحكومة المصرية تقضى بالتوقف في انتظار ما يسفر عنه موقف الدول الأوروبية تجاه التقدم المصرى الآستانة . . وفي ٢٠ يناير وصلت تعليمات جديدة من (محمد على) بأذن فيها للقوات بالتقدم . وعلى التو قامت القيادة بإصدار تعليمات للتقدم في اتجاه (كوتاهية) التى وصلتها يوم ٢ فبراير وبذلك أصبح الجيش المصرى على مسافة ٥٠ كيلو متراً من الآستانة لا يعترض طريقه خلالها جندى واحد للسلطان :

الزم مكانك ولا تتقدم :

وفي (كوتاهية) تلقى القائد العام للقوات المصرية بالشام خطاباً من (محمد على) يأمره فيه بالتوقف حينما يصله خطابه ذاكرة له أن السلطان قام بارسال (خليل باشا رفعت) إليه للاتفاق على الصلح^(١) .

(١) وصل (خليل باشا رفعت) بالفعل إلى مصر ومعه رسالة من السلطان العثمانى إلى (محمد على) يمدّه فيها بالمغو عنه مع منحه ولاية عكا وملحقاتها وولاية سوريا وأدنىبالإضافة إلى طلب محالفتهتعاون بينه وبين (خسروباشا) تقع حدا لتزاعهما .

الفصل السابع

اتفاقية (كوتاهية)

١٨٣٣/٥/١٤ .

وفي ١٤ مايو ١٨٣٣ تم عقد اتفاقية (كوتاهية) التي وضعت حداً مؤقتاً للنزاع بين مصر وتركيا .. وبموجب هذه المعاهدة ولي (محمد علي) مصر والحجاز وكريت بينما ولي (إبراهيم باشا) سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية (أدنة) .. وبذلك ارتفع العلم المصري فوق تلك الأقاليم ، وانتهت - إلى حين - الحرب بين الجيوش المصرية والعثمانية .

موقف الجيوش المصرية بعد عقد اتفاقية (كوتاهية) :

وفي عام ١٨٣٣ يمكننا أن نصل إلى توزيع الجيوش المصرية على النحو التالي^(١) :

الوحدات	مصر	العربية	السودان	كريت	سوريا	المجموع
٢٣ آلاى مشاة	١٧,٣٥٢	٧,٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥,٥٧٧	٧٠,٣٣٧
٣ آلاى مدفعية	٤١٠٢				٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١			٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠				٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤		١٥٥١	٣٤٣٥
بلو		٦٦٨	٦٠٤		٤٠٩٨	٥٣٧٠
المجموع	٢٧,٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩,٦٢٥	٩٧,٣٠٣

هذا بالإضافة إلى :

٣٤٨٨ طلبة المدارس الحربية

١٠,٩٨٨ قوات الشرطة المحلية

٢٥١٤٣ جنود البحرية ودور الصناعة

١٩٣٩٣٢ صنّاع وعمال عسكريون

(١) من خطاب كتبه البارون (بوالكونت) - ممثل فرنسا في مصر إلى الدوق (بروجليه) - وزير الخارجية الفرنسي في ٢ يولية ١٨٣٣ .

هدنة مسلحة

(١٨٣٣ - ١٨٣٩)

لم تمثل اتفاقية (كوتاهية) سوى هدنة مؤقتة أخذ فيها الطرفان يستعدان لاستئناف القتال ، كما استمرت الحكومة العثمانية تؤلب سكان البلاد التي أصبحت تحت الحكم المصري وتنفت بينهم الدسائس بوساطة أعوانها بشنى الوسائل لإثارتهم ضد الحكم المصري ، ومن ذلك :

— الدعايات السيئة التي أشاعها رجال تركيا وأعوانهم ووكلاء الدول الأوروبية ضد مصر وضد الحكم المصري ولاسيما في (نابلس) وبيت المقدس ودمشق وحلب .

— نفشى التمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع (عبد الله الجزار) ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التي كانوا يأملون في الحصول عليها ، وهكذا جرت اشتباكات عديدة بين المصريين وأهالى (عكا) و (نابلس) و (حلب) و (بيروت) .

— فرض الضرائب الباهظة بواسطة (إبراهيم باشا) بالإضافة إلى رسوم الجمارك وتطبيق نظام الاحتكار مع الزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقاً لسياسة (محمد على) الاقتصادية الظالمة التي كان يطبقها على المصريين .

— نفور الشعوب من الجندية الإلزامية التي فرضتها الإدارة المصرية على الأهالى . . بعد أن قتل الاحتلال العثماني شعور المواطنين بروح الجندية . . بل لقد أدى فرض نظام التجنيد بواسطة الحكم المصري إلى هجرة أعداد كبيرة من الأهالى إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

ولقد أدت هذه الأسباب — بعضها أو مجتمعة — إلى قيام الثورات التالية :

— عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) بزعمامة الشيخ قاسم الأحمد وأبى غوشى .

— عصيان (صفد) الذي أخذه الأمير (بشير الشهابي) — من لبنان .

— فتنة (دمشق) و (طرابلس) عام ١٨٣٤ أيضاً ثم (عكا) و (صفيتا) و (حلب) و (انطاكية) و (بعلبك) و (بيروت) .

— ثورة (النصيرية) شرقى (اللاذقية) عامى ٣٤ - ١٨٣٥ .

— ثورات الدروز في (حوران) عامى ٣٦ - ١٨٣٨ .

الفصل الثامن

معركة نزيب (*) (نصيبين)^(١)

٢٤ يونية ١٨٣٩

لم تكن اتفاقية (كوتاهية) - في ١٤/٥/١٨٣٣ - التي أبرمت عقب معركة (قونية) كافية لوضع حد للنزاع بين تركيا ومصر . . ومن ثم فقد ظل الطرفان يستعدان لاستئناف القتال في الوقت المناسب^(٢) . بينما حاولت تركيا بكل الوسائل تقوية جيوشها وإشغال نيران الثورة في الولايات الشامية للخروج على الحكم المصري . . وإزاء تلك الدسائس قررت الحكومة المصرية إعلان الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية . . وبناء عليه فقد استدعى (محمد علي) سفراء الدول الأجنبية في مصر وأعلنهم بعزمه هذا وفي يناير ١٨٣٩ عقد الباب العالي مجلساً حريياً قرر فيه إعداد جيش قوى تحت قيادة (حافظ باشا)^(٣) .

القوات المتضادة :

الجانب التركي :

تألفت القوات العثمانية من ٨٠ ألف مقاتل و ٣٠٠ مدفع حشد معظمها في شرق الأناضول وكان توزيعها كالتالي :

- قوة (أنقرة) : تحت قيادة (محمد علي باشا) ١٢,٠٠٠ جندي (٤ بطاريات مدفعية)
- قوة (قونية) : تحت قيادة (علي باشا) ٢٠,٠٠٠ جندي (١٠ بطاريات مدفعية) .
- قوة (ملطية) : تحت قيادة (حافظ باشا) ٤٢,٠٠٠ جندي (منها ٢٤ بطارية مدفعية) .
- قوة (قيصريه) : تحت قيادة (عثمان باشا) ٥,٦٠٠ جندي (منها ٢ بطاريات مدفعية) .

(*) محمد فيصل عبد النعم - « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(١) نزيب Nezip وتعرف خطأ باسم (نصيبين) ونزيب هو الاسم التركي الصحيح لها كما جاء في تقويم الجمهورية التركية لعام ١٩٣٧ بالتركية - وهي مدينة في ولاية (غازي) جنوب تركيا على حدود سوريا - وكانت قبل الحرب العالمية الأولى من ألوية (حلب) - كما ورد في كتاب (تاريخ مصر الحديث : ص ٢٤٥) وحصلت مواقع شديدة بين الجيوش التركية والمصرية في (نزيب) انتهت بالهزيم الأولى وفرارها إلى مرعش) .

(٢) بموجب هذه المعاهدة ول الباب العالي (محمد علي) ولاية مصر والحجاز وكريت . . بينما جعل (ابراهيم باشا) والياً على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحسلاً لولاية أدنة .

(٣) حافظ باشا : منح رتبة السرعسكر عقب انتصاره على ثورة الأكراد - اشترك في الحرب الروسية - التركية قاد الحملة التركية التي جردت لإخماد ثورة البانيا - عين حاكماً على إقليم (سيواس) بالأناضول - كان يتميز بسمعة الأفق وبعد النظر كما كان محبوباً من جنوده .

القوات المصرية :

المشاة :

فرقة الحرس - آلايات ١ و ٢ و ٣ (بقيادة الفريق عثمان باشا)	٨٦١٧
اللواء الأول - الآلاى ٦ و ٢٢ (بقيادة أمير اللواء سليم بك)	٤٧٣١
اللواء الثانى - الآلاى ٤ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء إبراهيم بك)	٥٢١٦
اللواء الثالث - الآلاى ٦ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء حمزة بك)	٧٣٩٣
اللواء الرابع - الآلاى ٩ و ١٤ (بقيادة أمير اللواء عمر بك)	٤٥٥١
اللواء الخامس - الآلاى ١٠ و ١١ و ١٧ (بقيادة أمير اللواء فرحان بك)	٧١٦٥
مجموع قوات المشاة	٣٧,٦٧٣

الخيالة :

بلواء الفرسان - آلايان (بقيادة أحمد باشا المونوكلى)	١٧٣٨
اللواء الأول خيالة - الآلاى ١١ و ٢ (بقيادة أمير اللواء رستم بك)	١٦٧٩
اللواء الثانى خيالة - الآلاى ١ و ١٣ (بقيادة الجوخدار)	١٧٢٨
اللواء الثالث خيالة - الآلاى ١٠ (بقيادة إبراهيم بك)	١٦٣٠
مجموع قوات الخيالة (الفرسان)	٦٧٧٥

المدفعية : بقيادة أمير اللواء (جعفر بك صادق)

مدفعية الحرس (بقيادة الأمير الاى خالد بك)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الثانى المشاة (بقيادة أمير اللواء محمد العتبلى)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأول الخيالة (بقيادة أمير الاى حاذق بك)	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثانى خيالة (بقيادة أمير الاى زكى بك)	١٠٦٧
مجموع قوات المدفعية	٦٢٣٩

المجموع الكلى لقوات الجيش المصرى ٥٠,٠٧٣ ضابطا وجندياً^(١) و ١٦٢ مدفعا .

تجهيزات المعركة :

قامت القيادة المصرية بتحصين (كوك) - أحد مضائق (طوروس) والذي يعتبر منفذا من الأناضول إلى سوريا ، كما قامت بتدعيم حاميات ولاية (أدنة) .

(١) أرسلت الحكومة المصرية - بناء على طلب القيادة المصرية بالشام - امدادات عسكرية تحت قيادة وزير الحربية مؤلفة من الجنود النظاميين و ٨٠٠٠ جندى غير نظامى معظمهم من الفرسان علاوة على ٢٥ ألفا من قوات البدو ، كما الحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى ، وذلك فى أواخر ابريل عام ١٨٣٩ .

وإزاء ذلك قام (حافظ باشا) - قائد القوات التركية - بتقدير موقفه وقرر الزحف من منطقة (أورفا) و (ديار بكر) حيث لا تواجهه مضائق أو مسالك وعرة أو جبال .

وما أن علمت القيادة المصرية بذلك ، حتى قامت بتوجيه العديد من الوحدات إلى (حلب) بهدف مراقبة طلائع الجيش التركي في (عينتاب) و (كليس) القريبتان من الحدود التركية .

وعلى الجانب الآخر أصدر (حافظ باشا) أوامره إلى بعض وحداته بعبور نهر الفرات وقد قامت بعبوره بالفعل إلى شاطئه الأيمن يوم ٢١ ابريل ١٨٣٩ .

وفي منتصف ابريل كانت وحدات الجيش التركي قد قامت بتبديل مراكزها واتجهت صوب (ساموساته) .

كما تجمع لواء (إسماعيل باشا) في (بيرة جك) في ذات الشهر والتي وصلها (حافظ باشا) بعد أيام حيث استولى على (ساموساته) ثم يجم صوب (بيرة جك) على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات .

وفي الثاني والعشرين من مايو ١٨٣٩ عبرت طلائع الجيش التركي نهر الفرات ووصلت إلى (نريب) - داخل الحدود السورية - واحتلت المنطقة الواقعة بين نهر الفرات وأحد روافده (ساجور) - كما احتلت القوات التركية أيضاً قرية (تل باش) واستمرت في تقدمها في اتجاه (مزار) بسوريا حيث قامت بالإغارة على ١٤ قرية بعينتاب ونهبتها .

القيادة المصرية تقرر الهجوم :

في مواجهة تلك الاعتداءات صدرت الأوامر إلى سبعة آليات مصرية من الخيالة تدعمها ١١ بطارية مدفعية خفيفة بالتحرك من (حلب) يوم ٢٩ مايو ، كما كلف (سليمان باشا الفرنساوي) بالحقاق بها على رأس قوات المشاة .

وفي اليوم السادس من يونية ١٨٣٩ أصدرت الحكومة المصرية تعليماتها إلى قائد القوات المصرية بالهجوم على قوات العدو وطردها من الأراضي السورية .

بدء الاشتباكات :

في ٢٣ يونية ١٨٣٩ قررت القيادة المصرية مهاجمة الجيش التركي عند فجر اليوم التالي^(١) مع القيام بدفع قوة صغيرة للاستكشاف (١٥٠٠ بدوى - ٤ آليات من الخيالة وبطاريتي مدفعية خفيفة) . كما صدرت التعليمات إلى القوات المصرية الرئيسية بالاستعداد للهجوم بعد أن تم حشدها على ضفاف نهر (ساجور) .

نتيجة الاستكشاف :

عادت القوة المصرية التي كلفت بالاستكشاف^(٢) - والتي قوبلت بمقاومة شديدة من القوات التركية - بمعلومات تؤكد صعوبة إجراء الهجوم بالمواجهة نظراً لمناعة مواقع العدو ، كذلك تبين صعوبة إجراء الهجوم من الأجانب ،

(١) عارض سليمان باشا هذا القرار لاعتقاده بأن وجود الضباط البروسيين في الجيش العثماني يجعل مواقعه عظيمة التحصين .

(٢) حينما عادت قوة الاستكشاف المصرية إلى مواقعها الأصلية بعد أن أدت مهمتها اعتقدت القيادة التركية أن القوات المصرية الرئيسية قد بدأت في التقهقر والانسحاب .

الأمر الذى حدا بالقيادة المصرية إلى وضع خطة ترمى للقيام بحركة التفاف واسعة بهدف الوصول إلى خلف مواقع العدو لإجبار الجيش التركى على الدوران وترك مواقعه الحصينة والقتال فى الأرض المكشوفة..

القائد التركى يرفض نصيحة البروسيين :

وقد اقترح الألمان الذين كانوا يؤلفون هيئة أركان حرب (حافظ باشا) على القائد التركى الانسحاب من (نزيب) والتوجه إلى (يرة) على الضفة اليسرى لنهر الفرات تفادياً للتعرض إلى حركات التطويق التى قد تقوم بها القوات المصرية ، ولكنه رفض هذا الاقتراح . . وحينما أشاروا عليه أيضاً بضرورة ضرب القوات المصرية أثناء تقدمها وعبورها للمضائق ولنهر (كرسين) رفض كذلك الاستجابة إلى تلك النصيحة .

تحرك الجيش المصرى :

فى ١٨ يونية تقدمت قوات الجيش - تحت قيادة (سليمان باشا) نحو (توزل) حيث عبرت نهر (ساجور) الكبير فى اليوم التالى - وفى يوم ٢٠ يونية استأنفت التقدم إلى (مزار) فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة فوصلتها فى العاشرة صباحاً ، حيث التقت فيها بطلائع من الجيش التركى تتألف من آلايين مشاة وخمسة مدافع و ٥٠٠ جندي غير نظامي . . فقوجئت وانسحبت تحت وابل من نيران القوات المصرية الأمامية فى اتجاه (نزيب) بعد أن تركت خيامها وعتادها الذى غنمه المصريون . وهكذا احتشد الجيش المصرى فى مزار يوم ٢٠ يونية . وقد أصبح على مسيرة ساعتين من مواقع العدو .

القوات المصرية تبدأ فى تنفيذ حركة الالتفاف :

فى صباح يوم ٢٢ يونية انتقل الجيش المصرى من معسكر (مزار) إلى اتجاه الجنوب حيث اجتازت بعض وحدات المشاة قنطرة (مزار) ورابطت فوق التلال المطلة عليها للمراقبة . . بينما ظلت قوات الخيالة فى مواقعها لستر هذه التحركات ، كما شرعت المدفعية فى عبور القنطرة ذاتها . . وما أن انتظمت القوات بعد العبور حتى تقدمت للسير فى اتجاه (كرسين) فى تشكيل القتال بعد أن انحرفت عن خط السير الحقيقى لإيهام العدو بأنها تستهدف الوصول إلى (حلب) .

وفى خلال هذا التقدم ، ظهرت بعض الوحدات التركية على مسيرة الجيش المصرى (على بعد ٣٠٠ متر) ولكن ما أن اتخذت القوات المصرية تشكيل القتال ضدها حتى بادرت إلى الانسحاب (والمرجح أنها كانت مكلفة بواجب الاستكشاف فقط) .

وما أن حل مساء نفس اليوم حتى بدأت التشكيلات المصرية فى إجراء عملية عبور كبرى (كرسين) حيث انتهت منها فى الثانية صباحاً وبمجرد انتظام القوات على الضفة اليسرى للنهر نظمت على شكل مروحة تركز ميمنها وميسرتها على النهر بينما احتلت بعض وحدات المدفعية المرتفعات الأمامية وخلفها ثلاثة صفوف من المشاة فالخيالة ثم العتاد وما تبقى من المدفعية احتل مواقعه خلف الصف الثالث .

ومكثه انقضى نهار ٢٣ يونية والجيشان يتأهبان للقاء الحاسم في اليوم التالي^(١) .

المعركة :

- ما أن بزغ فجر يوم ٢٤ يونية حتى كان الجيش المصري قد تم تشكيله في ترتيب القتال على النحو التالي^(٢) :
- ثلاثة خطوط من المشاة موازية لبعضها : الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة ، والخط الثاني على يمين الأول ويتألف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمينه ويتكون من ثمانى كتائب .
- على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ متراً منه ٩ بطاريات مدفعية (٥٤ مدفعاً) على خط واحد في موازاة خط المشاة المذكور .
- على يمين خط المشاة الثالث وعلى مسافة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات مدفعية (٦٠ مدفعاً) على خط واحد في موازاة خط المشاة المذكور .
- اربع بطاريات مدفعية (٢٤ مدفعاً) خلف خطوط المشاة الثلاثة .
- اربع بطاريات مدفعية (٢٤ مدفعاً) أمام خطوط المشاة الثلاثة لتدعيم آليات الخيالة عند الزوم .
- ستة آليات من الخيالة أمام البطاريات الأربع الأخيرة في موازاة خط المشاة الثالث .
- فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف البطاريات الأربع المحتشدة خلف خطوط المشاة الثلاثة كاحتياط .
- لواء خيالة الحرس المؤلف من آلايين (أحدهما من لابسى الدروع) والثاني (من حملة الرماح) خلف الجميع للعمل كحرس مؤخرة .

التطويق :

وفي خلال التقدم ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش وتمهيداً لحركة الالتفاف انحرفت القوات قليلاً نحو الشمال الشرقي في اتجاه (بيرة جك) . . وبعد أن تقدمت القوة نحو الكيلو متر في الاتجاه ذاته لاحظت أن القوات التركية لم تتحرك من مواقعها الدفاعية ، وهنا صدرت التعليمات إلى كافة التشكيلات بالالتفاف نصف دورة إلى اليسار وبذلك صارت خطوط تقدمه موازية تقريباً لخطوط الجيش التركي . . ثم كررت نصف دورة أخرى متجهة إلى ربوتين تجاه الجناح الأيسر التركي ، حيث احتلت إحداها ببطارية مدفعية من العيار الكبير ، بينما احتلت أربعة آليات خيالة مواقعها خلف الرتبة الثانية بعد أن تم تدعيمها بآلايين من المشاة .

(١) التاريخ الحربى لعصر محمد على - القائم مقام عبد الرحمن زكى - ١٩٥٠ .

(٢) بعد منتصف الليل. بقليل قامت القوات التركية بقصف مواقع الجيش المصري بالمدفعية . . إلا أن القوات المصرية صوبت نيران مدفعيتها في اتجاه القوات التركية حتى تم اسكاتها . . وقد قدرت خسائر المصريين من جراء هذا القصف بنحو ١٠ قتلى و ٣٠ جريحاً .

أوضاع الجيش التركى عند بداية الهجوم :

كانت أوضاع الجيش التركى عند بداية الهجوم فى مواقعه الدفاعية موزعة على النحو التالى :

قوات الميمنة وتتألف من الحرس - والقلب والميسرة من ٣ لواءات مشاة - وعلى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعا ، وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة . . بينما وضع فى الاحتياط ٤ لواءات و ٩ آليات خيالة و ١٣ مدفعا . . كما كانت كتائب الخط الأول فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

الافتحام :

بمجرد احتلال القوات المصرية للربوتين . . بدأت وحدات الجيش التركى فى إطلاق النيران عليها بينما قامت الأولى بالالتفاف يساراً بعد أن دعمت بأربعة آليات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى الرابع عشر المشاة : الميمنة تحت قيادة (سليمان باشا) والقلب تحت قيادة الفريق (أحمد باشا المونوكلى) بينما قاد قوات الميسرة الفريق (عثمان باشا) . . وقامت المدفعية المصرية بالتمهيد للافتحام بالقصف الشديد المركز ، فردت عليها المدفعية التركية بالقصف المضاد واستمر تبادل إطلاق النيران نحو الساعتين ركزت خلالها المدفعية المصرية قصفها على المدفعية التركية بينما ركزت الأخيرة ضربها على قوات المشاة . . كما قامت البطارية كبيرة العيار (فوق الربوة) بأسكات عدة بطاريات للمدفعية التركية . . وبعد أن اشتركت الهاونات المصرية فى تكثيف النيران التى انصبت دون انقطاع على القوات التركية بدأت قوات الأتراك فى التراجع ، كما فر بعض الجنود وقد انحطت معنوياتهم خاصة بعد انفجار عربات الذخيرة فى مؤخرة القوات التركية بتأثير نيران المدفعية المصرية وتزايد الارتباك وعمت الفوضى بعد أن أطلق قائد المدفعية الأميرالاي (جعفر بك صادق) بعض الصواريخ على تشكيلات الجيش التركى .

المدفعية المصرية ترفع معنويات الجيش المصرى :

وقد سبب نشاط المدفعية المصرية وقصفها المتواصل ارتفاع معنويات القوات المصرية التى قامت باقتحام القوات التركية بالسونكى ، فبادرت خيالة العدو بالفرار . . بينما تقدم الآلاين ١ و ١٣ خيالة فاستوليا على القسم الأيسر للمواقع التركية مكنتسخين شراذم العدو المتفرقة فى الطريق . . وواصلت التشكيلات المصرية الأخرى تقدمها مكنتسحة مواقع الأتراك الذين ألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار . . لتقتنى المدفعية أثرهم بالقصف المستمر المتواصل . . وبذلك تمت هزيمة الأتراك وشتت الجيش التركى الذى لم يبق له أثر فى ميدان المعركة . .

خسائر الجانبين :

استولت القوات المصرية على مقر قيادة القائد التركى (حافظ باشا) بكامل معبداته ومهماته كما قام الجيش المصرى بالاستيلاء على ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا تركيا بذخائرها ، وفى اليوم التالى تم الاستيلاء على ٣٤ مدفعا فى حصن (بيرة جك) وقد بلغت خسائر الأتراك فى هذه المعركة نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح و ٥ آلاف من الجنود ، علاوة على الاستيلاء على خزينته (حافظ باشا) والتى كانت تحتوى على عدة آلاف من الجنيهاات علاوة على الأوراق والخطط والأوسمة .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ ما بين قتل وجريح .

نتيجة المعركة :

بانتصار الجيش المصرى فى معركة نزيب (نصيين) أصبح الطريق مفتوحا إلى (استانبول) دون عوائق بعد أن ذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية بالأناضول^(١) .

تعليق :

تمثل معركة (نزيب) صفحة من أجدد صفحات العسكرية المصرية المشرقة ، والى يمكن أن نضعها فى مستوى معركة (أوترلنز) التى قضى فيها (نابليون بونابرت) على زهرة الجيوش النمساوية القوية . . حيث تمكن الجيش المصرى خلال تلك الموقعة من مفاجأة العدو عقب سير اقتراب طويل مع تنفيذ حركة التفاف واسعة النطاق - بما صاحبها من إجراء عمليات عبور عديدة للأتار تمت فى سرية تامة ونظام دقيق وبدون خسائر تذكر على وجه العموم .

دور المدفعية المصرية الذى لا ينسى :

كما أن الدور الذى لعبته المدفعية المصرية خلال المعركة لا يمكن أن ينسى أو يطويه الزمن . . فقد قامت بالدور الرئيسى فى المعركة منذ بدايتها حتى النهاية ، وكان لقصفاتها المركزة العنيفة أكبر الأثر فى إحراز النصر على الجيش التركى وتشتيت جموعه بينما قامت كل من قوات المشاة والخيالة باستغلال التأثير الذى أحدثته المدفعية فى صفوف الأتراك على خير وجه ، وذلك باستكمال القضاء على القوة الضاربة للجيش التركى وبث الذعر والفوضى بين تشكيلاته الكبيرة العدد والى طوتها سهول الأناضول بين جنباتها القسيحة .

الأسطول العثمانى يستسلم فى الاسكندرية :

وكأنما لازم الأتراك سوء الحظ وأبت الهزيمة الا أن تلاحقهم فى كل مكان . . إذ قام أمير البحر (أحمد فوزى باشا) فى يوم الرابع عشر من يولية ١٨٣٩ بتسليم الأسطول العثمانى والذى كان تحت قيادته بكامل قطعه إلى الحكومة المصرية فى الميناء الغربى بالاسكندرية ، وكان هذا الأسطول الحربى يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألفاً من البحارة و ١٦ ألفاً من المشاة . .

(١) فرت فلول الجيش التركى فى اتجاه (مرعش) بينما فر بعضها فى اتجاه شمال (بيرمك) أما (حافظ باشا) فقد فر إلى (روم كالة) فى محاولة يائسة لجمع شتات جيشه المهزوم فى (مالطية) .

الفصل التاسع

قوى الاستعمار تتحرك

هز نصر الذي أحرزته القوات المصرية في معركة نزيب - والذي أودى بأكبر جيش حشدته تركيا - وما تبع ذلك من استسلام الأسطول العثماني ، مركز مصر العسكري حيث ضمن لها السيادة على شرق البحر المتوسط الذي كانت تركيا تنازعها فيه من قبل .

ولقد أثارت هذه الانتصارات الحاسمة أحقاد دول أوروبا الدفينة ضد مصر ، وفي مقدمة تلك الدول زعيمة الاستعمار العالمي : بريطانيا التي كانت ترنو إلى الاستيلاء على ممتلكات الإمبراطورية العثمانية . . . وهكذا توالى الاجتماعات بواسطة سفراء تلك الدول (إنجلترا - النمسا - فرنسا - بروسيا الروسية) في (لندن) . . . تلك الاجتماعات التي أسفرت عن إصدار مذكرة وقعها سفراء تلك الدول إلى الحكومة العثمانية - يوم ٧ يولية ١٨٣٩ - أي عقب معركة (نزيب) باثنين وثلاثين يوماً والتي جاء فيها :

« إن سفراء الدول الموقعين على هذه المذكرة يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالي أنهم تلقوا من حكوماتهم هذا الصباح بأن الاتفاق على المسألة الشرقية^(١) تام بينها ولذلك فهم يطلبون منه أن يوقف اتخاذ أي قرار نهائي دون مساعدتها لما قد يكون لها من الفوائد التي يرونها . . . »

أول تدخل أوروبي جماعي :

ولقد كانت تلك المذكرة وما تلاها من أعمال بمثابة أول تدخل أوروبي جماعي في قضايا الشرق الجماعي العربي في التاريخ الحديث . . . ذلك التدخل الذي قابلته مصر بالاستنكار الشديد بعد أن فهمت ما ينطوي عليه من نتائج خطيرة . . . في نفس الوقت الذي رحب به الباب العالي أشد الترحيب لأنه ينقذه من ورطته .

المفاوضات بين الدول :

ودارت المفاوضات بين الدول الخمس للاتفاق على الخطوة النهائية . . . فدعت إنجلترا إلى حرمان مصر من ثمار انتصاراتها وإعادتها إلى حدودها الأصلية . . . مع إعادة الأسطول العثماني إلى تركيا باعتبار أن ذلك يمثل أفضل الحلول في رأيها .

رسائل الساسة الغربيون تكشف النقاب عن سوء نوايا بلادهم تجاه مصر :

ولعل الرسائلان اللتان أقوم بعرضهما فيما يلي تكشفان النقاب عن نوايا الدول الأوروبية تجاه مصر .

(١) المسألة الشرقية اصطلاح سياسى أطلقتته الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر على القضايا الخاصة بالدولة العثمانية والتي كانت تدور حول طرد هذه الدولة من أوروبا واقتسام ممتلكاتها . . .

رسالة سفير فرنسا في (لندن) :

ففي رسالة أرسلها (سبستاني) - سفير فرنسا في (لندن) إلى حكومته عقب مقابلته للورد (بالمرستون) - وزير خارجية بريطانيا - يقول :

... تريد بريطانيا انتهاز سياسة الشدة تجاه مصر لحملها على إعادة الأسطول العثماني إلى حكومة الآستانة والعودة إلى حدودها الأصلية وأن (بالمرستون) يكرر القول بأنه يجب اتخاذ الوسائل التي تجعل مصر عاجزة عن الإضرار بتركيا والقضاء عليها ...

رسالة (بالمرستون) :

أما الرسالة الثانية فقد كتبها (بالمرستون) - إلى ويليام كامبل - سفير بريطانيا في (كابل) ويقول فيها :

... إن الشروط المعروضة على الحكومة المصرية حسنة جداً ما دامت تلك الشروط تحرم (محمد علي) من (دمشق) و (حلب) وهما الطريق إلى العراق ... وفوق هذا يجب أن يثبت كل عام فيها أعطى له وإن كان تثبته في ولاية مصر دائماً . : وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب - والمشروع جليل الشأن لولا أنه يقضي بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به ... أضف إلى ذلك أن تركيا تعتبر أفضل دولة تملك طريق الهند ... (لم تكن قناة السويس قد شقت بعد) فهي أفضل من أي ملك عربي يقوم على هذه البلاد ، نزوعاً لعمل كثير الحركة ... فالواجب علينا أن نساعد السلطان على إعادة تنظيم جيشه وأسطوله وماليته ، فإذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء ...

قرارات (لندن) :

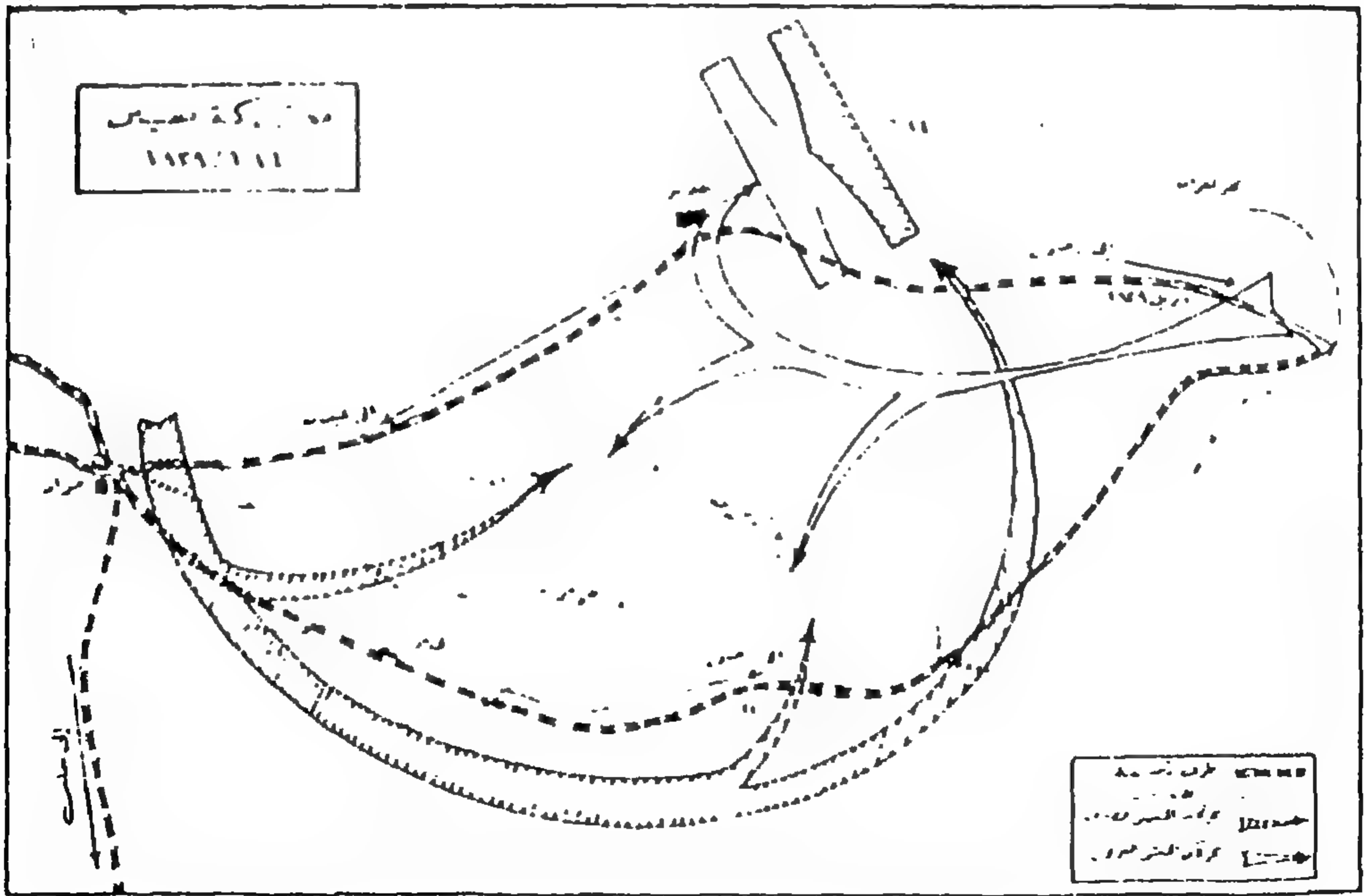
وبعد مفاوضات طويلة ، انتهت بلا نتيجة ، ووقفت فيها فرنسا إلى جانب مصر مطالبة باعطائها سوريا إلى جانب ولاية عكا ، صدرت (معاهدة لندن) - في ٥ يولية ١٨٤٠ - والتي لم تدع إلى مشاوراتها فرنسا بسبب موقفها من مصر .

نص معاهدة (لندن) - ٥ يوليو ١٨٤٠

١ - اتفق السلطان مع ملكة بريطانيا وإمبراطور النمسا والمجر ويوهيميا ، وملك بروسيا ، وقيصر روسيا على شروط التسوية التي تريد الدول أن تمنح لمصر وهي مثبتة في الفصل الملحق بهذه المعاهدة .

ويتعهد أصحاب الجلالة أن يعملوا متحدين وأن يوحلوا مجهوداتهم لإكراه مصر على أن تتبع هذه التسوية ، ويتعهد كل فريق بأن يساعد على بلوغ هذا الغرض تبعاً للوسائل التي يستطيع استخدامها في هذا السبيل .

٢ - إذا رفضت مصر التسليم بهذه التسوية التي تبلغ إليها الآن من لدن السلطان بمعاونة أصحاب الجلالة فإن هؤلاء يتعهدون بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان الوسائل المتفق عليها بينهم حتى تتم التسوية ، وقبل ذلك يدعوا السلطان



حلفاء لمعاونته على قطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا وإلى إرسال المواد الحديدية والسلاح ومعدات الحرب من كل نوع .

٣ - ويتمهد أصحاب الجلالة بأن يصدرُوا أوامرهـم اللازمة إلى قواتهم البحرية في البحر المتوسط ويعملونها فوق ما تقدم بأن يقدم قواد أساطيلهم طبقاً للوسائل المتوفرة لديهم كل تأييد ومعاونة في إمكانهم وذلك لرعايا السلطان الذين يعربون عن إخلاصهم :

٤ - إذا رفضت مصر الخضوع لشروط التسوية المذكورة ووجهت قواتها البرية والبحرية إلى الآستانة فإن المتعاقدين يلبون دعوة السلطان إلى سفرائهم في الآستانة فيتذرعون بالوسائل التي يتفقون عليها للدفاع عن عرشه وجعل البوسفور والدرديـل بمنجاة من كل عدوان :

ومن المتفق عليه أن القوات التي تنـدب للقيام بمهمة في مكان معين تظل قائمة بمهمتها إلى أن يستغنى السلطان عنها ، وعندما يرى أن وجودها لم يعد لازماً تنسحب تلك القوات راجعة إلى البحر الأسود أو إلى البحر المتوسط .

٥ - من المعلوم حتماً أن التعاون المذكور في البند السابق والذي يرمى إلى وضع البوسفور والدرديـل والعاصمة التركية تحت رعاية الدول المتعاقدة لمقاومة كل عدوان من مصر لا يعد إلا وسيلة استثنائية بناء على طلب السلطان والغرض منها الدفاع عنه في الحالة الخطرة . والمتفق عليه أن هذه الوسيلة لا تخالف في شيء القاعدة القديمة المتبعة في السلطنة العثمانية وهي التي منعت كل وقت المراكب الحربية للدول الأجنبية من دخول البوسفور والدرديـل ويعلن السلطان من جهته أنه يصمم فيما عدا الحالة المذكورة - كل التصميم على أن يحتفظ كل الاحتفاظ بالقاعدة القديمة المقررة في سلطنته وأنه ما دام الباب العالي في سلام لا يسمح لأى مركب حربي بالمرور في البوسفور والدرديـل ، ويتمهد أصحاب الجلالة المتعاقدون على احترام ذلك .

ملحق المعاهدة :

ينوى السلطان أن يمنح مصر ما يأتي ويبلغه لها :

المادة الأولى : يعد السلطان بأن يمنح (محمد على) وسلالته المباشرة من بعد إدارة باشاوية مصر ، وبعد أن يمنحه مدة حياته باشاوية عكا وقيادة قلعة عكا مع إدارة الجزء الثاني من سوريا الذي يحدد فيما بعد على شرط أن يقبل هذه المنح بعد عشرة أيام من تبليغه إليه في الاسكندرية على يد مندوب من جانب السلطان .

وعليه أن يسلم إلى هذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد البر والبحر لينسحبوا في الحال من بلاد العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيرة كريت ومن الأجزاء الأخرى من أملاك السلطنة الخارجة عن حدود مصر وحدود باشاوية عكا كما عيناها .

٢ - إذا لم يقبل هذه التسوية في مدى عشرة أيام يسحب السلطان إدارة باشاوية عكا على أن يظل راضياً بمنح (محمد على) وسلالته المباشرة حكم مصر بالتوارث بشرط أن يقبل هذه المنحة في مدى عشرة أيام أخرى تالية للعشرة أيام الأولى أى في مدى ٢٠ يوماً تبتدىء من اليوم الأول الذي يتلقى فيه البلاغ وعلى شرط أن يسلم لمندوب السلطان الأوامر اللازمة لقوات بريته وبحريته بأن ينسحبوا حالاً .

٣ - ان الضريبة السنوية التي تدفعها مصر للسلطان تحسب على حساب الأملاك التي تعطى إدارتها لا على حساب المنحة الأولى ولا على حساب المنحة الثانية .

٤ - عدا ما تقدم فليكن مفهوماً أنه سواء أكان في الحالة الأولى أم في الحالة الثانية فإن على (محمد علي) أن يسلم قبل انقضاء العشرة أيام الأولى أو العشرين يوماً الأسطول التركي وعساكره وسلاحه للمنسوب الذي يعين لتسلمه ويشهد قواد أساطيل الحلفاء هذا التسليم .

وليكن مفهوماً أيضاً أن مصر لا تستطيع بحال من الأحوال أن تدخل في الحساب أو تخصم من الضريبة التي تدفعها للسلطان النفقات التي أنفقتها على الأسطول العثماني مدة إقامته في الموانئ المصرية .

٥ - ان جميع المعاهدات والقوانين في السلطنة العثمانية تنفذ في مصر ، وفي باشاوية عكا ، ويزضى السلطان على شرط دفع الضريبة ، أن يجبي إيراداتها من الضرائب والرسوم المقررة شرعاً ومن هذه الضرائب والرسوم تدفع النفقات الملكية والعسكرية في تلك الأملاك .

٦ - القوات التي ينظمها باشا مصر وعكا تعد شطرا من قوات السلطنة العثمانية وتعتبر دائماً كأنها معدة لخدمة الدولة .

٧ - إذا لم يقبل (محمد علي) في مدة عشرة أيام أو عشرين يوماً كما جاء في المادة الثانية المنح المعروضة عليه فإن السلطان يكون حراً في سحبها وفي اتباع الخطة التي توحى بها مصالحه طبقاً للنصائح التي يسديها إليه حلفاؤه .

مصر ترفض قرارات (معاهدة لندن) :

وفي ١٤ من اغسطس عام ١٨٤٠ وصل إلى ميناء الاسكندرية (رفعت بك) مندوب الباب العالي حاملاً المعاهدة وملحقها لإبلاغها إلى الحكومة المصرية . . التي قررت رفض ما جاء بها معلنة أن ما أخذته بالسيف لا تسلمه إلا بالسيف .

وزار قناصل الدول الأربع (بعد أن استبعدت فرنسا) - رئيس الحكومة المصرية وأبلغوه قرار الدول رسمياً واستمهلوه عشرة أيام ، فطلب منهم إبلاغه بإياه كتابة . ففعلوا بعد أن أكلوا له أن فرنسا عاجزة عن مساعدته وأن الدول الأربع مصممة على تنفيذ قراراتها ولو أفضى ذلك إلى قيام حرب أوروبية . .

ثم عاد مندوب السلطان ومعه قناصل الدول يوم ٢٤ أغسطس لاستلام إجابة (محمد علي) النهائية فرد عليهم بالرفض فأبلغوه بأنه لم يبق له حق في ولاية عكا لأنه لم يقبلها في الأيام العشرة الأولى . . وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر كما جاء في المعاهدة آتفة الذكر ثم انصرفوا بعد أن أمهلوه عشرة أيام أخرى .

وقد دعا (محمد علي) - عقب انصرافهم - مندوب السلطان (رفعت بك) واقترح عليه حل الخلاف مباشرة بينه وبين الحكومة العثمانية على أساس إعادة (أطنة) و (كريت) وبلاد العرب إلى السلطان على أن تكون له ولاية مصر وراثية مع حكم سوريا مدة حياته ، وسلمه كتاباً بما تقدم .

الدول الأوروبية ترفض المقترحات المصرية :

وعاد (رفعت بك) إلى الآستانة وسلم السلطان المقترحات التي جملها ، فأبلغها الباب العالي إلى السفراء الأربعة الذين أجمعوا على رفضها وعلى وجوب إقالة (محمد علي) من حكم مصر . . وهكذا أصدر السلطان العثماني مرسوماً بذلك .

وقد أعقب ذلك أن غادر قناصل الدول الأربع الاسكندرية يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠ برفقة مندوب السلطان فكان ذلك إيذاناً بقطع العلاقات السياسية مع مصر وبإعلان الحرب التي كانوا يعدون لها والتي لم تكن مصر مستولة عن قيامها بأية حال^(١) .

وكانت تلك الدول قد شرعت منذ توتر العلاقات مع مصر إلى إرسال الرسل والجواسيس وتوزيع الأسلحة والأموال على الذين استطاعوا استمالهم بالرشوة في بعض المناطق الساحلية من جبل لبنان ، كما وصل إلى ميناء (بيروت) - في التاسع من سبتمبر عام ١٨٤٠ - أي قبل قطع العلاقات بنحو أسبوعين - أسطول بحري للحلفاء يتألف من ٢٠ بارجة بريطانية و ٣ نمساوية و ٣ تركية بقيادة الأميرال (ستراتفورد) - قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط - وقائد قوات الحلفاء البحرية ، كما سلمت إليه حملة عسكرية برية مؤلفة من ٧ آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال السير (تشارلس سميث) - منها ٥٣٠٠ تركي و ١٥٠٠ بريطاني و ١٠٠ نمساوي .

قوات الحلفاء تحتل موانئ الشام :

وقررت قوات الحلفاء أن تبدأ باحتلال ثغر (جونيه) - شمالي (بيروت) - للاتصال بالبنانيين مباشرة وتوزيع الأسلحة على الموالين ، وهكذا وصل الأسطول المشترك إليها يوم ١٠ وقام على الفور بانزال الجنود الذين تقاطروا إلى البر وفي مقدمتهم الأمير (عبد الله حسن شهاب) - حاكم قضاء (كروان) وابن أخى الأمير (بشير) .

وبعد أن أتموا احتلال (جونيه) والمناطق المجاورة أنزل قائد الأسطول قائد (بيروت) المصرى طالباً منه تسليم المدينة ، فلم يجبه . . فأطلقت سفن الحلفاء المدافع على قلاع المدينة وأبراجها مما دعا الحاكم المصرى إلى إرسال كتاب إلى الأمير البريطاني يمتنع فيه بشدة قائلاً: إن عدداً من النساء والأطفال والمرضى والفلاحين الأبرياء قد ذهبوا ضحية هذا العدوان وأنهم إذا كانوا حقيقة يرغبون سلامة الأبرياء فليوجهوا إنذارهم إلى رئيس الحكومة المصرية بشأن تسليم (بيروت) أما هو فإن الأوامر التي لديه توجب عليه الدفاع عنها وأنه لن يسلمها بل سيدافع مع جنوده بكل ما أوتوا من قوة . .

وقد اتجهت سفن الحلفاء إلى (جبيل) - أحد ثغور لبنان الشمالية والتي تقع في منتصف الطريق الساحلى بين (بيروت) و (طرابلس) - فاستولت عليها كما قصفت - ليلة ١٨ - حيفا بالمدفعية فاستسلمت ، وفي يوم ٢٤ هاجمت (صور) وأنزلت بها قوات برية ، كما وصلت إلى (صيدا) ثمانى سفن للحلفاء يوم ١٦ وطلبت التسليم ، وحينما رفض قائدها قصفت القلعة وثكنات الجند والمنازل فخربت الكثير منها ثم أنزلت نحو ألف جندي قاومهم الحامية المصرية مقاومة عنيفة حتى سلمت بعد أن قتل قائدها ومعظم جنودها .

(١) تاريخ مصر السياسى (من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢) - أمين سعيد .

اتفاقية (نايبار - بوغوص)

الاسكندرية ليست أمنع من عكا :

في نوفمبر ١٨٤٠ وصل الكوماندور (نايبار) إلى الاسكندرية على رأس ثمانى بوارج حرية بغرض القيام بمظاهرة بحرية لإرهاب الحكومة المصرية ، وفي ٢٢ من ذات الشهر وجه رسالة إلى مدير ديوان الخارجية (بوغوص يوسف) قال له فيها :

« . . إن الاسكندرية ليست أمنع من عكا ، وإن الفرصة سانحة لمحمد على لينشئ إمارته ويحتفظ بالوراثة في أسرته . »

فردت الحكومة المصرية على هذه الرسالة قائلة :

« . . إن تبعة الحرب في ساحل الشام لا تقع على مصر بل على عاتق الحلفاء الذين قدموا بلاغهم باسم السلطان ، وإن محمد على خاضع للسلطان وهو يسلم بما عرضه عليه ، ولكنه يلتبس من السلطان أن يمنحه حكم سوريا طيلة حياته . . . »

ورأى (نايبار) في لهجة هذا الرد ما ينم عن الرغبة في الصلح والوفاق ففتح باب المفاوضات التي انتهت يوم ٢٧ نوفمبر إلى الاتفاق التالى :

« بين الكوماندور نايبار قائد القوات البحرية الراسية أمام الاسكندرية من جانب وبين بوغوص يوسف وزير خارجية مصر المفوض من جانب آخر تم الاتفاق الآتى : »

المادة الأولى : بما أن الكوماندور نايبار بصفتة المينة أعلاه قد أحاط (محمد على) بأن الدول أشارت على الباب العالى باعادة حكم مصر الوراثى إلى عهده ، وبما أنه يرى ذلك وسيلة لوضع حد للحرب وويلاتها فانه يتعهد بأن يصدر أوامره بالجلء فورا عن سوريا ، ويتعهد أيضاً باعادة الأسطول العثمانى بمجرد أن يصل لإخطار رسمى من الباب العالى بالتنازل عن حكم مصر الوراثى وأن يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من جانب الدول .

المادة الثانية : يضع الكوماندور نايبار تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه تنقل إلى سوريا الضابط الذى يعهد إليه بابلاغ القائد العام للجيش المصرى فى سوريا أمر الجلء ويعين الأميرال (ستراتفورد) قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطاً للملاحظة تنفيذ هذا الأمر .

المادة الثالثة : يتعهد الكوماندور نايبار بناء على ما تقدم بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الاسكندرية وضد كل ناحية من أنحاء الأراضى المصرية ويبيح حرية الملاحة للسفن المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين ترغب الحكومة المصرية فى نقلهم إلى مصر بطريق البحر .

المادة الرابعة : للجيش المصرى الحق فى الانسحاب من سوريا حاملا معه أسلحته ومدافعه وجياده وبالجمله كل مهماته .

وقد اعتبرت الحكومة البريطانية هذا الاتفاق تسوية معقولة وقبلته رسمياً وأصدرت تعليمات إلى سفيرها بالآستانة بالسمي لتنفيذه : . حتى أصدر الباب العالي - بعد بماطلة وتسويق - المرسوم المطلوب لإقرار هذا الاتفاق في ١٣ فبراير عام ١٨٤١ :

القوات المصرية تجلو عن الشام :

في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٠ أصدر (إبراهيم باشا) أوامره إلى الوحدات المصرية العاملة بالشام بالجللاء والعودة إلى مصر ، بعد أن عين (حلب) مركزاً لحشد القوات والأسر المصرية العائدة .

الجيش الذي لم يعرف الهزيمة يبدأ رحلة العودة :

وفي (المزيريب) - شرق بحيرة (طبرية) - استراح الجيش ثلاثة أيام لوضع الخطة التفصيلية للجللاء والتي كانت تقضى بالعودة على النحو التالي :

القسم الأول من الجيش تحت قيادة (سليم باشا) والثاني بقيادة (أحمد باشا الدرملی) والثالث بقيادة (أحمد باشا المونوكلی) والرابع تحت قيادة (سليمان باشا الفرنساوی) يسلكون طريق شرق الأردن وغزة فالعريش . . إلى جانب استخدام طريق الحج وعمان فالعقبة ومنها إلى (نخل) والسويس .

أما القسم الأخير والذي كان تحت قيادة (إبراهيم باشا) - ويتألف من قوات الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق فيعود عن طريق البحر من (غزة) إلى الاسكندرية .

ولقد كانت رحلة العودة شاقة مجهدة الأمر الذي نتج عنه أن هذا الجيش المنتصر أبداً والذي لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة قد فقد خلال هذه الرحلة نحواً من ثلاثين ألف رجل من جراء العطش وقلة الزاد وضربات الشمس بالإضافة إلى هجمات قطاع الطرق واللصوص .

الباب الرابع

الجيش المصرى يحرز الانتصارات فى المكسيك

الفصل الأول

الأورطة المصرية - السودانية تحرز ٤٨ انتصاراً في حرب المكسيك للمؤرخ العسكرى : محمد فيصل عبد المنعم^(١)

جيوش نابليون الثالث في المكسيك :

أراد (نابليون الثالث) أن يحقق التوازن مع نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية - في خمسينيات القرن التاسع عشر ، وذلك بتأسيس حكومة ملكية كاثوليكية في المكسيك ، منتهزاً فرصة إساءة حكومة المكسيك معاملة بعض رعايا فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ، فاتفق مع حكومتى إنجلترا وأسبانيا على استخدام القوة المسلحة لإخضاع المكسيك عام ١٨٦١ .

فرنسا تنفرد بالقتال في المكسيك :

ولم يلبث الخلاف أن دب بين الدول الثلاث ، فسحبت إنجلترا وأسبانيا جنودهما من المكسيك في ابريل ١٨٦٢ وبذلك انفردت فرنسا بالقتال في تلك البلاد^(٢) .

نابليون الثالث يرجو صديقه سعيد باشا مساعدته في القتال :

ولما كان نابليون الثالث صديقاً لخديو مصر في ذلك الحين - سعيد باشا - فقد أرسل إليه يطلب معاونته بآلاى من الجنود المصريين ، فقبل سعيد رجاءه وأرسل إليه أورطة (كتيبة) مؤلفة من ٤٥٣ جندياً بين ضباط وصف ضباط ، وكانت هذه الأورطة مكونة من ٤ بلوكات (سرايا) وتتبع آلاى المشاة التاسع عشر ، وكان جنودها يتألفون من المصريين والسودانيين .

الأورطة المصرية - السودانية تغادر الاسكندرية :

وهكذا وفي ٨ يناير ١٨٦٣ أقلت الباخرة الفرنسية (لاسين La Seine) بالأورطة المصرية - السودانية من الاسكندرية مارة بطولون حتى وصلت (فيراكروز)^(٣) في ٢٣ فبراير بعد سفر ٤٧ يوماً .

وكانت تلك الأورطة بقيادة البكباشى (مقدم) جبر الله محمد ونائبه اليوزباشى (النقيب) محمد الماس .

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « مصر تحت السلاح » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٧١ .

(٢) بطولة الأورطة السودانية - المصرية في حرب المكسيك : عمر طوسون - ١٩٢٣ .

(٣) أكبر موافى المكسيك .

التقارير الفرنسية نصف الانتطباع الأول للأورطة المصرية - السودانية :

وقد جاء في التقارير الفرنسية عن تلك الأورطة :

« أنها كانت ذات ملابس حسنة وسلاح جيد وهيئة أنيقة واستعداد عسكري يثير إعجاب كل من يراه » .

إلا أن أسلحتهم كانت تختلف عن أسلحة الجنود الفرنسيين ، مما دعا القيادة الفرنسية إلى أن توزع عليهم أسلحة فرنسية وأودعت أسلحتهم في المخازن ، ثم أعادتها إليهم عند رجوعهم إلى مصر .

اختلاف اللغة يدعو لاستخدام الجزائريين :

ولما كان التفاهم مع أفراد الإورطة المصرية - السودانية متعذراً في بادئ الأمر لعدم إلمام جنودها باللغة الفرنسية فقد دعا الأمر إلى استخدام بعض الجنود الجزائريين - بواسطة القيادة الفرنسية - للقيام بأعمال الترجمة بينهم وبين الفرنسيين ، وبذلك أمكن معرفة احتياجاتهم والاستفادة من كفاءتهم وخبرتهم .

براعة فائقة في الرماية وصد الغارات :

ولقد أثبتت التقارير الرسمية الفرنسية أن جنود هذه الأورطة قاموا بأعظم الخدمات وأجلها بالنظر إلى شجاعتهم وبراعتهم في ضرب النار ، وبذلك أمكن الاعتماد عليهم في المناطق والمعارك التي لم يكن الجنود الفرنسيون يستطيعون خوضها . كما قامت هذه الأورطة بصد الغارات التي كانت تقوم بها العصابات المكسيكية وتشن الغارات على قوافل المؤونة والذخيرة والمخافر المعادية .

القيادة الفرنسية تنظم الأورطة وفقاً للتنظيم الفرنسي :

وقبل مباشرة الأورطة لأعمال القتال - قامت القيادة الفرنسية بتنظيمها وفقاً للتنظيم الفرنسي - حيث أصدر الجنرال الفرنسي قائد الحملة قراراً بذلك ، كما أصدر قراراً آخر بترقية بعض أفرادها لتكملة النقص في الرتب المطلوبة ، وأرسل بياناً بهذه الترقيات إلى مصر للتصديق عليها - وكانت هذه الترقيات كالآتي :

إلى رتبة الصاغ (الرائد) : اليوزباشي محمد الماس .

إلى رتبة اليوزباشي : الملازم أول حسين أحمد .

إلى رتبة الملازم أول : الملازم ثان فرج عزازي .

الباشجاويش محمد سليمان

الباشجاويش صالح حجازي

إلى رتبة الملازم ثان : البجاويشية فرج الزيني - خليل فني - الفود محمد - محمد علي .

إصدار الأوامر إلى الأورطة بتطهير الأراضي من الثوار :

وما كادت الأورطة تستقر في البلاد حتى صدرت إليها الأوامر من القيادة الفرنسية العليا بتطهير الأراضي المكسيكية من عصابات الثوار التي كانت تعيش في البلاد فساداً . .

الأورطة المصرية - السودانية تحافظ على طرق المواصلات بكفاءة :

فعندما حوصرت مدينة (بويلا)^(١) Powebila - في الفترة من ٢٣ / ٢ إلى ١٧/٥/١٨٦٣ حين سقطت واستسلمت حاميتها المكونة من ٢٦ جنرالاً و ٩٠٠ ضابط و ١٢ ألفاً من الجنود - كان من اللازم الاحتفاظ بطرق المواصلات بينها وبين الساحل - تلك الطرق التي كان المكسيكيون يحاولون بصفة دائمة قطعها - فكانت الأورطة المصرية - السودانية هي التي تكفلت بحراسة هذا الخط في منطقة (الأراضي الحارة) - حتى قال القائد الفرنسي العام في (فيراكروز) إنه يعجز عن التعبير عن مدى امتنانه وشكره لهؤلاء الجنود الذين يستحقون الإطراء والثناء من جميع الوجوه :

ولادة قائد الأورطة :

وفي مايو ١٨٦٣ فجعت الأورطة المصرية - السودانية بوفاة قائدها الشجاع البكباشي جبر الله محمد على أثر إصابته بالحمى الصفراء ، فخلفه نائبه الصباغ محمد الماس بعد أن منح رتبة البكباشي .

القيادة الفرنسية تؤيد القائد وتثنى عليه :

ولقد كان لوفاة هذا القائد العظيم رنة أسمى عند الجميع ، حيث جاء في تأييد القيادة الفرنسية له :
« انه كان على جانب كبير من دماثة الخلق والتحلل بصفات عسكرية نادرة وأنه كان محترماً من الجميع لسلوكه الحسن وقيامه بالواجب على الوجه الأكمل وتقديره الكامل للمسؤوليات الملقاة على عاتقه » .

ولقد بلغ قيمة ما تركه البكباشي جبر الله محمد ٥٦٦٧ فرنكاً أرسلتها السلطات الفرنسية إلى الحكومة المصرية لتسليمها إلى ورثته مع مبلغ ٥٠٠٠ فرنك على سبيل التعويض .

القيادة المصرية تزهو بالأورطة المصرية - السودانية :

وفي ١٨٦٣/٦/٢١ أقيم في (فيراكروز) قداس حضره القائد العام ومثلت فيه جميع السلطات العسكرية والمدنية ، وقد عهد إلى الأورطة المصرية - السودانية مهمة القيام بالتشريفات - وبعد انتهاء الاحتفال قامت بالاستعراض في أكبر ميادين المدينة كما أقيمت لها الاحتفالات الباهرة في كافة المدن الأخرى وعندما وقف القائد العام (المارشال فوريه Forieh) على ما قامت به هذه الأورطة في معارك عديدة كافأها على ذلك ، فأمر - في ١٨٦٣/٩/٢٨ بأن تؤلف منهم (كتيبة الجنود المتأززة) - كما أمر بمنح كل فرد من أفرادها علاوة نقدية قدرها ٦٥ سنتياً يومياً^(٢) وأن يميزوا بشارات صفراء توضع على أذرعهم الأمر الذي أحدث أثراً عظيماً في نفوس جنودها وضباطها ، ودل على عظيم تقدير القيادة الفرنسية لهذه الأورطة وتقديرها لجدارة جنودها واستحقاقهم .

الجنود المصريون والسودانيون لا يبألون بالنار المنصبة عليهم :

ولقد كتب قائد (فيراكروز) في تقريره الرسمي الذي أرسله إلى القائد العام عن معركة ١٨٦٣/١٠/٢٠ :

(١) وهي ثاني مدن المكسيك من حيث الأهمية .

(٢) حوال ٢٥ ملياً مصرياً في ذلك الوقت .

لقد كمل هذا القتال رؤوس السودانيين والمصريين الذين قاموا بأعبائه بأسمى أكاليل الفخر ، فإنهم لم يبالوا بالنيران المنصبة على رؤوسهم من الأعداد الضخمة من أفراد العدو ، والتي تبلغ تسعة أضعاف عددهم - فردوهم على أعقابهم مدحورين .

التقرير الرسمي لقائد معركة ١٨٦٣/١٠/٢ :

ويصف القائد العام الفرنسي في (فيراكروز) - في تقريره الرسمي إلى الحكومة الفرنسية عن معركة ١٠/٢ ما قام به جنود وضباط الأورطة المصرية - السودانية من أعمال تدل على البسالة والشجاعة بقوله (١) :

وفي ٢ أكتوبر ١٨٦٣ ، وفي الساعة السابعة صباحاً بارح القطار الغادى محطة (فيراكروز) ميمما (السونيداد Solidad) وكان يقوم بحراسة هذا القطار ١٤ جندياً منهم ٧ من السرية الأولى من بحارة جزر (الأنتيل les Antilles) والسبعة الآخرون من الأورطة المصرية - السودانية (٢) وكان القطار مؤلفاً من عربات للمسافرين وأخرى للبضاعة ، أما عدد المسافرين من الأهالي فكان ٤٠ ، وكان من بينهم مسيو (ليجه) رئيس أورطة من آلاي الأجانب ومسيو (شرر) ملازم من بلوك المهندسين ومسيو (ليونز) مدير السكك الحديدية وغيرهم كثير من النساء والأطفال ، وكان القطار متجهاً إلى (تيزاريا) بسرعة ١٦ كم في الساعة ووصل إلى موضع يقال له (لوما دولا ريفيسا) حيث الطريق عرضه ٤ أمتار تقريباً بين سفوح الجبال المطلة من الجانبين والمليئة بالأحراش والغابات الكثيفة وكان فيها منحى وعمر - وعندئذ لمح سائق القطار بعض القضايا منزوعة من أماكنها - وفي الحال حول قوة البخار محاولاً الرجوع للخلف غير أن القطار استمر هنيئة سائراً في طريقه مندفعاً بقوة سيره فسقطت عندئذ العربات الأمامية ، ولم يستطع أحد أن يمنع حدوث الكارثة وفي هذه اللحظات دوى إطلاق النار بشدة من جانبي الطريق وكان اتجاه الطلقات من أعلى إلى أسفل ولم يكن في الإمكان رؤية المهاجمين فجرح سائق القاطرة وشخص من المسافرين ، وعلى أثر ذلك أسرع بالرجوع إلى العربات كل من كان نزل منها واتخذ القائد (ليجه) خطة الدفاع ونزل ليفحص الموقع وينظر فيما إذا كان في الإمكان الهجوم على العدو من الجنب .

وهنا أظهر الجنود المصريون رباطة جأش جديدة بالثناء والإعجاب :

وفي غضون هذا الاضطراب الشامل وبلبلة الأفكار الناشئة عن خروج القطار عن طريقه من ولولة النساء وصياح الأطفال وحيرة كافة المسافرين ما كان يساور رؤوس السبعة المصريين غير فكرة واحدة ألا وهي القيام بواجب وظيفتهم وأن يستعدوا لإطلاق النيران على الأعداء إذا لاحت أشباحهم وبانت وكانوا ينتظرون وهم متخذون من جوانب العربات واقياً لهم وقاموا بالاشتباك مع العدو في رباطة جأش جديدة بالثناء العظيم والإعجاب المتناهي ، وعندما وقع نظر رجال الحرس على القائد (ليجه) وهو نازل من العربة تتبعوه ليقوموا بتنفيذ أوامره . ورغم شدة إطلاق النيران أمكن استكشاف مواقع العدو بلا عائق لأن هذه النيران مع شدتها لم تكن قاتلة وما ذلك إلا لأن المكسيكيين كانوا مضطرين للاختباء للوقاية من نيران المصريين . . ولما تحقق القائد أنه ليس في الاستطاعة الهجوم

(١) للمؤلفين الفرنسيين ساكري وأوترينيون في كتاب (مصر واسماعيل باشا) .

(٢) وهم قائد الفصيلة الجندي الأول (بنجيت بدرم) والجندي الثاني (بلال حماد) والجنود (أتوم سودان) ، دابراهيم عبد الرحمن (و) محمد عبد الله (و) عمرو محمد (و) محمد علي .

على العدو من الجنب أراد أن يهاجمه مواجهة فقفز بالأربعة عشر جندياً إلى المرتفعات ولكنها كانت مغطاة بالأشجار الكثيفة فاستطاعوا تسلقها واضطروا إلى الارتداد وانحدوا من العربات مرة أخرى واقيا لهم وفي أثناء ذلك أصيب القائد (ليجييه) بجرح مميت كما جرح جنديان من البجاعة فبث هذا العمل الحماس في نفوس المهاجمين فضاغفوا الطلقات وصار لا مناص من التقهقر ، وفي اللحظة التي كان يصعد فيها القائد (ليجييه) إلى العربة بمساعدة (بلال حماد) أصيب هذا الجندي بطلق ناري فخر صريعاً وقضى نحبه. وعندئذ تطوع الجندي (نجيت بلرم) و (أنوم سودان) وحملوا القائد (ليجييه) ووضعاه في عربة السكة الحديدية ثم رجعا إلى (بلال حماد) وكانت تحميها في تلك الفترة نيران من بنى من الحرس المنتشرين خلف العربات . ومنذ هذه الساعة تسلم الملازم (شرر) القيادة العامة ورتب رجاله بطريقة تفسد كل محاولة هجوم يقوم بها المكسيكيون لأخذهم عنوة ، ثم أرسل أحد رجال السكة الحديد إلى (تيجريا) وإلى (فيراكروز) ليخبروا الرئاسة بموقفه وبطلب إرسال نجدات - وكانت (تيجريا) في ذلك الوقت تحتلها فصيلة من المصريين والسودانيين مؤلفة من ضابط واحد و ٤٥ جندياً أمرة الملازم ثان (رازود) من الآلاى الأجنبي ، وكان هذا الضابط قد أخبره جواسيسه منذ الصباح الباكر بأن عدداً كبيراً من المكسيكيين يتألف من ٢٥٠ - ٣٠٠ رجل يضربون في جوانب القفار ، وعلى ذلك أخذ عدته وتأهب لمقابلة الطوارئ ، فأكاد يبلغه هذا النبأ ، حتى قام مسرعاً وولى وجهه شطر (اللوما دولار يفتا) سالكاً أقصر الطرق ، استمرت رحى الحرب دائرة في غضون هذه الفترة ، وكان رجال حرس القطار يصوبون باحكام بنادقهم على المكسيكيين ، لأبد أن نيرانهم ألحقت بهم أضراراً بالغة ، ويستدل على ذلك من أنهم أرادوا مرارا التخلص من المعركة والحرب من الجبال إلى أسفل لمقابلة رجال الحرس بالقتال المتلاحم ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح ، وقد قام الجندي السوداني (أنوم سودان) بقتل رجلين منهم كانا قد وصلا إلى مكان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار .

قوات العدو تنسحب من المعركة :

وهنا بدأ إطلاق النار من جانب المكسيكيين ببطء إلى أن انقطع تماماً ومع ذلك لم يشأ مسيو (شرر) أن يخرج عن دائرة خطة الدفاع خوفاً من أن يكون انقطاع النيران خدعة مدبرة ، وظل وقتاً ما متربصاً بالعدو ، ثم أرسل رجلين للاستطلاع فعادا وأخبراه بأن المكسيكيين تركوا مواقعهم وعندئذ تسنى لحراس القطار أن يستربحوا وينتفخوا الصعداء ويحصوا خسائرهم من الجرحى والمصابين حيث أدركت المنية القائد (ليجييه) و (بلال حماد) وسائحا مكسيكياً ، وقد جرح مسيو (ليونز) مدير مصلحة السكة الحديد والقس (سافللى) كما جرح الملازم (شرر) و (بوتنابل) و ٩ جنود آخرين بجروح أخف من الباقين .

وأبلى المصريون بلاء حسناً :

ولقد أبلى المصريون بلاء حسناً في هذه الموقعة - رغم عددهم البسيط - وأظهروا من رباطة الجأش ما ينذر وقوعه ، وكانوا جميعهم موضع إعجاب الضباط والجنود الذين كانوا يقاتلون إلى جانبهم ، ولم يكن هنالك أدنى شك في أن النجاح الذى أحرزناه^(١) كان يرجع في معظمه إلى ثباتهم وشدة مقاومتهم - تلك المقاومة الجديرة بالمدح والثناء المستطاب ، خصوصاً أنه اتضح من المعلومات التي وردت بعد ذلك أن عدد المكسيكيين كان زهاء ٣٠٠ بين مترجل وفارس .

(١) ما زال الحديث للقائد الفرنسى العام في (فيراكروز) .

وعقب هذه المعركة ترقى (نجيت بلرم) العسكرية الأول إلى رتبة الأمباشى و (أتوم سودان) و (إبراهيم عبد الرحمن) و (محمد عبد الله) و (عمر محمد) إلى رتبة عسكرية أول ، وفوق ذلك قدم طلب بمنح (نجيت بلرم) و (أتوم سودان) الوسام العسكري ، وقد منحا فعلا هذين الوسامين في أول مارس عام ١٨٦٤ .

رئيس القواد

ه : مارشال

نظر : جنرال اللواء والقومندان السامى في (أوريزابا)

الإمضاء

دوموسيون

تحريراً في (فيراكروز) ١٨٦٤/٣/٢٤

لم أر في حياتى جرأة مثل هؤلاء الجنود :

أما في معركة ١٢ يوليو ١٨٦٤ فقد كتب القائد الفرنسى العام في تقريره إلى وزارة الحرب الفرنسية - عقب القتال العنيف الذى دارت رحاه في ذلك اليوم يقول :

« إن هؤلاء الجنود السودانيين والمصريين الذين لا تسمح نفوسهم بالهزيمة يستحقون كل ثناء . . . وإنى لم أر في حياتى مطلقاً قتالا نشب في سكون عميق وحماسة نادرة فقد كانت أعينهم وحدها هى التى تتكلم ، وكانت جرأتهم تذهل العقول وتحير الألباب ، حتى لكأنهم ما كانوا جنوداً بل أسوداً . »

معركة ١٤ يولية :

أما في معركة ١٤ يولية ١٨٦٤ ، وأثناء مطاردة فلول العدو ، يقول القائد العام الفرنسى في تقريره الرسمى :

« لقد قاتل السودانيون والمصريون قتالا باهرا دام ساعة واحدة ، وليس بين الجنود القدماء من لا يذكر هذا القتال بالإكبار والإعجاب . »

ولقد قام القائد الفرنسى العام بمنح الأمباشى عبد الله حسين باشة وساماً عسكرياً للبرسالة التى أبدأها في تلك المعركة والجرح العميق الذى أصيب به وعدد القتلى الذين أجهز عليهم ، ولطعنه بالسونكى جندياً مكسيكياً ، فلما تشبث به رفعه في الهواء وذرعه غير مثنية وكان عدد هؤلاء الأعداء ستة أمثال عدد جنود الأورطة المصرية - السودانية . .

قائد الأورطة يرفع تقريراً بالمعارك إلى القاهرة :

وقد كتب قائد الأورطة إلى الخديو إسماعيل بالقاهرة - تقريراً بالمعارك العديدة التى خاضت الأورطة غمارها فأرسل إليه الأخير كتاباً (في ١٨٦٤/١٠/٢٤) أظهر فيه رضاه التام عن شجاعتها فيما يلى نصه :

إلى محمد الماس أفندى وكيل الأورطة السودانية - المصرية بالمكسيك « قد عرضت على مسامعنا عريضتكم المحتوية على الأخبار التى حصلت منكم ومن ضباط الأورطة السودانية - المصرية من الثبات والإقدام في الحرب أمام من قابلكم وما أبدىتموه من الشجاعة والمهارة ، وما توجه به الالتفات إليكم من الدولة الفرنسية ولقد ارتحنا غاية

الارتياح لما ظهر منكم ، حيث حافظتم على الشرف الذى حصلتم عليه من الحكومة المصرية واستوجبتم أنتم ومن معكم من الضباط جميع الثناء والحمد على ما بدا منكم ، وأقصى آمالنا حصول ازدياد نشاطكم واجتهادكم مع امتثالكم وانقيادكم للأوامر والتنبيهات التى تصدر من جناب الجنرال قائد الجيش الفرنسى حيث أن حصول سرورنا إنما يكون بحصول سرور الجنرال المشار إليه وسرور الدولة الفرنسية منكم ومن كل أفعالكم وحركاتكم ، فان المودة الأكيدة التى بين الحكومة المصرية والدولة المشار إليها تستوجب حسن المعاملة والمعاونة الصادقة . . وبما أنكم مبعوثون من طرف الحكومة المصرية فيلزمكم بذل كل ما فى وسعكم واقتداركم للحصول على رضاهم ومزيد ارتياحهم . . وإن شاء الله تعالى عند ختام مأمورييتكم وعودتكم إلى مصر يكون لدينا لخدماتكم المشكورة حسن الوقع والقبول . ومن سلك مسالك الصدق والاجتهاد يسره بلوغ هذا المأمول . . وقد صدرت أوامرنا على عرائض الضباط الذين ترقوا بدلا من الناقصين ، وها هى مرسلة إليكم لتسلموا كل عريضة إلى صاحبها مع تبليغهم جميعاً شكرنا لحسن صدقهم ، وهذا لزم لإصداره .

قائد الأراضى الحارة : من الصعب العثور على كلام يعبر عن شجاعته :

ولقد حدثت خلال أيام ٢١ - ٢٣ - ٢٤ من يناير عام ١٨٦٥ ثلاث معارك كبيرة اشتركت فيها الأورطة المصرية - السودانية ببساتنها المعهودة .

وفيما يلى ما ذكره القائد العام للأراضى الحارة فى تقريره الرسمى عنها :

« من الصعب العثور على كلمات يمكن التعبير بها عن بأس هذه الأورطة البارعة وبساتنها وصبرها على الحرمان واحتمال المشاق وحميتها فى إطلاق النيران وجلدها فى السير فلقد قام كل جندى بواجبه فى هذه المعارك الثلاث بواجبه خير قيام » .

من تقرير القائد المصرى :

أما القائد المصرى للأورطة فيذكر أنه يود لفت النظر إلى ثلاثة من الجنود أصيبوا إصابات شديدة ويستحقون الثناء ، علاوة على ما أبلاه الملازم (فرج الزينى) من البلاء الحسن وكان يقود المؤخرة (فأعاد إلى الذاكرة ما لم تنسه من حماسه وبساتنه فى المعارك السابقة) :

كما يضيف القائد المصرى :

« ولقد أصيب الملازم أول (محمد سليمان) بست طلقات نارية فبرهن بذلك على إقدامه ، وهذا الضابط كان قد أنعم عليه بوسام فى ١٢/٢٠ ، وقد أظهر الآن مقدار جدارته واستحقاقه لهذا الإنعام وإنى أتمس منه رتبة اليوزباشى » .

الخديو ينعم بوسام على القائد الفرنسى :

ولقد أنعم الخديو إسماعيل بالوسام المجيدى (من الدرجة الرابعة) على الماجور مارشال القائد الفرنسى ، وذلك مكافأة له على عنايته بشئون الأورطة المصرية - السودانية (قبل أن يعلم بوفاة) . .

معركة مارس ١٨٦٥ الطاحنة^(١) :

وفي ٢ مارس ١٨٦٥ دارت رحى معركة طاحنة أبلى فيها الجنود المصريون والسودانيون بلاء حسناً مما حدا بالقيادة الفرنسية إلى الإنعام بأوسمة عسكرية مختلفة على كل من : (الأمباشي مرجان كوكو) والجنود (على إدريس وأنجلو سودان وكوكو سودان) .

قائد (الأراضي الحارة) : يا لهم من رجال أبطال يقدسون الواجب :

وكان جنود الأورطة يحتلون منطقة متسعة من الأرض (١٦٠ كم مربعا) - في سبعة مواقع بعضها ليس به أكثر من ٣٠ جندياً ، مع ذلك فقد استطاعت أن تبعث الخوف والذعر في قلوب أعدائها ، ويصف قائد الأراضي الحارة هذه الأعمال بقوله :

« يا لها من بقعة ويا لهم من رجال أبطال تملك حب القيام بالواجب أفندتهم فهم لا ينفكون عن القيام به حتى أنه لم يحدث مطلقاً أن يوغت يوماً جندي منهم في نوبة حراسته أو وجد غائباً عن مكانه . . وهم من تلقاء أنفسهم يضاعفون الحرس ليلاً إلى ثلاثة أمثاله بدون أوامر ليأمنوا أية مباغته » .

صورة من بطولة الأورطة المصرية السودانية :

في أغسطس ١٨٦٥ أرسل الملازم صالح حجازي على رأس ٢٠ جندياً من (فيراكروز) لتعزيز أحد المواقع ، وبينما هو وجنوده سائرون انقض عليهم ٢٠٠ مكسيكي - فلم تجزع هذه القوة الصغيرة وأصلت العدو نارا حامية أوقعته في حيرة وارتباك ثم انتهزت فرصة ارتباك العدو والتجأت إلى إحدى المغارات ، ولكن سرعان ما طوقها العدو من كل اتجاه وأخذ في مهاجمتها ، إلا أنها صدتهم وحالت دون دنوهم منها إلى أن أرسلت إليهم النجدة وفك الحصار عن القوة الصغيرة الباسلة .

الأورطة المصرية السودانية تعاقب الأعداء :

وفي أكتوبر من عام ١٨٦٥ أرسلت سرية (بلوك) لعقاب فرقة من الأعداء يربو عددها على ثلاثة أضعافها ، كانت قد أخرجت قطاراً عن الطريق وذبحت المسافرين به ومن معهم من النساء والأطفال ، فزقتها السرية وولت القوة المعادية الأدبار بعد أن منيت بخسائر فادحة - وقد نوه قائد (الأراضي الحارة) بأسماء كل من الملازم ثان عبد الرحمن موسى ، والأمباشي محمد سليمان والجندي علي سليمان لما أبدوه من البسالة والجرأة ، كما نالوا على أثر ذلك أوسمة عسكرية :

القيادة الفرنسية تنشئ فرقة راكبة لحراسة خطوط السكك الحديدية من الأورطة المصرية السودانية :

وقد قررت القيادة الفرنسية - على أثر ذلك - إنشاء كوكبة راكبة مؤلفة من ٥٠ فارساً من جنود الأورطة المصرية - السودانية للقيام بالاستكشاف وحراسة خطوط السكك الحديدية بوجه خاص على أن تعامل معاملة المساعدين من حيث المرتب فيستولى أفرادها على مكافأة إضافية من بلدية (فيراكروز) نظير معاونتهم لشرطة المدينة .

(١) قتل القائد الفرنسي العام خلال هذه المعركة .

ولقد ظهرت بعد زمن يسير أصالة هذه الفكرة والفائدة التي أمكن تحقيقها بها ، حيث كان السوداني والمصري بطبيعتهما – يجبان الفروسية والإقدام ، فأبديا حماسة وجدية وأظهرا كل المؤهلات التي جعلت منهما مثلاً حسناً للجنود والفرسان .

الأورطة المصرية السودانية تقوم بحراسة إمبراطورة المكسيك :

وفي غضون شهر ديسمبر ١٨٦٥ أبلغ قائد (فيراكروز) أن إمبراطورة المكسيك ستمر بالمدينة أثناء ذهابها إلى إحدى ولايات المكسيك (ولاية اليقطان) فاتخذ الاحتياطات اللازمة لاستقبال النظام وتأدية المراسم الرسمية لدى وصولها إلى (الأراضي الحارة) .

وفي صبيحة ١٤ ديسمبر من العام المذكور سافر حرس مؤلف من ٣٠ جندياً من الأورطة بالقطار المخصص الذي ركبته الحاكم والأعيان الذين وفدوا لمقابلة جلالته .

المدفعية المصرية السودانية تحيي الإمبراطورة :

ولما وصلت الإمبراطورة إلى (فيراكروز) أطلق رجال مدفعية الأورطة بقيادة أحد ضباطها ١٠١ طلقة مدفع إكراماً لجلالته ، وتألف من الحامية المؤلفة من جنود الأورطة ، وجنود آخرين ، صفان من المحطة إلى القصر وأقيم حرس شرف من ٥٠ جندياً من جنود الأورطة في القصر بقيادة يوزباشي وملازم .

الإمبراطورة تعلن إعجابها بجنود الأورطة :

ولما كانت الإمبراطورة قد عازمت على مبارحة (فيراكروز) في صباح اليوم التالي فقد سافرت قبلها كوكبة من الفرسان المصريين والسودانيين لاستكشاف وتأمين الطريق ، وعندما عادت إلى مكسيكو أعربت للإمبراطور (مكسميليان) عن رضاها التام وارتياحها لشجاعة الجنود المصريين والسودانيين ومؤهلاتهم العسكرية التي حازت إعجاب جميع رجال البلاط .

الإمبراطور (مكسميليان) يمنح جنود الأورطة راتباً إضافياً :

وهنا أعلن الإمبراطور إعجابه بجنود الأورطة المصرية السودانية – كما أصدر قراراً يقضى بمنح كل جندي من جنود الأورطة يومياً علاوة على راتبه الأصلي قدرها ٣٣,٥ سنتيم كما أنعم على الضباط ببعض الأوسمة المكسيكية .

معركة ٢٥ يولية ١٨٦٦ مفخرة للأورطة المصرية – السودانية :

ففي ليلة ٢٥ يولية ١٨٦٦ هاجمت فرقة مؤلفة من ٢٠٠ مكسيكي نقطة يحتلها ٢٦ جندياً من جنود الأورطة المصرية – السودانية ، ورغم أن الهجوم كان مفاجئاً ورغم قلة عددهم بالمقارنة بفضخامة أعداد العدو المهاجم ، فقد قامت معركة ضارية استمرت حتى الساعة الخامسة والنصف صباحاً حيث انسحب العدو تاركاً في المكان تسعة من القتلى وعدداً كبيراً من الجرحى .

ويعلق قائد (الأراضي الحارة) على هذه المعركة بقوله :

« لقد استحققت هذه الأورطة السودانية - المصرية جزيل المدح والثناء لسلوكها العجيب »

وفي ١٥ أغسطس ١٨٦٦ أقيم استعراض بمناسبة عيد الإمبراطور نابليون الثالث فانهزت هذه الفرصة للاحتفال بتسليم جنود الأورطة السودانية - المصرية - الأوسمة الفرنسية التي اكتسبتها ببطولتها في معارك هذه الحرب .

قرار جلاء الجيوش الفرنسية عن المكسيك :

وبمحلول عام ١٨٦٧ كان قد تقرر جلاء الجيوش الفرنسية بالمكسيك فأخذت الأورطة في الانسحاب اعتباراً من ١٨٦٧/١/١٣ وتم جلاؤها في ٣/١٢ من نفس العام .

الأورطة المصرية السودانية خاضت ٤٨ معركة حربية كبرى :

لقد تم للأورطة المصرية - السودانية خلال الفترة التي قضتها في المكسيك (من ٢٣ فبراير ١٨٦٣ إلى ١٨٦٧/٣/١٢) أي أربع سنوات وسبعة عشر يوماً خوض ٤٨ معركة حربية كبرى ولم تهزم في أي معركة على الإطلاق رغم أنها في جميع المعارك قابلت أعداداً مضاعفة لعدد أفرادها .

أما المدح والثناء الذي وجه إليها من قبل القيادة والحكومة الفرنسية عقب كل معركة فهي كثيرة جداً ويصعب حصرها ، ولقد أوردت (بعض) ما تم على سبيل المثال فحسب - مما يشرف الجندي المصري والسوداني إلى أقصى درجات التشريف .

الإمبراطور نابليون الثالث يستقبل الأورطة بعد عودتها من المكسيك :

ولقد أبحرت الأورطة من (فيراكروز) في ١٢-٣-١٨٦٧ حيث وصلت (باريس) في نهاية أبريل ١٨٦٧ - وكانت في مدة إقامتها في باريس تحت قيادة الماريشال قائد الحرس الإمبراطوري الذي قدمها بنفسه إلى الإمبراطور نابليون الثالث ، وعندما استعرضها جلالاته في ١٨٦٧/٥/٢ - في الثالثة بعد الظهر - كان يرافقه جاهين باشا وزير الحرية المصري ، وكان يزين صلبور عدد كبير من ضباطها وجنودها وسام (لأكرو دي لاليجيون دونير) أو وسام الحرب (وكان هندامهم أنيقاً جميلاً لا عيب فيه) على حد تعبير الإمبراطور ..

الإمبراطور يهنئ قائد الأورطة ببسالته رجاله :

وقبل انصرفهم هنا الإمبراطور قائد الأورطة (البكباشي الماس) بمقدرة جنوده وعلو هممهم ووزع بيده المكافآت على الجرحى .. أما البكباشي الماس الذي كان قد أنعم عليه برتبة (شيفالييه دي لاليجيون دونير) منذ ١٨٦٥/٤/٢٠ فقد منحه في هذا اليوم وسام (لأكرو دوفيسييه) .

ثم غادرت الأورطة فرنسا ووصلت إلى مصر وعددها ٣١٣ بعد أن كانت ٤٥٣ يوم مغادرتها للأراضي المصرية ، وبذلك تكون قد خسرت ١٤٠ شهيداً .

وفي يوم ٢٨ مايو ١٨٦٧ استعرضها الخديو إسماعيل في فناء قصر رأس التين بالاسكندرية وفي مساء نفس اليوم أقام لها (لطيف باشا) وزير البحرية حفلة خاصة رأسها (شريف باشا) جمعت ضباط الأورطة والضباط الفرنسيين المقيمين بالاسكندرية وحضرها قنصل فرنسا العام وموظفو القنصلية وقائد الأسطول الفرنسي وكثير من عظام الضباط المصريين .

السلطات المصرية تصدر تصديقات بترقية ضباط وجنود الأورطة تقديراً لبسالهم :

وفي ٢٩-٥-١٨٦٧ أرسل الخديو إسماعيل إلى وزير الحرية أمراً بنفس التاريخ متضمناً الترقيات التي أنعم بها على الضباط والصف والجنود (بمناسبة الخدمات الجليلة القيمة التي قاموا بأعبائها في المكسيك - تلك الخدمات التي ترفع مجد مصر وشرف جيشها) .

وتقضى هذه الترقيات بترقية الضباط والصف إلى الرتب الأعلى حيث تم ترقية البكباشي محمد الماس قائد الأورطة إلى رتبة الأميرالاي واليوزباشي حسين أحمد إلى رتبة البكباشي والملازم أول فرج عزازي إلى رتبة صاغ قول أغاسي (صاغ) والملازم ثان فضل الله حبيب إلى رتبة اليوزباشي والباشجاويش عبد الله سودان إلى رتبة الملازم أول والجاويش حديد فرحات وحسن أحمد ومرجان سليمان ومسعود طاووس إلى رتبة الملازم ثان .

أما اليوزباشي محمد سليمان (الذي بقى بفرنسا) فقد ترقى إلى رتبة البكباشي ، كما تمت ترقية الملازم أول خليل فني إلى رتبة (صاغ قول أغاسي) والملازم ثان القود محمد إلى رتبة اليوزباشي والباشجاويش بنحيت بترائي إلى رتبة الملازم أول والجاويش فرج أحمد هاشم وفرج بدوي والحاج عبد الله حسين وبشير محمد قبطان إلى رتبة الملازم ثان كما رقى الملازم أول فرج محمد الزيني إلى رتبة صاغ قول أغاسي والملازم ثان محمد علي إلى رتبة اليوزباشي والباشجاويش عبده راضي سودان إلى رتبة الملازم أول والجاويش مرجان محمد الجمال وسليمان علي الحضري وبنييت أحمد مرجان شريف وسرور بهجت إلى رتبة الملازم ثان والملازم أول صالح حمجازي إلى رتبة الصاغ قول أغاسي والملازم ثان عبد الرحمن موسى إلى رتبة اليوزباشي والباشجاويش عبد الله سالم إلى رتبة الملازم أول والجاويش مرجان سليمان شريف ومرجان علي الدناصوري وأبو بكر الحاج محمد وسليم سيد أحمد والبلوك أمين مبروك عبد الله إلى رتبة الملازم ثان^(١) .

وفيما يلي نموذج لبراءة الترقية الذي أصدره الخديو إسماعيل بترقية قائد الأورطة :

« افتخار الأكابر المكارم محمد الماس بك الذي كان بكباشي الأورطة المصرية - السودانية التي كانت بمكسيكا ورقى إلى رتبة أميرالاي زيد علوة :

بما أنه من عادتنا المألوفة وسجيتنا المعروفة مكافأة ذوى الاجتهاد وأرباب الصداقة والرشاد وتبليغهم المراد ، وقد سرفى ما بدا في جهات مكسيكا من الفرقة المصرية التي قتت بحسن إدارتها ، وما شهدت به لها الألسن في ميادين القتال من براعتها في فنون الحرب ومهارتها في إعلاء شأن الراية العسكرية وإعلاننا لشرف العساكر المصرية مع غربة الأوطان وتباعد المكان ، وسرفى أيضاً ما ثبت لها من الأخلاق البهية والسيرة المرضية والاستقامة الكلية ، كما سرفى الآن عودة هذه الترقية للديار رافعة أعلام الفخر والمسرة والاستبشار فشرفتك برتبة أميرالاي تكريماً لشأنك وإعلاء لقدرك بين إخوانك وخلانك وتحسيناً لخدمتك التي أديتها ومكافأة لك لحسن همتك التي أبديتها وإعلاماً بمزيد التفاني إليك وترادف حسن إنتظاري عليك ، فاعرف لهذه النعمة حق قدرها ودم على ما عهد فيك من الصداقة والاستقامة قياماً بشكرها واجتهد فيما يزداد به حسن حالك ومآلك وترقيك في بلوغ آمالك إلى غاية كمالك » .

(١) وفي ١٨٦٧/٩/٢ وصل إلى الإسكندرية الجنديان (ادريس محمد ورزق الله أحمد) اللذان كانا أسيرين لدى المصابات المكسيكية وأطلق سراحهما ، وقد تمت ترقيتهما إلى رتبة الجاويش - كما عاد في ١٨٦٧/٦/٢٥ - (من فرنسا) الجندي، نسيم سليمان الذي كان يعالج بمستشفى باريس .

الباب الخامس

معارك الثورة العرابية

المؤرخ العسكري : محمد فيصل عبد المنعم^(١)

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » دار التعاون - القاهرة ١٩٨٤ .

الفصل الأول

أحمد عرابي في دائرة الضوء

تمهيد سياسي لأبد منه :

قبل أن تتناول أحداث الحرب العرابية بالتحليل والتعليق . نرى لزاما علينا أن نبدأ بهذه المقدمة التي لأبد منها .
لنلقى ضوءاً مركزاً على الأحداث السياسية التي سبقت اندلاع الحرب بين العرايين وبين الجيوش البريطانية والتي انفجرت شرارتها صبيحة يوم الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٨٨٢ .

فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ ، تقلد « محمد توفيق » منصب الخديوية فى فترة مظلمة من تاريخ مصر ، بعد أن أقصى أباه اسماعيل عن الحكم بسبب فتحه باب التدخل الأجنبى لبريطانيا وفرنسا فى الشئون المصرية على مصراعيه . .
وبذلك هيا للانجليز الإعداد لحطيم الميمنة من قبل لاحتلال البلاد .

ولما كان الخديو (توفيق) رجلا مستبدأ ضعيف الشخصية فقد كان أول الأعمال التي قام بها عقب توليه السلطة أن انتزع رئاسة الوزارة لنفسه بعد أن دفع « شريف باشا » إلى الاستقالة ثم أعقب ذلك بإصدار مرسوم فى ٤-٩-١٨٧٩ بإعادة الرقابة الثنائية وتعيين اللورد « كرومر » مفتشا للإيرادات ، والمسيو « دى بليتيير » رقبيا على الحسابات والدين العمومى .

ولم يترك الخديو رئاسة الوزارة إلا بعد أن أسندها إلى الرجل الذى يطمئن إليه وهو « مصطفى رياض » .
وذلك فى ٢١/٩/١٨٧٩ الذى زاد بدوره من سلطة الرقبين وهيا لهما مناخ التدخل فى كافة شئون مصر الداخلية .

بداية ظهور الحركة العرابية :

وهكذا مهدت الأحداث والمظالم لظهور الحركة العرابية ، وذلك بالإضافة إلى ما انتهجته وزارة « رياض » من ممارسة التفرقة فى المعاملة بين الضباط المصريين والأتراك والشراكسة وتفضيلهم ومحابة « عثمان باشا رفقى » - وزير الحرية آنذاك - لهم وتقليدهم أعلى المناصب وغير ذلك من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وانعدام العدل والقانون ، إلى جانب الاستخفاف بحقوق الشعب .

وقف عابدين :

لقد بلغت الثورة الشعبية والتي عبر عنها أحمد عرابى بمطالب الشعب والجيوش فى وقفة عابدين الشهيرة ، والتي سيأتى ذكرها تفصيلا فى غير هذا المكان - بلغت الثورة الشعبية أوجها ، الأمر الذى نتج عنه سقوط وزارة « رياض باشا » وتأليف تلك الوزارة التي بادرت إلى وضع اللائحة الأساسية أو (الدستور) المصرى .

وهل يرضى ذلك دول الاستعمار ؟ :

وهنا بدأت الدولتان في التحرك ، حين توجه السير (أدوارد ماليت) - معتمد بريطانيا - والمسيو سنكفكس - المعتمد الفرنسي إلى سراى عابدين ليقدموا سوياً مذكرة مشتركة من دولتيهما إلى شريف باشا ، مؤرخة بتاريخ ٧ يناير ١٨٨٢ وجاء فيها :

« كلفتم غير مرة أن تنهوا إلى علم الخديو وحكومته إرادة فرنسا وإنجلترا وعملهما على تأييده للتغلب على الصعوبات المختلفة التي قد تعترض انتظام الشئون العامة في مصر . »

إن الحكومتين على تمام الاتفاق في هذا الصدد وإن الحوادث الأخيرة ، وبخاصة الأمر الصادر عن الخديو بإجتماع مجلس النواب ، قد هيأت الفرصة لزيادة تلك الصعوبات .

فالمرجو أن تبلغوا الخديوى توفيق باشا بالاشتراك مع السير « أدوارد ماليت » الذى كلف بمثل ما كلفتم به ، بأن الحكومتين الفرنسية والبريطانية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقاً لأحكام فرمانات التي قبلتها الدولتان رسمياً هو الضمان الوحيد في الوقت الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام والتقدم وسعادة مصر ورفاهيتها التي يهتم إنجلترا وفرنسا أمرها .

والحكومتان متفقتان اتفاقاً وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد تهدد النظام القائم في مصر ولا يخامرهما شك في أن الجهر بعزمهما في هذا الصدد سيكون له أثر في اتقاء الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ، ومن المحقق أن هذه الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو سنلقى من فرنسا وإنجلترا اتحاداً وثيقاً للتغلب عليها ، وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو سيجد في هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التي هو في حاجة إليها لإدارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية .

محمود سامى البارودى يؤلف الوزارة :

وهكذا ظهرت نية الدولتين الاستعمارييتين وكشفنا النقاب - ببساطة ووضوح - عن رغبتهما في منع قيام نظام برلمانى يجسد إرادة شعب مصر ، في ذات الوقت إشعار الخديو « توفيق » بأنه مؤيد من قبل الدولتين الكبيرتين في وقوفه ضد الجيش المصرى والحركة الشعبية والوطنية . وكان طبعياً أن يستقبل شريف باشا في ٢ فبراير ١٨٨٢ ووقع الاختيار على محمود سامى البارودى رئيساً للوزارة وكان هذا في حد ذاته انتصاراً حاسماً للجيش المصرى وإقصاء تاماً لسلطة الخديو ، فقد أصبح « عرابى » وزيراً للحرية وصدر المرسوم الخديو بالدستور في ٧ فبراير والذى زاد بدوره من سخط بريطانيا وفرنسا ، وهنا بدأت الأولى تدبير مخططاتها العدوانية ضد مصر .

لماذا فقد الاستعمار صوابه ؟ :

في شهر أبريل ١٨٨٢ . حدثت مؤامرة الضباط الشراكسة التي هدفت إلى اغتيال « عرابى » والتي صدر فيها الحكم العسكرى بنفى ٤٠ ضابطاً إلى السودان وامتناع الخديو عن التصديق على الحكم بناء على رأى قنصلى إنجلترا وفرنسا ، وقد أدى هذا الحادث إلى وقوع خلاف بين الوزارة والخديو ، حيث رأى الوزراء أن الخديو قد نزل على إرادة قناصل الدول وأهمل رأى الوزراء فقرر مجلس الوزراء دعوة النواب متحدية في ذلك الخديو ،

ومتخذاً الخطوات التي قد يترتب عليها خلع الخديو إذا ظل متمسكاً بموقفه ولقد أشار مسيو « سنكفكس » في برقية له إلى وزارة الخارجية في ١٠ مايو ١٨٨٢ قائلاً : « عندما تكلم بعضهم مع عرابي عن الأمير حليم باشا صاحب غاضبا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمد على كلها » .

بوارج الدولتين في ميساه الإسكندرية :

وكانت الأنباء قد تواترت - في أثناء تفاقم الخلاف بين الخديو والوزارة - عن اعتزام إنجلترا وفرنسا إرسال أسطوليهما إلى الإسكندرية ، واستغلت الدولتان هذه الخلافات وتذرعتا بحجة حماية رعاياهما من الأخطار التي قد يستهدفون لها - والذين يمثلون أغلبية الجالية الأجنبية (٩٠ ألفا) - واتفقتا على أن ترسل كل منهما ست بوارج إلى المياه المصرية ، وذلك على الرغم من انتهاء الخلاف بين الوزارة والخديو في ١٥ مايو ١٨٨٢ .

وتحولت لغة الدولتين إلى التهديد والوعيد على أثر وصول الأسطولين ، وبدأتا بطلب استقالة وزارة البارودي وخروج « عرابي » من القطر المصري في بلاغ مشترك نهائي تقدمت به الدولتان إلى الحكومة المصرية في ٢٥ مايو ١٨٨٢ .

وانه لمن الأمور المثيرة للسخرية . . أن يوافق الخديو « توفيق » على مطالب الدولتين في سعادة وغبطة ، في حين رفضت الحكومة المصرية إجابة هذا البلاغ ، لتعلن حكومة البارودي استقالتها يوم ٢٦ مايو احتجاجاً على هذه المطالب الجائرة ، وعندما تكفهر الأمور ، يقوم الخديو - مضطراً - بإعادة « أحمد عرابي » إلى وزارة الحربية رئيساً للجيش ، ليصبح بذلك المسيطر الوحيد على مقاليد الأمور في مصر .

ويتضح للمسيو « فريسنيه » - رئيس وزراء فرنسا - أن بريطانيا تبغى الانفراد بالعمل في مصر لتنفيذ حلمها القديم في احتلال البلاد ، فيدعو إلى عقد مؤتمر دولي لبحث ما أسمى آنذاك بالمسألة المصرية ، وهنا لا يجد اللورد « جرانفيل » - وزير خارجية بريطانيا - مفرأ من قبول تلك الدعوة الإجبارية .

وفي السابع من يونيو . . بينما الأحداث تندفع في اتجاه الأزمة الوشيكة . . وصل « درويش باشا » المعتمد العثماني السامي إلى مصر سعياً من الحكومة التركية لإعادة الأمور إلى نصابها في مصر ولمنع تدخل بريطانيا في أمورها الداخلية .

لمساذا انضم « درويش » إلى الخديو ؟ :

وجاء درويش باشا إلى مصر ليرى بعيني رأسه المياه المصرية وهي تعج ببوارج الأسطولين البريطانيين والفرنسي ، ولكن الجنيهاً الذهبية (التي بلغت خمسين ألفاً) والتي منحها له الخديو « توفيق » أثرت على آرائه وطمست بصيرته ، فانضم إلى جانب الخديو ، ووجه النصح إلى « عرابي » بالذهاب إلى الآستانة لمقابلة السلطان .

مذبحة الإسكندرية

وسرعان ما تتطور الأحداث بعد ذلك . . إذ لم يكد يمضي على حضور درويش باشا إلى مصر بضعة أيام ، حتى حدثت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونيو ١٨٨٢^(١) وكانت نذيراً بإخفاق مهمته وعودته إلى الآستانة في ١٩ يولية ١٨٨٢ .

(١) بدأت المذبحة في صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين وبين مالطى من سكان الثغر من رعايا الانجليز وأنهت بقتل الوطنى ، مما ترتب عليه اصطدام الوطنيين بالأجانب ليسقط الكثير من الجانبين .

وجدير بالذكر أن تلك المذبحة المشنومة حدثت لأسباب عديدة ليس هنا مجال إثباتها ، وإن كنا نرى أن وجود الأساطيل البريطانية والفرنسية في مياه الإسكندرية وما نتج عن ذلك من تكلم الجاليات الأجنبية في الإسكندرية بالقرب من الأساطيل التماسا لحمايتها قد ساعد على إثارة مشاعر المصريين ضد الأجانب ، خاصة بعد أن قرر قناصل الدول الأجنبية في الثغر البدء في إقامة قوة دفاع أوروبية في الإسكندرية وإمدادها بالذخائر والأعتدة من أوروبا استعدادا لخوض غمار الحرب ضد الأهالي والوطنيين .

ووسط هذا الجو المكفهر والمشاعر المضطربة ، حدثت مذبحة الإسكندرية التي قتل فيها أكثر من خمسين شخصا أجنبيا ومصريا ، والتي أعقبها تدعيم قوات الجيش في الإسكندرية ، حين أرسل إليها أحمد عرابي الآلاى الثاني والرابع بقيادة طلبة باشا عصمت الذي تولى منذ ذلك الحين قيادة قوات الإسكندرية الدفاعية .

الحديو بعيداً عن شعبه ! :

من عجب أن يقوم الحديو « توفيق » بالتوجه إلى الإسكندرية يوم ١٣ يونية أى بعد المذبحة بيومين فحسب — ليكون على مقربة من الأساطيل الأجنبية والتماسا لحمايتها — ولست أجد خيرا مما كتبه « مسيو فريسنيه » وقتذاك بهذا الخصوص ، يقول :

« كانت رغبة الحديو متجهة منذ وصول الأساطيل الإنجليزية والفرنسية إلى الالتجاء للإسكندرية ليكون على رأس حكومته قريبا من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وملاحظتهم ، ولكن مذبحة الإسكندرية مثلت له فرصة يحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد لها بحجة تدارك الخطر على الرغم من أن النظام والهدوء كانا قد عادا إلى حالتهما الطبيعية » .

صورة للتفاق البريطاني :

ظلت البلاد بلا وزارة — منذ استقالة وزارة البارودي في ٥/٢٦ مما اضطر الحديو إلى تأليف حكومة جديدة برئاسة « اسماعيل راغب باشا » الذي لم يعرف عنه الولاء للحديو ، وتألفت هذه الوزارة بالفعل في ٦/٢٠ وبقي فيها « عرابي » وزيرا للحرية والبحرية .

وفي ٦/٢٣ انعقد بالآستانة مؤتمر يضم سفراء الدول العظمى الست (إنجلترا — فرنسا — ألمانيا — النمسا — روسيا إيطاليا) لبحث المسألة المصرية وفي ٦/٢٥ تم توقيع (ميثاق النزاهة) الذي جاء فيه :

« تتعهد الحكومات التي يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها في كل اتفاق يحدث بشأن تسوية المسألة المصرية ، لا تبحث عن احتلال أى جزء من أرض مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يتحول لرعايا الحكومات الأخرى » .

ومن الغريب أن إنجلترا في ذات الوقت الذي وقعت فيه على هذا الميثاق ، كانت تعد العدة لاحتلال مصر غارقة — حتى أذنيها — في اتخاذ الاجراءات الحربية لحشد أساطيلها المدرعة للابحار إلى مياه الإسكندرية ، وجدير بالذكر أنه لم يمض على توقيع « ميثاق النزاهة » هذا أكثر من ستة عشر يوما حتى كانت مدافع الأميرال (بوشوب سيمور) تقصف مدينة الإسكندرية في قسوة ووحشية بالغة .

الفصل الثاني (٠)

انظار بريطانيا على مصر !

ونتساءل هنا . . عن الأسباب الحقيقية التي دعت الدولتين . . بريطانيا وفرنسا إلى إرسال أساطيلهما إلى مياه الإسكندرية في هذا الوقت بالذات . . ونحاول في الوقت ذاته تقديم إجابة موجزة بقدر ما يمكن قبل أن نبدأ التعرض للجانب العسكري .

خوف بريطانيا من يقظة مصر :

لم تكن بريطانيا قد نسيت بعد ما قامت به القوات المسلحة المصرية قبل ٤٠ عاماً - في عهد محمد علي - من تسجيل انتصارات مدوية أذهلت أوروبا ولفنت الأنظار بشدة إلى هذه الدولة الفتية التي اقتحمت مسرح الأحداث في آسيا الصغرى بجرأة وكفاءة شهد بها الجميع ، لقد أيقنت أوروبا آنذاك أن هذه الدولة الفتية - مصر - يمكن أن تكون ذات تأثير بالغ في مجريات الأمور والسياسة الدولية بأسرها فيما لو أحسن قيادتها واستغلت قواتها المقاتلة لخدمة قضايا الحرية والاستقلال .

ولكن بعد أن أمكن لبريطانيا تحطيم الأسطول المصري الحديث في موقعة « نفارين » البحرية في محاولة لقص أجنحة مصر ، تعاقب على حكم البلاد أبناء محمد علي الذين أشاعوا فيها الفساد والاضمحلال وما تبع ذلك من تفكك في كافة شئون البلاد ومن ضمنها الحياة النيابية وشئون الدفاع .

لهذا لم يكن غريباً أن بدأت نذر العاصفة تتجمع - اعتباراً من عام ١٨٨٢ حينما بدأت الجماهير المصرية تتطلع إلى الحرية والاستقلال وتحقيق نوع من الحياة النيابية مع الرغبة في زيادة عدد الجيش والعناية بأمره وتقويته ، إلى جانب التخلص من نفوذ الأجانب في مصر - ذلك النفوذ الذي كان قد تزايد بصورة خطيرة في أعقاب عزل « اسماعيل » عن العرش وتعيين مندوبين أحدهما بريطاني والآخر فرنسي لمراقبة الخزنة المصرية المفلسة .

وحقاً . كانت التركة التي خافها « اسماعيل » مثقلة . . فالخزنة خاوية ، ونظام الجيش مضطرباً تماماً ، وطبقات المجتمع غير مستقرة من جراء ما يعانيه الفقراء من ظلم الحكام ، علاوة على كساد التجارة وسط هذا الخضم المضطرب .

« كرومر » يكشف عن مخاوف بلاده :

ان اللورد « كرومر »^(١) يكشف عن مخاوف بلاده منذ بداية اليقظة السياسية والعسكرية في مصر ، فكتب :

« إن عادة الطاعة التي ورثها المصريون عن آبائهم الأولين كانت قد تغيرت تماماً حتى صار من الصعب تهدئة

(*) محمد فيصل عبد المنعم « معارك الثورة العرابية » - دار التعاون - القاهرة ١٩٨٤ .

(١) في كتاب (مصر المعاصرة) « Modren Egypt » .

الغليان الذى فى نفوسهم وحتى أصبحت الحالة عام ١٨٨١ - تنذر بوقوع انهيار سريع وأصبح من المتوقع قيام ثورة فى البلاد حيث أصبح المصريون فى ذلك الوقت فى مفترق الطرق . وحان الوقت لأن ينظروا فيما إذا كانوا يصبحون أحسن حالا إذا أشعلوا هذه الثورة لتحقيق ما نعدر عليهم تحقيقه من مطالبهم التى تشتمل على أمان وطنيه .

سليى الفلاحين يتبنى مطالب الشعب والجيش :

يكب اللورد كرومر :

إن أحمد عرابى المصرى سليل الفلاحين وقائمقام الآلاى الرابع بالجيش هو الذى سارع إلى قيادة هذه الحركة التى بدأت بتقديم عريضة المطالب إلى « رياض باشا » - رئيس الوزراء - والتى آتهم « عثمان رفقى باشا » - وزير الحرية - بظلم المصريين المستحقين للترقية ومعاملتهم كأعداء له (حتى كأن الله قد أرسله ليصب نغمته عليهم) ، إلى جانب فصلهم من الجيش دون تحقيق قانونى ، وهكذا ختم الشاكون العريضة بالتماس مطلبين : أولها : عزل وزير الحرية (لعدم صلاحيته لتبوأ مركزه الكبير) . والثانى : اجراء تحقيق للثبوت من أهلية الذين تمت ترقيةهم واستحقاقهم لها قائلين : « ان مناط الترقية هو الكفاءة والمعرفة . . وكفتنا فى هذه الناحية ترجع كثيرا كفة الذين ظفروا بها دوننا » :

ونقرب رويداً من الإجابة على التساؤل :

ما زلنا نتابع أقوال اللورد « كرومر » الذى يقول :

فى ١٨٨١/٩/٩ صدرت الأوامر بنقل آلاى البيادة (المشاة) الثالث من القاهرة إلى الإسكندرية ، فآدت هذه الأوامر إلى العصيان وسار « عرابى » فى ألفين وخمسةائة جندى و ١٨ مدفعا إلى ميدان « عابدين » ولجأ الخديو وكان وقتذاك فى سراى الإسماعيلية - التى تبعد ربع ميل عن قصر عابدين - إلى أفضل الحلول فى ذلك الظرف العصيب وهو استدعاء السير « أوكلند كولفين » ليقف إلى جانبه - ذلك الانجليزى الذى يدين فى عمله بالمبدأ القائل (ان الماء المهادى لا يوجد إلا فى الأعماق) ان روح هذا الانجليزى سميت عالية فى ساعة الخطر خاصة وانها ليست المرة الأولى التى يسمع فيها عن تمرد أو عصيان .

وكانت مهمته واضحة . . إذ يجب عليه أن يخاطر بروحه ويقف إلى جانب الخديو فى مأزقه ليضفى عليه شيئاً من هذه الروح الإنجليزية التى كونت - على الزمن - عنصره المتسلط الممتاز .

ويصف لنا « كولفين »^(١) ما حدث فى وقفة عابدين الشهيرة قائلا :

« لقد طلب الخديو مشورنى ، فنصحته بأن يسبق خصومه فى العمل . . وبأن يستدعى الآلايين الموالين له (أى الخديو) مع من يمكن جمعهم من رجال البوليس المسلحين ويقف على رأس هذه القوة ثم يقبض على « عرابى » فور حضوره ، ولكن الخديو أجابنى بأن رجال المدفعية والسوارى (الفرسان) مع « عرابى » قد يطلقون النيران . .

(١) المستشار البريطانى للمالية المصرية فى عهد الخديو ، عين بهدف السيطرة التامة على شئون مصر المالية بحسب أهواء الاحتلال البريطانى وأغراضه دون مراعاة لمصالح البلاد .

فرددت عليه بأنهم لن يمرؤوا على هذا وأنه يجب عليه امتلاك زمام المبادرة لينجح في قهر العصاة وإلا فهو ضائع لا محالة وقد أبدى « ستون باشا » الأمريكى بحماسة ووصل السير « تشارلز كوكسن » أثناء قدوم الخديو بعربته وعبر هو الآخر عن موافقته على آرائى ثم عاد إلى الوكالة البريطانية ليبرق إلى لندن بما حدث .

ركبت عربة خلف الخديو وركب الوزراء أيضاً . كما ركب خمسة أو ستة ضباط مصريين فى عربة « ستون باشا » وذهبنا أولاً إلى معسكر عابدين حيث خرج آلاى الحرس هاتفا بأحر عبارات الولاء للخديو ، ثم استأنفنا السير إلى القلعة وهناك رحب بنا الآلاى الموجود بها ترحاب آلاى الحرس ، وكانت الساعة وقتذاك قد بلغت الثالثة والنصف بعد الظهر ، فألححت على الخديو بالعودة إلى القصر مستصحباً آلاى القلعة على أن يرأس هذه القوة بعد ضم آلاى الحرس والبوليس الحربى إليها ، ولكنه سار قدماً إلى العباسية حيث عرفنا أن « عرابى » قد سار بآلايه إلى عابدين ، فرجعنا إلى المدينة ودخل الخديو القصر من أحد أبوابه الخلفية ، حيث قفزت من العربة ورجوته عدم البقاء فيه والخروج توأ إلى الساحة فخرجنا إليها معاً وجاء فى أثرنا خمسة من الضباط المصريين و « ستون باشا » وضابط أو اثنان من الضباط الأوروبيين .

يقول « كولفين » :

« كانت الساحة مكتظة بالجنود المصطفين حتى أطرافها ليزودوا عنها الجماهير ، ودلف الخديو فى شىء من الثبات متجهاً إلى الضباط فى وسط الساحة . وكان بعضهم مترجلاً والبعض الآخر راكبين . فقلت له (إذا وفد « عرابى » عليك فاطلب منه سيفه واعط الأمر إلى من معه بالتفرق والانصراف ، ثم در حول الساحة وكلف كل آلاى بالانصراف على حدة) .

ووصل عرابى على صهوة جواده :

« وهنا تقدم « عرابى » على صهوة جواده ، فأمره الخديو بالترجل ، ففعل وتقدم لتأدية التحية العسكرية ومن خلفه عدد من الضباط وحارس شرع السونكى على طرف بندقيته ، وفى تلك الآونة همست فى أذن الخديو : (هذه لحظتك) . فأجابنى : (نحن بين أربعة جدران) . فقلت له : (تشجع) ولكنه مال على ضابط مصرى ليأخذ رأيه ، وإذا به يكرر عبارته السابقة قائلاً : « ماذا يمكننى عمله ؟ نحن بين أربعة جدران ، ولا شك أننا مقتولون » .

الخديو يطلب من عرابى إنعاده سيفه :

ثم التفت الخديو إلى (عرابى) وطلب منه إنعاده سيفه فأعنده ثم سأله عن معنى حركته . فأجابه (عرابى) بأن الجيش قد جاء إلى هذه الساحة باسم الشعب الذى يمثله ، لذا فهو باسم الشعب المصرى يصر على تحقيق مطالب ثلاثة لن ينصرف بقواته قبل اجابته .

وهنا نظر إلى الخديو قائلاً : (هل سمعت ما يقول ١٩-) . فنصحته بالعدول عن مناقشة مثل هذه المسائل مع قاطعات جيشه ، واقترحت عليه أن يرجع إلى القصر ويتركوا المعالجة الموقف فرفض لرأى .

وناقشت « أحمد عرابي » :

يقول « كولفن » :

وبقيت أناقش « أحمد عرابي » محمداً إياه من خطورة الموقف بالنسبة له ولأعوانه موضحاً ضرورة انصراف الجنود قبل فوات الأوان . . وبعد ساعة تقريباً حضر المستر « تشارلز كوكسن » ووقف إلى جازي أثناء المناقشة :

أما مطالب « عرابي » الثلاثة التي أشار إليها في حديثه مع الحديو فكانت : - إسقاط وزارة « رياض » بأكملها ودعوة البرلمان للانعقاد وأخيراً زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي .

وبعد انتهاء المناقشة استأنفها « السير تشارلز » مع « عرابي » و (العصاة) بعض الوقت وانتهى الأمر بموافقة الحديو على عزل الوزارة بشرط تأجيل المطلبين الباقيين إلى ما بعد الرجوع بشأنهما إلى الباب العالي ، فوافق « عرابي » على ذلك .

مشكلة جديدة :

« غير انه قامت مشكلة أخرى حول الرجل الذي يرشح لرئاسة الوزارة وذلك لأن « عرابي » وأتباعه رفضوا اسماً أو اسمين عرضهما الحديو عليهم ، ومع ذلك لم يكده هذا يبدى استعداداً لدعوة « شريف باشا » لتأليف الوزارة ، حتى قبل تصريحه بالهتاف لحياته ، وسارع « عرابي » وزميله إلى التماس مقابلة الحديو لتجديد ولائهم له ، فأذن بذلك ، وانصرف الجيش عقب ذلك إلى معسكراته في هدوء .

إلى هنا تنهى « وقفة عابدين » من وجهة نظر الدبلوماسيين البريطانيين « لورد كرومر » و « أوكلند كولفن » .

وقامت قيامة الاستعمار ! :

ولكن على الرغم من أن « كولفن » يقول فيما كتبه : أن الجيش قد انصرف من ميدان عابدين في هدوء ، إلا أن المطالب التي عرضها « أحمد عرابي » هي التي أقضت مضجع بريطانيا العظمى - ومعها فرنسا - وهكذا وجدت بريطانيا أنه لكي تمنح تلك الانتفاضة الشعبية المدعمة بالجيش وقائده ، فلاسييل أمامها إلا بالاتفاق - على مفضض - مع فرنسا لإرسال أسطوليهما إلى مياه الإسكندرية . وبذلك تظهر « العين الحمراء » لعرابي ورفاقه ممن أسمتهم منذ تلك اللحظة (العصاة) .

« كولفن » : فرصة لالتقاط الأنفاس :

وتوضح كلمات « أوكلند كولفن » نوايا بريطانيا التي كان من المستحيل عليه إخفاؤها في تلك المرحلة التي بدا لها فيها نمو وتعاظم القوى الشعبية في مصر والتي بدأت تحركها وتساندها قواتها المسلحة وعلى رأسها الزعيم « أحمد عرابي » الذي بدأ المصريون ينظرون إليه منذ تلك الآونة نظرة ملؤها الرجاء والأمل في مستقبل أفضل بعيداً عن الاستعمار ومخالبه الحادة .

يكتب (كولفن) قائلا :

« إن رأيي في الموقف كان يتلخص في أنه أصبحت أماننا مجرد « هدنة » مؤقتة ، تسمح لنا بالنقاط الأنفاس واستكشاف ما يحيط بنا في أعقاب ذلك الاتفاق الهش الذي تم بين الحديو وبين « عرابي » ، أما رأيي الشخصي فكان يتركز في أن التوصل إلى تسوية نهائية لن تتحقق إلا بالإستناد إلى ما يلي :

— تشتيت الجيش المصري بنقل وحداته إلى مناطق نائية .

— حمل الأعضاء الأعيان على الاعتدال في مطالبهم .

— حزم الوزراء في تعاملهم مع الجيش والأعيان على السواء .

وفي يوم ١٨٨١/١٢/٢٦ ، يرسل السير « أوكلند كولفن » مذكرة إلى حكومته يبدى فيها تخوفه من قيام حركة نابية في مصر قائلا : انه إذا ظفر مجلس النواب المصري بحق التصويت على الميزانية أو بمعنى آخر ، بحق الرقابة على مالية البلاد ، فإن مركز رقابة الدولتين (إنجلترا وفرنسا) سيضعف كثيراً وأن من واجبه (أى كولفن) أن يجعل « شريف باشا » — رئيس الوزراء آنذاك — يدرك تماماً بأن واجبه هو عدم تشجيع أى (عدوان) من الوطنيين (المصريين) على الإدارات الأوروبية ، بل ومقاومة مثل هذا التدخل المصري إذا وقع ، حيث أن الدولتين لن تقف جامدتين حيال أى نوع من العدوان .

السيطرة على قناة السويس ! :

كذلك لا يمكننا إغفال أطماع بريطانيا في تلك الحقبة التاريخية في السيطرة على الضفة الشرقية لقناة السويس ، بعد أن تحكم السيادة على الضفة الغربية لها في مصر ، للدرجة التي اقترح فيها الكولونيل « ماينز تشاجن » — سكرتير اللورد اللبى في فلسطين — ضمن رسالة منه إلى « لويد جورج » عام ١٩١٧ ضرورة السيطرة على سيناء المصرية وضمها إلى فلسطين حتى تصبح القناة تجرى « في أرض بريطانيا » على كلا الجانبين الشرق والغرب ، باعتبار أن ذلك يعطى بريطانيا مركزاً قوياً في منطقة الشرق الأوسط مع وجود اتصال سهل بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولم ينس « تشاجن » أن يؤكد في ختام تقريره الذى أرسله بناء على طلب رئيس الوزراء البريطانية ، على أن هذا الضم من شأنه العمل على إحباط أية محاولة مصرية ترمي إلى إغلاق قناة السويس في وجه الملاحة البريطانية إلى الهند — دوة التاج البريطانى وأكبر مستعمراتها في الشرق .

الفصل الثالث

ضرب الاسكندرية (*) ١١ يولية ١٨٨٢

حالة الدفاع عن مدينة الإسكندرية

اثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) على مصر شيد الفرنسيون الحصون المختلفة على ساحل مدينة الاسكندرية لحمايتها من الاعتداءات الخارجية وفيما يلي بيانها :

الحصون :

١ - حصن « كوم الدكة » :

وكان قائماً إلى عهد قريب بجوار محطة السكة الحديد ، وسماه الفرنسيون « حصن كريتان » تخليداً للكرى المهندس الحربى الفرنسى القائمقام « كريتان » الذى أشرف على بنائه ثم قتل فى معركة أبى قير .

٢ - حصن « كوم الناصورة » :

ولايزال باقياً حتى اليوم وقد أطلق عليه الفرنسيون حصن كافاريللى وذلك نسبة إلى الجنرال « كافاريللى » الذى كان مشرفاً على الأعمال الحربية الهندسية ، وفقد إحدى ساقه قبل حضوره إلى مصر ولذلك سماه المصريون « أبو خشبة » .

٣ - حصن « لوتورك » :

وأقيم غربى الحصن السابق على شاطئ البحر (مكان طاية صالح فيما بعد) .

٤ - حصن كليوباترا :

وكان يقوم على المرتفعات التى يقوم عليها المستشفى الأميرى حالياً .

للمدافع :

علاوة على تلك الحصون ، فقد أقام الفرنسيون ابان الحملة الفرنسية صفوفاً من المدافع (البطاريات) وذلك فى المواقع التالية :

١ - بطارية رأس التين (مكان طاية الفنار فيما بعد) .

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العرابية » - دار التعاون - القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢ - بطارية شمال رأس التين (مكان طابية سراى رأس التين فيما بعد) .

٣ - بطارية « منهد » .

٤ - بطارية في موقع (الأطة) الحالية .

حالة الدفاع عن الإسكندرية في عهد محمد علي :

وكان محمد علي والى مصر بعد ذلك قد عهد إلى « جاليس بك » مهمة القيام بتحصين المدينة ، ويمكن بالرجوع إلى وثائق الملازم « نجت Nugent » (من رجال البحرية البريطانية) أن نتبين حالة الدفاع عن المدينة في عهد محمد علي - عام ١٨٤٠ - وذلك على النحو التالى :

مسلسل	الحصن	مدافع	هاونات	الجملة
١	طابية السلسلة	٦	—	٦
٢	طابية قبور اليهود	١٠	—	١٠
٣	طابية كوم الدكة	٦	٣	٩
٤	طابية كوم الناصورة	١٢	٤	١٦
٥	طابية قايتباى	٢٠	١٢	٣٢
٦	طابية الأطة	١٠	١	١١
٧	طابية رأس التين	٤٦	١٧	٦٣
٨	طابية فنار رأس التين	٣٣	١٠	٤٣
٩	طابية صالح أغا	١٥	٣	١٨
١٠	طابية أم قبيبة	٣٠	—	٣٠
١١	طابية القمرية	١٠	٣	١٣
١٢	طابية الملاحة القديمة	١٠	—	١٠
١٣	طابية الملاحة الجديدة	٣٤	—	٣٤
١٤	طابية الدخيلة	١٠	٣	١٠٣
١٥	طابية جزيرة العجمى (المرباط)	٨	٣	١١
١٦	طوابى دائرة السور	٧٠	—	٧٠
الجملة		٣٣٠	٥٩	٤٧٩

حسن باشا الإسكندراني يدعم طوابى الاسكندرية :

وبعد عام ١٨٤٠ ، لزداد عدد تلك الحصون والطوابى الساحلية كما يتبين لنا من الاطلاع على القائمة المؤرخة في عام ١٨٤٨ والتي قام بوضعها « حسن باشا الاسكندراني » ناظر (وزير) البحرية المصرية ، والتي أبدتها

« اسماعيل سرهنك »^(١) في كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » لتصبح على النحو التالي :

مسلسل	الحصن	مدافع	هاونات	الجملة
١	طاوية الفنار	٥٧	٦	٦٣
٢	طاوية الفنار الصغيرة	١	—	١
٣	طاوية القرب	٦١	١٠	٧٢
٤	الاستبالية الجديدة	٢٣	١٢	٣٣
٥	الاستبالية القديمة	٢٥	—	٢٥
٦	الأطسة	٥٧	٧	٦٤
٧	برج الظفر	١٠	٦	١٦
٨	ظهر منزل الفرنسيين ^(٢)	٦	٦	١٢
٩	الملحمة ^(٣)	٨	—	٨
١٠	مسلة فرعون ^(٤)	٩	—	٩
١١	قبور اليهود القديمة ^(٥)	١٠	—	١٠
١٢	قبور اليهود الجديدة ^(٦)	٢٠	—	٢٠
١٣	برج السلسلة (السان)	١٨	١	١٩
١٤	باب شرق	٦	—	٦
١٥	كوم الناصورة	١٠	١	١١
١٦	الدخيلة	٣	—	٢
١٧	السلمية	٢٠	٢	٢٢
١٨	المكس	٤٠	٩	٤٩
١٩	القمرية	٩	١	١٠
٢٠	أم قبيبة	٥٦	٤	٦٠
٢١	الملاحة القديمة	١٤	١	١٥
٢٢	الملاحة الجديدة	٣٤	١	٣٥
٢٣	قلعة صالح أغا	١٣	—	١٣
٢٤	باب سسلرة	٨	—	٨
٢٥	كوم الدكة	٩	٢	١١
الجملة				٦٠٤
				٦٩
				٥٢٧

- (١) اسماعيل باشا سرهنك : (حقائق الأخبار عن دول البحار) - ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .
- (٢) كانت تقع على البحر خلف قنصلية فرنسا القديمة (محل ميدان سعد زغلول حاليا) ، ودمرتها نيران الأسطول البريطاني يوم ١١ يولية ١٨٨٢ أثناء ضرب الاسكندرية .
- (٣) كانت قائمة على شاطئ البحر شرقى الطاوية السابقة عند نهاية شارع البورصة القديمة حاليا .
- (٤) قرب مسلة فرعون بجوار محطة الرمل الحالية .
- (٥) طاوية قبور اليهود القديمة . كانت محل المستشفى الأميرى حاليا .
- (٦) طاوية قبور اليهود الجديدة - كانت بين شارعى يوسف عز الدين ورأس المسلة .

« على باشا مبارك » يصف حالة الدفاع عن الإسكندرية :

ويصف « على باشا مبارك » حالة الدفاع عن مدينة الاسكندرية بعد هذه الفترة ، فيقول في خطه
(ج ٧ - ص ٦٠) :

« . . وقد اشتغل إبراهيم باشا بمجرد استيلائه بأمر مهم في الاسكندرية وغيرها ذات منافع عمومية من ضمنها
تكميل طوابى الإسكندرية واستحكاماتها على الوجه الذى أسست في عهد والده وشحنها بالعسكر والأسلحة والآليات ،
ومر بالساحل من اسكندرية إلى رشيد ثم إلى دمياط واستكشفه بنفسه ، ثم أمر في ثغر اسكندرية بإنشاء ٥٠ شلوبة
طوبجية كل واحدة تحمل مدفعين لحفظ البوغازات والملاحات . وكان بما وجه همه إليه « عباس الأول » زيادة
تتميم الاستحكامات والطوابى والقلاع طبق ما رسمه رئيس هندسة الاستحكامات « جاليس بك » ، فأقام معظم
حصونها وأضاف إليها بعضاً من الحصون رأى أهميتها فأدخلها في النقط المهمة ، ومن ذلك قلعة مقابر اليهود وقلعة
« أبى قير » و « المعجمى » ، مع إنشاء مبان ملحقة بتلك القلاع للوازمها فأنشأ في قلعة « مقابر اليهود » جبخانه (ذخيرة)
جسيمة تسع ٩٠٠ قنطاراً من البارود وعمل في قلعة « أبى قير » مخبأ وطواحين تدار بالهواء واسبالية لمرضى العساكر
المقيمين بهذه القلعة وما جاورها من القلاع ، فكانت العساكر المقيمة في تلك الجهات لا تحتاج لشيء يأتي من الخارج
وبنى ورشة للطوبجية في وسط المدينة في شرقى « كوم الناصورة » طولها مائتا متر ومثلها عرضاً تشتمل على جميع
محلات التجارة والحدادة والبرادة والسباكة وغيرها كالمخازن ، وجلب لها جميع آلات التشغيل والعمل والمعلمين
فصارت من أحسن ما يعمل من هذا القبيل ، وعمل بها عدة بطاريات يعمر بها كثير من آلات السواحل وغيرها ،
ثم أبطل سعيد باشا كل ذلك وأمر ببيع أرضها للأهالى فبنت المنازل وغير ذلك محلها . .

إدخال المدفعية ذات الشحنة :

وتم بعد ذلك - في عهد الخديو اسماعيل - تعزيز حصون المدينة بمدافع أحدث طراز حيث كانت المدافع
السابق تركيبها بدون (شحنة) - فكان من اللازم التفكير في إعادة تسليح هذه الطوابى والحصون بمدافع مشحنة
لضمان سلامتها من الغارات الأجنبية .

شراء ٢٠٠ مدفع من طراز (أرمسترونج) من بريطانيا :

وهكذا تم - بين عامى ١٨٦٩ - ١٨٧٣ - شراء ٢٠٠ مدفع من طراز « أرمسترونج » البريطانى « عيار ٧ بوصات »
وزن ٧ أطنان وعيار ٨ بوصات وزن ٩ أطنان وعيار ٩ بوصات وزن ١٢ طناً وعيار ١٠ بوصات وزن ١٨ طناً -
وكانت هذه المدافع يتم تعميرها من الأمام - كما تم استيراد ٤ مدافع عيار ٤٠ رطلاً من الطراز نفسه ولكنها تعمّر
من الخلف ، وقد تم نصب هذه المدافع الأربعة ، علاوة على ٤٦ مدفعاً عادياً في طوابى الاسكندرية بينما نصبت
باقى المدافع (من طراز أرمسترونج) في بقية الحصون بالسواحل المصرية حتى (بورسعيد) .

الحصون :

حين تلقى نظرة على ساحل الإسكندرية فإنه يسترعى انتباهنا لاهمة الأولى أنه يمثل سهلاً منبسطة ليس به هضاب أو جبال عدا بعض التلال الصناعية - ولهذا السبب نفسه فإنه لا يصلح لإقامة القلاع الحصينة عليه .

حصن أم قبيصة :

وكان حصن (أم قبيصة) هو الحصن الوحيد المقام على مرتفع من الأرض، بينما كانت حصون الإسكندرية عام ١٨٨٢ هي ذات الحصون التي كانت موجودة في عهد محمد علي (١٨٤٠) مع فارق بسيط - وهو أنه عندما تم تسليحها بمدافع الأرمسترونج، رفع ساتها وزاد سمكها وفتح فيها (كوات) - طاقات - جديدة تتناسب مع هذا التسليح الحديث ولكن جميع المدافع كانت موضوعة في العراء دون ساتر للرأس . علاوة على وجودها في أراضٍ سهلة منخفضة مما يعرضها لأشد الأضرار بسبب تأثير الشظايا للأسطول المعادي وعلى الأخص بالنسبة للمدافع (السربند) - الرشاشات المنصوبة على ساريات السفن والتي بواسطتها يمكن إسكات مدافع هذه الحصون بقتل أطقمها وبغير حاجة إلى اتلاف المدافع ذاتها .

حصن قايتبغاى :

وكان هو الحصن الوحيد الذى يمكننا استثناءه من هذه الحالة حيث كان في طبقته السفلى المسقوفة مدفعية مستورة بطبقته العليا ولكن حوائطه لم تكن متينة بحيث تصمد لمدفعية الأسطول البريطانى الثقيلة مما أدى إلى حدوث الكثير من الخسائر بين أطقم المدافع أثناء المعركة .

دهليز إلى الموت :

ولقد دفع هذا الوضع القائد الأمريكى (جودريتش)^(١) إلى أن يقول في تقريره - ص ٤٨ - : « ان هذه الحرب (يقصد بين الأسطول البريطانى والحصون المصرية) لم تكن إلا دهليز يؤدي إلى مهاوى الموت السحيقة » .

المواقع نصبت لتكون هدفاً للضرب :

وقد كان في كل الحصون - دون استثناء - مبان عديدة مرتفعة عن سائرها تستخدم كستودعات للقنابل وثكنات ومخازن . الخ . وكانت هذه المباني المرتفعة بهذه الكيفية كأنما نصبت لتكون هدفاً مباشراً لا تخطئه نيران مدافع الأسطول . كما كانت مستودعات البارود على الأخص غير جيدة « الإخفاء » الكافي ولعل أكبر ما يؤيد ذلك انفجار مستودعى الذخيرة في طابى (الأطة) والدخيلة خلال المعركة يوم ١١/٧/١٨٨٢ .

(١) كان هذا القائد موجوداً على ظهر السفينة الأمريكية (لانكاستر) أثناء ضرب الاسكندرية يوم ١١/٧/١٨٨٢ وشاهد وعين الحصون المصرية بعد الضرب كما تتبع تحركات الجيش البريطانى حتى التل الكبير وقدم بذلك تقريراً للحكومة .

حذف المدافع غير المششخنة والمهاونات من الحساب :

وبنظرة موضوعية - وقبل أن نصل إلى يوم القتال القلبي - يوم ١١ يولية ١٨٨٢ - بين الأسطول البريطاني والحصون المصرية - يجدر بنا أن نحذف من احتمالاتنا جميع المدافع غير المششخنة والمهاونات لعدم جدواها وقدم طرزها (ترجع معظمها إلى عام ١٨٤٠) - وقصر مرماتها وعدم إمكان تدقيق التصويب بها كما لم تكن لمقلوفاتها قوة الاختراق المطلوبة لاختراق مدرعات (بوارج) الأسطول البريطاني حيث كانت القذيفة تخرج من المدفع منخفضة السرعة ولذلك لا تحدث أى ضرر لحصم قوى كدولة كانت ملكة البحار في ذلك الوقت .

والدليل : سفينة بريطانية تصاب بـ ٦٠ قنبلة مصرية :

ولا يمكننى أن أقدم برهاناً على صحة هذا القول أسطع مما وقع لسفينة القيادة البريطانية (الكسندرا) . فقد أصيبت هذه السفينة بستين طلقة من القذائف المصرية (وهذا يدل بلا شك على دقة التصويب والبسالة) ، ولكن نظراً لضعف التسليح وما سبق ذكره كانت النتيجة قتل جندي واحد وجرح ثلاثة من الجنود البريطانيين ، ويمكننا أن نتخيل النتيجة لو أن هذه المدافع كانت أحدث طرازاً وأبعد مدى .

المدافع العتيقة ينقلب بعضها أثناء الضرب :

ومن ناحية أخرى كانت عجالات هذه المدافع في حالة سيئة فبعضها كان يتحطم عند انطلاق القذائف والبعض الآخر كان ينقلب من فوقها المدافع عند رجوعها للخلف أثر الإطلاق ، كما يجب أن نحذف أيضاً من اعتبارنا المدافع (الأرمسترونج) الأربعة التي كانت تعمر من الحلف لصغر عيارها بحيث لم يكن في إمكانها التأثير على الإطلاق في المدرعات البريطانية .

قوة الجيش المصرى قبيل ضرب الإسكندرية :

كان الجيش المصرى عام ١٨٨١ - مكوناً من ٦ آلايات مشاة وآلايين من الفرسان وآلاى من المدفعية البرية و ٣ آلايات من مدفعية السواحل وكان مجموع هذه القوة (٢٢٢٣٤) ضابطاً وجندياً^(١) وعندما تولى (محمود باشا سامى البارودى) رئاسة الحكومة - في ٤ فبراير ١٨٨٢ - واستولى العراقيون على الحكم زادوا آلايات المشاة آلايين لتكون ثمانية أى فرقتين ، كما زادوا المدفعية البرية آلايا لتكون لواء .

كما تقرر أيضاً جمع جنود الاحتياط (١) و (٢) و (٣) لزيادة الآلايات جميعها ولكن لم يجمع منها في عهد هذه الوزارة إلا الجنود رقم (١) ، فبلغت قوة الجيش في ذلك الوقت زهاء ٣٥ ألف جندي ، وفي ٢٦ مايو ١٨٨٢ - استقال (محمود سامى البارودى باشا) من رئاسة الوزارة - وبعد ذلك بأيام قلائل رفع (عراي باشا) إلى الحديو (توفيق) طلباً بتنفيذ الأوامر الصادرة في عهد الوزارة المذكورة بجمع باقى جنود الاحتياط رقمى (٢) و (٣) . فأجابه الحديو إلى ذلك لتبلغ قوة الجيش قبل يوم ١٠ يولية ١٨٨٢ زهاء (٤٥٠٠٠) من الجنود ، وتقرر في الجلسة التي انعقدت في هذا اليوم جمع (٢٥٠٠٠) جندي آخرين ، وقد تم ذلك بالفعل .

(١) الجيش المصرى في يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ - القائمقام عبد الرحمن زكى - مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المجلد الرابع - العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ .

الموقف بعد اندلاع القتال مع الانجليز :

وبعد وقوع الحرب مع الانجليز ، قرر المجلس العرفى - يوم ١٢ أغسطس ١٨٨٢ - جمع ٢٥٠٠ نفر من خفراء البلد لتجنيدهم وقد نفذ ذلك أيضا . . وفى يوم ٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، قررت نظارة الجهادية جمع ١٥٠٠ نفر آخرين ، فبلغت القوة المستجدة بذلك ٤٠,٠٠٠ نفر ، لتصبح القوة كالتالى :

٤٥,٠٠٠ قوة الجيش قبيل يوم ١ يولية ١٨٨٢ .

٢٥,٠٠٠ تقرر جمعهم فى جلسة يوم ١ يولية ١٨٨٢ .

٢٥,٠٠٠ تقرر جمعهم بقرار من المجلس العرفى فى جلسة ١٢/٨/١٨٨٢ .

١٥,٠٠٠ تقرر جمعهم بقرار من نظارة الجهادية فى ٣/٩/١٨٨٢ .

١١٠,٠٠٠ الجملة^(١) .

برقية وكيل الجهادية تؤكد تلك الأرقام :

وانه لكى نثبت من صحة تلك الأرقام التى أوردناها ، نسوق للقارئ فيما يلى صورة برقية أرسلها « يعقوب سامى » - وكيل نظارة الجهادية بمصر آنذاك - إلى اللواء « على باشا الروبى » - قائد فرقة مريوط - ذكر فيها أن عدد هذا الجيش قد زاد على المائة ألف ، وفيما يلى نص البرقية :

« صورة تلغراف من وكيل الجهادية بمصر إلى قائد « مريوط » بتاريخ ٧ سبتمبر ١٨٨٢ إلى سعادة قومندان « مريوط » على الروبى باشا :

لا يخفى على سعادتك عدم وجود العبي بالكبايد (البلاطى) بالمخازن حالة ما كانت القوة أحد عشر ألف نفر ، وفى الزمن القريب بلغت قواتنا المصرية بعناية الله الملك المعين زيادة عن المائة ألف . . فيا أخى أعذرونى نظرا لبرودة مريوط التى نعرفها نحن وخلافنا . وقد جمعنا كافة الأحرمة الموجودة بسوق المغاربة بمصر . فبكل اجتهاد حصلنا على ١٩٠٠ حرام ، وهما رسالة صباح باكر لإدارة « كفر الدوار » - يعين من طرف سعادتك من يلزم لاستلامها من هناك أفندم .

حامية الاسكندرية

قبيل مذبح الاسكندرية :

كانت حامية الاسكندرية البرية مؤلفة من الآلاين المشاة (البيادة) الخامس والسادس ، جى بيادة و ٦ جى بيادة كما كان يطلق عليهما. آنذاك ، وهما الآلايان اللذان يتألف منهما اللواء الثالث المشاة تحت قيادة اللواء « خورشيد باشا طاهر » ، وكانت كل قوات المدفعية والقوات البرية موضوعة تحت قيادة الفريق « اسماعيل باشا كامل » .

(١) كانت معظم قوات آلايات الفرسان التى استدعيت عقب الحرب مع الانجليز تفتقر إلى الجياد .

بعد مذبحة الاسكندرية :

وبعد حدوث مذبحة الاسكندرية وما جرى من حضور « يعقوب باشا سامى » - وكيل نظارة الجهادية - وقلوم الأساطيل الفرنسية والبريطانية إلى مياه الإسكندرية - كتب إلى نظارة الجهادية لتعزيز هذه الحامية ، وفلا تم تعزيزها علاوة على القوات التى أتينا عليها بإرسال كتية مشاة (٢ جى يادة) والكتية (٤ جى يادة) بقيادة اللواء (طلبة باشا عصمت) . ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع القوات المصرية فى الإسكندرية من مدفعية (طوبجية) ومشاة (يادة) تحت قيادة « طلبة باشا عصمت » بعد أن تنحى الفريق « اسماعيل باشا كامل » عن القيادة تحت ستار المرض .

وهكذا تقرب إلى تقرير بيان جميع القوات المصرية التى كانت فى الإسكندرية صبيحة يوم ١١ يولية ١٨٨٢ - وهو يوم المعركة التى تسببت نتائجها فى الاحتلال البريطانى لمصر .

الآلأى الثانى يياده (مشاة) :

- القائد : أميرالاي خليل بك كامل .
- وكيل القائد : القائمقام أحمد بك عفت .
- بكباشى (قائد) الأورطة (الكتية) الأولى : محمد عارف .
- بكباشى الأورطة الثانية : محمد فودة .
- بكباشى الأورطة الثالثة : محروس شلش .

الآلأى الرابع المشاة :

- القائد : أميرالاي عيد بك حمد .
- وكيل القائد : القائمقام فودة بك حسين .
- بكباشى الأورطة الأولى : أحمد عبد الرحمن .
- بكباشى الأورطة الثانية : رزق حجازى .
- بكباشى الأورطة الثالثة : حسن عاصم .
- مجموع القوة من ضباط وجنود ١٨٨٥

الآلأى الخامس المشاة :

- القائد : أميرالاي مصطفى بك عبد الرحيم .
- وكيل القائد : القائمقام فرج بك عبد العال .
- بكباشى الأورطة الأولى : يوسف السيد .
- بكباشى الأورطة الثانية : عبد الرحمن سليم .
- بكباشى الأورطة الثالثة : سليمان تعليل .

الآلای السادس المشاة :

القائد . أميرالای سليمان بك سامی .

وكيل القائد : القائمقام على بك عيسى .

بكباشی لأوطة الأولى : على رمزی .

بكباشی الأورطة الثانية : فرج يوسف .

بكباشی الأورطة الثالثة : أحمد راغب .

مجموع القوة من ضباط وجنود ١٨٩١

وهكذا يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن مجموع القوات المصرية من المشاة (البیادة) التي كانت في الإسكندرية يوم المعركة ١١ يولية ١٨٨٢ - كان يبلغ تعدادها ٧٤٦٣ بين ضباط وضباط صف وجندی على النحو التفصیلی الذي أوردناه .

قوات مدفعية السواحل :

كانت قوات المدفعية الساحلية التي اشتركت في المعركة بالإسكندرية تتألف من الكتيبة الأولى مدفعية سواحل (١ برنجی طوبجية سواحل) تحت قيادة الأميرالای اسماعیل بك صبری في حين وضعت الكتيبة الأولى تحت قيادة البكباشی عبد العال أبو العلا ، والثانية تحت قيادة البكباشی سيف النصر ، والثالثة تحت قيادة البكباشی محمد شیری بمجموع القوات التي بلغت ١٧٦٢ ضابطا وصف ضابط وجندی .

قوات الفرسان :

نخصت الأورطتان من السواری (الخيالة) من الآلای سواری تحت قيادة البكباشی محمد منیب ، وبلغت الأورطتان من الضباط وضباط الصف والجنود ٢٦٢ رجلا ، وبذلك تكون جملة القوات المصرية النظامية التي اشتركت في معركة ضرب الإسكندرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢ من مشاة (بیادة) ومدفعية (طوبجية) وفرسان (سواری) وطوبجية سواحل ٩٣٨٧ ضابطا وضابط صف وجندی .

توزيع الطوابی المصرية الساحلية :

كانت الحصون والطوابی المصرية القائمة على طول شاطئ الإسكندرية تنقسم إلى ٣ مناطق بالنسبة لتعرضها لضرب الأسطول البريطاني وذلك على النحو التالي :

المنطقة الأولى :

وهي الواقعة شرق المدينة وليس بها غير حصن (السلسلة) الذي لم يشترك في القتال لعدم استكمال استعداداته قبل المعركة وإن كان قد قام بإطلاق بعض الطلقات غير المؤثرة خلال القتال على السفن البريطانية التي كانت تهاجم طاية « قايتباي » .

المنطقة الثانية :

وهي المنطقة الواقعة شمال المدينة وكان بها حصون « قايتباي » و « الهلالية » و « الأطة » و « الاسبتالية » و « ورأس التين » و « الفنار » :

المنطقة الثالثة :

وهي المنطقة الواقعة غربى المدينة وكان بها الحصون « صالح أغا » و « البرج رقم ١٥ » و « أم قبيبة » و « المعجمى » و « المرباط » وكان حصن « المعجمى » لم يستكمل انشاؤه بعد .

حالة الطواوى المصرية يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ (يوم المعركة)

الجملة	المدافع غير مششخنة	المدافع	المجموع	مدافع أرمسترونج مششخنة					
				تعمر من الخلف	تعمر من الأمام				
					٧ بوصة	٨ بوصة	٩ بوصة	١٠ بوصة	
٥	١	٢	٢	—	—	١	١	—	طابية السلسلة
٥٠	٤	٣٨	٨	٢	١	٣	٢	—	قلعة قايتباي
٤	—	٤٠	—	—	—	—	—	—	طابية الهلالية
٢٤	٥	١٤	٥	—	١	٣	١	—	طابية الأطة
١٧	٥	١٠	٢	—	—	—	—	٢	الاسبتالية
٣٢	٥	٢١	٦	١	١	٢	٢	—	رأس التين
٧	٣	٢٨	٦	—	١	٤	١	—	الفنار
٢٢	١	٢٩	—	—	—	—	—	—	صالح أغا
٤	—	٤	—	—	—	—	—	—	برج رقم ١٥
٢١	٣	١٦	٢	—	—	—	٣	—	أم قبيبة
٥	—	٥	—	—	—	—	—	—	القمرية
٥٢	١٠	٣٦	٦	١	١	١	٣	—	المكس
٤	—	٤	—	—	—	—	—	—	الدخلية
٩	—	—	٩	—	٣	٥	—	١	المعجمى
٣٢	٣	٢٦	٣	—	—	٣	—	—	المرباط
٣١٨	٤٠	٢٢٩	٤٩	٤	٨	٢٢	١٢	٣	الجملة

لانيا : الجانب البريطانى :

وفى ما يلى نلقى نظرة فاحصة على الجانب الآخر - وأعنى به القوات البريطانية التى قامت بالهجوم على الإسكندرية وضربها يوم ١١ يولية ١٨٨٢ ، ذلك الهجوم الذى كان بداية للاحتلال البريطانى لمصر والذى استمر نيفا وسبعين سنة حتى تحررت منه البلاد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتوقيع اتفاقية الجلاء فى ٢٤/١٠/١٩٥٤ وبطبيعة الحال فإن القوات البريطانية المهاجمة تركزت فى قطع الأسطول المدرعة والتى اعتبرت آنذاك أحدث القطع البحرية من حيث التسليح والتدريب وشدة البأس .

المدرعات الثقيلة :

كان الأسطول البريطانى يوم ١١ يولية ١٨٨٢ مشكلا من ثمانى بوارج ثقيلة تحت قيادة الاميرال « بوشامب سيمور » وذلك على النحو التالى :

- البارجة (الكسنبرا) .
- البارجة (انفلكنيل) .
- البارجة (سلطان) .
- البارجة (سوبرب) .
- البارجة (تمرير) .
- البارجة (انفسيل) .
- البارجة (مونارك) .
- البارجة (بتلوب) .

سفن المدفعية :

- (برن)
- (كنلور)
- (بيكون)
- (سيجنت)
- (ديكورى)

وبلاحظ أنه عند المقارنة بين الأسلحة المضادة لكل من الجانبين البريطانى والمصرى ، ستقوم بحذف واستبعاد مدافع الأسطول البريطانى التى يقل عيارها عن عيار مدافع الطوابى (الحصون) المصرية كذا مدافع السفن الصغيرة الخمس (سفن المدفعية) وذلك فى مقابل المدافع العتيقة والمهاونات المصرية التى استبعدتها من حساب الطوابى المصرية وأعتقد أن هذا الاستبعاد يعد فى صالح الأسطول البريطانى .

الاسطول البريطاني في مواجهة الحصون المصرية :

القسم الأول ويطلق عليه (الاسطول الخارجى) :

وكان مؤلفا من المدرعات الخمس (الكسندرا - انفليكسيل - سلطان - سوبرب - تمرير) .

وكان هذا القسم تحت قيادة الكابتن (هنت جرب) قائد المدرعة (سلطان) وكلف بالوقوف خارج الميناء في عرض البحر لمهاجمة حصون المنطقة الثانية المصرية التي سبق الإشارة إليها .

أما القسم الثانى ويسمى بالاسطول الداخلى :

فقد تألف من المدرعات الثلاث (انفسيل - بنلوب - مونارك) تحت قيادة القائد الأعلى الاميرال « بوشامب - سيمور » نفسه وكانت مهمته الوقوف في الجزء المتقدم من الميناء وبها حصون المنطقة المصرية الثالثة . وبناء على ذلك انتقل الاميرال (سيمور) ليلة المعركة إلى المدرعة انفسيل لقيادة المعركة منها .

أما مهمة السفن الخمس الأصغر حجما :

(سفن المدفعية) وهى غير مدرعة ، فقد كلفت بالوقوف خارج مرمى الضرب للمدافع المصرية إلى أن تحين الفرصة المناسبة التي تسمح لها بالاشتراك في مهاجمة حصون المنطقة الثالثة ، وذلك بالنظر إلى قصر عمق غاطس تلك السفن الخمس .

وقد تلخصت الخطة العامة للاميرال « بوشامب سيمور » والتي عرضها على قادته ليلة المعركة في أن تقوم جميع البوارج المدرعة المشتركة في القتال بعد اعطاء الإشارة لها بتصويب نيران مدافعها الثقيلة سوياً وعلى حصن واحد حتى يتم تدميره تدميراً تاماً وبعد ذلك - وليس قبله - تصوب مدافعها إلى الحصن التالى حسب الخطة التفصيلية للقيام بنفس العمل وهكذا . . .

الفارق بين حرب الحركة وحرب الثبات :

إننا عند القيام بمقارنة القوى المتضادة - البريطانية والمصرية - قبيل المعركة التي سرعان ما نشبت في صباح يوم ١١ يولية كما سئى بعد قليل ، فإنه لابد من الإشارة إلى عامل عسكري هام وحاسم من شأنه التأثير بشدة على مواقف أحد الطرفين ونعني به عامل الثبات الذي فرض نفسه على بطاريات المدفعية الساحلية المصرية المنتصبة بالأرض وهو نفسه العامل الذي وقف إلى جانب القوات البريطانية التي كانت في موقف يسمح لها بحرية الحركة والمناورة والانتقال من موقع إلى موقع حسبما يقتضيه الموقف القتالى ، ان هذا الفارق وحده كان كفيلاً في كافة الظروف بترجيح كفة الجانب البريطانى المهاجم الذى سرعان ما بدأ بعد المعركة يتبجح بهذا النصر المؤزر الذى أحرزه على بطاريات المدفعية الساحلية المصرية الثابتة والتي كانت مدافعها من طرز قديمة وبالية من حيث قصر المدى أو قوة القذيفة ذاتها .

كذلك كانت مدافع « الأرمسترونج » المصرية الحديثة إلى حد ما والتي زودت بها بعض الطوابى مؤخراً وقبل القتال مباشرة تنقصها آلات التنشين (آلات تقدير المسافة) عدا آلة واحدة كانت في مدرسة المدفعية بالعباسية .

في (البوليجون) واستحضرت ليلة ١١ يولية وسلمت إلى سيف النصر بك قائد طابية الفناير ويتضح من ذلك بطبيعة الحال تعذر العمل على التصويب الدقيق بدون وجود هذه الآلات التكميلية .

« جود ريتش » : تفوق نوعي لصالحنا :

ويذكر القائد البريطاني جود ريتش — بعد القتال — أن الحسابات كانت دون شك في صالح البريطانيين وبخاصة من حيث تفوق عيارات المدافع البريطانية على المدافع المصرية ذات العيار الأقل ، بالإضافة إلى التفوق النوعي بالنسبة لرجال المدفعية الإنجليز والمدربين على أرقى المستويات الأوروبية ، من حيث العمل على مدافع « الأرمسترونج » الحديثة ذات الشحنة والتي تعمر من القوة .

النسبة بين قوة الحصون المصرية وقوة الاسطول البريطاني :

كذلك كانت النسبة بين قوة البوارج المدرعة البريطانية التي هاجمت الطواقي والحصون المصرية صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ لصالح القوات البريطانية تماما وذلك بسبب ما ذكرناه من حشد كافة البوارج المدرعة المتحركة للضرب على هدف ثابت واحد لا يمكنه تغيير مكانه أو المناورة بأية حال ، ويبين لنا الجدول التالي هذه النسبة بالأرقام :

قوة حصن « قايتباي » بالنسبة للاسطول البريطاني الذي هاجمه

٣٣ : ٤

قوة حصن « الأطة » بالنسبة للاسطول البريطاني الذي هاجمه

٣٣ : ٥

قوة حصن « رأس التين » بالنسبة للاسطول البريطاني الذي هاجمه

٢٦ : ٧

قوة حصن « الفناير » بالنسبة للاسطول البريطاني الذي هاجمه

٢٦ : ٤

قوة حصن « المكس » بالنسبة للاسطول البريطاني الذي هاجمه

١٦ : ٥

وبين الجدول التالي التسليح التفصيلي للبوارج البريطانية التي اشتركت في ضرب الإسكندرية - ١١ يولية ١٨٨٢

المدافع							البوارج المدرعة
بوصة ١٦ ^(١)	بوصة ١٢	بوصة ١٠	بوصة ٩	بوصة ٨	بوصة ٧		
١٢	٢	١٠					الكسندرا
٤	٤		٥				انفلكسيل
١٢		٨	٤				سلطان
١٦	-	١٦					سوبرب
٨	٤	٤					تمزير
٩			١٠				امنسيل
٧	٤		٢		١		مونارك
٨				٨			بنلوب
٧٧	٤	١٠	٣٨	١٦	٨	١	الجملة

وفيما يلي نستعرض « البطاقات الشخصية » للبوارج البريطانية المدرعة التي قامت بالمجوم على الإسكندرية في صباح ١١ يولية من عام ١٨٨٢ .

البارجة المدرعة « انفلكسيل » :

تم صنعها قبل ٦ سنوات في عام ١٨٧٦ وتعد من أهم وأقوى قطع الاسطول البريطاني المسلح ، غاطسها تحت الماء ١,٧٦ متر وجميع اجزائها مدرعة - تحتوى على ١٣٥ حجرة - برجها معززان بمدفعين قطر كل منهما ١٦ بوصة (وزن المدفع ٨٠ طنا) - مبنيان على خط منحرف الزاوية بحيث يمكن اطلاقهما مرة واحدة بإحكام أو كل واحد منهما على انفراد ، قوة الطاقم ٣٤٩ رجلا ، الحمولة ١١,٤٠٠ طن .

البارجة المدرعة (مونارك) :

صنعت في عام ١٨٦٨ - في وسطها برجان في كل منهما مدفعان من عيار ١٢ بوصة (وزن المدفع ٢٥ طنا) في مقدمتها بطارية مؤلفة من مدفعين عيار ٩ بوصات وزن ١٢ طنا ، وفي مؤخرتها مدفع قطره ٧ بوصات (ووزنه ٦,٥ طن) - الطاقم ٥١٥ رجلا - الحمولة الكلية ٨٣٣٠ طنا .

البارجة المدرعة (تمزير) :

صنعت عام ١٨٧٦ - قلعة قائمة في وسطها معززة بستة مدافع بأجنابها طاقات لأفواه المدافع ، في كل طاقة

(١) بلغ وزن المدفع من عيار ١٦ بوصة ٨٠ طنا وقذيفته تزن ١٧٠٠ رطل أى ما يوازي ٧٦٥ كيلوجراما .

مدفعان من عيار ١١ بوصة (وزن الواحد ٢٥ طنا) على سطحها مدفعان من عيار ١١ بوصة (ووزن ٢٥ طنا) -
الطاقم ٣٥٤ رجلا - الحمولة الكلية ٨٤٥٠ طنا .

البارجة المدرعة (الكسنلرا) :

صنعت عام ١٨٦٩ - مدوعة قوية ذات بطارية من طبقتين ، العليا بستة مدافع من عيار ٩ بوصات (وزن ١٢ طنا) - السفلى معززة بأربعة مدافع مرتكزة في طاقات تنطلق منها - الطاقم ٤٥٠ رجلا - الحمولة الكلية ٦٠١٠ أطنان .

البارجة المدرعة (سوبرب) :

صنعت عام ١٨٧٥ - في وسطها بطارية مؤلفة من ١٢ مدفعا من عيار ١٠ بوصات (وزن المدفع ١٨ طنا) بها ٣ مدافع من عيار ٦ بوصات (وزن ٧ أطنان) منها اثنان يطلقان آليا ، أما الثالث فيدار وينقل ويطلق من طاقة يرتكز عليها - الطاقم ٦٢٠ رجلا - الحمولة الكلية ٩٠٠٠ طن .

البارجة المدرعة (بنلوب) :

صنعت عام ١٨٦٧ - في وسطها بطارية مؤلفة من ٨ مدافع (من عيار ٨ بوصات) يرتكز كل أربعة مدافع منها على طرف من طرفها - علاوة على ٣ مدافع من عيار ٤٠ ليبرة (زنة ٣٥ طنا) الطاقم ٢٢٣ رجلا - الحمولة الكلية ٤٤٧٠ طنا .

سفن المدفعية (غير المدرعة) :

- السفينة (كونسور) :

بها ٣ مدافع (منها واحد زنة ٧ أطنان - ٢ عيار ٦٤ ليبرة) الطاقم ١٠٠ رجل - الحمولة الكلية ٧٨٠ طنا .

- السفينة (يترن) :

بها ٣ مدافع (زنة الأول ٧ أطنان - و ٢ من طراز أزمسترونج ٤٠ ليبرة) - الطاقم ٨٠ رجلا - الحمولة الكلية ٨٠٥ أطنان .

- السفينة يسكون :

بها ٤ مدافع - الطاقم ٧٥ رجلا - الحمولة الكلية ٤٣٠ طنا .

- السفينة (ديكوى) :

بها ٤ مدافع - الطاقم ٥٩ رجلا - الحمولة الكلية ٤٥٥ طنا .

مقارنة بين مدفعية الحصون المصرية ومدفعية الاسطول البريطاني يوم ١١ يولية ١٨٨٢

ملاحظات	مدفعية الاسطول البريطاني المهاجمة					مدفعية الحصون المصرية المدافعة				
	المدافع	عيار المدفع	وزن المدفع	جملة العيار	جملة الوزن	المدافع	عيار المدفع	وزن المدفع	جملة العيار	جملة الوزن
	١	٢	٧	٧	٧	٢	٧	٢١	٢١	٢١
	٨	٨	٩	٦٤	٧٢	١٢	٨	٩	٩٦	١٠٨
	١٦	٩	١٢	١٤٤	١٩٢	٢٢	٩	١٢	١٩٨	١٠٨
	٣٨	١٠	١٨	٣٨٠	٦٨٤	٨	١٠	١٨	٨٠	١٤
	١٠	١٢	٢٥	١٢٠	٢٥٠					
	٤	١٦	٨٠	٦٤	٣٢٠					
	٧٧			٧٧٩	١٤٢٥	٤٤			٣٩٥	٢٥١

البحث عن ذريعة للحرب

شرع الاميرال « بوشامب سيمور » اعتبارا من أول يولية عام ١٨٨٢ - يلتمس الأسباب والذرائع التي تدعوه لبده القتال وتحطيم تلك الروح المصرية الجديدة المتطلعة إلى الحرية والاستقلال والتي مثلها الزعيم أحمد عرابي^(١).

وفي هذا يكتب اللورد « كرومر » فيما بعد :

« كان صبر بريطانيا - حكومة وشعباً - قد نفذ تماما . . فطوال عام ونصف كان كل انسان يرى أن شيئا ما يجب عمله بسرعة للقضاء على عرابي باشا .

ففي يوم ٥ يولية انعقد مجلس الوزراء المصري الذي حمل فيه عرابي باشا حملة شعواء على سلطان تركيا وأصدر أوامره إلى جميع ضباط الجيش بالكف عن الاتصال بدرويش باشا ، وقبل ذلك وفي يوم ٣ يولية . . كان اللورد الستر (الاميرال بوشامب سيمور) قد كلف بالعمل على وقف أعمال التحصينات المصرية . . فإن لم تتوقف فإن عليه تدميرها وإسكات البطاريات إذا أطلقت النيران . لقد ابلغ هذا الاتفاق إلى فرنسا ودعيناها إلى الاشتراك في العمل كما أبلغت بقية دول أوروبا به. وفي ٥ يولية صرح المسيو « فريسييه » اللورد « لونز » بأن حكومته لا تستطيع إصدار تعاليمها إلى الاميرال « كونراد » للاشتراك مع الاسطول البريطاني في وقف إقامة البطاريات ونصب المدافع

(١) يذكر بعض المؤرخين أن الاميرال « سيمور » كان لديه سببا شخصيا يدفعه إلى الإسراع في البدء بالقتال بقدر ما يمكن . . ذلك أن أسطول بحر المانش كان قد تلقى الأوامر بالاقلاع إلى البحر المتوسط للانضمام إلى أسطول سيمور للمعاونة في ضرب الاسكندرية ، ولما كان الاميرال دويل - قائد اسطول المانش - أرق رتبة من سيمور ، فقد خشي الاخير من اشتراكه معه وبذلك تؤول اليه القيادة العامة للاساطيل وينسب إليه (شرف) الانتصار المرتقب .

بالقوة المسلحة لأنها تعتبر هذا الاجراء عملا عدائيا لمصر وهو ما لا تستطيع الحكومة الفرنسية الإقدام عليه بغير مخالفة الدستور الفرنسي الذى يحرم القيام بالحرب بغير موافقة البرلمان .

يقول اللورد « كرومر » :

« ولما كان رأى العام البريطانى والحكومة البريطانية قد اتفقت وجهة نظرهما قبل ذلك على الكف عن الخطط السياسية التى تشبه نسيج العنكبوت ، والتى كانت تقف دائما عقبة فى طريق أى عمل مثمر ومكنت عرابى باشا من تحدى أوروبا ، فإن الفرصة قد سنحت لنا من تلقاء نفسها للقضاء عليه .. فى تاريخ سابق هو ٢٣ يوليو ١٨٨٢ . وصل إلى علم الاميرالية البريطانية بأن بطاريات السواحل المصرية يتم تجهيزها فى الإسكندرية لاستخدامها ضد الاسطول البريطانى ، وأن السلطان (سلطان تركيا) قد أمر بوقف هذه الأعمال فتخذ المصريون أوامره لبعض الوقت فقط ثم استأنفوا تجهيزها بعد شهر واحد ، إلى جانب العمل على حشد حامية الإسكندرية وقيام عرابى باشا بتحريض زملائه على إثارة شعور الجماهير - انتهى ما كتبه كرومر .

ولاقى الكتاب الأزرق البريطانى لعام ١٨٨٢ ثبوت نية العدوان والتحرش من الجانب البريطانى :

وليسمح لى القارىء - دون أن أتدخل بالتعليق إلا فيما ندر - أن أورد فيما يلى بعض ما أثبتته الوثائق الرسمية التى أصدرتها الحكومة البريطانية فى كتابها الأزرق لعام ١٨٨٢ والتى تثبت بجلاء الغدر البريطانى الذى تمثل فى العمل بكل السبل للتحرش بالمصريين وضرب أحمد عرابى مثل الاتجاه المصرى الجديد نحو الحرية والتخلص من النفوذ الأجنبى .

« سيمور » : الاساطيل فى فسخ عرابى :

فى الأول من يولية - وحسب الخطة المتفق عليها مع الاميرالية البريطانية والحكومة بدأ الاميرال بوشامب سيمور فى تنفيذ التمثيلية التى يمكن تشبيهها بقصة الذئب والحمل من أجل البحث عن الثريعة المناسبة للتدخل واحتلال الاسكندرية .

وهكذا أرسل الاميرال « سيمور » فى يوم ١١ يولية ١٨٨٢ البرقية التالية إلى الاميرالية البريطانية من الإسكندرية ويقول فيها :

« لقد شوهدت مراكب مشحونة بالمواد المفرقة على مسافة قريبة من الجسر (يقصد قناة السويس) وفى هذا الموقع معسكر كبير للبدو . ومعسكر الزقازيق تلقى أوامره بمحشد ٣٠ ألف رجل مزودين بالفتوس والأجولة (مما يعنى أن النية معقودة على سد قناة السويس) وتلقى الأهالى تعليمات بالتزود بالأسلحة ، وفى الإسكندرية وحصونها ما يربو على عشرة آلاف جندى ، وعربات الإمداد بالعساكر الاحتياطية تلور باستمرار . ويقول « عرابى رأى أن النجى يزوره كل ليلة ، ويأمل أن تقع الاساطيل المتحدة فى فخ ينصبه . وذلك بأن يفرق مراكب محملة بالأحجار فى القناة » .

الاميرالية البريطانية : دمروا الحصون ! :

وتأتبه إجابة الاميرالية البريطانية والتى يمكن معرفة فحواها من البرقية الصادرة من مجلس الاميرالية البريطانية إلى الاميرال « سيمور » والمؤرخة فى ٣ يولية ١٨٨٢ وتقول فيها :

« امنعوا كل محاولة يراد بها غلق مدخل البوغاز الموصل للميناء (قناة السويس) ، وإذا بوشر إعادة العمل في الحصون أو نصبت فيها مدافع جديدة فأخبروا قائدها الحربي بأن لديكم أوامر بالحيولة دون ذلك ، وإذا لم يوقف العمل في الحال ، فدمروا الحصون وأسكتوا المدافع إذا أطلقت النيران ، وذلك بعد أن تعطوا الأمان والسفن التجارية أو الحرية الأجنبية المهلة الكافية » .

« سيمور » مهلة للأوروبيين للهجرة :

ويعاود الاميرال سيمور في اليوم التالي - ٤ يولية - إرسال برقية جديدة إلى الاميرالية يقول فيها :

« نصب مدفعان جديدان في قصر (قلعة قايتباي) في الليلة الماضية كما قوى حائطه المواجه للبحر أيضا ، ويفضل للتوصل الجنرال أن أوجل توجيه الإنذار إلى صباح يوم الخميس لكي يجد الأوروبيين فرصة للهجرة من القاهرة ولم يحدث أى تغيير في الواجهات المشرفة على البحر . وطلب منى الاميرال الفرنسى معلومات فوردت له الإجابة من القائد الحربي « بوسى » و « عرابى » اللذين أرسلوا الاميرال المصرى ليؤكد أنه ليس هناك أية فكرة بعمل سد ما في مدخل القناة » .

انسحاب الاسطول الفرنسى :

وفي يوم الخامس من يولية ١٨٨٢ ، اخبر مسيو « فريسنيه » رئيس مجلس وزراء فرنسا لورد ليونر سفير انجلترا في باريس الذى أبلغ بدوره لورد جرانفيل أنه قد وردت إليه في الصباح برقية من الاميرال كونراد قائد الاسطول بمياه الإسكندرية عن التعليمات التى تلقاها الاميرال سيمور من أجل النيات التى نسبت للحكومة المصرية وقيل عنها أنها موجهة ضد الاسطولين الفرنسى والبريطانى ، ثم قال الوزير الفرنسى للسفير البريطانى أنه قد جمع مجلس الوزراء لبحث المسألة فقرر أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تعطى تعليمات للاميرال كونراد بأن ينضم للاميرال « سيمور » إذا وجه الأخير إنذارا نهائيا للمصريين فيما يختص بتحسيناتهم وأن يتراجع إذا صمم الاميرال البريطانى « سيمور » على القتال .

وهكذا أصبحت بريطانيا - بعد انسحاب الاسطول الفرنسى من مياه الإسكندرية - مطلقة اليدين أمام مصر ، وهو ما كانت بريطانيا - في واقع الأمر - ترنو إليه من قبل لغزو مصر والقضاء على (أحمد عرابى) .

« سيمور » لم يوضع أى مدفع جديد :

وفي السادس من يولية ١٨٨٢ ، يكتب « سيمور » من جديد إلى الاميرالية البريطانية برقية يقول فيها :

« لقد أكد لي القائد العسكرى رداً على مذكرتى المؤرخة بتاريخ اليوم بأنه لم يوضع أى مدفع جديد في الحصون المصرية ولم ينجز عمل ما ، وصادق « درويش باشا » على صحة ذلك ، ولم تحدث أية إشارة تدل على القيام بأعمال جديدة من بعد ظهر أمس : . ويجوز أن ذلك إنما كان امتثالا لأمر السلطان ، وسوف لا أتردد في الضرب إذا واصلوا هذه الأعمال : وقد تلقى الاميرال الفرنسى الأوامر من حكومته بالتراجع هو وبوارجه إذا بدأ العدوان » .

قناصل الدول الكبرى يناشدون « سيمور » :

وفي السابع من يولية ١٨٨٢ ، كان واضحاً تماماً لقناصل الدول الكبرى بالاسكندرية أن الاسطول البريطاني ما أتى إلى مياه اسكندرية إلا لكي يدمرها ويحتل مصر ، وبخاصة بعد أن تسرب إليها ومنها بعض المعلومات التي تؤكد نية بريطانيا العظمى في ضرب مصر والقضاء على نفوذ « أحمد عرابي » والقوة العسكرية المصرية الجديدة .

وهكذا أرسل قناصل الدول الأجنبية بالاسكندرية هذه المذكرة الجماعية التي وقعوها رسمياً وجاء فيها :

« إن وفرة مصالح رعايانا الكثيرة العدد بالإسكندرية الآن والذين لهم أملاك كثيرة جداً تضطرننا إلى أن نستعلم من جنابكم عما إذا كنتم تعتبرون إجابة الحكومة المصرية الخاصة بالتحصينات مرضية . . ونحن نرى أنه في مقلورنا أن نحصل على تأكيدات منها ترضيكُم الرضا التام إذا كان لم يزل يترأى لكم أن الإجابة المذكورة غير وافية . وسنكون شاكرين غاية الشكر إذا عرفتمونا أن هذه المسألة قد سويت وانتهت ، أما إذا كان الأمر على غير ذلك فأفيدونا عن نعتد عليه في ترحيل رعايانا ، وعلى أية حال لا يمكن أن يتم ضرب الإسكندرية بدون أن يجر ذلك أخطاراً جمة على المسيحيين والأهالي معاً ، ولا بدون تدمير ما لا يحصى من أملاك الأوروبيين ، وستستقبل بمزيد السرور تكريمكم برفع هذه المذكرة إلى حكومتكم قبل أن تنفذ أوامرها التي صدرت بشأن هذه المسألة . »

« سيمور » : هدفى هو عرابي فقط ! :

ولا يجد الاميرال « سيمور » مفراً من الاعتراف لهؤلاء القناصل بهدفه الحقيقي وهدف حكومته ، فيكتب من على ظهر سفينة القيادة رسالة إلى قناصل الدول الأجنبية يرد فيها على مخاوفهم التي أبلغوها له في ذات اليوم يقول فيها :

سـادتي . .

اتشرف بإبلاغكم بوصول مذكرتكم الاجماعية التي بعثتم بها إلى اليوم تسألونني فيها عما إذا كنت مرتاحاً من إجابة القائد العسكري المصري على خطابي الذي أرسلته إليه بالأمس . . وإني أشكركم كثيراً على ما عرضتموه على بشأن الحصول من القائد العسكري المصري على ما رضى به . كنت أرغب في تأكيدات منه أوفى من الأولى ، كما أرجو أن تقبلوا وافر شكرى على الاقتراح الذي نلطفتم بتقديمه إلى ، فإذا كان نفوذكم لدى القائد العسكري المصري يمكن أن يحمله على التصرف بإخلاص ويحول دون استمراره في أعمال التحصينات ، فإنكم بذلك تصيرون الهدف المقصود لأن التأكيدات المكتوبة مهما تكن عباراتها فهي قليلة القيمة بالنسبة للمصالح التي أوتمنت عليها .

يلزمني أن أؤكد لكم إنى لا أنوى ولا قلت مطلقاً إننى أقصد أن أضرب الإسكندرية ، فإن أعمالى الحربية إذا أمست ضرورية فستوجه إلى الحصون ولا أرى سبباً للخوف من وقوع تلف يصيب الاملاك الخصوصية التي أنتم في وجل من أجلها .

وسأبلغ حكومة جلالة الملكة الملاحظة التي لقم نظرى إليها في الفقرة الاخيرة من خطابكم ويجب أن أحرص مع التدقيق على نص بلاغى الذي أرسلته إلى القائد الحربى المصرى .

وعلى أية حال فسيعطى إنذار نهائى مدته ٢٤ ساعة فقط . . واتشرف بإبلاغكم تحياتى . . .

كارترابت : ترحيل الرعايا الانجليز :

ويرسل المستر كارترابت من ظهر البارجة هيلكن الراسية في مياه الإسكندرية برقية إلى وزير الخارجية البريطانية في نفس اليوم - ٩ يوليو ١٨٨٢ يقول له فيها :

. . سيدى اللورد

اتشرف بإخباركم أنه اتصل بالاميرال سيمور أن مدفعين جديدين قد نصبوا صباح اليوم بمحمن السلسلة القائم تجاه الميناء الجديدة .

ولا يستطيع الاميرال أن يلزم الصمت حيال هذا العمل العدواني (١١) فقرر أن يطلق النار عند شروق يوم الثلاثاء الجارى . ولقد اخطرت في هذا المساء القناصل الجنرالية (العامة) والحديو ودرويش باشا - وسأهل الترتيبات اللازمة لترحيل الرعايا الانجليز على البواخر في هذا المساء أو صباح غد .

وفي ذات اليوم - ٩ يولية ١٨٨٢ - وجه قنصل انجلترا في مصر برقية إلى رعايا الإنجليز للتوجه إلى السفن البريطانية الراسية بمياه الإسكندرية جاء فيها :

إلى قناصل الدول :

اتشرف بإخباركم أنه من المرغوب فيه إعلان كافة الاشخاص التابعين لحكومتم بأن يكونوا في البواخر الراسية في الميناء خلال ٢٤ ساعة تمر من تاريخ هذا الإعلان .

قنصل بريطانيا : قطع العلاقات مع مصر :

وفي صباح يوم ١٠ يولية ١٨٨٢ ، كانت الاحداث تتدافع في اتجاه الحرب بعد أن قام الاميرال « بوشامب سيمور » بتعليمات حكومته في لندن بإعداد ساحة القتال وتنفيذ التخليية بدقة . يرسل قنصل بريطانيا في مصر برقية عاجلة إلى « درويش باشا » - مندوب السلطان العثماني في مصر يقول له فيها :

. . إلى صاحب السعادة درويش باشا :

بناء على بلاغ الاميرال « بوشامب سيمور » الذى وجهه إلى قائد الإسكندرية الحربى في صباح هذا اليوم أرانى - بصفتى وكيل قنصل جنرال حكومة صاحبة الجلالة الملكة - مضطرا إلى أن اخلى وكالة جلالها بالإسكندرية وأن أقطع - مؤقتا - العلاقات التى كانت إلى الآن بينى وبين نظارة الخارجية المصرية ، ثم أخبركم بإننى مكلف بأن أعلن سعادتم بالضرورة الماسة لكفالة سلامة سمو الحديو في كل الظروف وأن حكومة جلالة الملكة تأمل من سعادتم أن تشملوا وقاية سموه وأسرته بكل أنواع الاحتياطات التى تستدعيها الأحوال باستعمال نفوذكم المستمد من نيابتكم عن جلالة السلطان ، وانكم لتعلمون أن سموه لا ينكص أمام الاخطار الجسيمة التى يعرض لها موقفه الحالى بسبب نحملة أوفر نصيب مما تفرضه عليه الواجبات ، فحكومة صاحبة الجلالة البريطانية كلفتنى بأن أعلم دولتكم بأن عليكم - بحسب رأيها - مسئولية وقاية سموه من كل خطر ودرء الاخطار التى يمكن أن تحيط بسموه في أثناء هذه الحوادث .

هل بدأ صبر « سيمور » يتفقد ؟ :

في يوم ٧ يولية ١٨٨٢ ، بدأ صبر الاميرال « سيمور » في التفاد . . نراه يرسل البرقية التالية من ظهر البارجة « انفسيل » إلى القائد الحربى المصرى يقول فيها :

« اتشرف بإبلاغكم إني علمت عن طريق رسمى أن مدفعين جديدين قد نصبا أمس ٧/٦ في خطوط الدفاع المشرقة على البحر وأن بعض استعدادات حرية على وشك الانجاز في مواجهة الإسكندرية الشمالية الغرض منها تهديد الاسطول الذى تحت قيادى فيجب على والحالة كذلك أن أعلنكم إن لم تأمروا بالإقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالإقلاع عنها ، يكون من واجبي ضرب الحصون الجارى فيها البناء .

واتشرف بأن أكون في خدمتكم :

القائد المصرى : التى في شريف عواطفكم :

ويرد اللواء « طلبه باشا عصمت » - القائد الحربى المصرى لمدينة الإسكندرية - على برقية الاميرال المتعطش إلى الحرب رداً يحاول فيه تفويت غرضه ، يقول له فيها :

الإسكندرية في ٧ يولية :

عزيزى الاميرال الانجليزى :

اتشرف بأن اخبركم بوصول خطابكم المؤرخ في ٧ يولية والذى تذكرون فيه أنه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمالا أخرى على وشك أن تقام على شاطئ البحر ، فردا على ذلك أريد أن أؤكد لكم أن الاخبار المذكورة عارية من الصحة ، وأن هذه الأخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم من كذبه .

هذا وانى لوائى من شريف عواطفكم المتشعبة بروح الإنسانية وأرجو قبول احتراماتى .

الامضاء

طلبة عصمت

لواء - قائد القسوة

« سيمور » يستعد للقتال :

بعد ٤٨ ساعة ، وفي يوم ١٨٨٢/٧/٩ يرسل الاميرال بوشامب سيمور البرقية التالية إلى الاميرالية البريطانية والتى يكشف فيها عن عزمه على تنفيذ المخطط المعد من قبل ويقول فيها :

« لىء إلى برقى المؤرخة في ١٨٨٢/٧/٤ أقول أنه ليس هناك أدنى ريب فيما يتعلق بالنسايح ، وإنى سأخطر قناصل الدول الأجنبية غدا عند شروق الشمس وأشرع في الضرب بعد ٢٤ ساعة إن لم تسلم إلى الحصون القائمة على البوغاز والتى تشرف على مدخل الميناء » .

إجابة منزلة من درويش باشا :

وفي نفس التاريخ - العاشر من يولية - يرسل « درويش باشا » - نائب السلطان بمصر - برقية منزلة إلى القنصل البريطاني بمصر رداً على برقيته السابقة ، يقول له :

عزيزى نائب القنصل البريطانى :

. تسلمت خطابكم المؤرخ فى ١٠ الجارى والذي شرفتمونى بارساله إلى ويمكننى أن أؤكد لكم أنى بذلت غاية جهدى فى القيام بالمهمة الى تفضل جلالة السلطان وعهد بها إلى . ولقد عز على أن أدرك السبب الذى من أجله انساق الأسطول البريطانى فجأة منذ أمس إلى إبداء هذه النيات العدائية بعد أن لبث مدة طويلة ملقياً مراسيه فى ميناء الاسكندرية لم يظهر فيها إلا ميولا سلمية .

إن العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية وبريطانيا العظمى ما زالت باقية ، وحيث أن مصر هى إحدى ولايات السلطنة فكان فى استطاعة جناب الأميرال أن يعرض أولا وجوه شكايته التى استوجبت التدابير التى اتخذها بطريقة ودية .. وكان فى استطاعته مراجعتها والنظر فى وسيلة للملافة الشر . ومتى ظهر مرتكبو الأعمال التى أوجبت الشكوى يكن فى الاستطاعة إنزال العقاب بهم - ويبدو لى أننا لو تصرفنا بهذه الطريقة لكان الأمر قد آل إلى توطيد العلاقات الودية بين المملكتين عوضاً عن الانسياق فى تيار العدوان .

ولقد أتاحت الفرصة لسعادة (راغب باشا) ولوكيل نظارة البحرية أن يؤكد لكم وللأميرال أنه لم يخطر ببال الحكومة المصرية أن تعمل أى عمل يكرر صفو هذه العلاقات الحسنة .

ومن المهم البحث عن تقع عليه المسئولية إذا كان جواب نصريحات حكومة مشبعة بروح الحبة وحسن النية قد قدمت كل الوعود والتأكيدات الضرورية هو القيام بأعمال عدوانية لا تستند إلى المبادئ التى تسود العلاقات بين دولتين متحابتين - أما التنبيه الذى وجهتموه إلى أن أكفل بكل ما لدى من الوسائل سلامة الخديو ، فيجب أن ألفت أنظاركم أنه ليس من الصواب إيجاد تمييز بين شخصية الخديو توفيق باشا السامية وحكومته وإنه لمن الطبيعى جداً أن سموه ما زال يعنى بسلامة ومناء البلاة التى يحكمها أكثر مما يعنى بسلامة شخصه .

« سيمور » يقدم إنذاره النهائى :

أخيراً . . يبلغ الأميرال سير « بوشامب سيمور » الإنذار النهائى الذى كان يتحرق شوقاً إلى تقديمه لبدء المذبحة المروعة التى سرعان ما بدأت بعد قليل فى يوم ١٠ يوليو ١٨٨٢ ، أرسل الأميرال البريطانى الإنذار التالى الذى وجهه إلى قائد الاسكندرية الحرنى وجاء فيه :

من ظهر البارجة « أنفسييل » بالاسكندرية فى ١٠/٧/١٨٨٢ .

صاحب السعادة :

أتشرف بأخبار سعادتكم أنه نظراً لحدوث استعدادات حربية آخذة فى الازدياد منذ يوم أمس فى حصون (السلسلة) و (فاروس) - قايتباى - و (صالح) ، وهذه الاستعدادات موجهة بالطبع إلى الأسطول الذى تحت

قيادتي فقد عقدت العزم على أن أفتد غدا - ١١ الجارى - عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابي المؤرخ يوم ٦ الجارى إن لم تسلموا الى خلال هذه الساعة البطارية المنصوبة على بروزخ (ميناء) رأس النين وعلى شط ميناء الاسكندرية الجنوبي لمنع التسليح بها .

ولى الشرف أن أكون خادمكم المخلص ..

القنصل البريطانى : إخلاء القنصلية :

وفى يوم العاشر من يوايه ١٨٨٢ ، يوجه القنصل البريطانى برقية عاجلة الى « راغب باشا » - رئيس وزراء مصر - من على ظهر البارجة تنجور يقول فيها :

.. سيدى العزيز :

بناء على البلاغ الذى قدمه الأميرال السير « بوشامب سيمور » فى هذا الصباح إلى القائد الحربى بالاسكندرية أرائى مضطراً إلى أن أخلى قنصلية صاحبة الجلالة البريطانية وأن أقطع منذ الآن العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل وقنصل جنرال بالنيابة عن جلالتها فى مصر .

ولى الشرف أن اكون فى خدمتكم ..

رئيس وزراء مصر يقابل الأميرال « سيمور » :

عند وصول هذه الرسالة إلى « راغب باشا » توجه برفقة « عبد الرحمن بك رشدى » - ناظر المالية و « أتيجران بك » - سكرتير مجلس « النظار » - إلى البارجة ، انفسيل ، حيث دارت مناقشة طويلة مع الأميرال « سيمور » كان من نتائجها أن الأخير عدل عن إنذاره لينحصر فى إزال المدافع التى فى الحصون المشرقة على البحر ، على أن يقوم بهذه العملية الجنود المصريون تحت إشراف الضباط الإنجليز .

وهكذا غادر « راغب باشا » ورفيقاه البارجة بعد أن وعد بارسال الإجابة فى المساء ، وتوجهوا فى الحال إلى قصر « رأس النين » وعرضوا الأمر على الخديو « درويش باشا » مندوب السلطان العثمانى .

الخديو يدعو إلى جلسة غير عادية :

وهنا طلب الخديو توفيق ، عقد جلسة « غير عادية » لفحص الموقف وتمحيصه^(١) وكانت الجلسة حامية ودارت المناقشات الحادة جداً والتى سادت فيها الآراء المتضاربة إلى حد بعيد .

(١) حضر هذه الجلسة كل من الخديو « توفيق » و « المشير » « درويش » باشا - قدرى بك سكرتيره - أحمد أسعد عضو الوفد العثمانى - اسماعيل باشا رئيس النظار - أحمد باشا راشد ناظر الداخلية - عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية - أحمد باشا صرابى ناظر الجهادية والبحرية - على باشا ابراهيم ناظر الحقانية - سليمان اباطة باشا ناظر المعارف - محمود باشا الفلكى ناظر الاشغال - حسن باشا الشريمى ناظر الأوقاف - لطيف باشا من نظار البحرية السابقين - حافظ باشا من نظار المالية السابقين - محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب - اسماعيل باشا أبو جبل عضو مجلس الشيوخ - محمد باشا سعيد عضو مجلس الشيوخ - محمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية - قاسم باشا من وكلاء نظارة البحرية السابقين - محمد باشا المرعشلى مدير التحصينات العام السابق - محمود باشا فهمى مفتش التحصينات العام - طلبة باشا عصمت القائد الحربى لمدينة الإسكندرية « تيجران بك » سكرتير مجلس النظار .

« درويش باشا » : مقاومة الحصون :

يقول أحمد باشا شفيق في مذكراته :

إن درويش باشا قد توجه إلى طاية القنار مع محمد باور من ضباط الحرس الخديو لاختبارها واختبار المدافع المنصوبة فيها ، وقرر بعدئذ أنه بصفته من ضباط المدفعية يقرر أن الحصون والمدافع التي بها لا تستطيع مطلقاً أن تقاوم المدرعات البريطانية ، وقال أيضاً أنه لو كان واثقاً من أن مصر تستطيع المقاومة لتولى بنفسه قيادة جيشها ، ولذلك نصح « عراي باشا » بقبول طلبات الأميرال « سيمور » .

أما مرعشلى باشا - مدير التحصينات العام السابق - والذي حضر هذا الاجتماع الحافل ، فقد كان له رأى آخر في موضوع الإنذار البريطانى ، ولنستمع إليه ليعطينا صورة لما حدث في ذاك الاجتماع ، يقول « المرعشلى باشا » .

« . . . وسألنى حضرة الخديو عن موضوع الطوابى والإنذار ومدى تحمل هذه الطوابى لضرب الإنجليز . . . فقلت له : أن صاحب الوظيفة الآن (محمود باشا فهمى) هو الذى يوجه إليه مثل هذا السؤال .

وبتوجيه السؤال إليه أجاب : طوابى الاسكندرية تقاوم مقلدوفات الأسطول البريطانى لمدة ثلاثة شهور . وهنا فهمت من إجابته أنها إما أن تكون على جهل منه أو لغرض تقوية عزم العصاة (يقصد العراقيين) .

أما أنا فأجبت أن الطوابى لا تتحمل أكثر من ٢٤ ساعة :

« . . . وعندما سألنى الخديو عن رأى ، أجبت أن الطوابى لا تتحمل أكثر من ٢٤ ساعة إذا كان الضرب مستمرا و ٤ - ٥ ساعات كافية لتخريب الطوابى وأغلب المدافع تلقى على الأرض من إصابة المقلدوفات لكونها مكشوفة ويكون بداخل الطوابى مجزرة من العساكر القتلى والمصابين من الشرايكلات (القنابل) ومن انتشار قطع الأحجار التى تتناثر فى الأبنية العالية ، وهذا لكون الطوابى المذكورة مبنية منذ زمن بعيد بالنسبة لمقاومة الأسلحة القديمة . والأسلحة الجديدة لها تأثير كبير عن القديمة والمراكب الخشبية تغيرت بمراكب مدرعة ، وأما تلك الطوابى فإنه لم يحصل فيها تغيير .

اقرحت خطة لحقن الدماء :

« . . . يستطرد مرعشلى باشا - مدير التحصينات العام يقول عن تلك الجلسة :

« . . . فإذا كان النصب على الضرب ، فالأحسن لأجل حقن دماء العساكر لا يلزم دخولها الصوابى وقت الضرب حيث أن المدافع فى طوايينا من الطراز القديم ، ولا يكون لها أدنى تأثير فى المراكب الإنجليزية ، وفضلا عن ذلك فإن مدافع الإنجليز وعساكرهم فى غرف من الحديد . أما عساكرنا ومدافعنا فإنهم مكشوفون تنزل عليهم الشظايا الكثيرة مثل المطر وتتلفهم فى أقرب زمن ، وكان رأى أن يخفى الجنود من الطوابى حتى يتم تدميرها بواسطة الأسطول البريطانى ثم تقاومهم أثناء النزول على السواحل بعساكرنا « بما أنهم ليسوا من الطير حتى يمكنهم أن يطبخوا مسافة تبلغ نحو الألف وخمسمائة متر ويدخلوا الطوابى ، لأنهم متى أرادوا أن يتوجهوا إلى الطوابى يلزمهم تفريغ عساكرهم فى صنادل لأجل طلوعهم على الساحل ، وهنا يلزم على عساكرنا التى فى البر أن يستعدوا للمدافعة وعدم ترك الإنجليز

لأن يطلعوا على البر وفي ذلك صعوبة جداً للمهاجمين بالنسبة لفن الحرب . فلم يقبل قولنا وطعن في حقنا ، ونحن كذلك جاوبناه بما يلزم ، وترتب على ذلك أن اكتسبنا زيادة عداوة مع المذكورين علاوة على العداوة الأصلية وكانت مجاوبتنا لهم بما ذكر لأجل تخويف العصاة وارتجاعهم عن المقاومة وتنزيل المدافع بها . إن ذلك أخف الضررين .

« مرعشلى باشا » : محمود فهمى يعارضنى :

يقول « مرعشلى باشا » :

وكانت معارضة « محمود باشا فهمى » لى شديدة حيث قال انه حضر حرب الصوب وأنه نظر تأثير الشرايينات (القذائف) بكثرة وما كان يخاف منها .

كذلك عارضنى « طلبة باشا عصمت » بقوله :

« نحن يلزمنا أن نذبح بقنايل الإنجليز تحت المدافع ولا نتركها بدون عساكر . »

أما « عرابى باشا » فقد عارضنى كذلك بقوله :

« انه لو تركنا الطواوى بدون عساكر فإن الإنجليز بعد أن يخربوها فى الحال توضع بها بنديراتهم (أعلامهم) وقال أيضاً « هل قنايل الإنجليز تؤثر بطوايينا وقنايلنا لا تؤثر فى السفن ولم يقتنع هو أو غيره بحجتي التى سقتها عليه .

والى هنا تنتهى رواية « مرعشلى باشا » مدير التحصينات السابق عن الاجتماع العاصف الذى جرى فى أعقاب تسلم الحكومة المصرية الإنذار البريطانى الذى وجهه الأميرال « سيمور » إلى اللواء (طلبة باشا عصمت) قائد الاسكندرية الحربى .

رواية أخرى عن اجتماع الحكومة :

رواية أخرى عن هذا الاجتماع يرويها المسيو « بيوفيس » فى كتابه (الفرنسيون والإنجليز فى مصر) يقول فيها : « لقد كان الخديو « يرغب فى عقد اتفاقية صلح مع الإنجليز ولكن هذه الرغبة أثارت غضب المشيخ درويش باشا الذى ضرب المائدة بقبضة يده صائحاً :

« لا تنسوا أنكم جميعاً عبيد السلطان الذى مقره الآستانة . . وليس هنا محل المداولة . . وتسليم الحصون المصرية أمر يكسو المسلمين ثوب الخزى والعار . . . »

مصر ترفض الإنذار البريطانى :

على أية حال . . فقد رفضت الحكومة المصرية بعد هذا الاجتماع ، الإنذار الذى وجهه الأميرال « بوشامب سيمور » .والذى أصر فيه على ضرورة تسليم الحصون المصرية . وأرسلت ردها فى يوم العاشر من يولية ١٨٨٢ . وفيما يلى نص المذكرة المصرية .

لم تعمل مصر شيئاً يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة . . ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل بسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات ضرورية فى أبنية قديمة . . والطواوى الآن على الحالة التى كانت

عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا في وطننا وبيتنا . . فنحن بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الإنجليزية أنها باقية عليها .

ومصر الحريصة على حقوقها ، الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح . . فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم . . وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم عن مثل هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الإنسان ولقوانين الحرب .

« عرابى » يتحرك :

بفضل كافة الجهود التى بذلت ابتغاء التوصل إلى حل سلمى يمكن فيه تجنب القتال والذى تسبب فيه عناد الأدميرال « سيمور » لم يبق إلا تفويض الأمر للحديد والنار .

وفى ليلة ١١ يولية ١٨٨٢ أرسل « أحمد عرابى » أمراء الآليات « عبده بك محمد » و « مصطفى عبد الرحيم » و « سليمان بك سامى » قادة برنجى طويجية سواحل وقوسندان حصون إسكندرية ، وكان « عرابى » وقتذاك بالترسانة برفقة « محمود باشا فهمى » و « طلبة باشا عصمت » قائد حامية الاسكندرية و « محمد باشا كامل » وكيل نظارة الحربية .

فلما جاء إسمايل بك صبرى أخبره عرابى بأن الأسطول البريطانى سيفرض حصاراً على حصون الاسكندرية فى هبة اليوم التالى وأن المجلس فى رأس التين قرر عدم مجاوبة الأسطول إلا بعد الطلقة الخامسة وأضاف « عرابى » : « ومن اللازم أن تصدر أمراً بأن المجاوبة لا تكون إلا بعد الطلقة العاشرة » .

« عرابى » يصدر أوامر العمليات :

فى ذات الوقت أصدر أحمد عرابى الأوامر التالية استعداداً للقتال :

الآلأى الخامس مشاة (هـ جى قيادة) بقيادة أمير الآلأى « مصطفى بك عبد الرحيم » تتفرق خلف حصون المنطقة الثانية أى من قلعة قايتباى إلى حصن الفنار مع الآلأى الرابع المشاة بقيادة الأميرالآى « عبده بك محمد » وعلى الآلأى الأخير أن يقيم بباب شرفى بصفة احتياطى .

مكان خريطة لمواقع الحصون :

الآلأى السادس المشاة بقيادة أمير الآلأى ، « سليمان باشا سامى » تتفرق خلف الحصون بالمنطقة الثالثة (أى من حصن طابية صالح إلى حصن المعجمى) ومعه الآلأى الثانى المشاة بقيادة أمير الآلأى (خليل بك كامل) وعلى هذا الآلأى الأخير أن يقيم بالقبارى بصفة احتياطى .

الأورطتين من ١ جى سوارى (برنجى) تقومون بواجب الخلمة بصفة مراسلة بين مختلف الحصون والمراكز (كوسائل اتصال) .

الأميرال (سيمور) يصدر تعليمات القتال :

على الجانب الآخر - وجه الأميرال (بوشامب سيمور) - بتاريخ ١٠/٧/١٨٨٢ - إلى قادة وضباط البوارج البريطانية التابعة لصاحبة الجلالة الملكة بالاسكندرية الأوامر التالية :

من البارجة (أنفسييل) في ١٠/٧/١٨٨٢ .:

انه في حالة ما إذا لم أتلّق جواباً مرضياً على الإنذار الذي أرسلته إلى قائد الاسكندرية الحربى أطلب منه فيه أن يسلمنى مؤقتاً^(١) الحصون على ساحل الميناء الجنوبي (حصون المنطقة الثالثة من حصن صالح إلى حصن العجمى) - وحصون (رأس التين) - إذا لم أتلّق جواباً مرضياً يغير الأسطول بقيادتي على الحصون عقب انتهاء الأربع والعشرين ساعة وهي المهلة التي أمهلت بها المحايدين ليأرحوا المدينة خلالها - وهذه المدة تنقضي في الساعة الخامسة صباح يوم ١١ يولية .

وسيكون الهجوم من ناحيتين :

١ - الناحية الأولى : داخل الميناء وتشترك فيه (أنفسييل) و (مونارك) و (بنلوب) .

٢ - الناحية الثانية : خارج حاجز الأمواج ، وتشترك فيه (سويرب - تمرير - السكندرا - انفلكسييل) ويبدأ القتال عند صدور إشارة مني ، وفي هذه الحالة على السفينة الأكثر دنوا من سائر التراب الذي أقيم أخيراً في طابية (الاستبالية) التي بجوار الحصن (الأطية) أن تصوب قذيفة إلى هذا السائر وعندما تجاوب الحصون الأسطول الخارجى باطلاق النار يجب على السفن بذل كل مجهودها وتدمير البطاريات القائمة على شبه جزيرة (رأس التين) خصوصاً حصن الفناء المطل على الميناء ، ومتى تم ذلك تتجه (سلطان - سويرب - والكسندرا) إلى الشرق لتهاجم حصن (فاروس - قايتباي) وتهاجم حصن (السلسلة) إذا كانت مهاجمته في الإمكان .

وتتجه (أنفلسييل) في عصر هذا النهار نحو الموقع الذي يقرب من البوغاز الصغير الذي عين لها أمس وتستعد لضرب مدافع خط (المكس) ومساعدة الأسطول الداخلى عندما تعطى الإشارة بالضرب وتأخذ (تمرير) و (سلطان) و (الكسندرا) في ضرب حصون رأس التين من الجنب . أما السفن الصغيرة فتبقى في الخارج بعيدة عن منطقة القتال إلى أن تجد الفرصة المناسبة للهجوم على (المكس) .

ويجب على السفن أن تراعى في تنفيذ هذه المهام كلها دراعى الظروف مراعاة كبيرة بمراعاة الحالة التي يجب أن تقاتل وهي فيها ، فاما أن تقاتل وهي راسية في مراسيها أو تقاتل وهي متحركة ، وإذا كانت الحالة تدعو إلى قتالها وهي ملقبة مراسيها يجب حينئذ أن يزداد حبل من الفولاذ ، وعلى الجنود أن يتناولوا إفطارهم في منتصف الساعة الخامسة صباحاً . وأن يرتدروا ملابس العمل الزرقاء ، وسيكون الأسطول الداخلى تحت قيادتي الشخصية والأسطول الخارجى تحت قيادة الكابتن (هنت جرب) قائد البارجة (سلطان) .

(١) الفت النظر هنا إلى لفظ (مؤقتاً) - وهذا يؤيد أن «سيمور» ما كان سيكتفى بذلك حتى لو وافقت الحكومة المصرية على إجابة طلباته إذ كان سيبدأ في طلبات أخرى حتى يرفض المصريون في نهاية الأمر ، فيقوم بالهجوم على الإسكندرية واحتلالها حسب الخطة الميطة مسبقاً .

وتقوم السفينتان (هلكن) و (كندور) بوظيفة سفن الإعادة وبالحملة ينحصر الغرض من الهجوم في تخريب الحصون وتدمير البطاريات المنصوبة على واجهة بحر الاسكتلندية .

ومن المحتمل أن هذا العمل لا يمكن إتمامه في أقل من يومين أو ثلاثة ، فيجب استعمال المقلوفات مع الحرص ، وعلى كل حال من المرتقب قدوم الباخرة همبر HUMBER إلى هنا في ١٢/٧ وعليها مقدار كبير من الذخيرة :

وإذا وصلت البارجة (اتشلز) في الوقت المناسب – يجب عليها أن تهاجم حصن فاروس (قايتباي) والوقوف في الموقف الذي يأمرها قائد الأسطول الخارجي أن تتخذه .

وتقف (سلطان) على بعد ١٧٥٠ ياردة تجاه منتصف المسافة بين حصني (الفئار) و (رأس التين) بينما تقف (سوبرب) على بعد ١٩٥٠ ياردة تجاه حصن (الفئار) :

أما (بنلوب) و (مونارك) فتقفان على بعد يتراوح بين ١٠٠٠ – ٣٠٠٠ ياردة في الشمال الغربي من المكس .

الإمضاء

« أميرال وقومندان القيادة »

« بوشامب سيمور »

أدلة دامغة على سوء نية الأميرال سيمور :

وبنظرة مدققة وموضوعية – يمكننا إثبات سوء نية بريطانيا وأداتها (الأميرال سيمور) – وإن كنت أعتقد أنها ليست بحاجة إلى إثبات – وذلك فيما يلي :

أولاً : سيمور يرفض إبداء حسن النية من قبل الحكومة المصرية :

ففي محاولة لحقن الدماء – قامت الحكومة المصرية بوساطة رئيس نظارها (راغب باشا) بارسال برقية إلى الأميرال (سيمور) في ١٠/٧/١٨٨٢ – تخبره فيها بأن الحكومة المصرية لا يمكنها قبول تسليم الطوابي للانجليز – ولكنها حقناً للدماء – يمكنها أن تقوم بانزال ٣ مدافع من البطاريات التي أشار إليها (سيمور) في إنذاره « للبرهنة » على ميولنا السلمية ورغبتنا في تلبية طلبكم على قدر الإمكان على حد تعبير (راغب باشا) الذي أضاف في نفس البرقية يقول :

وإذا كنتم تصرون – رغم هذه التقدمة – على إطلاق النار فالحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق وتلقى مسئولية هذا العمل العدائي على عاتقكم .

ولكن (سيمور) رد على هذه الدعوة إلى السلام رداً فاتراً سلبياً جاء فيه :

« أتشرف باخباركم بوصول المؤرخ في ١٠/٧ وإنني آسف أن أخبركم أنه ليس في استطاعتي أن أقبل ما عرضتموه في هذا البلاغ » :

ثانياً : ترتيب وضع للبوارج :

ومن تعليمات القتال التي أصدرها (سيمور) إلى بوارجه يوم ٧/١٠ يؤخذ في ترتيب هذه البوارج (عدا البارجتين أنفسييل وتمرير) ووضعها في هذه المواقف أن الأميرال (سيمور) أراد أن تكون المسافة التي يطلق منها هذا الأسطول قذائفه (وخصوصاً الأسطول الداخلي) قصيرة وقريبة من الحصون — على الرغم من بعد مرمى مدافع سفنه الضخمة ، وهذا يعني أن المخاوف التي كان يرددها الأميرال (أو التي يتظاهر بأنه يخشى منها) كانت في حقيقة الأمر مخاوف مختلفة لا أساس لها من الصحة — فقط أراد بها تبرير عمله الإجرائي .

ثالثاً : ان هذا الأميرال لم يكن يخشى ضرراً كبيراً من المدفعية المصرية التي توجد بالحصون ، ولذا اقترب منها هذا الاقتراب الكبير لمعرفته التامة بقصر مرمى المدافع المصرية وضعف تأثير مقلوباتها .

رابعاً : علم الأميرال (سيمور) التام بأن هذه الحصون كلها (عدا قلعة قايتباي) كانت مدافعها في العراء بلا وقاية تقي جنودها ، والدليل على ذلك أنه أمر باستعمال مدافع أسلحته الصغيرة (الرشاشات) المنصوبة في الطبقات العليا من البوارج بغرض الفتك بأطقم الجنود الطوبجية — وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لجميع الحصون عدا الطابية المذكورة .

المعركة

الأميرال « سيمور » يعطي إشارة البدء بالضرب :

في الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يولية عام ١٨٨٢ أعطى الأميرال (سيمور) إشارة بدء القتال ، وبذلك دخل التاريخ بوصفه أحد مجرمي الحرب غير مبال بحقوق الشعب أو سيادة الدول واستقلالها .

البارجة (الكسندرا) تطلق القذيفة الأولى :

وتنفيذا لتعليمات الأميرال السابق الإشارة إليها ، أطلقت (الكسندرا) التي كانت أقرب البوارج إلى حصن (الاسبتالية) القذيفة الأولى على ذلك الحصن واقتدت بها بقية البوارج فأطلقت مدافعها .

الطواقي المصرية تجيب على النيران بعد الطلقة الخامسة :

وقد بدأت البوارج الإنجليزية في ضرب الحصون حسب الخطة الموضوعة من قبل ، فضربت أولاً حصون الفنار ورأس الثين والاسبتالية وكانت ثلاث منهن متحركة وهي (سلطان — سوبرب — الكسندرا) أما البارجة (انفسيل) فكانت ملقبة مراسيها في المعر الصغير لتعاون الأسطول الداخلي مصوبة مدفعين من مدافعها (زنة المدفع ٨٠ طناً) لضرب الحصون سالفة الذكر ، ومدفعين في برجها الخلفي لضرب حصون المكس .

البارجة (تمرير) تشحط في الرمال ،

أما البارجة (تمرير) فقد شحطت (غرزت) في الرمال أثناء المناورة ولكنها واصلت الضرب وهي مكانها إلى أن جاءت البارجة (كندور) لتعويها .

وقد قاومت الحصون المصرية - رغم الحالة التي كانت عليها مقاومة فاقت كل ما كان يتوقعه الإنجليز ، وأبدى جنود المدفعية المصريون مهارة في إطلاق القذائف نأذملت البريطانيون مما دفع بالبوارج إلى إلقاء مراسيها لأنها وجدت أن ضربها غير محكم وهي تتحرك وبذلك حققت المسافة المضبوطة التي تفصلها عن الحصون وأخذ ضربها يزداد أثره تبعاً لذلك .

إسكات حصون رأس التين والقنار والاسبتالية بعد ست ساعات ونصف ساعة :

وبانضمام البارجتين (انفسيل) و (تمرير) إلى هذه البوارج الثلاث أمكنها إسكات الحصون سالفة الذكر في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر بعد قتال جهنمي دام ست ساعات ونصفاً - ولقد ظل أحد المدافع في حصن (الاسبتالية) يطلق قذائفه حتى الساعة الخامسة مساء رغم إصابة أفراد أطقمه .

القائد البريطاني (جودريتش) : جنود المدفعية المصرية أظهروا بسالة عجيبة :

يعلق القائد البريطاني (جودريتش) على المعركة - غير المتكافئة - فيقول :

ان جنود المدفعية المصريين جاوبوا على نيران الأسطول الإنجليزي الجهنمية مجاوبة مدهشة لم تكن متوقعة تماماً ، وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم من حيث أعداد المدافع وأعيرتها . . . ولقد كانت البارجة (انفسيل) عندما تطلق مقلوفاتها التي تزن القذيفة منها ١٧٠٠٠ رطل على حصن القنار وتصطدم بساتره الضخم تثير الأتربة والشظايا إلى ارتفاع القنار نفسه ويتخيل المرء عندما يرى ذلك أنه ليس في استطاعة البشر أن يعيش تحت هذه النيران ، ولكن عندما ينقشع التراب والدخان بعد بضعة دقائق - يرى جنود المدفعية المصريين في مواقعهم يطلقون النيران من مدافعهم على خصمهم الرهيب .

البوارج البريطانية تتحول إلى حصن (الأطة) :

في منتصف الواحدة بعد الظهر ، وبعد إسكات الحصون الثلاثة المذكورة اتجهت البوارج الثلاث نحو حصن (الأطة) بعد أن انضمت إليها البارجة (انفلكسيل) و (تمرير) للمشاركة في القتال ، وهكذا ظلت البوارج الخمس تصوب نيرانها دفعة واحدة إلى الحصن المنكود الذي دافع عن نفسه دفاعاً عجبياً أمام أقوى قطع الأسطول البريطاني .

الكابتن (وولتر جود سول) : لقد عجبت لهذه البطولة الرائعة :

ولقد سلك هذا الحصن مسلكاً باهراً غاية في البسالة والإقدام جعلاً شاهد العيان الكابتن البريطاني وولتر جود سول (قائد الباخرة تشتلرن) والذي شاهد المعركة يومئذ يقول :

لقد عجبت من هذه البطولة التي لا يمكنني أن أدرك كنهها والتي كانت تسيطر على هؤلاء الجنود المصريين الذين كانوا يطلقون مدافع (الأطة) ، كما عجبت أشد العجب من الموقف الذي وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه وهو بمفرده والمنظار في يده ينظر من خلاله الأثر الذي تحدثه المقلوفات التي كان يأمر بإطلاقها .

كان القائد المصرى حقاً رجلاً شجاعاً :

لقد كان حقاً رجلاً شجاعاً مزدرياً عدد المقلوبات التي كانت تلتى على حصته — ذلك الحصن الذى كان يحارب هذه المقلوبات بإطلاق مقلوباته كلما مرت عشر دقائق ، ثم رفعت البارجة (انفلكسيل) مرساتها وشرعت تصوب قنابل مدافعها الضخمة إلى هذا الحصن ، ويظهر أنها دكت أساسه ودمرته تدميراً — وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر سددت قذيفة إلى مخزن ذخيرته ولا بد أنها أصابته لأنه انفجر فى منتصف الساعة الثالثة ونصف تماماً ولا بد أيضاً أنه قد قتل جنود كثيرون فى هذا الحصن لأن عدداً كبيراً منهم طار أما القائد المصرى الذى كان واقفاً فيه وقفة الأسد فى عربته ، فقد طار هو الآخر فى الفضاء هو وصارى علمه .

البوارج تتحول إلى حصن قايتباى :

وعقب ذلك اتجهت البوارج الخمس إلى قلعة (فاروس) ، قايتباى ، وظلت تصلبها ناراً حامية إلى الساعة الخامسة مساءً — وهى الساعة التى أعطى فيها الأميرال (سيمور) إشارة لإيقاف الضرب .

القلعة المصرية تستمر فى القتال رغم تدميرها :

ولقد أصيبت هذه القلعة إصابات جسيمة ، ولكنها رغم ذلك — ظلت تطلق النيران على البوارج البريطانية إلى أن نفذت جميع الذخائر الموجودة بها .

الهجوم على حصون (أم قبيلة — مكس — الدخيلة) :

أما بالنسبة لمنطقة المكس والدخيلة ، فقد عيّنت للتعامل معها البوارج الثلاث (انفسيل — بنلوب — مونارك) تحت قيادة الأميرال سيمور مباشرة وقد تمكنت البوارج المذكورة من إصابة مخزن الذخيرة الذى يقع خلف حصن الدخيلة ، وذلك أثر قذيفة من قذائف البارجة (مونارك) فدمر عن آخره .

الأميرال يأمر بالاقتراب من الشاطئ ويحق رجال المدفعية :

وعقب ذلك مباشرة أشار الأميرال (سيمور) إلى البارجة (مونارك) للاقتراب من الشاطئ بقدر ما يسمح به غاطسها لتقوم — بواسطة الرشاشات الموجودة بها — بقتل من تبقى من الجنود فبدأت فى مباشرة هذه المهمة الجهنمية على الفور .

القائد البريطانى : لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى :

ولقد كان من ضمن القادة البريطانيين خلال هذا اليوم الطويل الماجور (تلك Tullok) أحد رجال قلم المخابرات — على ظهر البارجة (انفسيل) أمام حصن المكس — يقول هذا القائد^(١) :

لقد كان حقاً من العجب أن أرى هؤلاء الجنود — رغم شدة الضرب — واقفين فى أماكنهم ملازمين لمدافعهم ، وقد رأيت أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل فى إحدى فتحات مدافعهم فأقول فى نفسى لقد قضى على هذا

(١) فى كتابه « ذكريات أربعين عاماً فى الخدمة » : ص ٢٧٧

المدفع وأمسى في حيز العدم ، ولكنى لا ألبث بعد ذلك حتى أقول كلامي كلاً . . فقد كان الضرب من هذا المدفع يستمر في الوقت المناسب ، وقد أتى مرة من المرات بسرعة فائقة جداً ، حتى لم أتمكن نفسي ووثبت إلى حافة البارجة ورفعت يدي صائحاً : لقد أجدت العمل أيها الجندي المصري .

لتدمير حصن المرباط :

ولقد رأت البارجة (كنتور) أن حصن المرباط يطلق مدافعه على البوارج البريطانية بأحكام فاقتربت منه وبدأت تهاجمه لتدميره وحينئذ أمر الأميرال (سيمور) السفن الأربع الصغيرة (سفن المدفعية) بمعاونة (كنتور) في الهجوم ففعلت وتم تدمير الحصن تماماً .

حصن (القمرية والمكس) يتأهبان مرة أخرى :

وفي منتصف الساعة الرابعة أمرت البارجة بنلوب الأميرال سيمور كما أبلغته البارجة (مونارك) بعودة جنود حصن (المكس) تأهباً للضرب فأمر بتدميرهما تماماً — وهكذا بدأت البارجتان الضرب على الحصنين المذكورين حتى الساعة السادسة والنصف مساء حيث توقف الضرب .

القائد العام لا يستطيع إخفاء إعجابه من شجاعة « هؤلاء المصريين » :

ويصف الملاجور (تلك Tullok) في كتابه المشار إليه (ذكريات أربعين عاماً في الخدمة) انطباعه عقب المعركة فيقول — ص ٢٨٦ :

« وبعد أن نزلت إلى البر بوقت يسير طفت حول البطاريات القريبة من رأس التين ، فوجدت مشاهد البعض منها ينفطر منه الفؤاد — كما سمعت فيما بعد من مصدر وثيق أن الخسائر في الأرواح بالنسبة لجنود المدفعية والمشاة الذين كانوا بالحصون تزيد عن ٨٠٠ قتيل وقد أوثقت القتلى بالعربات في أثناء القتال ولكن لما كان عدد القتلى في نهاية المعركة كبيراً جداً ، فقد فتحت لهم حفرة واسعة في رأس التين وألقيت أجسادهم فيها ثم ووريت التراب ، ومع هذه المواراة يستطيع الإنسان في عدة مواضع من هذه المقبرة أن يرى الطبقة العليا من الأجساد ظاهرة على وجه الأرض . . وقد سقط سائر الحصن على بعض الجنود فأزحق أرواحهم وبقيت أجسادهم تحت الأنقاض دون أن يستطيع أحد إخراجها ، ووجدت جثة ضابط مصري وجث ستة من الجنود البواسل تحت مدفع انقلب بقذيفة بريطانية . . وفي رأيي أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجبهم بمثل ما أداه أولئك الجنود الذين كانوا في الحصون في ذلك اليوم ، وليس في مقدور الإنسان أن يخفى دهشته وإعجابه من أن هؤلاء الجنود في الحالة التي كانوا فيها تحت النيران المنصبة عليهم من جانب أرادوا أن يرفعوا المدفع من سقطته التي سقطها . . وفي حالة أخرى وهم في معمة القتال — حاولوا أن يرفعوا مدفعاً آخر إلى مكانه وهم تحت وابل من النيران .

وفي المكس كان يوجد سائر سميك من الرمال يتوارى خلفه جنود المدفعية ، ولكن على طول امتداد البطاريات الشرقية لم يكن يوجد إلا ستائر عنيفة من الأحجار في قليل من المواضع ، وأن الأنقاض التي انهارت منها لا بد أن تكون قد أحدثت خسائر جسيمة في الأرواح .

وكيل الجمارك البريطاني : لقد ثبت المصريون ثبات الأبطال :

كما يقول البارون (دى كيوزل De Kusel) وكيل الجمارك المصرية والذي كان على السفينة (تنجور) تجاه الاسكندرية^(١) :

لقد ثبت جنود المدفعية المصرية في مواقعهم أمام نيران البوارج البريطانية الهائلة الفتاكة ثباتاً دل على بسالتهم وبطولتهم ، وظلوا يطلقون قنابلهم باستمرار فتصيب أهدافهم ، وليس هناك أدنى شك في بطولة الجنود المصريين فقد قاتلوا مستبسلين . . ولم ينته الضرب إلا في منتصف الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ يوليو لأن المصريين إذا كان لديهم مدفع في أى موضع لم يكن قد سقط استعمالوه إلى أن يكره هذا المدفع على السكوت إكراها .

وكيل قنصل اليونان : هؤلاء الشجعان يمثلون الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة .

ويقول مسيو (سكوفيدس Skofidia)^(٢) وكيل قنصل اليونان في الاسكندرية :

وعند الطلقة الخامسة جاوبت بطاريات البر بنشاط وإحكام أدهشا الإنجليز ، وتقدمت البوارج البريطانية الضخمة ببطء واتخذت لها موقعاً أمام الحصون وصوبت إليها نيران مدافعها في مركز واحد وقد كانت قذائفها الهائلة تدعو إلى الظن بأنها ستدمر تدميراً ، ولقد كانت هذه القذائف تحطم المدافع الضخمة وتقلب قواعدھا وتنسف مستودعات الذخيرة وتحفر حفراً يقع فيها المصريون التعساء وعندئذ تقترب شيئاً فشيئاً لتضعف قوة هؤلاء المصريين بغمر حصونهم بطوفان من القذائف مدافع (السربند) المقامة على ساريات السفن ، وكانت قذائف المدفعية المصرية تسقط في البحر وهي في منتصف المسافة^(٣) فتثير عجاج الماء ، والبعض الآخر يصطدم بمدافع الإنجليز الضخمة فترتد عنها وكأنها جسم من المطاط وتغوص في البحر .

ومع ذلك فلا ينبغي إلا الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من بطولة وبسالة وثبات في مواقعهم ، ولقد كنت أشعر برثاء لأولئك الضحايا الذين راحوا طعمة للنار حيث كان معظم الحصون بلا سائر فقلبت القنابل مدافعها مما كان له أكبر الأثر في حدوث الخسائر فأحاطها يمينات من جثث القتلى ، ومن خلال الدخان الكثيف الذي كان يبعده الهواء في بعض الأوقات كنت أرى هؤلاء الجنود الشجعان الذين كانوا يستطيعون أن يخدموا وظهم في ظروف أخرى - والذين كانوا يمثلون - بحق الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة .

شاهد عيان يصف المعركة :

ويصف « سليم خليل النقاش »^(٤) المعركة ومقدماتها ، فيقول :

كان الجهادية (الجيش) قد جعلوا على أسطح المنازل العالية دبابدة (مراقبين) من ضباطهم يرقبون حركات الأسطول الإنجليزي ، وعند الساعة السابعة من الصباح أطلقت السفينة « انفلكسيل » المدفع الأول ، ثم تلتها السفن

(١) في كتابه ذكريات رجل انجليزي عن مصر - ص ٢٠٠

(٢) في كتابه (مصر المعاصرة وعراي باشا) - ص ١٦٨ - ١٦٩

(٣) نظراً لقدم طرزتها وصغر اعيرتها وبالتالي قصر مراميها .

(٤) في كتابه (مصر للمصريين) - الجزء الخامس - طبعة عام ١٨٨٢

الأخرى فأجابتها القلاع والحصون المصرية فاشتبك القتال وحمل الوطيس فكان يوماً عظيماً ضارعت فيه لعلت المدافع قصف الرعود وحاكى لمعان السلاح وميض البروق ، وكانت السفن البريطانية تمخر عباب البحر كأنها براكين تقذف من فوهاتنا ناراً تصب على الناس موتاً أحمر . . . ودامت هذه الحال إلى أن كانت الساعة الحادية عشرة حيث عجزت بعض الحصون عن المقاومة ، فان السفن كانت تطلق قنبلة المدفع فتصيب بها مدافع القلاع فتعطّلها واستمر الأمر على هذا المتوال في مدة القتال إلى أن أبطلت السفن عمل مدافع الحصون فتغلبت عليها - وكان على كل سفينة شبكة من الفولاذ مدلاة من أعلاها إلى أسفلها تحمي جوانبها وتميت تأثير المدافع المصرية فان القنبلة كانت قبل أن تصل السفينة تصيب تلك الشبكة المدلاة فتضعف قوتها ولا تؤثر في الدارعة (البارجة) .

وكانت المدافع أثناء دورانها تحشى بالقنابل حشوا لا يبق ولا ينذر ، فاذا أطلقت تصاعد من السفينة دخان كثيف يحجبها عن أعين الراصدين . . . وكثيراً ما انطلق من الحصون قنابل لم تصل إلى السفن لبعدها المسافة .

وعلى الرغم من شدة نيران المدفعية المصرية فان مقلوفاتها كانت تسقط في الماء قبل أن تقطع ثلث المسافة ، وكان الدخان يحجب على الحصون بحيث أصبح الإنجليز لا يعرفون كيف يقلفون كراتهم وإلى أية جهة يطلقونها ، وهو ما أوقعهم حيناً في الارتباك .

أما مدافع الأسطول فكانت تطلق قنابل كثيراً ما تجاوزت القلاع بمراحل لقوتها وشدة اندفاعها : وفي أثناء إطلاق المدافع على الاسكندرية ، أى في نحو الساعة الثامنة - ركب « عرابي » عربته وإلى جواره « طلبة باشا عصمت » وتجوّلا في شوارع المدينة يتفقدان أحياءها ويرسلان بعض الضباط والجنود إلى منازل الأجانب مستطلعين خشية أن يكون فيهم من يخبر السفن الإنجليزية بالتلغراف أو التليفون أو بإشارات متعارفة بينهم ، وكان بعض العساكر يصعدون إلى السطوح ويقطعون الأسلاك التليفونية والتلغرافية خصوصاً أنهم كانوا قد علموا أن الأميرال (سيمور) وصل الأسلاك التلغرافية البحرية بأحدى سفنه قبل انتشار الحرب بنحو ٢٠ يوماً ورسا بالسفينة التي وصل بها الأسلاك خارج البوغاز وجعلها مثل محطة التلغراف يخبر منها قبرص ولوندره (لندن) مخبرة تلغرافية بالأسلاك المملوذة تحت المياه وأنه وصل أيضاً أسلاك التليفون بتلك السفينة بحيث صار في الإمكان أن يخبر الاسكندرية بمخابرات شفوية ، وان له - عدا ذلك - جواسيس من الأجانب في البر أقاموا في المدينة أثناء القتال ليبلغوه الأخبار بإشارات اصطلاح عليها الفريقان .

القتال في غاية الشدة :

لازلنا نتابع ما كتبه « سليم خليل النقاش » في كتابه « مصر للمصريين » عن شهوده للمعركة التي نشبت بالإسكندرية صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ .

واستمر إطلاق المدافع إلى الساعة العاشرة صباحاً بغاية ما يكون من الشدة والتعجيل حتى تعطلت القلاع والحصون - عدا قلعتي العجمي والأطه - فانهما ثبتتا ثم انخفضت حدة النيران وقل إطلاق المدافع بعد أن تحطمت القلاع والحصون وقتل عدد كبير من طويجيتها .

أما حصن (المكس) فقد أصبلته البارجة « تمرير » نارا حامية لوجود أربعة مدافع فيه من عيار كبير وقد رد بدوره بضرب البارجة القائدة (انفيسيل) وأحكم لإصبال مقلوفاته إليها مرات متعددة ، ولكن في الساعة العاشرة والنصف أطلقت البارجة (مونارك) قنبلة دمرت مخزن الحصن المذكور فكان لصوته دوى هائل .

عراي يعلن الحرب على بريطانيا :

وأخبر بعض الثقات أن «عراي» وجماعته كانوا أثناء إطلاق المدافع - أي قبل الظهر بساعتين - مجتمعين في قلعة «كافاريللي» بمحرم بك ، وهناك نظموا منشورا قرروا إرساله بالتلغراف إلى جميع المديرين في داخلية البلاد - ومآل هذا المنشور أن الحرب انتشبت بين إنجلترا ومصر ، وأن على الحكام جميعاً أن يمثلوا لأوامر ناظر الجهادية والبحرية وأن يلبوه فيما يطلبه من إرسال الجنود والنقود والميرة (الأطعمة) وغير ذلك مما يرى لزوماً لاستخدامه .

الخديو ينتقل من قصره رافعاً العلم الأبيض :

وفي الساعة الرابعة والدقيقة ٥٠ يوم الخميس ١٣ يولية مر الخديو - في عربة مكشوفة - وإلى جانبه «درويش باشا» ووراء عربتهما عربة في مقدمتها ثلاثة من الغلمان ، وعربة نقل عليها بعض الأمتعة الخاصة بالخديو - وكان موكب الخديو مؤلفاً هذه المرة من (٦٠ - ٧٠) فارساً تتقدمها طائفة الحرس بسيف تعلق رؤوسها أعلام بيضاء إشارة إلى المسالمة .

إلى هنا ينتهي ما كتبه «سليم خليل النقاش» عن معركة ١١ يولية ١٨٨٢

القس «لويس» يصف شجاعة المصريين :

أما القس «لويس صابونجي» فيكتب إلى صديقه (ولفرد بلنت) رسالة بعد القتال يصف فيها واقعة ضرب الاسكندرية وقد كان خلال القتال مستقلاً سفينة في موقع يمكنه من رؤية المعركة .

يقول القس :

«في صباح الثلاثاء وفي الساعة السابعة صباحاً انبثت أول طلقة على الحصون . وقد كنت على ظهر السفينة (سعيد) على مقربة من الأسطول البريطاني . لقد غادر درويش باشا الاسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر إلى حيث لا يدرى أحد مكانه ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا معي هذا الصباح وشهدوا الضرب ، كنت أنا وحدي الذي رجوت الله حفظاً سعيداً لعراي وأنصاره ، وعندما انبثت أول طلقة تموجت في الهواء القبعات والمناديل والأيدى مشفوعة بالهتافات وعلامات الرضاء .

وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم فرحين يتنبأون بسقوط الحصون خلال ساعتين ... ولكن شعورهم بالحيرة ما لبث أن ظهر . . فالساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تتوقف النيران من الجانبين . والدفاع المصري لا يزال حتى الآن فائقاً ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بما عسى أن تكون النتيجة .

أكتب إليك من فوق ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب وأثبت ما أستطيع أن أراه . . ولكن ماذا عسى المرء أن يرى خلال محب كثيفة الدخان سوى الرعد والبرق من المدافع ؟ ولم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القناصل واثقين من عزم إنجلترا على الحرب ، وكذلك لم أكن أنا واثقاً من ذلك .

جون نينه : أدهش المصريون خصومهم :

أما « جون نينه » - عميد الجالية السويسرية بمصر - فيصف ما شاهده بعيني رأسه يوم القتال في كتابه : « عرابي باشا » فيقول :

« . . . وكان رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفهم بأحكام وحماسة أدهشا خصومهم الذين استمر عملهم الجهنمي متصلا عشر ساعات ونصف الساعة دون أن يستطيعوا المباشرة بنصر حائهم . . . وكانت تقطى المدينة أثناء للضرب طبقات من الغبار والدخان ، كما كان قصف المدافع بصم الآذان ، وكنا حين تبدد الرياح والسحب من للدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول البريطاني . . . لقد أدى رماة المدافع المصريين عملهم على خير ما يرام على الرغم من أن مدافعهم كانت أقل من مثيلاتها البريطانية فقد أصابوا سبع بوابرج بريطانية إصابات بعضها خطير .

وكانت القذائف البريطانية تزيد عن المتر طولا ، وسقطت أولاها في قلعة (رأس التين) دون أن تنفجر فنظر إليها المصريون وقال أحد الضباط مشيراً إليها : « لم أيها الإخوان لتشهدوا مثلاً من إنسانية إنجلترا » وقد قال عبارته بلهجة ثم عن الذكاء والسخرية . : فضحك إخوانه جميعاً وظلوا يواجهون ما يلقي عليهم ياسمين . . .

مجزرة وحشية متعطشة للدماء :

ولا يسعنا إلا أن نعترف بأنها كانت مجزرة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ، ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة للدماء . .

وكننت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين يطلقون نيرانهم على الحصون المصرية : « هل يستطيع الإنجليز عندما يعودون إلى بلادهم ويجتمعون حول موائد الشاي في بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية بالفتك والتخريب ؟ !

إنني لفي شك من هذا . . فأية إهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثار من مصر على هذه الصورة البشعة ؟ !

ومع هذا فما كان أروع منظر أولئك الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة كأنهم في استعراض حربي لا يخافون المرات الذي يحيط بهم . . وكانت معظم الحصون بلا سواتر أو مناريس ، ومع هذا كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء وادي النيل خلال الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا في ساحة الوغى ، وقد بعثوا ليناضلوا العدو وليواجهوا نيران مدافعه وكان القادة يمرون على الحصون يستحثون الرجال وهكذا أدى الجميع واجبهم - رجالاً ونساء - كباراً وصغاراً .

لا أوسمة أو نياشين :

يقول « نينه » في رسالته :

« ولم تكن ثمة أوسمة أو نياشين تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم . وإنما كانت تثير الحماس في نفوسهم

عاطفة الوطنية والثورة على ما تعرضوا له من فظائع وهم في مواقعهم يمثلون الناس المجهولين الذين لم يفكر أحد فيها يحملوا من آلام .

وقد بدأ نقل جثث القتلى - منذ العاشرة صباحاً - وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتحترق المدينة إلى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكري ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة دون احتفال في المقابر المجاورة للمستشفى :

أما الجرحى ، فقد كانوا ينقلون إلى المستشفيات في عربات النقل وكان مما يؤلم النفس حقاً منظر تلك العربات التي تقل الواحدة منها عشرين أو ثلاثين قتيلًا من الجند أو الأهالي ، وقد شددت بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات والدماء تقطر من أجسادهم .

الأمهات يلعن من تسبب في المجزرة :^١

ويختتم جون نينه رسالته إلى المستر بلنت قائلاً :

وكانت بعض الأمهات يحتضن أبناءهن وهم يلفظون أنفاسهم ، بينما كانت بعض النسوة يحجرين خلف العربات نادبات صائحات يلعن من كانوا سبب هذه المجزرة البشرية . .

وخيم السكون الرهيب على هذه الشوارع التي كانت من قبل عامرة بالناس زاخرة بالحياة ، حتى غدت كأنما هي شوارع مدينة أودى بأهلها الوباء :

انتهت رسالة جون نينه إلى صديقه ولفرد بلنت يصف له فيها ما شاهده يوم ١١ يولية ١٨٨٢

التقرير الرسمي للأميرال «سيمور»

قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة :

وبعد انتهاء الضرب ، قام الأميرال (سيمور) بإرسال ثلاثة تقارير عن ضرب حصون الاسكندرية وفيما يلي نص التقرير الأول منها - وهو أهمها - حيث اشتملت المعلومات الواردة في التقريرين الثاني والثالث على وصف تفصيلي لأعمال رجال الأسطول البريطاني وطلب الترقية . . الخ .

نص التقرير الأول

من ظهر البارجة (انفسييل) في ١٤/٧/١٨٨٢ :

إلى سكرتارية الأميرالية . .

«سيدى» :

لى الشرف أن التمس أن تفضلوا وتخبروا اللوردات منلوبي الأميرالية أنني لم أتمكن في هذا الوقت مع الأسف من إرسال تقرير مفصل عن الهجوم على حصون الاسكندرية بسبب انشغال بهذه المهمة الشاقة .

إنه بسبب إخفاق في طلب بترضية عن المسائل التي كنت قد كلفت بطلبها من حكومة مصر ، هاجمت في ١١ الجاري البطاريات المنصوبة على واجهة الاسكندرية الشمالية والاستحكامات المقامة في الشمال الغربي ، ونجحت في إسكات الحصون في منتصف الساعة السادسة مساء وهو الوقت الذي أعطيت فيه الإشارة بالكف عن الضرب .

وفي صباح يوم ١٢ أمرت (تمرير) و (انفلكسيل) بأن تهاجما حصن (فاروس) - وبعد إطلاق مدفعين أو ثلاثة رفع علم الهدنة على حصن (رأس التين) فأرسلت عندئذ ضابط أركان حرب الأونورايل (هدروث لامبتن) وكلفته باستجلاء السبب ، ويؤخذ من تقريره أن كل ما في الأمر خديعة تافهة عملت لاكتساب الوقت بلا مراء .

وبما أن المفاوضات قد فشلت لأن طابى هو تسليم البطاريات الحاكمة على ممر البوغاز - أطلق مدفع على سطح ثكنات (المكس) - وعندئذ رفع علم الهدنة مرة أخرى . فأرسلت ضابط أركان حرب المذكور ومعه القومندان (موريس) إلى الميناء على ظهر السفينة (هليكن) ولما ذهب إلى يخط الحديد (المحروسة) وجد أن طاقم هذا اليخت قد رحل - وعند إيايه بعد دخول الليل أعلن أنه يعتقد أن المدينة قد أخليت من السكان .

وأمس صباحاً توغلت في الميناء على ظهر البارجة (انفنسيل) ومعى المدرعتان (بنلوب) و (مونارك) وأنزلت إلى البر فرقة لتضع يدها على (رأس التين) إلا أنني متأسفاً لاضطرارى أن أخبركم أن مدينة الاسكندرية قد أصيبت بأضرار بالغة من الحريق والنهب ، وفي الساعة الرابعة و ٤٥ دقيقة بعد الظهر وصل سمو الخديو إلى سراى (رأس التين) وخصصت لحمايته واحتلال شبه الجزيرة سبعمائة بحار ويجب على أن أعرب عن إعجابي الزائد بالسلوك الذى سلكه الضباط ورجال الأسطول عند تأدية مهامهم وأن أثنى عليهم الثناء الجمل وأخص منهم بالذكر الكابتن (وولتر هنت جرب) ربان السفينة المدرعة (سلطان) وهو أقدم الضباط ، ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة إلى أن قتل عدد كبير منهم وسأرسل عما قريب - على قدر الإمكان - تقريراً مفصلاً وأرفقه بصور المراسلات ، وتجيدون رفق هذا بياناً بعدد القتلى والجرحى .

ولى الشرف أن أكون خادكم المخلص .

بوشامب سيمور

أميرال ورئيس القواد

قائمة القتلى والجرحى في هذا القتال :

القتلى (٥) : ١ من (انفنسيل) - ١ من (الكسنلرا) - ١ (من سوبرب) ٢ - من (سلطان) . والجرحى (٢٨) : ٢ من (انفنسيل) - ٣ من (الكسنلرا) - ١ من (سوبرب) - ٨ من (سلطان) - ٦ من (انفنسيل) ٨ من (بنلوب) .

بوشامب سيمور

مقتطفات من التقرير الثالث :

ولا يسع (سيمور) في أجزاء من تقريره الثالث الذى كتبه وأرسله بتاريخ ٢٠-٧-١٨٨٢ إلى حكومته إلا أن يعترف بعنف المقاومة المصرية وبطولة رجال المدفعية المصريين حين يقول :

وقد كانت حركات بطاريات حصن « الاستتالية » من البداية إلى النهاية تدار بطريقة موفقة جداً ، مع أن هذا الحصن سكت وقتاً ما على أثر ضربه بقذيفة من المدرعة (انفلكسيل) فان جنوده لم يتخلوا عن مدافعهم . وكانت بطاريات « رأس التين » تستخدم المدافع الفرنسية من عيار و طراز قديمين بالإضافة إلى أن تلك المدافع الفرنسية كانت من عيار ٣٦- وهذه المدافع مشتاة من عهد محمد على ، وكان التصويب من جانب المصريين يدعو للاعجاب ويمكن أن يقال ذلك أيضاً عن مدافع خطوط (المكس) لولا أنها استخلمت أكثر المدافع من عيار ٣٦ ومدفعاً أو اثنين من عيار ١٥ بوصة (مششخنة) قليلاً عن المدافع عيار ١٠ بوصة و ٩ بوصة من مدافع الششخنة ذات المرمى البعيد عيار ١٠ بوصة ، وكان كل منهما يرمى قذائفه تلو الآخر في اتجاه الأسطول الراسى قريباً من الشاطئ بكيفية تدعو للاعجاب .

قائد المدرعة (سلطان) : إن رجال المدفعية المصرية لا يستهان بهم :

كما يعترف القومندان (هنت جرب) قائد المدرعة (سلطان) في تقريره الرسمى للأميرال (سيمور) ... ولما وجدت أن الحصون أقوى مما كان يظن قبلاً وأن جنود المدفعية المصرية لا يستهان بهم ، وأنهم في الواقع يحكمون الضرب ، رأيت من الصواب أن ألقى المراسى لكى أحصل على المسافة اللازمة بالدقة .

شجاعة الأهالى ومساعدتهم لقواتهم المسلحة :

ولأنه لما يذكر بالفخر ما أظهره سكان المدينة من البسالة والحمية وخاصة النساء والأطفال ، ويشير عرابى إلى ذلك في مذكراته^(١) - بقوله :

في أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خلمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات .

أما الإمام الشيخ محمد عبده فيقول :

« . . . ونحت مطر القنابل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقلمونها إلى بعض بقايا الطويحية الذين كانوا يضربونها وكانوا يتغنون بلعن الأميرال ومن أرسله^(٢) .

(١) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الاسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة المرامية في عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢) - بقلم زعيم الثورة المرامية (أحمد عرابى) الجزء الثانى .
(٢) تاريخ الاستاذ الإمام - ص ٢٥٠

محمود باشا فهمي : بعض الأهالي كان يعمر المدافع ويضربها :

ويقول محمود باشا فهمي^(١) :

« . . ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة (رأس التين) و « أم قبيبة » وطوايى (باب العرب) و منهم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر والخرابيش والبارود والمقلوقات هم ونسائهم وأولادهم وبناتهم ، وأن البعض من الأهالي كان يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

القائد (جودريتش) : أجاب المصريون إجابة مدهشة تستحق الإعجاب :

يقول القائد الأمريكي (جودريتش) من رجال البحرية الأمريكية والذي كان على متن السفينة الحربية الأمريكية (لانكاستر) ورأى كل ما حدث بعيني رأسه في تقريره إلى حكومته - ص ٣٦ :

« . . وجاوب المصريون - رغم التفاوت الذي كان بينهما من ناحية العدد ومن ناحية عيار المدافع على النيران المتدفقة من أفواه المدافع البريطانية إجابة مدهشة لم تكن متوقعة بتاتا وبشجاعة تستحق الإعجاب وعندما كانت المدرعة (أنفلكسيل) ترسل مقلوقات زنة كل منها ١٧٠٠ رطل على حصن الفنار وتصيب سائر فتير الأنقاض والأثرية إلى ارتفاع الفنار نفسه ، ويتخيل المرء عندما يرى ذلك أنه ليس في الإمكان أن يعيش أى إنسان تحت نيران كهذه النيران ، لا يلبث بعد بضع دقائق وحالما ينقشع الغبار - أن يرى جنود المدفعية المصرية ملازمين مواقعهم يطلقون قذائفهم على خصمهم الرهيب .

التلف الذى حل بالحصون المصرية^(٢)

١ - حصن السلسلة :

قذفت هذا الحصن البارجة (تمرير) ببضع قذائف محكمة التصويب بينما كانت تهاجم قلعة قايتباي ولم تجاوبه البارجة المذكورة فبقى الحصن سليما بعد انتهاء القتال .

٢ - قلعة قايتباي :

أصبحت واجهتها الشمالية الغربية باصابات شديدة من مقلوقات الأسطول ، وهلمت حوائطها في عدة مواضع ، كما دخلت بعض قذائف الأسطول من فتحاتها المعدة لإطلاق المدافع وانفجرت داخلها فقلبت أربعة من مدافعها كما أتلفت ثلاثة مدافع أخرى ومدفع عيار ١٠ بوصة من مدافع بطارية الطبقة العليا بسبب انهيار أنقاض القصر

(١) البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر - ص ٢٢٠ .

(٢) رغم قيام (جلاستون) البريطانية بتدبير معركة ضرب الإسكندرية لاتخاذها ذريعة لاحتلال مصر كلها بعدئذ ، فقد قام المستر « جون برايت » أحد أعضاء الوزارة البريطانية بالاحتجاج على هذا الاعتداء فاستقال احتجاجا عليه بعد أن وصف الضرب بأنه « انتهاك فادح لقانون الاخلاق » .

العتيق الذي كان هذا المدفع مستنداً إليه ، كما قلبت قذيفة أخرى من قذائف الأسطول مدفعاً آخر عيار ٢٥ سم من الطراز القديم .

أما الواجهة الغربية فقد دمرت تماماً وفُتحت فيها ثغرة واسعة كشفت المدافع وجعلتها في العراء مما تسبب في تدمير مدفعين تدميراً تاماً .

ولم تشترك مدافع الواجهتين الشرقية والجنوبية في القتال وبالرغم من ذلك فقد سقط مدفعان من مدافع الواجهة الجنوبية بضربة جانبية .

٣ - حصن (الأطلة) :

لم تشترك واجهته الشمالية الشرقية في القتال وبذلك لم تصب بضرر ، وقد أصيب أحد المتاريس المشرفة على واجهته الشمالية - الغربية بنحو ٢٠ قذيفة منها ١٢ دخلت دخولا عميقاً ولكنها لم تنفجر ، بينما انفجرت الباقيات فأحدثت تلفاً هائلاً ، وأصيب مدفع (أرمسترونج) عيار ١٠ بوصة بقذيفة فانقلب ، كما أصيب مدفع آخر من عيار ٢٥ سم ، بينما اقتلعت قنبلة مدفعاً من بطاريته الوسطى ودمر مدفع آخر انهارت فوقه الأنقاض ، كما أصيبت الواجهة الجنوبية من الحصن بقذيفة مرت فوقه ففتحت ثغرة واسعة - أما مخزن ذخيرته فقد أصيب إصابة مباشرة الأمر الذي أدى إلى انفجاره مما نتج عنه إخلاء هذا الحصن .

٤ - حصن الاستبالية :

وقد أصيب لإصابات كثيرة فهدم خاصة من وجهته الشمالية - وبالرغم من ذلك ظل يطلق قذائفه ، وقد شوهد بعد المعركة على أحد مدافع هذا الحصن أكثر من ٤٩ أثراً من آثار الشراييل^(١) وكانت معظم هذه الآثار يزيد عمقها على ٩٠ سنتيمتراً .

٥ - حصن رأس التين :

وقد أصيبت بطاريته الوسطى بقذائف كثيرة كان ضمنها ٧ قذائف دخلت من فتحاتها وأصيب مدفع من طراز (أرمسترونج) عيار ١٠ بوصة بقذيفة حطمت محور عجلته وكما أصيب مدفع آخر من هذا الطراز عيار ٩ بوصة وقد أصيبت بطاريات برجه بست قذائف دخلت من فتحاته وأصاب إحداها مدفعاً من طراز (أرمسترونج) ورغم ذلك ظل يواصل إطلاق النيران ، وأصيب مدفع آخر من نفس الطراز كما دمر مدفعان آخران .

٦ - حصن الفنار :

أصيبت الواجهة الغربية منه بعطب شديد من نيران الأسطول الخارجي ، فقد اصطدمت هذه الواجهة بقذيفة أحدثت فيها ثغرة عرضها (٤,٥ متر) وعمقها (١,٥ متر) وحفرت ٤ قذائف حفراً قطرها نحو ثلاثة أمتار ، كما صدمت أربع قذائف أخرى (المزاغل) - أي فتحات إطلاق النيران - كما أصابت قذيفة منخفضة قمة الساتر

(١) الشراييل : طراز من دانات المدفعية في الجو قبل اصابتها بالهدف فيصيب الأفراد بالشظايا .

الترابي فاطارته بينما أحدثت ١٤ قذيفة أضراراً مختلفة ، وأصيبت خمسة مدافع باصابات مختلفة جعلتها غير صالحة للاستعمال .

٧ - حصن صالح أغا :

ولقد هاجمت هذا الحصن الواقع في الداخل البارجتان (مونارك) و (بنلوب) فترة قصيرة في آخر اليوم فأصيبت ستائرهُ بأضرار طفيفة ، كما تفكك مدفع قديم من مدافعه .

٨ - حصن أم قبيبة :

وقد قامت بمهاجمته البارجة (أنفلكسيل) على بعد ٣٥٠٠ متر وأصابته بثلاث عشرة قذيفة ألحقت به أضراراً جسيمة ، كما أن الأحجار والأتربة التي نتجت عن انفجار القذائف غطت المدافع ، كما شطرت إحدى القنابل مدفعا عيار ١٦ سم نصفين ، وبعد المعركة وجد في فناء هذا الحصن عدد كبير من المقلوفات التي لم تنفجر .

٩ - حصن المكس :

دمر به أربعة مدافع تدميراً كاملاً ، كما لحق التلف بمبانيه القائمة في الخلف أكثر من غيرها ، وبعد جلاء جنوده عنه نزل بعض الجنود الإنجليز إلى البر ومعهم أدوات النسف ، ونسفوا مدفعيه الضخمين ، كما أتلقوا مدافعه الأخرى .

١٠ - قلعة المكس :

أطلقت عليها مقذوفات كثيرة العدد فدمر مدفع من طراز (أرمسترونج) كما أصيب عدد كبير من أطقم المدافع .

١١ - حصن الدخيلة :

لم يصبه ضرر ما ، غير أن مدفعين من مدافعه انقلبا أثناء القتال كما نسف مخزن الذخيرة خلفه فدمر عن آخره .

١٢ - حصن المرباط :

وكانت مهمة ركنه الشمالى الشرقى تنحصر في مقاومة البارجة (كندور) والبوارج المهاجمة ، وقد أصيب بعدد ضخم من القنابل ، كما وجد بفنائه عقب المعركة عدد كبير من القذائف لم ينفجر .

١٣ - حصن المعجمي :

لم يشترك في القتال .

خسائر المصريين في الأفراد

يقول الإنجليز أن قوة الدفاع المصرية التي قادها (طلبة باشا عصمت) لم تكن تقل عن ٢٠٠٠ جندي مدفعي : وكان الإنجليز على علم تام بأوضاع الدفاعات المصرية ، وعلى بينة بأماكنها التفصيلية وقوتها . وقد كانوا يعرفون مثلاً أن طابية المكس يقودها صاغ وتحت قيادته يوزباشي وثلاثة ملازمون و ١٥٠ جندياً ، وقد أصيب من تلك الحامية الصغيرة ضابط بجراح خطيرة كما قتل خمسون وجرح ثمانية وأربعون .

وتعرضت طابية أم قبيبة لنيران (أنفسييل) طيلة الصباح ، وكانت مكونة من ٧٥ مدفعياً يعاونهم كثير من المتطوعين المدنيين وقد جرح ١٨ من هذه الحامية . وبلغ مجموع خسائر المصريين في القسم الجنوبي الداخلي من طابية (صالح أغا) إلى (الم رابط) ٦٥ قتيلاً ونحو ١٥٠ - ٢٠٠ جريح وفي الخط الشمالي للدفاعات في رأس التين وفي قلعة (الأطة) قتل ما لا يقل عن ٥٠ وجرح أكثر من ١٥٠ ، وقتلت القنابل من الأهالي نحو ٢٠٠ مصري .

وقد قتل (جون نينه) عدد القتلى المصريين بنحو ٨٦٠ - كما قتل الجنرال (ستون) الذي كان يعمل كرئيس لأركان حرب الخديو الخسائر المصرية بنحو ٧٠٠ قتيل .

ضرب البريطانيون كان انتقاماً وحشياً :

ولقد أسرفت البوارج البريطانية في إطلاق قذائفها على الحصون المصرية وعلى المدينة ذاتها بشكل منقطع النظير أو بشكل فريد في التاريخ ، حيث تبينت أن الفريسة سهلة بعد القضاء على كافة وسائل الدفاع المصرية ، بواسطة أسطول حديث جبار كالأسطول البريطاني المدرع مما يوحى بأن هذا الضرب العاشم كان انتقاماً وحشياً لهزيمة سابقة لحقت بالجنود الإنجليز في مصر أثر حملتهم الفاشلة عام ١٨٠٧ - والجدول التالي يوضح مبلغ الإسراف الهائل في إطلاق القذائف البريطانية على المدينة يوم ١١ يولية ١٨٨٢ .

جدول يبين إسرائف الأسطول البرى طافى فى إطلاق القذائف على الحصون المصرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢

مصادر	جائنج	لورد فلدت	المجموع	إصابة	قنابل فارغة	سيجن	شرابيل	باليس	عادية	
١	٤٣٠	٤٠٠٠	٤٠١٠	٤	—	—	١	٢٣	٣٧٩	إلكندرا
٢	٨٨٠	١١٦١	٤١١	١٢	—	٣٤	٢٥	٨٣	٢٥٧	سويرب
٣	٢٠٠٠	١٨٠٠	٣٣٨	١٠	١٠	٤٤	٣	٢٤	٢٤٧	سلطان
٤	—	١٦٧٢	٣٨٠	٦٢	—	٣٢	٤٥	—	٢٤١	بنيلوب
٥	٢٦٨٠	٣٤٤٠	٣٦٧	٦	—	—	١٢٩	٥	٢٢٧	موفارك
٦	—	١٦٠	٢٢٨	—	—	٦	١٣	٧٠	١٣٩	تمريمر
٧	١٠٠٠	٢٠٠٠	٢٥٠	٢	٢	—	٢٥	—	٢٢١	انفيليل
٨	—	٢٠٠٠	٢٠٨	—	—	٣٧	١١	٢١	١٣٨	أفلككيليل
٩	—	—	١٠١	١٨	٦١	١	—	—	٢١	بيكون
١٠	٢٠٠	—	٢٠١	—	٣١	—	٨	—	١٦٢	كوندور
١١	—	—	٨٩	١٢	—	—	١	٧	٦٦	بيترن
١٢	—	—	١٠٤٣	—	٧١	—	—	—	٧٣	سيجن
١٣	—	—	٦٩	—	—	—	—	—	٦٩	ديكوى
١٤	—	—	٦	—	—	—	—	—	٦	هيلكون
١٥	٧١٩٠	١٦٢٣٣	٤٠٩٢	١٢٦	١٧٥	١٥٤	٢٦١	٢٣٣	٢٢٤٦	المجموع

خسائر الاسطول البريطاني

١ - المدرعة (سلطان) :

أصيبت بثلاث وعشرين قذيفة وكانت إصابات مدخنتها وسارينها شديدة ، كما أصابت بعض القذائف دروعها في موضعين .. كما أحدثت واحدة منها في أسفل قنطرة بطاريتها شرخاً يبلغ قطره (٤٥ سم) بينما اخترقت قذيفتان أو ثلاث جدرانها غير المدرعة - بلغ عدد قتلاها إثنان والجرحى ثلاثة .

٢ - المدرعة (سوبرب) :

فاقت خسائرها خسائر باقى المدرعات ... فقد أصيب جدرانها بعشر إصابات بينما اخترقت قذيفتان دروعها .. وفي أحد مواضع إصاباتها انزعت القذيفة عند انفجارها جزءاً من دروعها .. كما أصيب مدخنتها كذلك .

٣ - المدرعة (انفنسيل) :

أصيبت بثلاث عشرة قذيفة في جدرانها وآلاتها كما اخترقت ست منهم الجزء غير المدرع منها .

٤ - المدرعة (الكستندرا) :

أصيبت بثلاثين إصابة في جدرانها وآلاتها وأربع وعشرين إصابة اخترقت جدرانها في أجزائها غير المدرعة فحدثت بها أضرار بالغة في القنطرة الداخلية وفي طرفها وأصابها أيضاً قذائف وقنابل كثيرة في الجزء المدرع منها ، ولكنها - على كثرتها - لم تحدث فيه ضرراً يذكر كما تلف مدفعان من مدافعها دون أن يصابا من جراء كثرة استعمالهما في الضرب . أحدهما من عيار ١٠ بوصة (وزن ١٢ طناً) - والآخر عيار ١١ بوصة وكانت خسائرها في الأفراد قتل وجرحان .

٥ - المدرعة (بنلوب) :

سقط أحد مدافعها كما جرح من جنودها اثنان .

٦ - المدرعة (انفلكسيل) :

أصيبت بقذيفة في جزئها الغاطس (تحت خط الماء) من مدفع (أرمسترونج) - عيار ١٠ بوصة (وهو أكبر عيار كان متوافراً بالمدفعية المصرية الساحلية) - وقد توجهت بعد المعركة إلى جزيرة (مالطة) لإصلاحها^(١) - وقد بلغت خسائرها قتل واحد وجرحين^(٢) .

(١) لم تذكر إصاباتها هذه التقارير الرسمية التي قدمت إلى الحكومة البريطانية - - ولكن الأميرال (سيمور) قدم عنها تقرير سرى للأمرالية ولم يذع رسمياً . . .
(٢) لعل من أقوى الأدلة التي تثبت كذب (سيمور) في دعواه بأن العرابيين والأهالي هم الذين أضرموا النيران في الاسكندرية وهي الشهادة التي جاءت في مذكرات الجنرال السير (باتلر) - أحد قادة الجيش البريطاني الذين شاهدوا الحرب البريطانية - المصرية عام ١٨٨٢ حيث يقول :

شهادة القس لويس صابونجي للتاريخ :

تمنيينا النجاح لعراي !!

نورد هنا شهادة القس « لويس صابونجي » - مساعد المستر الفريد سكاون بلنت الأيرلندي الذي قدم كتابه الوثائقي الهام (التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا لمصر) ، وسجل فيه الحقائق في موضوعية وصدق ، حيث اعتمد في تاريخه على مشاهداته الشخصية واتصالاته الواسعة مع الساسة الإنجليز في لندن ، كذا صلاته الوثيقة بالزعيم « أحمد عرابي » ومعظم زعماء الثورة على الرغم من أن المرجع الذي أشير إليه هنا يعد من المراجع التاريخية القليلة التي أعطينا خلفية موضوعية لكافة أحداث الثورة العرابية منذ حادث مذبح الاسكندرية وحتى ما بعد الهزيمة التي حاقت بعراي ورفاقه وبمصر كلها بعد الانكسار العسكري في واقعة (التل الكبير) ، فقد آثرت أن أقصر هنا على التعرض للجانب العسكري فحسب ، تاركاً الجوانب السياسية للمختصين في شئون السياسة عليهم يحلون ما يرفع هامة ذلك الزعيم المصري الذي قام يطالب بالحرية لبلاده ، فقامت عليه قيامة الاستعمار البريطاني وأذنا به من حكام مصر الأجانب ، وأعنى بهم أحفاد محمد علي وعلى رأسهم الخديو الخائن محمد توفيق الذي لا بد أن التاريخ المصري سوف يضعه في مكانه المناسب الجدير به من الازدراء والتحقير .

واقطف هنا ما سجله القس لويس صابونجي في رسالته إلى مستر « الفريد بلنت » بتاريخ ٥ يولييه ١٨٨٢ ، لتعرف على أعمال الزعيم أحمد عرابي قبيل ضرب الاسكندرية ، تلك الأعمال التي يتبين منها أن الرجل كان يتصرف لا كما يرجف المرجفون بل كرجل دولة على أرقى مستويات ذلك العهد .

يقول القس لويس صابونجي في رسالته إلى بلنت :

كنت ليلة أمس مع عرابي باشا حتى منتصف الليل ، ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدها مزدحمة بالباشوات وغيرهم من الضباط وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهتئوا بالوسام المجيدي الأميري (الذي حاول الخديو إسكانه ورشوته به) . وعند الساعة الحادية عشرة انصرفوا وبقينا نحن أربعة وجدنا بالفرقة وأخذنا نتكلم في حرية في مختلف المسائل :

وعندما جاء ذكر اسم درويش باشا^(١) ، هز عرابي رأسه وكأنه يقول : نحن نعرف هذا ثم قال لي : أما عن ذهابي إلى الآستانة ، فليقل الناس ما يشاءون ، فإني ولدت في أرض النيل وستظل الأهرام قبرى ولن يحاول الباب العالي أن يخرب إحدى المستلكات العثمانية . ومن الأمثال العربية لا يمدح أحد أنفه بيده ، وسيفكر السلطان ملياً قبل أن ينوى دعوتى إلى الآستانة أو إرسال جيوش تركية إلى مصر .

== « إن المدافع البريطانية هي التي أحرقت مدينة الاسكندرية بعد أن هدمت القلاع وقد ظنت الوزارة البريطانية أنها يهدمها القلاع ستقمع الثورة ولكنها أخطأت في ذلك ، إذ ما كدنا ننتهى من تخريب الاسكندرية حتى كان عرابي بجيشه في مختلف المواقع بالبلاد مستعداً لملاقاتنا وتحمس الوطنيون حين سمعوا بضرب الاسكندرية وانضموا إلى العرايين متفانين في الدفاع عن بلادهم بعد هذا العدوان ، فظهر للحكومة البريطانية من ذلك أنها إذا أرادت أن تبطش بالوطنيين فلا يلزمها أقل من جيش كامل لمحاربتهم في وسط البلاد ، وعند ذلك عرفت أن الاسكندرية لا يمكن أن تكون قاعدة حرية لنا » .

(١) كان « درويش باشا » - مندوب السلطان العثماني إلى مصر - قد عرض قبيل ضرب الإسكندرية على « أحمد عرابي باشا » أن يذهب إلى الآستانة بمرتب شهرى قدره ٢٥٠ جنياً ، فأجابه عرابي بأنه حتى لو رضى هو نفسه بالذهاب لحال الشعب المصرى بينه وبين الوصول إلى السفينة لمنعه من السفر .

ويكتب « صابونجي » في مذكراته يوم ٨ يولييه ١٨٨٢ :

توجهت صباح اليوم لأرى « عرابي باشا » فأخبرني أنه استقبل سيدة أمريكية من فلادلفيا رجته أن يوقع لها باسمه في دفتر التذكارات (الأوتوجراف) - وقال أنه كتب لها باللغة العربية ، ورجائي أن أترجم ما كتبه إلى اللغة الإنجليزية ، وأخبرني أيضاً أنه كان منذ يومين آتياً من القاهرة إلى الاسكندرية فوجد في المحطة خمسمائة إيطالي يستعدون لمغادرة مصر ، فشرع في محادثتهم وتشجيعهم على البقاء بالبلاد وفي ديارهم لأنه لا خطر عليهم مطلقاً وأنه يضمن لهم أرواحهم وممتلكاتهم ، وسلامة كل إنسان على أرض مصر ، وقد شجعت كلماته أولئك الأشخاص الذين كان الرعب قد تملكهم ، فاندفعوا إليه رجالاً ونساء ليقبلوا يده ويشكروه .

وكان بينهم رجل مسن في طول « عرابي » نفسه ، شق لنفسه طريقاً بين هذا الجمع ، ولما وصل إليه وضع كلتا يديه على كتفيه وقال له بالإيطالية ما معناه : « الله يباركك وينصرك يا عرابي » وكانت نتيجة هذه المقابلة أن عاد ثلث الجمع الإيطالي إلى بيوتهم في القاهرة .

وبينما كنت مع « عرابي » ، تسلم خطاباً من رجل إيطالي يرجوه فيه أن يقبله بصفة متطوع في الجيش المصري ، وقال له أنه كان فيما مضى جندياً في الجيش الإيطالي تحت قيادة « غاريبالدي » وأنه الآن يود لو أتيحت له الفرصة للقتال من أجل حرية مصر .

يصلون من أجل « عرابي » في مكة :

يقول القس لويس صابونجي :

ومنذ يومين كنت مع « عرابي » ، فأثارة رجل عربي بخطاب ففتح وتلاه على وعلى الضباط الآخرين ، وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة . وكان الخطاب مكتوباً بأسلوب راق وفيه مدح كثير ، يقول فيه كاتبه أن جميع الناس في مكة يدعون الله أن ينصر « عرابي » . وأن الصلوات تقام من أجله ومن أجل نجاحه في الكعبة وعند قبر إسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في الأراضي المقدسة ، ولم يتردد الكاتب في منح أحمد عرابي لقب (حامي حامي الإنسان) .

كما جاء في الرسالة أن الحجاز كله مع « عرابي » ، وأن شريف مكة لم يشأ أن يكدر علاقته بسلطان تركيا ، لذلك فقد كلف أحد رجال حاشيته بكتابته وهو « عباس أغا زمزم » .

لماذا لعن الإسرائيليون الحكومة البريطانية ؟ :

ويكتب صابونجي « في مذكراته » ليريم ١٠ يوليو .

وكان الناس - أعني القليلين الذين كانوا قد بقوا حتى اللحظات الأخيرة - يهرولون في سرعة كبيرة نحو البواخر المختلفة التي كانت راسية في الميناء تستقبل المهاجرين . ولست أظن أن هجرة الإسرائيليين من مصر تداني ما رأيت بعيني رأسي ، فإن الرجال والنساء والأطفال الرضع الباكين بين أذرع الأمهات والشيوخ الذين لا يقدر على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم من الإسرائيليين ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون صوب البحر في رعب يذكر الإنسان بيوم القيامة ، وكان هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرج عنهم همهم في ذعرهم ويأسهم سوى لعن القناصل والحكومة البريطانية التي جاءت لمصر بهذه النكبة .

كان الوقت يمضى أثناء ذلك ، وقد قرب انتهاء الساعات الأربع والعشرين (المحددة في إنذار الأميرال سيمور إلى قائد الاسكندرية الحربى) . وجال بخاطرى أن أتوجه إلى إحدى البواخر ولكنى سمعت أنها مزدحمة ، وكان أحد بحارة القوارب مشغولاً بحمل حقائبى إلى قاربه ، فعرض على أن يأخذنى إلى القارب البريطانى « تانجور » ، ولكنى رفضت لأن جميع الرعايا البريطانيين والقناصل ومراسلى الصحف - وأكثرهم يعرفونى - كانوا فى البواخر ، لذلك لم أجد من الحكمة أن أزج بنفسى بينهم وعزمت على البقاء على الشاطئ وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية ولكن الساعات الأخيرة كانت قد دنت وكانت القوارب الأخيرة تروح وتجيء .

فى هذه اللحظة .. قابلت فرنسيا كان على وشك الإبحار مع زوجته ، فدعاني لأن أذهب معه إلى الباخرة « سعيد » فتوجهت إليها ، وهأنذا أكتب فيها هذا الخطاب ، بعد أن تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها إلى بارجة الأميرال البريطانى .

ولما رأيت « الجماعة » (يقصد عرابى وزملاؤه) منذ ساعتين ، وجدتهم ثابتين ومتأهبين للقتال والمقاومة إلى آخر نقطة من دماهم مهما كلفهم ذلك .

١١ يوليو - ساعة « عرابى » الخطيرة ! :

فى صباح اليوم - الثلاثاء - عند الساعة السابعة تماماً أطلق الأسطول البريطانى أول طلقة إشارة إلى ضرب الحصون ، وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة قصيرة من الأسطول وقد حانت ساعة « عرابى » الخطيرة ، وأما « درويش » فغادر الاسكندرية عقب ابتداء الضرب وأبحر إلى حيث لا يدرى أحد .

ومن بين ١١٧٠ شخصاً كانوا معى هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة ، كنت الوحيد الذى يتمنى حسن الحظ والنجاح لعرابى ورفاقه .

ولما أطلقت أول طلقة لوح فى الهواء بالقبعات والمناويل والأيدى مع الهتاف والنداءات الدالة على الرضا ، وكان الرجال والنساء والقساوسة والأساقفة والرهبان والراهبات فى سرور وجدل يتنبأون باستسلام الحصون المصرية بعد ساعتين .. ولكن استياءهم بدأ بالفعل . والساعة الآن الواحدة والنصف ولم يتقطع إطلاق النيران من الجانبين . وقد كانت المقاومة المصرية حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الأسطول والبعض الآخر لا يصل إليه لبعده المسافة . ولكن لا أحد يستطيع حتى الآن التنبؤ بالنتيجة . وأجلس الآن فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته . ولكن ماذا يمكن للانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المعتم سوى ابراق المدافع ورعودها ؟ .

لقد مزقت الطلقة الأولى التى انطلقت من البارجة البريطانية القائدة جميع المعاهدات قطعة قطعة ، وأرسلت ملايين « روتشيلد » إلى الجحيم ، وأبعدت الرجل الذى اتفقت إنجلترا وفرنسا على توطيد سلطته (يقصد الخديو توفيق) وستملى قناة السويس فى بضعة أيام بمائة ألف رجل من الفلاحين والبدو الذين دربوا على كيفية أداء مهمتهم من قبل ، هذا إذا لم تكن قد دمرت الآن بالفعل .

الفصل الرابع

معارك الجبهة الغربية (كفر الدوار)

خطط الجانبين بعد احتلال الإسكندرية (٥)

الخطّة المصرية :

كان زعماء الثورة العراقية يعتقدون أن الإنجليز لن يتخلّوا قناة السويس ميداناً للزحف أو للحركات الحربية وذلك احتراماً لحيدة القناة من وجهة النظر الدولية ، وعلى هذا الأساس ، اتجهت أنظارهم إلى القطاع الغربى ونعنى به منطقة كفر الدوار والطرق الموصلة من الاسكندرية إلى القاهرة .

وهكذا عين « عرابى » المهندس محمود باشا فهمى رئيساً لأركان الجيش المصرى ، فوضع خطط الدفاع عن البلاد وتتلخص فى اتخاذ خمسة مواقع دفاعية رئيسية : ثلاثة منها فى القطاع الغربى « كفر الدوار » واثنين فى القطاع الشرقى (الممتد من الإسماعيلية إلى التل الكبير) وذلك على النحو التالى :

- ١ - الموقع الأول : فى منطقة كفر الدوار غربى مدينة الاسكندرية .
- ٢ - الموقع الثانى : فى رشيد .
- ٣ - الموقع الثالث : بين « رشيد » وبحيرة البرلس .
- ٤ - الموقع الرابع : فى دمياط .
- ٥ - الموقع الخامس : فى « الصالحية » و « التل الكبير » .

محمود باشا فهمى : منع المياه العذبة عن الشرق :

وقد أشار المهندس « محمود باشا فهمى » فى بداية الحرب بسد ترعة الإسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة إلى مدن القناة ، كما أشار فى الوقت ذاته بسد قناة السويس ذاتها لمنع الإنجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية .

ولكن « عرابى » لم يستمع إلى تلك النصيحة وخشى عواقبها ، حيث ظن أن الإنجليز سوف يحترمون حييدة القناة فلا يتخلّونها قاعدة للزحف ، وقد ساعده على ذلك الاعتقاد المسبوق « فرديناند دى ليسبس » الذى أكد له

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العراقية » - دار التماون - القاهرة ١٩٨٤ .

استحالة دخول الانجليز للقناة ، فكان لهذا الخلداع أثر كبير في إخفاق خطة الدفاع المصرى ، حيث اكتفى « عرابى »
بناء على ما تقدم - بإقامة معسكر في « التل الكبير » ليضع معظم قواته في « كفر الدوار » وعلى سواحل البحر المتوسط .

وفي الحقيقة . . فإنه يمكننا أن نعتقد في سداد رأى محمود باشا فهمى الخاص بسد القناة ومنع المياه الحلوة من
الوصول إلى الميدان الشرقى ، حيث أن العمل العسكري من أجل الدفاع عن الوطن ضد الغزو الأجنبي يجيز في رأينا
اتخاذ مثل هذا الاجراء أو غيره ، وبالفعل قام الانجليز في ٣٠ يولييه ١٨٨٢ بإرسال أسطول حربي مكون من ٤ سفن
حربية إلى السويس ، وفي ذات الوقت رمى الأميرال « هوسكس » بثلاث سفن حربية في منطقة بور سعيد ، وبذلك
تم للبريطانيين السيطرة على قناة السويس ومدنها من الشمال للجنوب باسم الخديو الخائن « محمد توفيق » ، وهو الأمر
الذى كان له أبعد الأثر في نجاح الخطط الحربية البريطانية الرامية إلى احتلال مصر فيما بعد .

الاجراءات الدفاعية المصرية في الميدان الغربى :

بادر الزعيم « أحمد عرابى » - بعد احتلال الإسكندرية - إلى تعزيز مواقعه في المنطقة الشرقية كما تقدم ،
فأنشأ عدداً من المواقع الدفاعية القوية في منطقة « كفر الدوار » وعدد آخر من المواقع بينها وبين منطقة الرمل وخاصة
في المنطقة المستطيلة الواقعة بين بحيرة « أبو قير » وبحيرة « مربوط » ، وقد امتازت مواقع هذه الدفاعات ببعدها
عن مرمى مدفعية الأسطول البريطانى وتغلز الاقتراب نحوها إلا بجذء جسر الخط الحديدى ، هذا بالإضافة إلى
وقوع منطقة الدلتا بمواردها الغنية ومواصلاتها الجيدة مع القاهرة خلف هذه المواقع الدفاعية .

وقد تمكن الجيش المصرى من الاحتفاظ بهذه المواقع الدفاعية قرابة خمسة أسابيع دافعا بكل هجوم بريطانى
على أعقابها ، إلى جانب ذلك فلم يكن بقاءه سليبا بل دأب على ازعاج القوات البريطانية بالقيام بعدة هجمات محلية
مضادة بين الحين والحين .

كان « محمود باشا فهمى » - بدكاء ملحوظ - قد وضع بمعاونة الأميرالاي « محمد بك شكرى » تصمما
لثلاثة خطوط دفاعية متتالية يفصل كل منها عن الآخر (٤ - ٥) كيلومترات ، يسترها خندق بعمق ١٥ قدما ،
كما أقيمت الأوكار الدفاعية على جميع المرتفعات والآكام ، وجهزت بنحو ٥٠ مدفعا ، وبذلك امتدت سلسلة
الدفاعات في منطقة « كفر الدوار » ابتداء من « عزبة خورشيد » حتى « كفر الدوار » نفسها وأنشئ الخط الدفاعى
الخلقى في « كفر الدوار » في المنطقة الممتدة من ترعة المحمودية إلى الملاحه ، في حين عززت المنطقة الرملية بين ترعة
المحمودية وسد « أبى قير » .

إقامة سد ترعة المحمودية :

ولقد أقام العراييون سداً على ترعة المحمودية عند « كنج عثمان » وأحدثوا بشايطها وعلى قرب من السد نجاه
مواقعهم قطعين كبيرين مما أدى إلى إحداث نتيجتين كبيرتين : أولاهما قطع المياه العذبة عن الإسكندرية ، وثانيهما
إحداث فيضان صناعى غمر جبهة الموقع الدفاعى كله تقريبا ، كما أدى حلول الصيف إلى جفاف بحيرة « مربوط » ،
لتزييما وتغيير طبيعة المواقع الدفاعية بالإسكندرية .

وبذلك ارتكزت المواقع المصرية على بحيرتي « أبو قير » و « مريوط » وأدى ذلك إلى مناعتها وقوتها ، وقد ساهم أكثر من ٥٠٠٠ رجل في تشييد وإقامة هذه الدفاعات التي صمدت في وجه القوات البريطانية المهاجمة حتى نهاية الحرب .

« توفيق » يصرح باحتلال الإسكندرية :

وكانما كانت الأقدار تهىء لشعب مصر مصيبة جديدة . . تمثلت في هذا الخديو الخائن الذي لا يشعر بأى تعاطف مع الشعب الذي كان يعتبره من « عبيد احساناته » ، في صباح يوم ١٣ يولييه ١٨٨٢ ، أوفد هذا الحاكم المحسوب على شعب مصر ظلما وبهتاناً مندوبه « زهران بك » إلى الاميرال « سيمور » معلنا له باسم الخديو استعداد الأخير لمؤازرته ، وبذلك دق هذا الخديو الخائن الأسفين العميق الذي تسبب في تقسيم البلاد إلى معسكرين : معسكر « عرابي » من (العصاة) كما أطلق عليهم آنذاك ، ومعسكر الخديو الذي يسبح بحمد الانجليز والغزاة خمس مرات في كل يوم مع كل صلاة .

بعد ذلك انتقل الخديو إلى سراي « رأس التين » ليستقبل الغازي الانجليزى الذي تقف على رأسه ورأس حكومته دماء الشهداء المصريين الذين وروا التراب توأوا وقتلوا فقط لأنهم أحبوا الحرية لوطنهم ودافعوا كالرجال عن ترابه ، لقد أعطى الخديو « توفيق » في ذلك اليوم والأيام التالية الدرس الأول في النفاق والتفكك وشراء الذمم لشعب مصر الذي وقف بتعاليته العظمى الشريفة مع الرجل الذي أضحى منذ هذه اللحظة القائد والزعيم : البطل « أحمد عرابي » ، الذي وقف في ذلك اليوم ليطلق صيحته الخالدة : « فلتعيش الحرية في مصر خالدة مؤبدة » .

وفي نفس اليوم ، وصلت الأميرال « سيمور » برقية من الخديو تخول له نزول بحارته ومشاة البحرية إلى المدينة لإعادة النظام بها . وبعد انظهيره وفي المساء نزلت إلى البر مشاة البحرية من المدرعات « سوبرب - أنفلكسبيل - تمرير - أشيل - سلطان » ، وتولى الكابتن « فيشر » من المدرعة أنفلكسبيل قيادة القوة كلها في المدينة ، في حين تحركت المدرعات « أنفلكسبيل - تمرير - أشيل » إلى مكان من البحر يواجه الرمل بغية السيطرة على طرق الاقتراب البرية المؤدية إلى الإسكندرية من الجنوب والغرب .

توزيع القوات البريطانية بالإسكندرية :

وقد تم توزيع القوات البريطانية في مدينة الإسكندرية على النحو التالي :

مشاة بحارة المدرعة « مونارك » في محطة الرمل ، ومشاة بحارة المدرعة « تمرير » عند بوابة رشيد ، ومشاة بحارة المدرعة « الكسندرا » عند بوابة محرم بك ، ومشاة بحارة المدرعة « سلطان » عند بوابة حصن « كوم الدكة » . وبحارة المدرعة « سوبرب » عند بوابة « عمود بومبي » ، وبحارة من « أشيل » عند بوابة القبارى ، وبحارة الكسندرا عند محطة سكة حديد القبارى ، أما عند الضبطية و « الترسانة » ، فقد تم توزيع بحارة المدرعة « أنفنسبيل » .

وفي ١٥ يولييه وصلت المدرعة « مينوتور » بقيادة الأميرال « دويل » - قائد أسطول المانش - ونزل منها لواء من مشاة البحرية إلى المدينة ، كما احتل بعض جنود مدفعية الأسطول حصن نابليون واحتل مشاة البحرية قلعة « كوم الدكة » ، وقامت جماعة من المدرعة « الكسندرا » بنسف طابية « السلسلة » ، في الوقت الذي بدأت فيه

عملية واسعة لتسف جميع المدافع المصرية المنصوبة على الساحل ، كما نزلت قوات من السفن الألمانية والأمريكية التي كانت موجودة بمياه الإسكندرية إلى المدينة للمعاونة في إعادة النظام ، وعين اللورد « تشارلس بيرسفورد » مديرا للبوليس بها . وفي اليوم التالي أصدر الأميرال « يوشامب سيمور » أوامره إلى البحارة الأمريكيين والألمان واليونانيين إلى سفنهم بحجة عدم الحاجة إليهم .

لماذا حاول الخديو استدراج « عرابي » ؟!

في يوم ١٥ يولية أرسل الأميرال « سيمور » بناء على اقتراح من الخديو « توفيق » - سفينتين إلى « أبي قبر » للسيطرة على المنطقة هناك إذا ما حاول « أحمد عرابي » سدها أو غمرها بالمياه .

وفي ذات الفترة ، حاول الخديو - بإيعاز من السلطة البريطانية - إيقاع « عرابي » في الشرك ، فأرسل إليه - في ١٧ يولية - برقية يلقي فيها بمسئولية العدوان البريطاني على استمرار الأعمال الجارية في الطوابي وتركيب المدافع ، ويعلن فيه أن الأميرال « سيمور » لا يضمّر العداء لمصر ، وأن الحكومة البريطانية ليس بينها وبين الحكومة المصرية خصومة أو حرب ، وأن « سيمور » مستعد لتسليم مدينة الإسكندرية إلى جيش منظم وأمور ، ولذلك إذا احضرت عساكر « شاهانية » (من طرف السلطان العثماني) فالحكومة الإنجليزية تحترمهم وتسلم إليهم المدينة . فليست بينها وبين مصر حالة حرب ، كما يأمر الخديو في نفس البرقية بالحضور على الفور إلى سراي « رأس التين » لإعطائه « التنبيهات الشفهية المقتضية » على حسب أمر الخديو ، وأن ذلك هو ما استقر عليه رأى مجلس النظر .

« عرابي » . لازالت الحرب قائمة .

ومن نافلة القول أن الخديو كان يهدف إلى القبض على « أحمد عرابي » وتسليمه للبريطانيين ، وهو الأمر الذي تنبه إليه الزعيم أحمد عرابي ، فأرسل إلى الخديو إجابة أعلن له فيها أن الأسباب التي توجب استمرار الدفاع لازالت قائمة ، وأن قرار المجلس أجمع على رفض مطالب « سيمور » ولو أدى ذلك إلى الحرب وزيادة ٢٥ ألفاً من الجنود صدرت بها الأوامر إلى المديريات بطلبهم ، وأن هذه القرارات إنما اتخذت لتمسك الخديو و « درويش باشا » بها ، وأن حالة الحرب تعد قائمة تستوجب استمرار الاستعداد وأنه - أي عرابي - لا يمكنه العودة إلى الإسكندرية والقوات البريطانية تحتلها ، وأنه يستحسن حضور الوزراء أو رئيس الوزراء إلى مركز الجيش للمداولة حتى يمكن على ضوء الحقيقة نفسها صرف الجنود والكف عن الاستعدادات الحربية والحضور إلى الإسكندرية .

ولم يلبث « عرابي » بعد هاتين البرقيتين المتبادلتين بينه وبين الخديو أن فطن إلى ما يضمّره من الخيانة لمصر ولشعبها ، فقام بإعلان خيانه وأرسل تحذيرا إلى جميع المديريات والمحافظات من الوقوع في حباله ، كما طلب من « يعقوب باشا » - وكيل وزارة الحربية - عقد جمعية عمومية من النواب والأعيان والعلماء لإصدار ما تراه في هذا الشأن الجلل .

الخديو يعزل « عرابي » ! :

أجاب الخديو « توفيق » على رد « عرابي » بالمبادرة إلى إصدار فرمان - في ٢٠ يولية ١٨٨٢ - يقضى بعزل « أحمد عرابي » من وزارة الحربية وتعيين « عمر باشا لطفى » - محافظ الإسكندرية بدلا منه . في ذات الوقت الذي قام فيه بإرسال منشور ناشد فيه الشعب الانضمام تحت لوائه ومناصرة الجيش للبريطاني والامتناع عن معاونة العرابيين .

سلطان تركيا يعلن عصيان «عراي» :

ويتبين لنا موقف سلطان تركيا من «عراي» مما سجله سليم خليل النقاش^(١) يقول :

« .. كان «عراي» أثناء قتاله ضد الإنجليز يعتمد على موقفه الوطني وعلى تعصيد السلطان ومساعدته له في مشروعه .. ولكن خاب أمل «عراي» في الحصول على تلك المساعدة اثر صدور المنشورات الخديوية واتصال الخبر به أن القوم في دار السعادة علوه عاصياً نابذاً لطاعة الخليفة ونائبه في مصر - يعني الخديو توفيق - ولم يمتص على ذلك بضعة أيام حتى تحقق ذلك بالمنشور الذي أصدره الباب العالي . وفيما يلي نصه :

أولاً : ان الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعي بمصر هو حضرة فخامتلو دولتو محمد توفيق باشا .

ثانياً : ان أعمال «عراي» كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ثم التمس من جناب الخديو العفو عنه وناله ونال أيضاً العفو من الحضرة السلطانية .

ثالثاً : ان الشرف الذي ناله أخيراً من الحضرة السلطانية^(٢) إنما كان من تصريجه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم :

رابعاً : قد تحقق الآن رسمياً أن «عراي باشا» رجع الى زلانه السابقة واستبد برئاسة العساكر المصرية بدون وجه حق . فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لاسيما أنه «يهدد» أساطيل حليفة للدولة العلية السلطانية .

خامساً : تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر إلى «عراي باشا» ورفاقه وأعوانه يكون بصفة أنهم (عصاة) .

سادساً : يتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذي هو في مصر وكيل الخليفة ، وكل من يخالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة .

سابعاً : ان معاملة «عراي» باشا وحركاته وأطواره مع حضرات السادات والأشراف هي مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية .

خطط الجانب البريطاني

في ٧/٢١ أرسل (أرشيالد إليسون) آلاين من المشاة وكتيبة من الفرسان خارج منطقة الرمل في اتجاه المواقع الدفاعية المصرية ، وتقلعت تلك القوة حتى تل (وابور المياه) وهو موقع مشرف على المنطقة ويمكن منه رؤية الخطوط المصرية في (كفر الدوار) .

أما طريق الاقتراب المتجه من منطقة (أبو قير) فقد سيطرت عليه نيران الأسطول سيطرة تامة وسدت دفاعات (القبارى) - طريق التقدم من ناحية (المكس) .

(١) في كتابه « مصر للمصريين » - الجزء الخامس - طبعة ١٨٨٤ م - ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) فور حضور «درويش باشا» - مندوباً عن السلطان - إلى مصر في يونيه ١٨٨٢ ، قام بتوزيع النياشين والأنواط على العرايين ، فتح «عراي» الوشاح الأكبر والنيشان المجيدى وذلك في محاولة لاحتوائه والسيطرة على الثورة .

وبذلك يكون احتلال الإنجليز لثل الرمل قد أتم سلسلة الدفاعات عن الاسكندرية وبدأت قواتهم تحكم قبضتها على المنطقة وعلى ذلك بدأت في تعزيز مواقعها ، متخذين من نقطة (وابور المياه) والفتطاس القائم خلفه على الثل المرتفع مركزاً للدفاع عن الاسكندرية ووضعوا في الوابور قسماً قوياً من قواتهم وأنشأوا رفاستهم في الموقع الثاني كما حفروا الخنادق ووضعوا فيها عدداً من المدافع (منها ٥ عيار ٤٠ رطلا - ٢ عيار ١٢ رطلا - ٢ عيار ٩ أرطال) كما وضعت قوة بريطانية قوية في قصر (أنطونيادس) على ترعة المحمودية للسيطرة على طريق الاقتراب من ناحية جسر السكة الحديد .. وفي ذات الوقت أنشئت كبرى مؤقتة على ترعة المحمودية .

أراد الإنجليز في بداية الأمر أن يقوا جانبهم الأيمن باستخدام العوامات أو القوارب المسطحة غير أن قلة المياه وهبوط مستوى بحيرة (مربوط) أدى إلى استحالة استخدامها ، ولحل هذه المشكلة أنشأ الكابتن (فيشر) قطاراً مصفحاً كان له أثره وقيمته في المعركة حيث تكون هذا القطار في بادئ الأمر من عربتين مصفحتين بألواح حديدية وأكياس معبأة بالرمل مسلحتين بمدفع (نيوردفلت) ومدفعين (جاتلنج) ، كما جهزت إحدى العربتين بمدفع ٩ أرطال مجهز بونش يمكن به خفضه في الحال بينما احتل باقي العربات ٢٠٠ جندي مسلحين بالبنادق خلف أكياس الرمل والألواح الحديدية المانعة لتفوذ الرصاص .

إصلاح الخط الحديدي :

وفي منطقة مواصلة (الملاحه) - تم في ٧/٢٩ إصلاح الخط الحديدي الذي دمرته النقط الأمامية للجيش المصري العرابي وقد تمت هذه العملية بتشكيل قوة صغيرة من المشاة الراكبة وسريتين من مشاة البحرية وسرية مشاة يعاونهم القطار المدرع المشار إليه الذي تقدم يوم ٧/١٨ إلى أقرب نقطة من النقط الخارجية المصرية لإغراء كل القوة المربطة بها على فتح النيران .

المصريون يضربون القطار المصفح بالصواريخ :

وقد كانت القوة المصرية مكونة في بادئ الأمر من كتيبة مشاة وكتيبتين من الفرسان ، سرعان ما عززت بكتيبتين إضافيتين وبعض الفرسان وجاء المصريون بمدفع صاروخي وصوبوا بعض الطلقات على القطار مما أحدث به ضرراً بليغاً ، إلا أن البريطانيين تمكنوا من إصلاحه يوم ٧/٢٩ وبذلك أمكن تسير عدد كاف من القطارات دائرياً على الخط الرئيسي نين (محرم بك) على خط القاهرة - الاسكندرية الحديدي والموقع الأمامي بالرمل .

وتبين البريطانيون فائدة القطار المدرع فزادوا من تحصينه بإضافة عربتين في مقدمته علاوة على تجهيزه بمدفع من عيار ٤٠ رطلا مع القاطرة في منتصف القطار ووقايتها بحائط سميك من أكياس الرمل والقضبان الحديدية .

مناوشات الأعراب ضد الإنجليز :

وفي ليلة ٣١-٧ قام بعض الأعراب بمهاجمة المواقع الأمامية البريطانية بالرمل ، وعادوا هجومهم في الليلة التالية على أحد مواقع المشاة الأمامية على ترعة المحمودية وأجبروا تلك النقطة على الانسحاب نحو محطة (الطللمات) - على مسافة ميل للثلف - إلا أن البريطانيين تمكنوا من استعادته بعد القيام بهجوم مضاد قوى .

معارك الميدان الغربي

(منطقة كفر الدوار)

في ٢٠ أغسطس تقدم السير (أرشيبالد موري) بقوة كبيرة نحو المواقع المصرية بمنطقة كفر الدوار ويقول التاريخ الرسمي البريطاني تغطية لما منيت بين هذه العملية من فشل بأن السير (أرشيبالد موري) لم يقد بهذا الهجوم إلا ليتحقق بنفسه من صحة التقارير التي وصلتته عن عزم « عرابي » على الانسحاب من منطقة (كفر الدوار) ، وليلقى في روع المصريين أن الهجوم البريطاني الحقيقي سيوجه إليهم من الاسكندرية .

الخطوة البريطانية (عن المصادر البريطانية) :

وقد أصدر السير (أرشيبالد) أوامره بتأهب القوات المعدة للهجوم مواقعها اعتباراً من الساعة ٤:٣٠ مساءً لتتقدم في طابورين :

١ - الطابور الأيسر : بقيادة اللفنتانت كولونيل (تاكويل) وكان مكوناً من : الكتيبة الأولى (ساوث ستافوردشير) (نصف قوة) الكتيبة الثانية (دوق أوف كورنول) مشاة خفيفة (نصف كتيبة) .

الكتيبة الثالثة (كنجز رويال ريفلز) + المشاة الراكبة + مدفع بحري ٩ أرطال ، وتبلغ مجموع تلك القوة ١٠٠٠ مقاتل :

وكان واجب هذا الطابور السير بمحاذاة خط التربة إلى أن يصل إلى منزل قائم وسط الأشجار في المنطقة التي يكون فيها خط السكة الحديد في أقرب مواقع من ترعة الحمودية .

٢ - الطابور الأيمن : تحت القيادة المباشرة للسير (أرشيبالد إليسون) وكان مكوناً من :

مدفعية مشاة البحرية الملكية .

المشاة الخفيفة لمشاة البحرية .

٢ مدفع بحري ٩ أرطال .

وكانت هذه مجموعها أيضاً ١٠٠٠ مقاتل .

وكان واجب هذا الطابور التقدم بالقطار إلى مواصلة الملاحاة يسبقه القطار المصفح الذي كان عليه أن يقف في مواصلة الملاحاة لينزل منه مشاة البحرية ويتقدمون بمحاذاة السكة الحديد يعززهم المدفعان ٩ أرطال ويغطي تقدمهم مدفع ٤ أرطال المجهز به القطار المصفح المشار إليه .

بداية القتال :

في الساعة ٤:٤٥ مساءً تقدم الطابور الأيسر بمحاذاة جانبي ترعة الحمودية بينما تقدم الطابور الأيمن بمحاذاة الطريق الحديدى ، وقد سعى كل طابور أثناء تقدمه إلى تهديد أجناب النقط الأمامية المصرية ، ورغم الدور الكبير الذي قام به القطار المصفح أثناء القتال فلم يؤثر ذلك في شئ على مقاومة المصريين الباسلة .

وخالماً بدأ الطابور الأيسر التقدم في الموعد المحدد ، قام المصريون – الذين اتخنوا مواقعهم في أحراش النخيل على الضفة الشرقية للترعة – بالضرب عليه – وبعد قتال عنيف استطاعت القوات الاستيلاء على تلك النقطة الأمامية المصرية بعد أن قتل ضابط بريطاني كبير .

أما الطابور الأيمن – كما تقول المصادر البريطانية أيضاً فقد رافقه السير (أرشيبالد) وتقدم حسب الخطة مستتراً بجسر السكة الحديد ليقطع خط الرجعة على القوات المصرية المشتبكة مع الطابور الأيسر .

المصريون يصبون نيراناً حامية :

ولكن سرعان ما اكتشف المصريون تقدم هذا الطابور وصبوا عليه نيراناً حامية من المدفعية وهرع (أرشيبالد) إلى النقطة التي يقترب فيها الطريق الحديدي من الترعة وفتح البريطانيون نيرانهم من جسر السكة الحديد على القوات المصرية المستحكمة على جسر الترعة واشتبك المدفعان ٩ أرتال مع المدفعية المصرية ، كما سلط المدفع ٤٠ رطلا (بالقطار) نيرانه على المواقع المصرية ، وبعد أن ثبت السير (أرشيبالد) جانبه الأيمن على كلا جانبي الجسر دفع بسريتين لاقتحام منزل قائم على مقربة من الترعة وأعقب ذلك بدفع ٤ سرايا على اليسار على كلا جانبي الترعة .

ويقول الإنجليز : انه يبدو أن الطابور الأيسر وقد صدرت إليه الأوامر باحتلال منزل أبيض معين على الترعة التمس عليه الأمر وأخطأ قائده الكولونيل (ثاكويل) في تنفيذ الأمر ظناً منه أن المنزل الذي وصلت قواته في بادئ القتال هو المنزل المقصود مما أدى إلى كشف الجانب الأيسر لمشاة البحرية وفشل العملية .

المصريون يقاتلون الإنجليز بالسلاح الأبيض :

وأرسل القائد البريطاني إشارات كثيرة إلى الجناح الأيسر لمواصلة التقدم ، غير أن غبار ودخان المعركة حالا دون فهم المقصود منها ، وحاول القائد البريطاني مستميتاً التثبت بالمكان الذي وصلت إليه قواته لمدة ثلاثة أرباع الساعة حتى هبط الليل .. وقد التحم المصريون بالإنجليز بالسلاح الأبيض وكبلوهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد .

وهكذا تراجع البريطانيون :

وهكذا تراجع الإنجليز بعد قتال عنيف دام ثلاث ساعات ونصف أمام المقاومة المصرية ، وقد انطلقت قوات من الفرسان المصرية بقيادة (خورشيد باشا طاهر) من منطقة (أبو قير) الدفاعية لتهديد الجناح الأيسر للهجوم البريطاني ، وهنا بادر الطابور الأيمن في سرعة وعجلة إلى ركوب القطار عند مواصلة (الملاحه) مولياً الأدبار إلى الإسكندرية ، في ذات الوقت الذي تهقر فيه الطابور الأيسر على جانبي ترعة المحمودية صوب منطقة الرمل :

ويقول الإنجليز : ان الظلام ساعدهم على الانسحاب من المعركة دون أن يؤثر ذلك تأثيراً شديداً على معنوياتهم حيث كانت هذه هي أول معركة تدور بين المصريين والإنجليز وجهاً لوجه .

القادة الإنجليز ليسوا فوق مستوى الشبهات :

ونقرأ في التعليق البريطاني الرسمي عن تلك المعركة :

« ... لقد مست تعليقات الصحف الأوروبية عن المعركة عاطفة الشعب البريطاني .. تلك الصحف التي كانت في جهل تام بالخطوة البريطانية المقررة للحملة وطبيعة الأرض التي أدت إلى اختيار طريق الإسماعيلية فإن هذه الصحف كانت تتوهم دائماً أن هناك ترتيبات تتخذ للقيام بزحف مباشر من الاسكندرية على القاهرة .. وأن هذه المناوشات التي لا هدف لها قد أظهرت فحسب أن القادة .. الإنجليز لم يكونوا على معرفة بما يدور حولهم ، ولم تكن لهم خطة محددة » .

الهجوم البريطاني الثاني على منطقة (كفر الدوار) :

وترى المصادر المصرية بتفاصيل عن موقعة ثانية دارت في منطقة (عزبة خورشيد) في اليوم التالي إلا أن هذه الواقعة أغفلت ذكرها تماماً المصادر البريطانية للحملة على مصر .. وتقول المصادر المصرية عن هذه الواقعة :

« .. إن الإنجليز عاودوا هجومهم على مقدمة الجيش المصري في كفر الدوار في ثلاثة طوابير تقدم الأيسر منها في الرمل على جسر ترعة المحمودية ، وتقدم الأيمن منها بطريق السكة الحديد من (القبارة) بينما تقدم القسم الأوسط من طريق كوبري المحمودية - وارتطموا بالمواقع المصرية التي صمدت لهجومهم ، وانبرى في تلك المعركة البكباشي محروس يقود كتيبة من المشاة ، وهاجم ميسرة الإنجليز ووقف في وجه الوسط والجنح الأيمن البكباشي محمد فودة على رأس كتيبة ثانية من المشاة وحين اشتد القتال في تلك المنطقة جاءت الإمدادات بقيادة القائمقام أحمد عفت قائد المقدمة ثم وصلت إمدادات أخرى مؤلفة من كتيبة يقودها البكباشي سليمان تعلب والبكباشي رزق الله حجازي .

وتولى (طلبة باشا عصمت) قيادة الجيش واستمر القتال ٤ ساعات انتهت بتراجع القوات البريطانية واقتنى المصريون أثرهم حتى حجبهم الظلام .. واستشهد في تلك المعركة من المصريين ٩ جنود وضابط صف وجرح منهم ١٢ جندياً وضابطان . أما الخسائر البريطانية فقد فاقت الخسائر المصرية عدداً .

أحمد عرابي يصف معارك كفر الدوار :

يقول الزعيم عرابي^(١) في وصف معارك الجيش المصري ضد القوات البريطانية في معارك كفر الدوار (الميدان الغربي) - وذلك عقب تدمير الاسطول البريطاني لمدينة الاسكندرية واحتلالها غداة ضربها يوم ١١-٧-١٨٨٢ :

عندما رأى العدو لبات جنودنا ولى منهزماً :

« ... وفي يوم الأحد ٢٠-٨-١٨٨٢ - رأى العدو يرتب عساكره من الساعة السادسة صباحاً ، فرتب طلبة باشا - قومندان الفرقة بكفر الدوار - عساكرنا بهيئة مؤلفة من ٤ أوط من الجهة الشرقية تحت حكمدارية الأميرالاي مصطفى بك عبد الرحيم والقائمقام سليمان بك سامي ، وأما السوارى (الخيالة) والعربان فتحت قومندانية (قيادة) أحمد بك عبد الغفار » .

وفي الساعة التاسعة العربية ظهر العدو مرتباً لقولانه (طوابيره) في ستة قولات من الجهة الشرقية وقولين من الجهة الغربية وقطارين من السكة الحديد ثم ابتداء الضرب بالمدافع من الطرفين واستمر ساعتين . وكانت عساكرنا

(١) مذكرات عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

تتقدم تحت نيران الطويجية - وعندما صار العدو تحت مقلوفات البيادة (المشاة) ابتداء إطلاق النار من الساعة الأولى من الليل - فلما رأى العدو ثبات عساكرنا وإقدامهم بشجاعة وسرعة حركاتهم ولى منهزماً ، فتبعته السوارى والعربان وأوقعت به قتلاً وفتكاً حتى أدخلته في نخيل الرمل .

لله در طويجيتنا ! :

لله در طويجيتنا الذين أبلوا بلاء حسناً وأظهروا من المهارة ما جعل العدو يترك كثيراً من رجاله أشلاء في ميدان القتال .

وفي اليوم التالي :

وفي اليوم التالي - ٨/٢١ - حضر العدو بقولاته من جهة الرمل وابتداء بإطلاق المدافع فجاءتها عساكرنا بالمثل ، وكانت مشاتنا تسير تحت نيران مدفعيتنا ، وقبل أن يصلوا إلى مواقع المقلوفات تفهقر العدو واستمر إطلاق النيران والمدافع إلى الغرب - وعندما رأى العدو أن نيران مدافعنا لا تبقى ولا تذر أنهم وفر هارباً وعاد عساكرنا ولم يصب واحداً منهم بسوء .

أصيب الكثير من رجال العدو :

وقد أصيب في هذه المعركة كثير من رجال العدو كما تحقق ذلك من استكشافات هذا اليوم فقد ترك كثيراً من رجاله صرعى في الميدان .

قائد المعركة يصف القتال :

ويستطرد (عرابي)^(١) : وفي ٢٢ أغسطس ورد لنا تلغراف من طلبة باشا قومندان كفر النوار يقول فيه :

« بعد أن ظهر العدو رتب عساكره من خطوط ثم طواير ثم قولات - تقدم حتى صار تحت النيران لمقلوفاتنا فابتدأت الحرب في منتصف الحادية عشرة ، واشتغلت طويجيتنا بمهارة عظيمة حتى بددته وشتته تحت النخيل ، ثم ما زالت نيراننا تفقر أثره حتى انهزم شر هزيمة ، وقد رأيت قنابلنا تفرقع وسط طواير العدو وقولاته فهلك الكثير من رجاله وكانت أصوات عساكرنا مرتفعة بالكبير والتحميد ومشاتنا تتقدم تحت نيران مدافعنا ، ولكن العدو لم يتمكن من الدخول في منطقة نيران البنادق لتأثير نيران مدافعنا فيه .

رأيت من مهارة طويجيتنا ما أبهجنى :

ولقد رأيت من مهارة طويجيتنا وإصابة مقلوفاتها ما أبهجنى وملأني سروراً بهم عندما رأيت ذخيرة العدو وقد التهمت وأصابت الكثير من رؤسائهم ثم شاهدت في طاية الرمل كثيراً من النوات وكبار الأفرنج يشاهدون القتال ومعهم المنظارات .

(١) مذكرات عرابي (كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية في عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢) - بقلم زعيم الثورة العرابية أحمد عرابي : الجزء الثاني .

الإنجليز يستنجدون :

ولقد استنجد الإنجليز فجاءتهم نجدة على قطار مخصوص ، ولكنها لم تصل إلا بعد الهزيمة فعادت كما جاءت - وكان الوقت في الساعة الواحدة ليلاً .

فبشروا العموم بتأييد الله ونصره للمساكر المصرية وما يظهرونه من الثبات وتبديد العدو الباغي .

قل للنديو وللشعب اتنا نرى إلى مد خط حديدى في (قبرص) على الطرق الحالية من (يماسول) إلى المستشفى في الجبل ، واشحن باسم هذا الغرض ٤ قطارات و ٨٠ عربة خفيفة على سفينة يمكنها التوجه إلى (الإسماعيلية) ومهما كانت الأمور فاشحن ٦ عربات خفيفة لنستخلمها على الخط الحديدى بالخيول في البداية - اتخذ الترتيبات مع الأميرال لنقل ٥ كتائب وآلاى فرسان وبطارية من (بورسعيد) إلى داخل القناة .

القوات الهندية تتحرك إلى منطقة القناة :

وفي ٨/٩ أبحرت ناقلات بالقوة الهندية من (بومباي) - ولاطمثنان (عراقى) إلى أن أى تحرك تقوم به القوة الهندية في منطقة القناة لن يزيد على مجرد عمليات فرعية ، فلم تزد الاستعدادات التى اتخذها على طول ذلك الخط عن مجرد تحضيرات رعى بها إلى احتجاز أية قوات قد تقوم بتقدم ما واستغل الإنجليز هذا التوهم الخاطئ وعملوا على إبقائه متسلطاً على (عراقى) .

توزيع القيادات المصرية :

وعلى الجانب المصرى عين (راشد باشا حسنى) قائداً للمنطقة الشرقية ، و (خورشيد باشا طاهر) قائداً لمنطقة أبو قير ، و « على باشا الروبى » قائداً لمنطقة مريوط و « عبد العال باشا حلمى » قائداً لمنطقة دمياط ، و « محمود سامى باشا البارودى » قائداً لمنطقة الصالحية ، و « طلبة باشا عصمت » قائداً لمنطقة كفر الدوار ، وجميع تلك القيادات المحلية تحت القيادة العامة لأحمد عراقى باشا مباشرة .

الخططة البريطانية لاحتلال مصر :

قامت القيادة البريطانية بعد ذلك بوضع خطتها التفصيلية لاحتلال القناة - والسيطرة على مصر بالتالى - وذلك وفقاً للترتيب الآتى :

- الاستيلاء على قناة السويس تأميناً لسلامة مرور سفن الحملة :

- تحرك قوة الحملة إلى (الاسماعيلية) في نظام مسلسل مرتب بقلدر ما تسمح به الظروف .

- اتباع كل ما يمكن من وسائل الخداع لإيهام المصريين بأن الهجوم البريطانى سيوجه نحوهم من نقط أخرى غير الاسماعيلية إلى أن تحتشد بها أعداد كافية لتأمين سلامة امتلاكها .

- الاستيلاء على الخط الحديدى وترعة الاسماعيلية وتأمينها حتى مسافة قرية من الموقع الذى عرف أن المصريين يتخفون عندهم لوضع قوتهم الرئيسية به دفاعاً عن شرق الدلتا - أى حتى مسافة قرية من التل الكبير .

— البلبه بمجرد الاستيلاء على خطوط المواصلات السابقة في إصلاح الأجزاء التي دمرها المصريون وأعاقوا عملها في الخط الحديدي أو القناة وسير كل ما يمكن من القطارات والقوارب لتموين الجيش في الميدان .

— العمل على تكديس المخازن والذخيرة في موقع متقدم وتحت حراسة كافية وبكميات وافرة لاستغلال الجيش في تموينه بعد زحفه :

— الاشتباك مع الجيش المصري في معركة عامة ، مبعد (وليس قبل) أن يسمح موقف تكديس الأدوات أو نقلها اليوم المنتظم على طول الخط بحشد الجيش لتوجيه ضربة فعالة ونهائية إن أمكن .

الانطلاق عقب هذه العملية — بأقصى سرعة إتماماً للآتي :

١ — تأمين الاستيلاء على القاهرة لأسباب سياسية وحربية .

٢ — الاستيلاء على نقط الحشد التي يمكن فيها فقط — عقب هزيمة المصريين في (التل الكبير) النشام قواتهم المتعددة المربطة في (كفر النوار) و (في القاهرة) ودمياط ورشيد والصلحية وانشاء قوة كبيرة لها أثرها الحربي الفعال .

الحديدو (توفيق) يفوض الإنجليز لاحتلال القناة :

في الأول من شهر أغسطس ١٨٨٢ ، كان في حوزة الاميرال (هوسكنس) البريطاني — تفريضا مكتوباً من الحديدو (توفيق) الخائن ، يخوله فيه الاستيلاء على جميع النقاط الضرورية التي على طول القناة واحتلالها باسم الحديدو . . فيما يلي نصه :

الإسكندرية في أول أغسطس سنة ١٨٨٢

« لكم السلطة التي تخولكم احتلال ما تجدلونه مفيداً من نقط في منطقة القناة لتأمين حرية الملاحة فيها وحماية المدن والاهلين على طول مجرى القناة وطرده كل قوة لا تعترف بسلطتي ولكم أيضاً يا سيدى الكونتر اميرال سلطة اتخاذ الاجراءات اللازمة لإنتراع الخط الحديدي بين السويس والإسماعيلية من يد الثوار » .
امضاء

خطاب الحديدية البريطانية :

وقد عمدت القيادة البريطانية إلى خداع العرايين عن وجهة الهجوم الحقيقية (منطقة القناة) وذلك بتحريك الاسطول البريطاني إلى منطقة (أبى قير) مع اطلاق الشائعات وترويجها عن عزمها غزو تلك المنطقة^(١) .

(١) وبذلك تمكن الإنجليز من احتلال (الإسماعيلية) و (الشاوة) و (بور سعيد) و (نفيسة) يوم ١٨٨٢/٨/٢٠ بما مهد الطريق لمرور الحملة البريطانية في القناة وتأمين المواصلات مع القوة الهندية عند وصولها إلى (السويس) — وذلك بعد أن نفذوا خطة لخداع العرايين تركزت في إيهامهم بأن الهجوم البحرى موجه أساساً إلى مواقع (أبى قير) بينما انطلقت السفن صوب (بور سعيد) ليلاً .

وهكذا غادر الاسطول البريطاني ميناء الإسكندرية متوجها إلى (أبي قير) كما أذيع وليترك السير (جارنت ولسلى) البرقية السرية التالية إلى أركان حربه (السير هاملى) :

الإسكندرية- في ١٨/٨/١٨٨٢ .

عزيزى هاملى :

لست أزمع النزول في (أبي قير) فالإسماعيلية هي وجهتى الحقيقية ، وإنى آمل أن أصلها في نحو الساعة الرابعة مساء يوم الأحد القادم ، ومع ذلك فسنقوم بمظاهرةتنا في (أبي قير) غداً أرجو أن يكون لها الأثر المطلوب في عرابى وصديقه (ديلسبس) وهناك سفينة جنحت بالقرب من بحيرة التمساح وإذا كان هذا عن عمد فقد يؤخر بعض الشيء مرورى داخل القناة :

عندما نقرأ هذا ، احتفظ بما جاء فيه لنفسك ، ولا تخطر به أحدا . اقتصر على إظهار أكبر عدد من جنودك أمام جبهة (عرابى) وفتح أقصى نيران ممكنة عليه من مدافع أى موقع يمكن منه وصول القنابل إلى مواقعه ، لن أبرق إلى إنجلترا بأنباء تحركاتى الزمنية حتى أصل بنفسى إلى (بور سعيد) التى أرجو أن أصلها قبل بزوغ فجر الأحد .

سأستدعيك بأسرع ما أستطيع لأننى سأكون فى حاجة إلى كل جندى فى قتالى قرب (التل الكبير) إذا ترفق (عرابى) وبقى لمقابلتى بها .

إلى اللقاء ::

امضاء

المخلص

جارنت ولسلى

الفصل الخامس

معارك الميدان الشرقى (*)

بريطانيا تدعم قواتها في مصر :

في أعقاب احتلال الإسكندرية ، بدأت إنجلترا في تدعيم قواتها في مصر ، فأرسلت اللوق (أوف كنوت) – نجل الملكة (فكتوريا) – ركان قائد اللواء الأول ، والجنرال (ويليس) قائد الفرقة على رأس قوة أبحرت بها الباخرة (أورينت) من حوض ميناء (رويال البورت) شمال (وولوتش) يوم الأحد ٣٠ يولييه ١٨٨٢ – وهكذا ظلت الأفواج المتعاقبة من القوات البريطانية تتدفق منذ ذلك التاريخ – وحتى ١١ أغسطس – على مصر بصفة يومية تقريبا .

قائد القوات البريطانية يرسل برقية من باخوته لخداع العراقيين :

ومن على ظهر الباخرة (كالابريا) يرسل السير (جارت وللى) برقية تحوى نواياه المستقبلية – إلى قائد الإسكندرية يقول فيها :

من السير جارت وللى للسير جون^(١) – الإسكندرية :

آمل الوصول إلى الإسكندرية في ١٥ الجارى – لا تنقل القوات إلى القناة حتى وصولي . ولكن جهز كل شيء للتحرك – لجذب التفات (عراقى) الى الإسكندرية باستطلاع يومى يوجه نحو جنب موقعه : هل يمكنك الاقتراب منه بقوات بخارية ؟ – إذا لم تكن (أبو قير) قد قصفت بعد فامتنع عن قصفها في الوقت الحاضر .

احتلال (نفيشة)^(٢) :

في ٢٣ أغسطس التحم المصريون والانجليز لأول مرة في الميدان الشرقى قرب « نفيشة » وبعد قتال شديد ارتدت القوة المصرية عنها فاحتلها الانجليز .

معركة (المحفر) :

وتقدمت القوات البريطانية للاستيلاء على منطقة (المحفر) للاستيلاء على السد المقام على ترعة الإسماعيلية ومنع

(*) محمد فيصل عبد المنعم : « معارك الثورة العراقية » – دار التعاون – القاهرة ، ١٩٨٤ .

(١) السير « جون ايدى » : تولى قيادة قوات الإسكندرية منذ ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) تعتبر (نفيشة) أول محطة غربى (الاسماعيلية) حيث تبعد عنها نحو ٣ كم – كما تنفرع منها ترعة الإسماعيلية إلى فرعين : يتجه احدهما إلى السويس ويمر الآخر في خط الأنابيب إلى بور سعيد وكانت بتلك البلدة أول معسكر مصرى تحتله قوة من المشاة تقدر بنحو ٢٠٠٠ جندي ولذلك بدأت السفن البريطانية بقصفها بمدفعتها منذ وصولها إلى الاسماعيلية .

القوات المصرية من إقامة سلود جديدة عليها^(١) . . وقد تألفت القوة البريطانية من كتيبي مشاة وآلاى من الفرسان مدعمة ببعض قطع المدفعية (١٣ رطلا خيالة) بالإضافة إلى بعض العناصر المشاة الراكبة وكتيبة من مشاة الاسطول .

القوات البريطانية تصطدم بطلائع القوات المصرية :

وقد تقدمت القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال (جراهام) للاستيلاء على السد المقام على ترعة الإسماعيلية بين (الحفر) و (تل المسخوطة) وذلك في فجر يوم ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ متخذة من السكة الحديد محورا لتقدمها حيث اصطدمت بطلائع القوات المصرية على بعد سبعة أميال من (نفيسة) . . ولكنها تمكنت - بعد قتال ضار - من التغلب عليها ودفعها للوراء والاستيلاء على السد الذى يعترض مجرى التربة .

الدفاعات المصرية توقف تقدم الانجليز :

ثم اندفعت الفرسان البريطانية بعد ذلك لمطاردة القوات المصرية بهدف القضاء عليها ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن التقدم إزاء النيران الشديدة التى قابلتها بها القوات المصرية المركزة في دفاعات (تل المسخوطة) - الأمر الذى لم يمكن الإنجليز من إحراز تقدم يذكر مما اضطرهم إلى تعزيز مواقعهم المكتسبة في انتظار وصول إمدادات جديدة من الاسماعيلية .

القوات البريطانية تصاب بخسائر جسيمة :

ولقد أدى هذا الوضع إلى بقاء القوات البريطانية وقتاً طويلاً في مواجهة القوات المصرية الأمر الذى عرضها لنيران مدفعيتها والهجمات المضادة المتعددة بواسطة قوات الفرسان المصرية مما سبب للقوات البريطانية الكثير من الخسائر .

معركة (تل المسخوطة) :

بدأت الفرقة الأولى البريطانية تقدمها غرباً من الاسماعيلية يوم ٢٤ أغسطس ، فوصلت أرض المعركة يوم ٢٥ حيث أخذت في تعزيز المواقع البريطانية الأمر الذى قلب ميزان القوى لصالح البريطانيين . . وهنا قرر الجنرال (ولسلى) سرعة القيام بمهاجمة المواقع المصرية في (تل المسخوطة) للاستيلاء عليها وعلى السلود الجديدة التى أخذ المصريون يحاولون إقامتها لسد ترعة الاسماعيلية .

القائد البريطانى يقرر القيام بالالتفاف :

ولما كانت المواقع المصرية الدفاعية في هذه الجهة منيعة : فقد قرر الجنرال (ولسلى) الامتناع عن مهاجمتها بالمواجهة حتى يتجنب الخسائر التى قد يتعرض لها ، كذلك كانت تلك المواقع تستند على ترعة الإسماعيلية من جانبها الأيمن لذلك أصبح الجانب الأيسر أكثر ملاءمة لعملية التطويق المطلوبة .

(١) علم الجنرال (ولسلى) - بعد أن استولى على الإسماعيلية ونفيسة بأن مصدر المياه الذى يمد المدينة بالمياه العذبة والذي تعتمد عليه القوات البريطانية جارى قطعه بواسطة القوات المصرية بين بلدق (الحفر وتل المسخوطة) وأن القوات المصرية قد أقامت سداً هناك لتحول دون وصول المياه إلى الاسماعيلية .

الخططة البريطانية :

وتبعاً لذلك فقد وضعت الخططة البريطانية على أساس قيام اللواء الثانى بتثبيت القوات المصرية فيما بين السكة الحديد وترعة الإسماعيلية فى الوقت الذى يقوم فيه لواء الحرس بحركة التفاف على الجانب الايسر بغرض طى الموقع تجاه السكة الحديد والترعة لإجبار القوات المصرية على الانسحاب مع دفع لواء الفرسان - بعد نجاح المشاة - للقيام بحركة التفاف واسعة النطاق نحو مؤخرة القوات المصرية لقطع خط انسحابها والاستيلاء على قطارات السكة الحديد بالنقطة :

المعركة :

بدأت القوات البريطانية تقدمها فى مساء يوم ٢٥ أغسطس للاحتاق بالمواقع المصرية حسب الخططة الموضوعة فقبلت بمقاومة شديدة إلا أنها تمكنت من الاستمرار فى التقدم تحت ستر نيران المدفعية وبذلك تم لها طى الموقع قبل غروب يوم ٢٥ هـ : حيث انسحبت القوات المصرية للتحلف بينما قام لواء الفرسان بقيادة (دورورى لور) بالتفاف واسع نحو (المحسنة) .

أسر رئيس أركان الجيش المصرى :

وقد كان الجيش المصرى خلال تلك المعركة تحت قيادة الفريق (راشد باشا حسنى) بينما كان التفوق العددى واضحا فى الجانب البريطانى . وخلال القتال وقع المهندس (محمود باشا فهمى) رئيس أركان حرب الجيش المصرى واكفا ضباطه - فى الأسر وذلك نتيجة لعدم اتخاذ احتياطات الحراسة اللازمة بالنسبة له . . وقد كان أسره أكبر ضربة أصابت الجيش العرابى المصرى آنذاك .

استيلاء الانجليز على (المحسنة والقصاصين) :

تمكن لواء الفرسان البريطانى من احتلال (المحسنة) مساء يوم ٢٥ أغسطس حيث غنم فيها ٧ مدافع (كروب) وكية من البنادق وقطارا محملا بالذخيرة هـ

ولقد أثر استيلاء القوات البريطانية على (المحسنة) تأثيرا مباشرا على الموقف بعد ذلك - باعتبارها كانت تمثل مفتاح الوصول إلى معسكر العرابيين فى (التل الكبير) هـ

كما قام الجنرال (ولسلى) بدفع لواء الفرسان تجاه بلدة (القصاصين) فتمكن من احتلالها يوم ٢٦ أغسطس . . وبذلك أصبحت القوات البريطانية على مسافة ١٥ كيلومترا من (التل الكبير) .

معركة القصاصين الأولى :

موقف القوات المصرية :

عندما علم (عرابى) باحتلال (القصاصين) بادر بالانتقال إلى الميدان الشرقى حيث سافر من (كفر الدوار) وأخذ يتشاور مع قادته فى الموقف وقرروا اتخاذ خطة للهجوم فى الحال هـ . وأخذت الإمدادات المصرية تتوالى

على الجبهة الشرقية ، فوصل الآلاى الأول المشاة من القاهرة ، كما وصل آلاى مشاة ووحدات فرسان من (كفر الدوار) بينما وصلت من (دمياط) كتيبتان من السودانين وبذلك بلغ مجموع قوة الميدان الشرقى ١٣ الفا من الجنود النظاميين (بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين والعمال) الذين اتخذوا أوضاعهم الدفاعية فى (التل الكبير) .

موقف البريطانيين :

كان موقف القوات البريطانية بعد استيلائها على (القصاصين) حرجاً تماماً مما جعلها عاجزة عن مواصلة التقدم غرباً لسوء موقفها الإدارى فقد اندفعت القوات غرباً لمسافات بعيدة دون اعتبار للناحية الإدارية الأمر الذى جعل أمر اعاشتها (بعد الوصول إلى القصاصين) أمراً صعباً نظراً لعدم توفر وسائل النقل الكافية لاعاشة مثل هذه القوة الكبيرة التى أصبحت على مسافة تزيد عن الثلاثين كيلومتراً من قاعدتها الأصلية فى (الإسماعيلية) .

وكان من نتيجة ذلك أن اضطر القائد إلى اعاشة قواته بواسطة تعيينات (أطعمة) الطوارىء لمدة ثلاثة أيام لتوفير العربات لنقل الذخيرة إلى المواقع الأمامية فى (القصاصين) و (المحسنة) وبذلك أصبحت القوات البريطانية عاجزة عن التقدم غرباً أو التجمع فى (القصاصين) لمواجهة أى هجوم تقوم به القوات المصرية التى انسحبت إلى مواقع (التل الكبير) وبذلك قطعت اتصالها بالقوات البريطانية .

وهنا رأى القائد البريطانى احتلال مواقع دفاعية فى الأمام لصد أى هجوم ينتظر أن تشنه القوات المصرية ، وعلى ذلك احتل اللواء الثانى موقعا دفاعيا فى (القصاصين) مواجهها الغرب والشمال ، ويستند جانبه الأيسر على ترعة الاسماعيليه ، بينما يمتد جانبه الأيمن حتى سلسلة الكشبان الرملية التى تقع شمال (القصاصين) مباشرة وأخذت القوات البريطانية فى تقوية دفاعاتها بإقامة الاستحكامات المتعددة للتحكم فى طرق الوصول للموقع .

« عراقى » يقرر القيام بهجوم عاجل :

عقب توقف القوات البريطانية عن مواصلة التقدم ، انتقلت المبادأة إلى المصريين فقرر « عراقى » بناء عليه - القيام بهجوم عاجل على المواقع البريطانية فى (القصاصين) لطردهم منها قبل أن تصل إليهم إمدادات جديدة ويستعيد الجنرال (ولسلى) قدرته على التقدم إلى (التل الكبير) .

خطة الهجوم المصرية :

وقد كانت خطة الهجوم المصرية تلخص فى تشكيل القوات فى هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو من كل جهة - فوضعت فى أقصى الجناح الأيمن كتيبة مشاة وأورطة فرسان ومدفعين - يلى ذلك إلى اليسار الآلاى الأول المشاة ومدفعين . . وفى الوسط ثلاث كتائب من المشاة وستة مدافع .

وفى الجناح الأيسر وضعت ست أورط من الفرسان وأورطتان من المشاة ومدفعان .

وكانت الخطة تقضى بأن تقوم قوات المتطوعين المسلحة فى الصالحية بالانضمام إلى الجنب الأيسر للهجوم ويقوم الجميع بتطويق ميمنة العدو ليطوى الجناح الأيمن المصرى ميسرة العدو عبر ترعة الاسماعيليه (الترعة الحلوة) وتقوم قوات الغرب بقطع خط الرجعة بعد اقتحام الترعة من الخلف بينما يضغط الوسط لأسر أو إبادة العدو .

القتال :

كانت الخطة محكمة وفي الوقت ذاته نفذت بدقة ، فبدأت القوات المصرية تقدمها صباحا يوم ٢٨ أغسطس من (التل الكبير) شمال وجنوب السكة الحديد . . وتمكنت بعض عناصر الفرسان الانجليزية التي تعمل أمام الموقع البريطاني في القصاصين من اكتشاف التقدم ، الأمر الذي جعل الجنرال (جراهام) يطلب المساعدة من لواء الفرسان بالمحسمة .

تحت ستر نيران المدفعية :

تابعت القوات المصرية تقدمها شرقاً إلى أن صارت على مقربة من (القصاصين) فتوقفت عن التقدم وبدأ حرس المقدمة المصري حوالى الساعة الحادية عشرة في مهاجمة الموقع البريطاني بين ترعة الاسماعيليه والسكة الحديد تحت ستر نيران المدفعية المصرية لإجبار الإنجليز على الانسحاب . . ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل . . وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأت طلائع الفرسان بقيادة (دورورى لو) في الوصول إلى أرض المعركة لمعاونة حامية القصاصين فأضطر حرس المقدمة للانسحاب غرباً . . وعاد لواء الفرسان إلى (المحسمة) .

القوات المصرية تستأنف القتال :

استأنفت القوات المصرية العمليات الهجومية ثانية في الساعة الرابعة والنصف مساء . . فقامت القوة الرئيسية بهجوم قوى على الموقع البريطاني تحت ستار من نيران المدفعية بالتشكيل السابق إيضاحه لطفى الموقع تجاه ترعة الاسماعيليه . . فثبتت القوات البريطانية أمام الهجوم المصري في بادئ الأمر ، ولما أخذ الضغط يشتد عليها ، اضطر (جراهام) لطلب المساعدة السريعة من لواء الفرسان الذى كان في طريقه إلى (المحسمة) . . غير أن إمدادات مصرية وصلت أرض المعركة ، الأمر الذى غير الموقف فجأة لصالح المصريين الذين بدأت فرسانهم في طي مواقع الإنجليز مما اضطر القائد البريطاني إلى فتح قواته الاحتياطية لمواجهة عملية الالتفاف الجديد .

نفاذ الذخيرة لدى الجانب البريطانى :

وقد أخذ موقف القوات البريطانية يسوء قرب المساء نظرا لتوقف المدافع البريطانية عن الضرب لنفاذ الذخيرة وفشل المحاولات المتعددة لإمدادها بها . . لعدم صلاحية الأرض جنوب ترعة الاسماعيليه في تلك المنطقة لسير وسائل النقل .

لواء الفرسان يغير الموقف لصالح الإنجليز :

حاولت القوات المصرية ، بعد أن توقفت حركة الالتفاف أن تنفذ بين القوات البريطانية وبين السكة الحديدية وترعة الاسماعيليه لدفع الإنجليز للخلف . . وفي الوقت نفسه . . حاول الفرسان البريطانيون القيام بهجمات مضادة عاجلة غير أن وصول لواء الفرسان الذى حضر من (المحسمة) أدى إلى تغير واضح في دفة المعركة بعد أن فقد بعض وحداته في تعزيز المواقع البريطانية لإيقاف تقدم القوات المصرية وبذلك نجحت القوات البريطانية بعد خسائر كبيرة - في إيقاف الهجوم المصري الذى بدأت حدته تقل تدريجيا .

وفي الساعة السادسة مساء رأى الجنرال (جراهام) أن الوقت قد حان للقيام بهجوم مضاد قوى فكلف لواء الفرسان بالاستعداد للتقدم على جنب القوات المصرية الأيسر والضغط عليها لاجبارها على الانسحاب .

بدأ لواء الفرسان تقدمه قبل آخر ضوء مباشرة وتمكن من الضغط على القوات المصرية التي أخذت تراجع الخلف إلا أن عناصرها التي سبق لها أن أحرزت نجاحاً كبيراً بجوار ترعة الاسماعيليه استمرت في هجومها إلى أن قامت بعض وحدات اللواء الثاني البريطاني بالم هجوم المضاد عليها ، وطردها من مواقعها .

خسائر القوات البريطانية والمصرية :

وهكذا أنهت معركة القصاصين الأولى ، وانسحبت القوات المصرية إلى (التل الكبير) بعد أن كبدت القوات البريطانية خسائر جسيمة وكادت تجبرها على الانسحاب ، لولا تدخل لواء الفرسان البريطاني في المعركة الأمر الذي غير من ميزان القوى ورجح كفة القوات البريطانية ولقد خسرت القوات البريطانية في هذه المعركة ٨ قتلى منهم ضابط وجرح ٦١ منهم ١٠ ضباط أما المصريون فاستشهد منهم ٦٠ وجرح ٨٥ بين جندي وضابط .

معركة القصاصين الثانية

الموقف العام :

اتضح للجنرال (ولسلي) - بعد معركة القصاصين الأولى - ضعف قواته أمام أى هجوم تقوم به القوات المصرية في المستقبل ، لذلك عمل على دفع بعض القوات للامام ، فتقدم اللواء الثالث إلى القصاصين وبذلك اكتمل شمل الفرقة الأولى البريطانية بأجمعها هناك وبات الموقع على استعداد لصد أى هجوم .

وفي ذات الوقت أخذ القائد البريطاني في معالجة الموقف الإداري والتغلب على المشكلات التي تحول دون وصول الاحتياجات الإدارية إلى قواته المتقدمة أو مساعدتها على متابعة التقدم تجاه المواقع المصرية بالتل الكبير . . وكانت المشكلة القائمة والتي تحتاج إلى علاج سريع تتمثل في عدم توفر وسائل النقل إلا أنه وصلت بعض القوارب النهرية وأمكن استخدامها في ترعة الاسماعيليه لنقل الاحتياجات الإدارية للاعداد بكميات كبيرة أدت إلى تغطية مطالب القوات البريطانية .

وفي يوم ٣ سبتمبر وصلت جميع عناصر القوة الهندية إلى الاسماعيليه وأصبحت في موقف يسمح لها باستئناف التقدم نحو (القصاصين) بهدف الاشتراك في المعركة الأساسية التي أخذ الجنرال (ولسلي) يعد لها العدة .

الخديو توفيق يبلر بنور الخيانة في صفوف الجيش :

هنا بدأت الخيانة تلعب دوراً كبيراً لتهديد الأرض أمام القوات البريطانية لاحتلال مصر . . فكان أول ما قامت به بريطانيا هو حمل تركيا على إعلان عصيان (أحمد عرابي) وخروجه عن الطاعة مقابل إرسال قوة تركية رمزية . قهرها ٣٠٠٠ جندي إلى (بورسعيد) . وقد ابتهج الخديو الخائن (محمد توفيق) بهذا الاعلان وأوعز إلى بطانته من الخونة بنشره في ربوع البلاد وحث الشعب على مناصرة البريطانيين ، كما أذاع ذلك على الضباط المصريين

وخاصة على أولئك الذين كانوا ينتمون إلى أصول شركسية أو تركية بغية إيقاد نار الفتنة بين صفوف القوات المصرية ومنذ ذلك الوقت بدأ بعض قادة الجيش المصرى يتظاهرون لعرايى بالطاعة بينما هم يفسرون له كل حقد وضغينة ويتربصون به للقضاء عليه حالما تسنح لهم الفرصة .

« عرايى » يدعو مجلس الحرب :

يكتب الزعيم « أحمد عرايى » فى مذكراته (١) .

فى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ هـ الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ، عقد مجلس تحت رئاستنا حضرة راشد باشا حسنى قومندان الخط الشرقى وعلى باشا فهمى وجميع أمراء الآليات الموجودين بمركز التل الكبير ، ومحمود باشا سامى قومندان مركز الصالحية وتقرر فيه الهجوم على الاعداء بمركز القصاصين حيث اتخذ معسكرا للانجليز حشدوا إليه جميع قواهم الحربية ، فكانوا يزيدون عن ٣٠ ألفا ، وفيهم الدوق « أوف كنوت » ثالث أنجال الملكة فيكتوريا .

وقد تقرر أيضا أن يكون خط الجيش المصرى على شكل (مقعر) - أى على هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو ويكون محمد أفندى الرملاوى بأورطته فى الجانب الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة سوارى (فرسان) ومدفعان وعدد من العربان ، وفى الجانب الأيسر للترعة المذكورة برنجى آلاى بيادة (مشاة) حكمدارية (بقيادة) أحمد بك فرج وخلفه ٦ مدافع . وفى القلب آلاى عيد بك محمد يتقدمه بطاريان « كروب » ١٢ مدفعا وخلفه بطارية ٦ مدافع تحت قومندانية (قيادة) على باشا فهمى والطوبجية (المدفعية) تحت حكمدارية حسن بك رأفت .

وفى الجناح الأيسر على بك يوسف بالايه وخضر ومعه أورطتان من السودان وبطارية من ٦ مدافع وستة أورط (كتائب) من السوارى (الفرسان) تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وقومندان (قائد) الجيش راشد باشا حسنى . وأن يقوم قومندان مركز الصالحية محمود باشا سامى بجيشه المركب من الأسلحة الثلاثة وقدره ١٢ ألفا ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال (خط التشكيل) عند مطلع الفجر ، ويقف والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعرب يقتحمون الترعة من خلفه ونقطع عليه خط الرجعة .

وعمل بهذا الترتيب رسم (خريطة) بطرف أركان حرب الجيش وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل على موجبها .

ثم يصف الزعيم « أحمد عرايى » سير القتال فيكتب :

وفى الثلث الأخير من الليل من مساء يوم الجمعة الموافق ٢٥ شوال و ٦ سبتمبر ، قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار ولكن العدو كان عالما بما قرر الرأى عليه ، فبادر جيشنا بإطلاق النار واشتبك القتال بين الجيشين ، وأما جيش مركز الصالحية فإنه تأخر عن الميعاد المذكور والمحدد له ، ولما قرب من الجيش كان العدو مهيئا لقتاله فوجه إليه بطارية مدافع وأطلق عليه مقنوفاتها قبل أن يصل إلى محله فتشتت الجيش المذكور وولى الأدبار ، فذهب من عاد إلى الصالحية ومنهم من حضر إلى مركز رأس الوادى ، وأما

(١) مذكرات عرايى : كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .

«راشد باشا حسنى» و «على باشا فهمى» ومن معهما ، فقد ثبتوا ثباته الأبطال إلى آخر النهار وقد جرح «راشد باشا حسنى» في قدمه برصاصة و «على باشا فهمى» برصاصة أيضا في ساقه وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التي كانت مقلوفاتها كالطر تنصب في الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الانجليز إذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثال .

ولما وصل الجيش أرسلنا الجرحى في قطار مخصوص إلى العباسية بمصر لمعالجتهم ومعهم القائدان العظيمان راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ، ثم طلبنا على باشا الروبى قومندان مربوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى ، فحضر في عصر يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر وتوجه توأ إلى المقدمة فأمر بانتقال آلاى على بك يوسف وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الأيسر الذى كان مستحكما مائلا إلى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى المعسكر من هجمات العدو ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من التربة الحلوة إلى الجهة الشرقية وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب في أثناء الليل ، فعمل عبد القادر بك عبد الصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان في نهاية الجناح الأيسر ، وأما على بك يوسف فإنه جمع عساكر آلايه في هيئة القول (الطابور) ولم يجر عمل شيء يقيهم من مقلوفات العدو إذا هجم على الجيش .

وقد تقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى إلى الأمام على بعد ألى متر يمتنعوا تقدم العدو إذا أراد الهجوم على معسكرنا ، ولكن خاب الأمل فيهما فوامصيتاه ١١ .

(خنفس) الخائن يسلم الخطة للعدو :

وقد قامت رئاسة القوات المصرية بعمل رسم لطريقة الهجوم وسلمت نسخة منه لكل قائد . . وفي الثلث الأخير من ليلة ٦-٨ سبتمبر ١٨٨٢ قام الجيش بالترتيب المذكور - بعد أن تقرر أن تلحق به قوات (الصالحية) عند مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو . وهنا كانت المأساة . . فقد كان العدو على علم تام بالخطة التي أطلعهم عليها الأمير آلاى (على يوسف خنفس) . . فما كادت المدفعية المصرية تطلق قذيفتها الأولى حتى اشتبك الجيشان في القتال . . وكانت قوات (الصالحية) قد تأخرت عن موعدها المحدد . . فلما اقتربت من مواقعها أطلقت عليها المدافع قبل أن تأخذ أماكتها فتشتت صفوفها . . أما القوة الرئيسية فقد بقيت ثابتة حتى آخر النهار وقد جرح أثناء القتال الفريق راشد باشا حسنى واللواء (على باشا فهمى) كما منى كل من الجيشين بخسائر جسيمة في الأرواح والعتاد^(١) .

(١) كانت هزيمة الجيش المصرى في معركة (التصاصين الثانية) ضربة ايمة كشفت الموقف الحربى ودلت على تصدع الجهة المصرية ويرى المؤرخون العسكريون أن أسباب الهزيمة الرئيسية كانت تركز في أهال تنفيذ خطة الهجوم حيث لم تصل قوات الصالحية في موعدها المحدد علاوة على تدخول الروح المعنوية للقوات المصرية بصفة عامة على أثر إعلان عصيان (عراي) - كما يضيفون إلى تلك الأسباب سببا رئيسيا جديرا بالذكر وهو الخيانة ، حيث تمكن البريطانيون - عن طريق الرشوة - من معرفة خطة المعركة قبيل بدئها من الأمير آلاى «على بك يوسف خنفس» وهو الأمر الذى جعلهم يعدون العدة لملاقاة القوات المصرية ، وبذلك تمكن الجانب البريطانى من إحراز عنصر المفاجأة التامة على القوات المصرية التي فوجئت مفاجأة مشينة قلبت موازين المعركة لنير صالحها تماما ونج عنها انهيار الموقف العسكري المصرى بأجمعه .

اليأس يستولى على (عرابي) :

كان من نتيجة المعركة أن ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبدأ اليأس يتسرب إلى قلوبهم وأدرك (عرابي) - بعد قوات الآوان - إنه لو كان قد سد قناة السويس عند بدء القتال لما تمكن الإنجليز من التقدم في داخل البلاد واحتلالها بهذه الطريقة .

وقد أخذ (عرابي) عقب المعركة يعالج الموقف في كثير من التردد واليأس فاستدعى اللواء (علي باشا الروبي) من القطاع الغربي (قطاع كفر الدوار) ليتولى قيادة قوات الميدان الشرقي فحضر يوم ١٢ سبتمبر وبدأ في تفقد مواقع (التل الكبير) الذي بات واضحاً تماماً أنه - عقب معركة القصاصين - قد أصبح الهدف المنتظر للهجوم البريطاني .

معركة التل الكبير

شكل الدفاعات المصرية :

كانت خطوط الدفاع المصرية في (التل الكبير) تمتد من السكة الحديد بطول ٦ كيلومترات وتنتجه من الجنوب إلى الشمال حيث يلاصق جانبها الأيسر الأرض الصحراوية الممتدة ما بين (الصالحية) و (التل الكبير) ، وقد انشئت تلك الخطوط بعمق فكان وراء الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد إلى معسكر « التل الكبير » الواقع تجاه السكة الحديد .

على أن الاستحكامات لم تكن قوية أو كافية وذلك بالنظر لإقامتها على عجل ، فعندما اتضح لعرابي أهمية الميدان الشرقي ، قام بتعزيز قوات التل الكبير حتى قاربت ٢٠ ألفاً من الرجال قبل المعركة مباشرة ، إلا أن غالبية هؤلاء الجنود كانوا من المتطوعين الذين لم ينالوا أى قسط ذى قيمة من التدريب على القتال ، يدعمهم نحو ٧٠ مدفع ميدان من مختلف الأعيرة ومن الطرز القديمة وخلف الخطوط الدفاعية المصرية ، كانت تقع هضبة يبلغ ارتفاعها نحو ٣٠ متراً تقع شرق محطة « التل الكبير » على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيليه وتنحدر انحداراً بطيئاً نحو الشرق والشمال .

وقد اتخذ « أحمد عرابي » مقر رئاسته على مسافة ٤ كيلومترات من الخطوط الأمامية ، بينما عهد بالقيادة الميدانية إلى اللواء « علي باشا الروبي » الذي وصل إلى ميدان القتال قبيل بدء المعركة بيوم واحد ، وهو بذاته الأمر الذي حرمه من الفرصة الكافية للتعرف على أرض المعركة والقوات وتعديل الخطط الصالحة للدفاع .

الخططة البريطانية :

على الجانب الآخر ، أخذ الجنرال « ولسلي » يعد لتوجيه ضربته الأساسية ضد الدفاعات المصرية في منطقة « التل الكبير » منذ أن ظهر له بوضوح تصدع الجبهة المصرية في أعقاب معركة « القصاصين » الثانية ، وهكذا بدأ « ولسلي » منذ ذلك الوقت في العمل على حشد قواته في « القصاصين » استعداداً لتوجيه ضربته الرئيسية ، وما أن وصلت إليه القوات الهندية السابق الإشارة إليها حتى تحركت القوات البريطانية المحتشدة ما بين « القصاصين » و « الاسماعيليه » ، والتي بلغ مجموعها نحو ١٥ ألف جندي ، بعد أن تمكن القائد البريطاني من تذليل كافة مشكلاته الإدارية بصفة نهائية وأصبح الآن في موقف يسمح له بتوجيه ضربته الحاسمة صوب المواقع المصرية في « التل الكبير » .

وقد قرر القائد البريطاني « ولسلى » أن يتقدم بقواته ليلاً لمهاجمة الدفاعات المصرية قبيل فجر يوم ١٣ سبتمبر على أساس تشتيت القوات المصرية في جانبها الأيمن ، في ذات الوقت الذى يقوم فيه بالالتفاف على جانبها الأيسر ، مع القيام بدفع هذا الجانب للثلف في اتجاه السكة الحديد بينما تقوم الفرسان البريطانية بحركة التفاف واسعة النطاق نحو مؤخرة القوات المصرية لقطع خط أنسحابها وإجبارها على التسليم .

بداية التقدم البريطانى :

أراح الجنرال « ولسلى » قواته يوم ١٢ سبتمبر لتبدأ تقدمها من « القصاصين » بعد غروب ذلك اليوم على النحو التالى :

- الموجة الأولى : اللواء الثانى في اليمين بقيادة الجنرال « جراهام » .
- الموجة الثانية : لواء في اليمين بقيادة دون أوف كنوت .
- اللواء الرابع في اليسار بقيادة الجنرال « شيرنهام » الذى تولى قيادته مؤخراً .
- المدفعية (٤٢) قطعة من مختلف الأعيرة في الوسط بين لواء الحرس واللواء الرابع .
- لواء الفرسان بقيادة « دورورى لو » في الوسط خلف المدفعية مباشرة .
- القوة الهندية بقيادة « مكفرسون » بين ترعة الاسماعيليه والسكة الحديد .

شبح الخيانة :

وصلت القوات البريطانية إلى مناطق تجمعها الأمامية على بعد ٤ أميال من « التل الكبير » حوال الساعة العاشرة من مساء يوم ١٢ سبتمبر وأخذت في الاستعداد للاقتراب من الدفاعات المصرية لمهاجمتها وكان الظلام حالكا : وقد اطفئت أنوار القوات المتقدمة ، بينما كان في مقدمة القوات ضباط الأسطول من ذوى الخبرة بالملاحة الكلية ليلاً ، ولو أن الخيانة بدأت تطل برأسها حين تعاون بعض ضباط الخديو وعربان من قبيلة (الهنادى) ممن اشترت ذممهم — مع القوات البريطانية . فأرسلوهم إلى مسالك الصحراء ودروها التي تؤدي إلى مواقع قوات « أحمد عرابى » .

المصريون يفاجأون بالهجوم :

تحركت القوات البريطانية في الساعة الثانية صباحاً بالترتيب الذى اتينا على ذكره ، وعند الفجر كانت مقدمة الكتائب البريطانية على مسافة ١٥٠ ياردة من خطوط القوات المصرية التي فوجئت تماماً بالهجوم البريطانى ، الذى بدأ على شكل نصف دائرة أحاطت بمعسكر العرابيين ، وقامت القوات المهاجمة بإقتحام الاستحكامات الأمامية بينما قام رماثمهم باطلاق القنابل والبنادق ، كما هجموا على خط الاستحكامات الثانى علاوة على قيام قوة أخرى منهم بتفتيش الخنادق والحفر والفتك بمن فيها من الحراس والجنود .

أما الفرسان ، فقد هاجموا ميسرة العرابيين في اتجاه محطة « التل الكبير » واحدقوا بها : ففوجئ المصريون في اليمين وفي اليسار واختل نظامهم وتفرق شملهم بينما ظل آلايان من مشاة الجيش المصرى والآيان من السودانين يكافحون ويقاتلون قتال الأبطال حتى استشهد معظمهم .

المسائل :

بلغت خسائر القوات المصرية خلال معركة « التل الكبير » نحو ٢٠٠٠ قتيل و ٤٠٠٠ جريح ، في حين بلغت خسائر الانجليز ٥٧ قتيلًا و ٤٠٢ جريح .

ولعل من أهم أسباب هزيمة جيش عرابي في معركة « التل الكبير » ، ذلك الانقسام الذي حدث في صفوف الجيش ذاته بعد أن قام الحديو « توفيق » بإصدار منشور « عصيان » عرابي ومن يقاتلون معه الأمر الذي جعل الجنود والقادة لا يشعرون في واقع الأمر أنهم يضحون في سبيل هدف وطني مشروع ، أضف إلى ذلك ما بذره ذلك المنشور من بلور الخيانة والتفاق بين صفوف الضباط والجنود والقادة على السواء ، كذلك خيانة الأمير الای على بك خنفس وإطلاعه الانجليز على الخطوط الدفاعية المصرية ومواقع الأسلحة قبيل المعركة ، كذلك لا يمكننا اغفال عامل عسكري هام يتمثل في ضعف القوة العددية والتنوعية للقوات المصرية إذا قورنت بالقوات البريطانية المتفوقة عدداً وعدة وقد بلغ مجموعها خمسة عشر ألف جندي ، في حين لم يقاتل من المصريين - نتيجة لعوامل المفاجأة وغيرها - سوى الآليات الأربعة سالفة الذكر (الآلايين السودانيين والآلايين المصريين التي لم يزد مجموع قوتهم على أكثر من ٣٠٠٠ جندي) .

خسائر القوات البريطانية في معركة النسل الكبير - ١٨٨٢/٩/١٣

مفقود	جريح	قتيل			السلح
	ضباط	جنود	ضباط	جنود	
		٢			الرئاسة
		١			المسوزار
	١٧	٢			المدفعية
	٩	١	١		الجرينادير جاردز
	٧	١			جولد ستريم جاردز
	٤				سكوتش جاردز
٢	٣٩	٦	٧	٢	رويال هايلاندرز
	٤٥	٣	١٣		جوردون هايلاندرز
	١٧	٥	١٤	٣	هايلاندز لايت انفانترى
	١٢	٢	١	١	سكندروال ايريش
٣	٢٤				يورك ولانكستر
٢١	٥٣		٢		فيرست رويال ايريش فوزيلز
	٥	١	٣	٢	مشاة البحرية الخفيفة
	٢٠	١			مشاة الدوق أوف كورتول
	٩				كنجز رويال رايفلز كوبر
	٣		١		القوة الهندية
			١		سيفور هايلاندرز
			١		قساوسة
٢٦	—	٣٥٥	٢٧	٤٨	المجموع

أحمد عرابي : لهذا هزمنا !! :

وانه لمن المناسب الآن أن نستمع إلى وصف الزعيم « أحمد عرابي » لأسباب ما أسماه « الخذلان » في تلك المعركة الفاصلة التي حسمت الموقف بأسره لصالح القوات البريطانية ، يكتب (١) :

في يوم الأربعاء الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ ، ١٨٨٢ ، كنت في صلاة الفجر إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة فخرجت وإذا بي أجد ضرب النار على طول خط الاستحكام ورأيت بطارية طويجية سواري على مرتفع من الأرض تبعد عن الخيمة التي كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر وهي تصب مقلوفاتها على مركزنا العمومي . . . وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك إلا الأهالي المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد وجابر بك من بنتر بيسا بمديريّة بني سويف وكانوا نحو ألفي نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ودهشوا . . . فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، فلم يجد كل ذلك نفعا لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ ، ففترقوا فراراً فجاء ضابط من طرف علي باشا الروبي القومندان الجديد يخبرني باتخاذ مركز آخر ، نظرت فوجدت الميدان مزدحماً بالخيال والجمال والعساكر مشتتين مولين ظهورهم للعدو ، فذهبت إلى القنطرة التي على التربة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناذيرهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو واذكرهم بالشرف الإسلامي والعرض والوطن ولم أترك كلمة من شأنها تنشيط الأجسام الميتة وبث الشجاعة في قلب كل رعيدي جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل ألقوا بأنفسهم في التربة وسبحوا إلى البر الغربي .

فذهبت إلى بليس لجمع المهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة ، وكان معي أخي السيد صالح عرابي وخادمي محمد إبراهيم وجاويش بروجي يدعى عطية محمد فقط ، وكانت مقلوفات الطويجية السواري (مدفعية الخيالة البريطانية) تتساقط علينا من كل صوب حتى تركنا حلود التل الكبير .

فلما وصلت إلى بليس ، وجدت « علي باشا الروبي » سبقني إليها ، فسألته عما دهاهم ، فلم يزد على قواه (انه الخذلان) . وكانت على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا الخيل اعنتها حتى وصلنا محطة انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه وأسرعنا إلى القاهرة ، لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم إليها .

دسائس الخديو « توفيق » :

ويرجع الزعيم « أحمد عرابي » أسباب الهزيمة إلى خيانة الخديو « توفيق » ويركز عليها باعتبار أنها كانت العامل الرئيسي في الهزيمة والخذلان ، ونحن نوافقه تماماً فيما يذهب إليه وإن كانت هناك أيضا بعض الأسباب الفرعية - ومعظمها من الناحية العسكرية مما سنأتي عليه في حينه .

يكتب الزعيم « أحمد عرابي » في مذكراته :

وأساب هذا الخذلان أنه في خلال تلك الأيام كانت الرسائل تترى من قبل الخديو إلى كبار الضباط بالوعد والوعيد ، معلنة لهم أن الجيش الانجليزي لم يحضر إلى مصر إلا بأمر السلطان خدمة للخديو وتأييداً لسلطته . وكانت

(١) نفس المصدر السابق .

تلك الرسائل توزع بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه من الذين كانوا مع الانجليز في الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد بك عبد الغفار والسيد الفقى العضوين في مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، فأثروا على قلوب مثل على بك يوسف وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه وعبد الرحمن بك حسن وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية واستمر ذلك إلى أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ فأشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الانجليز لا يخرجون في هذه الليلة من مراكزهم ولذلك لم يفعل ما أمره على باشا الروبى من عمل خط الاستحكام من الحجارة ، وجمع عساكره في نقطة واحدة .

وكانت العساكر الإنجليزية قد سارت من أول الليل ، وفي مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين أنحازوا إلى الخديو مع الانجليز ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق ، واستمروا سائرين إلى أن بلغوا المقدمة في آخر الليل . وكانت من السوارى تحت حكمة اريه أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن حسن ، فبدل أن تنازل العدو القتال وتوقف سيره ، رجعت أمامه كأنها تقوده إلى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكر بلا مانع يمنعهم وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والأمام وأوقعوا بالجند على حين غفلة منهم إذ كانوا راقدين ، فدهشت العساكر وتولوا الذهول حيث ضرب النار من خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالين النجاة لأنفسهم إلا برنجى آلاى بياذة (اللواء الأول المشاة) حكمة اريه أحمد بك فرج ، وآلاى محمد بك عبيد ، وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد فلم يثبتوا في مراكزهم وقتلوا أعداءهم حتى النهاية ، فاستشهد وجرح من جرح وصار الميدان ظلاما من دخان البارود واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة في تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديدية التي بها الذخيرة الحربية وما جاورها عن عربات المؤونة من جراء مقذوفات الطوبجية السوارى التي عمدت إلى ضرب المركز العمومى (مركز القيادة) .

وهكذا تم استيلاء الانجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره وبه كانت نهاية الحرب والخسارة العظيمة بسعى الخديو ومن معه من المصريين الذين انحازوا إليه ، وقد نشأوا عبيد الاستبداد واستمروا عيش الاستعباد ، وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو جميعا والشيخ أحمد أبو سلطان وأخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية خصوصا فإن الخديو أقطعهم ٥ آلاف فدان في رأس الوادى مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا في خيراته .

ولما علم الخديو توفيق نبأ استيلاء الانجليز على التل الكبير : وفد من كان في الاسكندرية من الذوات والأجانب على الخديو يهتونه بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى الخديوية بأنغام التبشير بالظفر ، وعزفت بالسلام الخديوى أمام سراى الحقانية ، فرفعت العساكر الإنجليزية السلاح تعظيماً وإجلالا ، وهتف الأوروبيون بقولهم : « فليحي توفيق الأول » ، ثم ختم ذلك بالدعاء للخديو ، وملكة الانجليز ، والجنرال « ولسلى » الايرلندى ، والدولة الإنجليزية وتفرق القوم بعد ذلك .

نحى رؤوسنا لإجلال هؤلاء الرجال العظام :

ولا يسعنا ونحن نسجل للتاريخ الآن إلا أن نحى رؤوسنا لإجلال وتقدير الأثير الالى « محمد بك عبيد » قائد القوة السودانية الصامدة والذى صمد مع جنوده وظل يقاتل على رأسهم حتى استشهد واستشهد معه معظم جنوده ضارباً أعظم المثل في الفداء والبسالة ، كما نحى كذلك اليوزباشى (الفريق فيما بعد) حسن رضوان - قائد المدفعية

خلال المعركة - وقد ظل مسيطراً على نيران مدافعه حتى اقتربت القوات البريطانية المهاجمة من مواقعه ، فأصلها نيراناً حامية وكبدتهم خسائر فادحة حتى أصيب هو نفسه بجراح بالغة ، لقد أعجب الجنرال «ولسلى» ببسالة هذا الرجل فترك له سيفه احتراماً وتقديراً له كقاتل كما استبسل كذلك في الدفاع الأميرالاي أحمد بك فرج ، على رأس آلاياته ، كذا آلاي الأميرالاي «عبد القادر بك» عظيم ، كما استبسل في الدفاع الأميرالاي «أحمد بك عبد الصمد» .

الجنرال بتلر : نظم مصر وجيشها :

وعلى العكس مما أشاعه الاستعمار رديحاً طويلاً من الزمن كى يشوه صورة «عرابى» وثورته ، بل صورة كل المصريين الذين دافعوا عن وطنهم ، فإننى أستشهد فى هذا المقام بأحد الجنرالات البريطانيين ممن حضروا واقعة «التل الكبير» وشهدوها بأنفسهم ، بعد أن قرر أن يقول كلمة حق ، على الرغم من الهزيمة التى نزلت بجيش أحمد عرابى ، وعلى الرغم من المفاجأة التى أصابته أيضاً نتيجة لعوامل الخيانة وسوء التقدير الذى لا نستطيع إنكاره ، فإننا هنا نشير إلى أن تلك المعركة وقعت بين جيش بريطانى مدرب جيداً على فنون القتال والكر والفر وله تاريخ مشهود فى الحروب والنزال فى طول أوروبا وعرضها وبين جيش مصرى غير معترف به من السلطة الحاكمة المتمثلة آنذاك فى خديو مصر الخائن «محمد توفيق» المالىء للأنجليز ، وبصرف النظر عن بقية العوامل ، فينبغى ألا ننسى أن هذا الجيش المصرى لم يكن مدرباً بأية حال على القتال ضد جيش أوروبى حديث جيد التدريب والتسليح ، حيث ظل هذا الجيش المصرى طوال قرون طويلة تحت قيادة أجنبية سواء كانت عثمانية أو غيرها منذ الفتح العثمانى لمصر فى عام ١٥١٧ ، ولم يقدر له قط - حتى قام «أحمد عرابى» بحركته الوطنية الخالدة - أن يقاد قيادة وطنية مخلصه تعمل على تحسين مستوياته العلمية والعسكرية والقتالية أو حتى التنظيمية ، ونحن نظم مصر وجيشها ظلماً كبيراً حينما نقارن - مجرد مقارنة - بين الجنرال «ولسلى» - القائد البريطانى العام - الذى تدرس على القتال ودرس فنون الحرب فى أرقى المعاهد العسكرية ، وبين «على الروبى» القائد العام للقوات المصرية فى التل الكبير والذى لم ينل حظاً من التعليم العسكرى أو الفنون الحربية والذى دفع به إلى قيادة المعركة يوم ١٢ سبتمبر فلم تتح له الفرصة قط ليدافع عن وطنه .

إن الجنرال السير «بتلر» - أحد قادة الجيش البريطانى عام ١٨٨٢ - يكتب عن واقعة التل الكبير ، فيقول :

كان الأجدى لنا أن نترك الجيش المصرى ونذهب رأساً إلى القاهرة عن طريق قناة السويس فلما رجعت الحكومة البريطانية عن رأيها ، ونزل الجيش إلى الأراضى المصرية من قناة السويس ، التقى الجيشان فى التل الكبير ، ولم يكن الجيش المصرى مستعداً أو متوقعاً القتال فى هذه الليلة لأن جواسيس «عرابى» كان قد اشترأهم الإنجليز ، وانفرد «محمد سلطان باشا» ولا بسوا الطرايش الذين معه وانحدروا من جهة القناة بعيداً عن ساحة المعركة ، فلما فاجأناهم تنبهوا ولكن لم يهرب منهم أحد بل قبض كل منهم على سلاحه وكلما اجتمع منهم عشرة ، كونوا جماعة وتقدموا إلى ناحية القوات البريطانية يطلقون عليها النار ، وكان رميهم صادقاً وسديداً فكانت القنبلة تقع بين الضابط وبين فرقته فتفوقهم .

يقول الجنرال «بتلر» :

ولى هنا كلمة ينبغي أن أقولها عن واقعة « التل الكبير » ، فإننا قنا بمفاجأة الجيش المصرى خلف متاريسه ، ولكنه تنبه بسرعة وحارب الجنود بنية صادقة وعزم ثابت ولم تعقه كل العوائق الكبرى التى وضعناها حوله ، فإننا لم نعطيهم دقيقة واحدة لينظموا أنفسهم ، فكان هجومنا عليهم كالصاعقة وقد كان قادة هذا الجيش من الفلاحين الذين لم يمارسوا الحرب فى حياتهم ، وقد خانهم الذين ائتمنوهم ، ومع ذلك كان لا يجتمع منهم ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ إلا ويثبتون خلف المتاريس أو المنحدرات والتل وفوق سطح الرمال .

« عرابى » : لا ينبس إنسان بينت شفة ضدهم :

أما البطل « أحمد عرابى » ، فيكتب فى مذكراته الخطية معلقاً على قول الجنرال « بتلر » بشأن القتال فى « التل الكبير » :

ولا أبلغ من شهادة القتلى والجرحى الذين كانوا ملقين أمامهم وهم ثابتون فى شجاعة فعلى العشرة آلاف جندي الذين قتلوا خلال هذه المعركة السلام ، ولا ينبغي لمصرى أن ينبس بينت شفة ضدهم . فيكفيهم ما فعله وما قاله عنهم المستعمرون والماليون والمراقبون وعبيد الاستعباد ، لقد ماتوا أشرف ميتة وستبكيهم مصر ولن تنساهم .

ثمارة الهزيمة :

لم تكد معركة « التل الكبير » تنته على هذا النحو المأساوى حتى أمر الجنرال « ولسلى » فرقة الفرسان بالزحف على القاهرة ، فتحركت من « بليس » يوم ١٤ سبتمبر لتصل العباسية دون مقاومة عصر اليوم ذاته ، حيث أصدر قائد الفرقة أمراً إلى قائد حامية العباسية يأمره فيه بتجريد الجنود المصريين من أسلحتهم .

وفى ذات اليوم ، توجه « أحمد عرابى » و « طلبة باشا عصمت » إلى ثكنات العباسية وسلمتا أنفسهما إلى الجنرال البريطانى ، بينما سارت كتيبة من الفرسان ليلاً إلى القلعة فاحتلتها بعد أن تولى الخائن « يوسف خنفس » تسليمها بنفسه . كما احتلت القوات البريطانية أيضاً معسكرات قصر النيل وقشلاقات عابدين وكان ذلك إيذاناً باحتلال العاصمة .

وفى صباح يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، دخل الجنرال « ولسلى » القاهرة بصحبة « محمد سلطان » - نائباً عن الخديو - حيث نزل فى سراى « عابدين » التى أمر الخديو باعدادها له فى حين أخذت كتائب الإنجليز تتوافد على العاصمة .

وفى نفس ذلك اليوم الحزين ، أرسل الجنرال البريطانى « ولسلى » برقية مقتضبة إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن قال فيها :

« انتهت الحرب . . لا ترسلوا إمدادات جديدة إلى مصر » !

جون نينيه السويسرى يقدم شهادته التى أقسم عليها :

وإنه من الأمور المثيرة للدهشة حقاً . . أنه فى الوقت الذى وجدنا فيه العديد من الكتاب المصريين يشوهون صورة الزعيم أحمد عرابى ، ويقذفونه بالأوحوال ، ما بين قائل أنه « أحرق قصر المنظر » وما بين متهم له بالنزق والطيش وما إلى ذلك من الصفات التى لا يقبلها العقل . .

في ذات الوقت نجد كلمات مضيئة تعطي لهذا الزعيم المصري بعض حقه من الإنصاف والموضوعية . . ويشير الدهشة أكثر أننا نجدها قد سجلت بأيدي وأقلام كتاب وساسة ، شاهدوا وقائع الثورة وعاشوا أحداثها الأمر الذي يستحيل معه أن تغفل شهاداتهم وأقوالهم باعتبارهم شهود عيان محابدين إلى أقصى درجات الحياد والتجرد .

من بين هؤلاء الأجانب الذين عاشوا أحداث الثورة العراقية في مصر وحضروا وقائعها وكان لهم دور يسمح لهم بالإطلاع على مجريات الأمور مسيو « جون نينيه » - سويسري الجنسية وعاصر أحداث الثورة - والذي يبدأ شهادته للتاريخ بعد أن أقسم عليها^(١) ويقول فيها :

لي من العمر خمس وستون سنة : : وأنا سويسري الأصل عشت في مصر رديحاً طويلاً ووقفت فيه على أحوال الأمة وعاداتها وصار لي كثير من الأصدقاء الخصوصيين فيها ومنهم عراقي بك الذي صار فيما بعد « عرابي باشا » .

كنت مقيماً بالأسكندرية قبل أن يقصفها الأسطول البريطاني وفي اليوم الذي ضربها فيه ، وفي صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القذائف تمر فوق بيتي وسقط بعضها على المنزل المجاور لمنزلي ، وثالث تلك القنابل التي مرت فوق بيتي قتلت أحد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب « محرم بك » وقد أحرقت قذائف الأسطول بيوتاً ومباني ودمرتها من جميع الجهات ، وفي صباح اليوم التالي استأنفت البوارج البريطانية الضرب ، فأجابها حصن أو حصنان .. ورفع علم أبيض فوق الترسانة . وأرسل « طلبه باشا » إلى الأميرال البريطاني ليسأله لماذا يعاود القصف على الرغم من أن الحصون المدافعة قد سكنت .

وكان جواب الأميرال « سيمور » لطلبه باشا - كما قرره هذا لآخرين في حضوري - بأنه لوحظ بأن بعض الحصون أصلحت في أثناء الليل وأنه بسبب إطالة الدفاع في اليوم السابق (١١ يولية) قرر الأميرال إطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن « كوم الدكة » وحصن « كوم الناصورة » إلا إذا سلمت له جميع الحصون والمعسكرات .

فأوضح له « طلبه باشا » أنه لم يخول إليه تسليم أي حصن أو معسكر دون موافقة وزارة الحديو . وأنه من القسوة أن يقصف حصن « كوم الناصورة » بعد أن قرر « عرابي » عدم استعمالهما وعدم الدفاع عنهما لوقوعهما داخل المدينة ولأن الدفاع عنهما بهذه الصورة من شأنه تدمير المدينة وقتل المدنيين .

وكان الجواب البريطاني أن البريطانيين لا يمكنهم أن يراعوا ذلك وأنه إذا لم تسلم جميع الحصون والمعسكرات لغاية الساعة الثالثة ، فسيعاودون القصف ويعملون على تدميرها .

وهنا أوضح « طلبه باشا » أنه لا يمكنه أن يتخابر مع الحديو ومجلسه بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت المناسب . وذهب « طلبه باشا » ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون إذا لم يسلم الحصون والمعسكرات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها . فكانت إجابة « سيمور » : « سنضربها جميعاً وندمرها إلا إذا سلمت لغاية الساعة الثالثة .

(١) ونشرها المستر (الفريد بلنت) الاسكتلندي الجنسية في كتابه : « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر »

- الجزء الخامس - سلسلة اخترانا لك العدد ٧٦ - ص ٨٢٨

وهكذا ذهب « طلبة باشا » إلى الرمل وبقي العلم الأبيض يحقق فوق الرسالة لحين عودته ولم يكن يرى أى علم أبيض آخر .

وحدثت مهاجرة عامة من جانب الأهالى والجيش . وفى الساعة الثامنة كنت فى ميدان القناصل وكان مكتظاً بالجنود وبكثير من الضباط الممتازين وكانوا يسرون فى اتجاه باب رشيد ، وكان « سليمان بك سامى » - وهو ضابط أعرفه - يقود الجنود إلى باب رشيد بقصد إخلاء مدينة الاسكندرية لأنه أمر بتدمير جميع الحصون وضرب المعسكرات بالقنابل فى الساعة الثالثة .

وكان آلاف الأهالى اليائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم التى أمكنهم نقلها بينما كانت جثث القتلى تنقل بعيداً .

وفى الساعة الثالثة تقريباً رأيت « عرابى باشا » وكان يغادر المدينة مع الأورطين ١ ، ٢ متجها إلى القناة وأرشدنى للانضمام إلى الصليب الأحمر ، سمعت دوى المدافع من البوارج البريطانية ليستمر القصف ساعة تقريباً ثم سرعان ما توقف لأن الحصون المصرية لم تجب على هذا القصف .

كان « عرابى باشا » قد أمر قبل تحركه بإغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها أو مغادرتها بأسلحتهم ، كما أمر فرقتين من (الرديف) - الاحتياط - بالبقاء فى المدينة لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ الأمن والنظام .

قذائف الأسطول هى التى أحرقت المدينة :

نتابع شهادة مسيو « جون نينيه » التى أقسم عليها ، والتى بنى فيها تماماً ما اشاعه الاستعمار من قيام عرابى وجيشه بإشعال النار فى الاسكندرية بعد ضربها ، يقول :

وكان « طلبة باشا » يتباحث بعد الظهر فى الرمل مع الخديو . بينما كنت طوال هذا الوقت فى قاعة الطعام الرئيسية الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد ، وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم « محمود سامى البارودى » و « محمود فهمى » ، وغادرت المائدة معهم ومع عدد من الأطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكى نلتحق بالجيش . ونمت الليلة فى بعض القصور بالضواحي . وبعد أن تركت المدينة قذفت الريح فى اثناء الليل بلخان أزرق من المدينة واتضح من ذلك ان النيران قد شبت فى اماكن كثيرة فيها .

ولم يكن فى المدينة حرائق حين غادرناها كما لم يشعل الجنود النار فيها ، بل لى أنى أقرر أنهم بذلوا أكبر الجهود لمنع امتداد الحرائق التى سببها قصف الأسطول البريطانى ولمنع البدو وغيرهم من عمال السلب والنهب ! ويمكننى أن أقول مؤكداً أن « عرابى باشا » أو أى ضابط من الضباط الآخرين ما كان ليفكر بأن مدينة الاسكندرية قد تشعل فيها النيران بأيدي الأغراب وغيرهم . . وأنا عرف أن « عرابى باشا » وجميع الضباط الآخرين قد حزنوا ودهشوا إذ رأوا المدينة تحترق بعد أن تركوها وأبدوا جميعاً أملهم فى أن « ذو الفقار باشا » - محافظ الاسكندرية وصديق الخديو الحميم ، سيبدل كل جهد مستطاع مع رجال المطافئ لإخماد تلك النيران وحفظ الأمن .

وفى فجر اليوم التالى مشينا مدة ثلاث ساعات على شاطئ قناة المحمودية ثم ركبنا لنشاً بخارياً مع « عرابى باشا » متجهين إلى كفر الدوار ، ووقف بنا عند مكان يسمى « عزبة خورشيد » حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك

مر قطار به عربات حديدية في طريقه إلى الاسكندرية وقال « عرابى باشا » إن هذا القطار طلب وأمر بإرساله ليقبل الحديد وأسرت إلى القاهرة .

وبعد أن ارتقبنا عودة القطار مدة ساعتين جاءت برقية تفيد بأن الحديد أبدل رأيه وأنه لن يغادر الاسكندرية .

وبينما كنا هناك : . أتت الأنباء بوقوع مذابح في دمهور وطنطا فأرسل « عرابى باشا » في الحال ثلاث فرق من الجنود مع أوامر صارمة للمديرى هاتين المحافظتين بأن يرسلوا جميع الأوروبيين دون أجر إلى الإسماعيلية ، وبور سعيد وبأن يعملوا بكل الجهد لحمايتهم وأن من يخالف ذلك سيحكم عليه بالإعدام .

وفي تلك الأنباء جاء نبأ يقول بأن « أحمد بك المنشاوى » أحد سرة طنطا خاطر بحياته وأنقذ خمسمائة من الأوروبيين والمسيحيين واليهود ، فأرسل « عرابى » خطاباً خاصاً إليه يشكره فيه لحماية أرواح الأجانب . وأصدر بعدئذ أمراً ضمن الأوامر اليومية بوجوب معاملة الأجانب على جميع أجناسهم بالإنسانية في كل مكان وعلى السلطات المدنية والعسكرية واجب حمايتهم وأن من يقصر في تنفيذ تلك الأوامر سيحكم عليه بالإعدام .

وكننت مع « عرابى باشا » حين تسلم خطاب الحديد الذى طلب منه فيه بأن يتوجه إليه في الاسكندرية ، وهو الخطاب الذى رد فيه « عرابى » على الحديد بأنه - أى عرابى - موجود في كفر الدوار لينفذ إرادة مجلس النظار (الوزراء) الذى انعقد بالاسكندرية والذى حضره الحديد و « درويش باشا » ، وأنه - أى عرابى - عازم على العمل وفق هذا الأمر وعلى تنفيذه بأمانة .

وكننت أيضاً مع « عرابى » حين وصله خطاب الحديد الثانى والذى يفصله فيه من منصب وزير الحرية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن فيه عصيانه .

لقد اجتمع مجلس النظار عقب ذلك في القاهرة ولم يحضره « عرابى » ولكن حضره أكثر من ستمائة فرد من الأعيان أتوا خصيصاً لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر المجلس أن « عرابى » لا يمكن اعتباره عاصياً إلا بأمر السلطان (فى الآستانة) وأن حديد مصر ليست له مثل هذه السلطة . كما قرر المجلس أيضاً مواصلة الدفاع الوطنى وفقاً لقرار مجلس النظار الذى اجتمع بالاسكندرية بحضور الحديد ودرويش باشا ، الذى عهد إلى عرابى باشا بالدفاع عن البلاد .

وبعد عشرة أيام - ٢٠ رمضان - ٥ أغسطس - عقد مجلس آخر حين تقرر قطع القناة في أربعة مواضع هي (رأس العش - القنيطرة - سنبل - الشلوفة) ولكن عرابى وعمود فهمى عارضا هذا القرار وحثا على عدم قطع القناة إلا إذا أتى الجيش البريطانى عملاً عدائياً على هذه الجبهة . وبعد أن تم إعداد كل شيء من الرجال والأجهزة بأمر المجلس استعداداً لقطع القناة ، وإذا بهرقيّة من دى ليسبس في مساء ٢٢ أغسطس - وعلى ذلك سحب الديناميت بناء على أوامر عرابى وصار على العالم أن يحمّد لعرابى باشا إنقاذه لقناة السويس .

وكان عرابى في تلك الأثناء يعمل بكل الجهد لحماية الأوروبيين ومنحهم كل مساعدة وأمن ، وقد صرح قنصل فرنسا واليونان وغيرهم علناً بأنهم لا يغادرون البلاد التي عاشوا فيها طويلاً ماداموا لا يخشون شيئاً بفضل رجل متنور كعرابى باشا .

وإننى لا أتذكر جيداً أنه قيل أن برقيات كاذبة قد أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية إلى أوروبا وأحدثت ضرراً بالغاً بمركز الثورة المصرية ، وكان قد أرسل ضابط مصرى إلى مكتب هذه الشركة الأجنبية ليمنع إرسال مثل هذه البرقيات المشينة ، ولكن عرابى باشا وحده هو الذى رفض بشدة أى تدخل قاتلًا : ان طائفة التجار ستتهمه فى هذه الحالة بأنه يضر بمصالحها التجارية .

وكانت الخطوات التى اتخذها عرابى للدفاع عن البلاد فى الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذى عقد من قبل فى الاسكندرية تحت رئاسة الخديو نفسه وبحضور درويش باشا ، وسواه من رسل السلطان وهذا الأمر لم ينقضه « عرابى » قط . فان « عرابياً » عندما اتخذ موقفه وأنشأ خط الدفاع عند كفر الدوار ، إنما كان يعمل وفق مشيئة مجلس النواب وكان الشعب المصرى يؤيده تماماً ويتعاطف معه إلى أقصى حد . وكان الأعيان والتجار ورجال السلطة المدنية والدينية يقدون من أنحاء البلاد إلى كفر الدوار يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع لتهنئة « عرابى » وشكره على وطنيته ومفوضيته فى أمر الدفاع عن الوطن ، وكانوا كلهم يأخذون بعض العصي من الأرض ويرمون بها الخنادق دلالة رمزية على اشتراكهم فى الدفاع .

وقد رأيت الأعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا « عرابى باشا » فى كفر الدوار فخرى باشا وأحمد نشأت مدير الدائرة وجميع أعضاء المحكمة الأهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومى بالحاكم المختلفة وعثمان فوزى باشا ورموف باشا وعرفى باشا ومبارك والعلماء ومفتى الآستانة وكثير من المقربين والممتازين وكثير من الرؤساء والأساتذة من الأزهر وعدد من أفراد أسرة « رياض باشا » والدرملى باشا وحسن العقاد وكثير من العمدة وأصحاب الأملاك وخصوصاً أحمد بك المنشاوى الذى أشرت إليه آنفاً . وقد اكتتب الجميع بمبالغ كبيرة لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض منهم مبالغ هائلة . وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف جنيه .

وكانت أموال عرابى كلها ترسل إلى القاهرة ولا يرد منها شيء إلى المعسكر ، وإنما يرد إليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة ، وكان كبار الزوار يقبلون عرابى ويعانقونه .

عرابى : نريد مصر للمصريين :

يقول « جون نينيه » الذى لازلنا نتابع شهادته :

وقد قال مفتى القاهرة لأحمد عرابى :

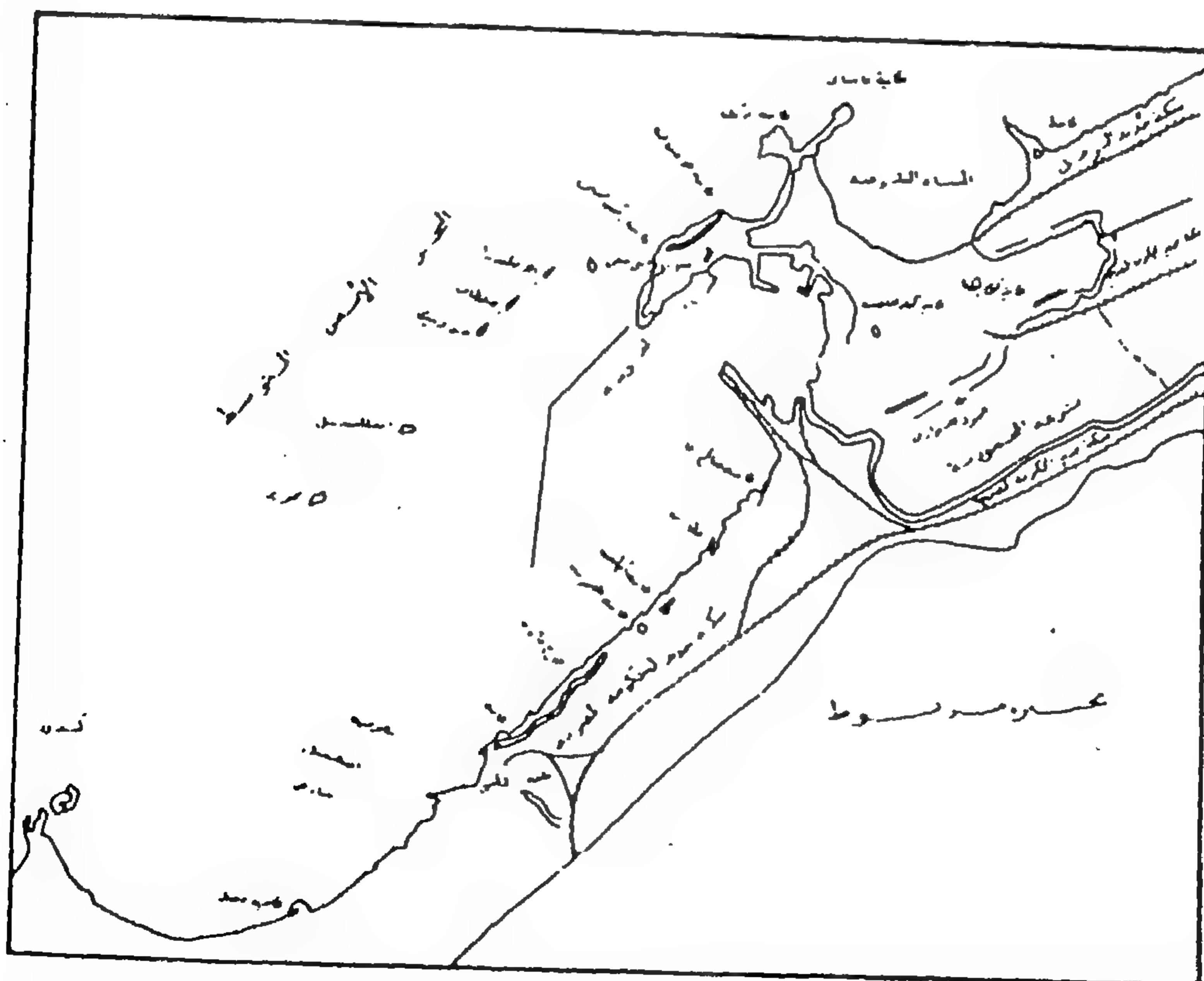
نحن ممثلو خمسين ألفاً من الأعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الأملاك . . الخ نشكرك جميعاً لأنك توليت بيدك أمر الإسلام والأمة وإنك فى الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل .

فقال له « عرابى » من ضمن رده :

إننا لا نريد شيئاً سوى إقامة العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا وأملنا وحقوقنا جميعاً .

نريد برلماناً مستقلاً ينتخب على أسس الحرية ووزارة مسئولة وخديو يملك ولا يحكم . نريد إدارة إقتصادية مصرية دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس الوزارة يتلون مرتبات ضخمة .

خريطة توضح مواقع الحصون المصرية والبوارج البريطانية يوم ١١ / ٧ / ١٨٨٢



لہری

نريد مصر للمصريين مع ضمان الحرية والسلامة لكل الأجانب على أرض مصر إذا خضعوا مثلنا للضرائب والرسوم .

أراد « عرابي » أن يجنب البلاد الدمار :

يقول مسيو جون نينيه في ختام شهادته للتاريخ التي أوردتها هنا بنصها إحقاقاً للحق . .

إنني أعلن دون أدنى تردد أن عرابي لم ينقل قط السلب والمذابح إلى أرض مصر . وإن الأمة المصرية وأعيانها هم الذين عهلوا إليه بالدفاع عن شرف البلاد ومصيرها ولم يكن عرابي السبب قط في أن ينهب أو يذبح أى مصرى أو أجنبي . بل على النقيض من ذلك تماماً عمل الرجل كل ما في وسعه ليحمى حياة وأموال المصريين والأجانب على السواء ، وليعاقب جميع الذين خالفوا هذه التعليمات .

لقد لحقت بعرابي باشا في اليوم التالي للهزيمة بجيشه في التل الكبير ، وعقد اجتماع في بيته بالقاهرة يوم الخميس للبحث في مسألة تسليم القاهرة دون دفاع حفاظاً على أرواح المدنيين والمنشآت وعندما جاءتنا الأنباء بوصول الجيش البريطاني إلى العباسية ، سألتني عرابي باشا وطلبة باشا عصمت رأبي ، فنصحتهما بأن يذهبا إلى القائد البريطاني وأن يسلما له نفسيهما باعتبارهما أسيرى حرب فيحميهما شرف إنجلترا . وقد تركاني عرابي وركبا سوياً إلى العباسية .

إلى هنا تنتهى شهادة مسيو جون نينيه للتاريخ ، وهى تلك الشهادة التي ذيلت بالجملة التالية :

أقسم على ذلك أمامنا في قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بإنجلترا مسيو جون نينيه في هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م .



التواء أحمد عرابي باشا زعيم الثورة العرابية ووزير
الحربية والبحرية وقائد الجيش المصري ضد الحملة البريطانية
على مصر عام ١٨٨٢ م .



أحمد عرابي يقدم مطالب الشعب في حكم نياي كامل الى الخديوي توفيق بميدان عابدين
بالقاهرة في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م .



معركة التل الكبير في سبتمبر عام ١٨٨٢ م بين الجيش المصري والقوات البريطانية .

الباب السادس

الجولات العربية - الإسرائيلية المسلحة
(١٩٤٨ - ١٩٧٣)

الفصل الأول

خلفية الصراع العربى الإسرائيلى (*)

لمحة جغرافية عن فلسطين :

تعتبر فلسطين قلب الأمة العربية بحكم موقعها المتوسط بين دول المنطقة كما أنها تقع عند ملتقى القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) هذا بالإضافة إلى إشرافها على البحرين المتوسط والأحمر .

وبما يزيد من أهميتها مكانتها القدس باعتبارها مهد الديانات السماوية ، وتبلغ مساحة فلسطين حوالى ٢٧٠٠٩ كيلو مترات مربعة (١٠٤٢٩ ميلاً مربعاً)^(١) .

تنقسم إلى أربعة أقسام هي :

- ١ - المنطقة الساحلية وأهمها منطقة يافا الغنية بيساتين الموالح .
- ٢ - المنطقة الجبلية التى تمتد فى وسط البلاد كالعمود الفقرى .
- ٣ - منطقة الغور التى تقع شرق فلسطين ويحترقها نهر الأردن مع مجرياته ويصل انخفاض هذه المنطقة عند أقصاه إلى نحو ٣٩٢ متراً تحت مستوى سطح البحر .
- ٤ - منطقة بئر السبع والصحراء الفلسطينية فى الجنوب (صحراء النقب) .

لمحة تاريخية عن تاريخ فلسطين القديم :

فلسطين واليهود:

كانت فلسطين تعرف قديماً بأرض « كنعان » نسبة إلى العرب الكنعانيين . الذين عاشوا بها مع بعض القبائل الأخرى منذ سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

وفى نحوالى عام ١٨٠٠ ق . م هبط إبراهيم أبو الأنبياء بأرض كنعان وكانت نشأته فى بلاد ما بين النهرين (العراق) وبعد أن استقر بها زمناً رحل إلى مصر وعاد بزوجته منها هى السيدة هاجر حيث أنجب منها إسماعيل ثم حملة وأمه إلى الحجاز وقد رزق بعد ذلك بإسحاق من زوجته الأولى سارة وطلب لإبراهيم المقام ببقية أهله فى أرض كنعان .

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية : المرجعسكرى - المستوى الأول .

(١) الموجز فى تاريخ فلسطين الحديث - د. عبد الوهاب الكيالى - ص ٩ .

أنجب إسحاق يعقوب الذي هو إسرائيل وإليه ينسب اليهود فقد رزق باثني عشر من الأولاد هم الأسباط وقد سموا ببني إسرائيل .

وقد سمي إبراهيم وأهله بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الفرات إلى أرض كنعان وقد كان يوسف من أولاد يعقوب وحقد عليه إخوته لحب أبيه المفرط له مما دفعهم إلى إلقائه في البئر حيث التقطته قافلة من التجار وباعوه في مصر إلى فوطيفار في زمن الهكسوس وقد أعجبت به زوجته وراودته عن نفسه فرفض فأدخل السجن وذاع صيته لبراعته في تأويل الأحلام وفسر رؤيا للملك فلما تحققت عينه وزيراً للتموين .

وقد دعا يوسف إخوته وأهله جميعاً للإقامة في مصر بعدما التقى بهم - حيث كان الناس جميعاً ينزحون إلى مصر في سني المجاعة ليحصلوا على القمح - وجاء بنو إسرائيل إلا أنهم ظلوا محافظين على مواطنهم في كنعان ودفنوا فيه جدهم إبراهيم وأباهم يعقوب :

وطابت إقامة بني إسرائيل في مصر لمكانة أخيه يوسف ولتعاونهم المخلص مع الهكسوس فلما تمكن المصريون من طرد الغزاة تعرض الإسرائيليون للاضطهاد من المصريين وظلوا يسومونهم سوء العذاب حتى خرج بهم موسى بعد أن كلفه الله بالرسالة وقد ورد أن ذلك كان في القرن الخامس عشر ق . م^(١) ولم يتمكن اليهود من دخول أرض كنعان حيث تصدى لهم أهلها وظلوا مترعين بها حتى تم لهم دخولها على زمن يسوع بعد أكثر من ٤٠ عاماً من خروجهم من مصر ولما دخلوها ذبحوا أكثر أهلها ووطلوا أقدامهم بها .

وعاش اليهود في أرض كنعان تحت حكم القضاة ما يقرب من ٤٠٠ سنة ثم حكمها الملوك طالوت ودارود وسليمان وكان مدة حكمهم ٧٨ سنة ثم انقسم اليهود بعد ذلك إلى دولتين دولة السامرة في الشمال ، ودولة يهودا في الجنوب ولم يحض على ملك هاتين الدولتين أكثر من ١٠٥ أعوام ثم دار القتال بينهم وضعف سلطانهم وتمكن منهم الغزاة من المصريين والآشوريين والسوريين فخضعوا للحكام من الغزاة حتى عام ٧٢١ حيث اختلف اليهود مع الآشوريين على دفع الجزية فأغاروا عليهم وشردوهم وهو ما يسمى بالتشريد البابلي .

وقد عاد اليهود إلى أرض كنعان بعد ذلك خلال فترة حكم الفرس عام ٥٣٦ ق . م وبقوا بها حتى حكمها الرومان ثم تمردوا وانقلبوا عليهم وذبحوهم في عام ٧٠ م وهو ما يسمى بالتشريد الثاني .

ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك إلا أن عناصر محدودة زحفت خلال الحكم الإسلامي لفلسطين ثم شكلت المنظمات الصهيونية في العصر الحديث وعادوا لتحقيق حلمهم القديم وهو أرض الميعاد في فلسطين .

ومن هذا نرى أن اليهود لم يحكموا فلسطين حكماً حقيقياً أكثر من ٧٣ سنة ولم تزد مدة إقامتهم بها في الأجيال المختلفة عن ١٤٠٠ سنة من عمرها الطويل الذي يصل إلى ٦٠٠٠٠ عام عاش فيها العرب حكاماً ومحكومين .

(١) ورد في بعض المراجع أن خروج اليهود من مصر كان حوالي عام ١٣٠٠ ق . م .

لماذا فلسطين

يزعم الصهاينة أنهم أصحاب حق في فلسطين باعتبارها الأرض التي وعدهم الله بها فقد جاء في التوراة أن الله قد وعد سيدنا إبراهيم وذريته من بعده أن يعطيه فلسطين لإقامة دولة فيها (لنسلك إعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير : . نهر الفرات) ولو سلمنا بصحة هذا الزعم – باعتبار التوراة كتاباً مقدساً من عند الله – فإننا نلاحظ الآتي^(١) :

ان هذا الوعد الإلهي ليس موجهاً إلى اليهود فقط وإنما هو وعد لسيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده . . يتساوى في ذلك إسحاق (جد اليهود) وذريته وإسماعيل (جد العرب) وذريته أيضاً ومعنى هذا أن ذلك الوعد ليس مقصوراً على بني إسرائيل وحدهم وإنما هو لسلالة إبراهيم على الإطلاق وقد ثبت أن أنبياء الديانات الثلاث : موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجعون إلى جددهم الأكبر إبراهيم وبالتالي فكلهم أصحاب حق في فلسطين وليس لليهود وحدهم هذا الحق .

كما يزعم اليهود أيضاً أنهم أصحاب البلاد الأصليون وأنه كانت لهم دولة وحكم على أرض فلسطين منذ ألى عام – وإنما لو عدنا إلى التاريخ وألقينا عليه نظرة سريعة لوجدنا أن كل نصيب اليهود من حكم فلسطين هو عهد الملك داود وابنه سليمان حكم الأول البلاد أربعين عاماً وحكم ابنه سليمان ثلاثة وثلاثين عاماً (من عام ١٠٠٠ ق . م حتى عام ٩٣٧ ق . م) وبعد وفاة سليمان انقسمت المملكة على نفسها فشكلت بعض القبائل مملكة يهودا في – الجنوب على حين شكلت باقي القبائل اليهودية مملكة السامرة في الشمال :

وتوالى بعد ذلك الفتوحات الأجنبية التي أزال كلاً من مملكتي يهودا الجنوبية والسامرة الشمالية إذ كانت كل منهما أضعف من أن تقاوم الغزو الأجنبي وتقف على قدميها أمام جحافل الجيوش الغازية .

والجملول التالي يبين مدد حكم البول المختلفة لفلسطين ومنه يمكننا أن نناقش مدى أحقية اليهود المزعومة في إقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين .

(١) محمد فيصل عبد المنعم : « فلسطين قلب العروبة » – دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٧ .

جدول لبيان ملء حكم الدول الخاضعة لفلسطين (١)

حكماء فلسطين	تاريخ الحكم		مدة الحكم بالسنين
	من	إلى	
الكنعانيون			غير معروف
المصريون			غير معروف
المكسوس	١٧١	١٤٨٠ ق . م	٢٣٠
المصريون	١٤٨٠	١٣٥٠	١٣٠
الحيثيون	١٣٥٠	١٣٩٠	٦٠
المصريون	١٢٩٠	١١٥٤	١٣٦
حكام محليون	١١٥٤	١٩٠٠	١٥٤
داوود وسليمان	١٠٠٠	٩٢٧	٧٣
إسرائيل الشمالية	٩٢٧	٧٢٢	١٠٥
يهودا الجنوبية	٩٢٧	٥٨٦	٣٤١
بابل	٥٨٦	٣٥٨	٤٨
فارس	٥٣٨	١٣٠	٢٠٨
اليونان	٣٣٠	٣٢٣	٧
المصريون	٣١٣	٢٠٠	١٢٣
السلوقيون	٢٠٠	١٢٤	٥٨
اليهود (جزئياً)	١٤٢	٧٠	٧٢
أرمينيا	٧٠	٦٣	٧
روما	٦٣	٦١٤	٦٧٧
فارس	٦١٤	٦٢٨	١٤
روما	٦٢٧	٦٣٨	١٠
العرب	٦٣٨	١٠٨٥	٤٤٧
الأتراك (عرب)	١٠٨٥	١٠٩٩	١٤
الصليبيون (جزئياً)	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٣
السلجقة والعرب	١٠٩٩	١٢٩١	١٩٢
المصريون	١٢٩١	١٥١٧	٢٢٦
الأتراك (مسلمون)	١٥١٧	١٩١٨	٤١٠
بريطانيا	١٩٢٣	١٩٤٨	٢٥
اليهود (إسرائيل)	١٩٤٨	١٩٦٨	٢٠

(١) محمد فيصل عبد المنعم « فلسطين والنفوذ الصهيوني » - مكتبة القاهرة الحديثة - القاهرة ، ١٩٦٩ .

ملحوظة :

كلمة (جزئياً) تعنى حكم جزء فقط من فلسطين كما يظهر من حكم الصليبيين نلاحظ أنهم حكموا فلسطين جزئياً من عام ١٠٩٩ إلى عام ١٢٩١ ب . م في حين أن السلاجقة والعرب حكموا البلاد في نفس المدة وهذا يعنى أن كل فريق منهم كان يحكم جزءاً من البلاد في الوقت نفسه .

ومن هذا العرض نخلص إلى الآتى :

— مصر القديمة حكمت فلسطين للمد تبليغ في مجموعها نحو ٦١٥ سنة (في التاريخ المعروف بخلاف المدد غير المعروفة) .

— أما اليهود فلم تدم مملكتهم سوى ٧٣ سنة فقط من عام ١٠٠٠ ق . م إلى عام ٩٢٧ ق . م وهي عمر مملكة دلوود وسليمان وبعد ذلك لم تتمتع كل من الدولتين اللتين انقسمتا عن ملك سليمان (السامرة ويهوذا) بالاستقلال الحقيقي إذ كانت كل منهما تدفع الجزية إلى إحدى الدول الكبرى الغازية .

— دام احتلال الرومان لفلسطين حوالى ٦٧٧ سنة من عام ٦٣ ق . م إلى عام ٦١٤ ب . م .

— أما العرب فقد حكموها لمدة ٤٧٧ سنة في المدة من سنة ٦٣٨ إلى ١٠٨٥ ب . م علاوة على حكمهم بعد الفتح الإسلامى وبذلك تبلغ مدة حكمهم ١٣٠٠ سنة .

وعلى أساس هذا البحث التاريخى نرى أن الزعم الإسرائيلى باطل من أساسه . وأن دعوى إسرائيل في هذا الصدد كدعوى موسولنى حينما قام منذ ثلاثين عاماً يطالب بامبراطورية روما القديمة^(١) .

خلفية الأحداث قبل بدء الصراع المسلح في فلسطين :

— نشأة الحركة الصهيونية :

نشأت الحركة الصهيونية في النصف الثانى من القرن التاسع عشر باعتبارها حركة قومية يهودية ترمى إلى جمع شتات اليهود وحشدهم في فلسطين وما حولها من البلاد العربية ليستأنفوا حياتهم القومية والتاريخية وقد سميت الحركة باسم صهيون أحد التلال التى تقوم عليها مدينة القدس .

وقد بقيت الحركة الصهيونية مفتقرة إلى التنظيم والتخطيط إلى أن تمكن تيودور هرتزل من عقد المؤتمر الصهيونى الأول في مدينة بازل السويسرية في ٢٨ أغسطس ١٨٩٧ . وحضر المؤتمر ٢٠٤ مندوب يمثلون جمعيات صهيونية متناثرة في أرجاء مختلفة^(٢) وظهر هدف الصهيونية في هذا المؤتمر وهو إقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين يضمه القانون العام .

(١) في هذا الخصوص ألقى المؤرخ البريطانى (أرنولد توينبى) محاضرة في جامعة ماكجيل بكندا - يناير ١٩٦٠ قال فيها (ان مطالبة اليهود بفلسطين أمر مشكوك في صحته فلو اعترف بالحقوق المساوية منذ عام ١٣٥ ميلادية لما استطعنا إعادة توزيع الأراضى في أنحاء العالم ولكان عليكم إعادة كندا إلى الهنود الحمر) .

(٢) محمد فيصل عبد المنعم (أسرار ١٩٤٨) ص ٧٨ - ٨٢ - مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨ .

(-) تاريخ فلسطين - د. عبد الوهاب الكيالى - ص ١٩ .

وقد نتج عن هذا المؤتمر أداة تنظيمية أطلق عليها اسم المنظمة الصهيونية العالمية التي أعلنت أهدافها كما يلي^(١) :

العمل على استعمار فلسطين عن طريق تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقاً لخطط مناسبة . وتنظيم اليهود وربطهم جميعاً عبر مؤسسات مناسبة على الصعيدين المحلي والعالمي كل منها حسب قوانين البلد المعنى . وتقوية الحس والوعي القومي لدى اليهود وتعزيزهما واتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول حيث يكون ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الصهيونية .

التسلل إلى فلسطين :

الهجرة الأولى إلى فلسطين :

قامت عدة جمعيات صغيرة في روسيا تدعى عشاق صهيون ، هاجر بعضها إلى فلسطين وكونوا مستعمرات زراعية يهودية خلال القرن الـ ١٩ وقد أمد أغنياء اليهود في العالم هذه الجمعيات بالمال وشجعوا على زيادة الهجرة حتى بلغ عدد المستعمرات اليهودية في فلسطين عام ١٩٠٠ حوالي ١٧ مستعمرة .

الهجرة الثانية لليهود :

بظهور الحركة الصهيونية الحديثة ودعوى إقامة وطن قومي لليهود التي تعهدها الدكتور هرتزل وسعت لتحقيقها المنظمة الصهيونية أصبح أمر الهجرة أكثر تنظيماً وبذل الكثير من الجهود لتوطين اليهود في فلسطين ونحت هجرات جماعية إليها وتكونت مستعمرات جديدة سميت بالكيبوتزات وذلك في عام ١٩٠٩ حيث كون اليهود قوات دفاعية مسلحة لحماية هذه المستعمرات سميت « بقوات الدفاع الوطني » .

وعند بلفور :

تمكن هايم وايزمان الزعيم الصهيوني خلال الحرب الأولى من كسب عطف بريطانيا واستطاع أن يحصل على وعد من وزير خارجيتها اللورد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ في خطاب مضمونه أن حكومة بريطانيا تبذل الجهد لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

تمكين اليهود من فلسطين :

ما أن وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني في ديسمبر ١٩١٧ حتى عملت بريطانيا بشتى الوسائل على تمكين اليهود من الاستيطان في فلسطين رابتعت في ذلك الكثير من الوسائل أهمها :

— تيسير الهجرة لليهود إلى فلسطين بالرغم من معارضة العرب ، وفتح التسهيلات للمنظمة الصهيونية حتى تمكنها من شراء الأراضي اللازمة لتوطين اليهود . كما عمد المندوب السامي البريطاني إلى اتخاذ الإجراءات التي كفلت لكثير من اليهود احتلال مناصب هامة بالدولة . وقد اعترفت بريطانيا باللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين

(١) ملف القضية الفلسطينية - منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث إعداد سامى هداوى - ص ١١ .

وأنشأت الجامعة العبرية سنة ١٩٢٥ . وقد أنشئت الوكالة اليهودية في فلسطين لتكون نواة لحكومة إسرائيلية
تباشر كل ما يتعلق باليهود .

قيام الكيان الصهيوني في فلسطين :

وهكذا تمكن اليهود من فرض وجودهم في فلسطين خاصة بعد أن أصبحت تحت الانتداب البريطاني الذي
شجع الهجرة اليهودية حتى تضاعف أضعافاً كثيرة في سنوات معدودة^(١) وأنفقت الصهيونية العالمية من الأموال
ما مكن هذه الأعداد من الاستيطان في فلسطين وشراء الأراضي حتى أصبح اليهود يسيطرون على مناطق واسعة
من فلسطين مما أدى إلى قيام كثير من الاشتباكات بين العرب واليهود في مناطق مختلفة من البلاد كما أعلن الحزب
الوطني الفلسطيني إضراباً دام ستة شهور وطالب فيه بعودة مطالب أهمها :

١ - إيقاف الهجرة اليهودية .

٢ - منع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود .

٣ - إنشاء حكومة وطنية وحياة برلمانية .

ولما زادت حدة التوتر بين العرب واليهود قامت بريطانيا بتشكيل لجنة (بيل) الإنجليزية التي دعت إلى تقسيم
فلسطين بين اليهود والعرب وذلك في يوليو ١٩٣٧ . ولم يقبل العرب بهذا التقسيم فحاولت بريطانيا ترضية العرب
فأصدرت الكتاب الأبيض في مايو ١٩٣٩ والذي يفيد إلى حد ما هجرة اليهود إلى فلسطين .

وجاءت الحرب العالمية الثانية التي شغلت جميع الأطراف ولكن بصورة مؤقتة حيث كان اليهود يعلنون العدة
لفرض الوجود الصهيوني بالقوة وتمكنوا خلال فترة الحرب من حشد الكثير من الأسلحة ومارسوا بعض الأعمال
الإرهابية ضد الإنجليز لتراجع بريطانيا عن سياستها الواردة في الكتاب الأبيض ونجح هذا الأسلوب الإرهابي في
إجبار بريطانيا على التراجع كما أفاد في تقوية العناصر المسلحة الإسرائيلية ، ولما عجزت الحكومة البريطانية عن
التوفيق بين التزاماتها تجاه أطراف النزاع . . قررت أخيراً عرض القضية على الأمم المتحدة التي أصدرت قرارها
بتقسيم فلسطين بمجرد إنهاء الانتداب البريطاني قبل ١/٨/١٩٤٨ . إلى دولة يهودية ودولة عربية مع تدويل منطقة القدس.

(١) كان عدد اليهود في فلسطين عام ١٩١٨ - ٥٥ ألف نسمة وبلغ في عام ١٩٣٦ إلى ٣٦٥ ألفا .

الفصل الثاني

الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (*)

(حزب ١٩٤٨)

تطور الموقف في فلسطين في أواخر عام ١٩٤٧ وأوائل عام ١٩٤٨ تطوراً خطيراً ، فقد كان للقرار الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والذي نص على تقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية وتحويل منطقة القدس وإنشاء اتحاد اقتصادي يربط بين الوحدات الثلاث ، وقع سوء على الدول العربية وبالأخص على شعب فلسطين . وكان هذا القرار بمثابة الإشارة لبدء أعمال العنف في فلسطين . . فالعرب من ناحية يعملون بكل الطاقة لمنع تنفيذ قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم ، واليهود يعملون بكل جهدهم من أجل تنفيذ هذا القرار الذي جاء في صالحهم ، بينما بريطانيا تحاول حفظ النظام والأمن في هذه المنطقة التي بدأت فيها أعمال القتال بين الجانبين . في حين قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن بمحاولات متعددة لتهذيب الوضع المتفجر ودعوة الوكالة اليهودية واللجنة العربية العليا لوقف الأعمال العدائية . . في الوقت الذي أصدرت فيه بريطانيا قراراً من جانب واحد يقضي بإنهاء الانتداب على فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨ ، وقد اتخذت بريطانيا هذا القرار وأعلنته رغم أن قرار الجمعية العامة الخاص بالتقسيم كان قد حدد الأول من أغسطس ١٩٤٨ موعداً لإنهاء الانتداب .

وفي الساعة الرابعة من عصر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ - كان (دافيد بن جوريون) رئيس أول حكومة مؤقتة لإسرائيل يعلن عن قيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل وناشد الشعب اليهودي في المنفى أن يقف إلى جانبها في الصراع الوشيك مع العرب من أجل تحقيق حلم الصهيونية .

ولم يكذباً إعلان الدولة اليهودية وإنهاء الانتداب ينتشران في العالم حتى أسرع أمريكا بعد دقائق بإعلان اعترافها بدولة إسرائيل ثم تبعها الاتحاد السوفيتي وبقية دول العالم الشرقية والغربية .

وهكذا أسلمت بريطانيا فلسطين لقمة سائغة للصهيونية فخانت بذلك أمانة الانتداب . ولم يحل يوم ١٥ مايو حتى كانت القوات الإسرائيلية قد أتمت الاستيلاء على مدن طبرية وحيفا (عدا الميناء) وصفد ويافا والأحياء الهامة من القدس كما أحكمت حلقة الحصار حول عكا واستولت على كل الجليل الشرقي والغربي .

وتفانم بذلك الموقف ودخلت الجيوش العربية فلسطين صباح ١٥ مايو ولكن بعد أن مكنت بريطانيا إسرائيل من كل المواقع الهامة في فلسطين ومعظم المدن الرئيسية بها .

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية : المرجع العسكري : المستوى الأول .

المهدف من الحرب :

كان هدف الدول العربية من دخول الحرب هو استعادة فلسطين ومنع قيام الدولة الصهيونية في فلسطين .

أما الفكر الصهيوني فكان يستهدف قيام دولة يهودية على أرض فلسطين تكون منطلقاً لتحقيق الحلم القديم « دولة إسرائيل » من النيل إلى الفرات وتمتد نفوذها إلى ما تبقى من الوطن العربي حتى مكة والمدينة . ولم يكن وعد بلفور الذى حصلت عليه أكثرية يهودية في فلسطين خلال زمن قصير سوى « رحلة مؤقتة من مراحل تحقيق الحلم الكبير :

فالهدف الرئيسى للصهيونية إذن هو قيام دولة إسرائيل الكبرى التى لا تقتصر على حدود فلسطين بل تمتد إلى سوريا والأردن ولبنان ومصر والعراق وكانت حرب عام ١٩٤٨ هى بداية تحقيق أهداف إسرائيل التوسعية .

ميزان القوى :

عندما نبحث ميزان القوة في هذه الجولة يجب أن يوضع في الاعتبار نسبة القوات المقاتلة إلى التعداد البشرى للجانبين المتصارعين . فقد بلغ إجمالى الشعوب العربية التى دفعت بقواتها إلى مسرح القتال حوالى ٤٠ مليون نسمة وقتل ومع ذلك فإن جملة ما دفعت به للقتال لم يتجاوز ٢١ ألف مقاتل أى بنسبة ٠,٥ ٪ من إجمالى تعدادهم على حين حشد اليهود ٦٧ ألف جندي في الوقت الذى بلغ نسبة تعدادهم في فلسطين لا يتجاوز ٢٢٩ ألف نسمة أى بنسبة ١١ ٪ من إجمالى قوتهم البشرية . ومن هنا يمكن القول أن قدرة اليهود على التعبئة بلغت نحو ٢٠٠ ضعف بالنسبة لقدرة العرب في ذلك .

وفيما يتعلق بالقوات العربية التى عملت في فلسطين فقد انقسمت إلى قوات شبه نظامية وقوات نظامية (وهذا حسب تقسيم مراحل الحرب إلى معلنة وغير معلنة) . فالقوات شبه النظامية دخلت فلسطين قبل إعلان الحرب أما القوات النظامية فقد دخلت بعد إعلان حالة الحرب مع إسرائيل .

القوات شبه النظامية^(١) :

١ - منظمة الشباب العربى :

لقد شكلت الهيئة العربية العليا^(٢) من منظمى التجارة والفتوة منظمة الشباب العربى ووضعت على رأسها ، الضابط المصرى الرائد محمود لبيب^(٣) الذى اتخذ مدينة يافا مقراً له . وكان عدد أعضاء هذه المنظمة يرسو على ٢٥ ألف مجاهد كان بعضهم قد حصل على السلاح بوسائله الخاصة .

(١) الحرب في أرض السلام - لواء حسن البدرى - ص ٩٦ وكتاب حقائق عن قضية فلسطين محمد أمين الحسينى - مطابع دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٥٨ .

(٢) تأسست هذه الهيئة بقرار من جامعة الدول العربية في جلستها المنعقدة في بلودان بسوريا بين ٨ - ١٢ يونيو ١٩٤٦

(٣) الرائد محمود لبيب يقول عنه كمال الدين حسين في مذكراته بمجلة المصور عدد ١٩ ديسمبر ١٩٧٥ صفحة ١٢٥ انه كان من صفوفه ضباط مصر الوطنيين وقد خدم في مستهل حياته العسكرية في الجيش التركى وحارب الإيطاليين في ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى ثم اشتد نشاطه الوطنى بعدها ضد سلطات الاحتلال البريطانى في مصر فأحاله إلى التقاعد . وظل يمارس العمل الوطنى ثم ارتبط بالإخوان المسلمين وكان حلقة الوصل بينهم وبين ضباط ثورة يوليو ١٩٥٢ .

٢ - جيش الجهاد المقدس^(١) :

كان بقيادة عبد القادر الحسيني وتمركز في سبع مناطق في فلسطين وهي منطقة القدس ، بيت لحم ، رام الله ، المنطقة الوسطى الغربية ، المنطقة الجنوبية ، المنطقة الغربية ، المنطقة الشمالية .

وقد اشتمل هذا الجيش من حيث نوعية أفراده على ثلاث فئات هي^(٢) :

(أ) قوات شبه نظامية :

بلغ عددها حوالي عشرة آلاف مجاهد تكفلت الهيئة العربية العليا بكافة لوازمهم .

(ب) قوات مرابطة :

بلغ عددها حوالي ألف مجاهد تكفلت كذلك الهيئة العربية العليا بلوازمهم .

(ج) قوات متطوعة :

بلغ عددها حوالي ٣٠ ألف مجاهد ولم نصفهم قيادة أو تقدم لهم معونة من أى جهة وإنما عملوا بوحى من وطنيتهم .

هذا وقد حدد عبد الله التل حجم جيش الجهاد المقدس بألف ومائتي مجاهد فقط في كتابه « كارثة فلسطين صفحة ٨٥ » . وهذا الحجم يكون شكاً قليلاً جداً بالنسبة لما حددته اللواء حسن البدرى في كتابه الحرب في أرض السلام .

٣ - جيش الإنقاذ والتحرير :

أنشئ في أول ديسمبر ١٩٤٧ من متطوعين سوريين ولبنانيين وعراقيين وأردنيين ومصريين وسعوديين وعمانيين وأتراك ويوغسلاف وألمان وإنجليز^(٣) وقد تمركز هذا الجيش في المنطقة الوسطى والشمالية من فلسطين حتى أوائل يونيو ١٩٤٨ عندما عاد وتجمع في الشمال . وتولى قيادته فوزى الدين القاقجى .

وقد بلغ حجم هذا الجيش نحو أربعة آلاف مقاتل نصفهم من المتطوعين السوريين و ٨٠٠ فلسطيني ومثلهم عراقي بالإضافة إلى جماعات قليلة من جنسيات أخرى^(٤) . ومن الواضح أنه نظراً لاختلاف جنسيات هذا الجيش فإن تنظيمه وتركيبه كان غير متجانس من حيث الأفراد والتسليح والتدريب وأسلوب العمل .

(١) الحرب في أرض السلام ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) كتاب الحرب في أرض السلام ص ٩٩ ، ص ١٠٠ - وكذلك كتاب المسير إلى فلسطين لناجي علوش ، بيروت دار الطليعة ١٩٦٤ ص ١٦ - ص ٥٠ .

(٣) من كتاب الحرب الفدائية في فلسطين - ص ٥٠ . وأيضاً كتاب أسرار حرب ١٩٤٨ .

.. لمحمد فيصل عبد المنعم ، القاهرة مكتبة النهضة ١٩٦٧ ص ٢٦٢ - ص ٢٦٧ .

(٤) فلسطين في مذكرات القاقجى إعداد خيرية قاسمية . بيروت دار القدس ١٩٧٥ ص ٥٠ وكذلك الحرب في أرض السلام ص ١٠٧ .

٤ - القوة الخفيفة المصرية :

ودخلت هذه القوة فلسطين يوم ٦ أيار ١٩٤٨ تحت قيادة المقدم أ.ح/ أحمد عبد العزيز وهو ضابط مصري وكان حجم هذه القوة ٧٩٨ مقاتلا وتمركزت حول خان يونس .

٥ - كتيبة البعث العربي :

شكلها حزب البعث العربي ودفعتها في ١٦ يناير ١٩٤٨ إلى فلسطين بقيادة اللجنة التنفيذية للحزب^(١) .

وبذلك يكون إجمالي تعداد قوات العرب شبه النظامية في فلسطين نحو ٦٠ ألف مناضل ، إلا أن الأسلحة التي توفرت لهذه القوات لم تكن كافية وتم تجميعها بالجهود الذاتية .

أما القوات النظامية فكانت تتكون من :

١ - الجيش المصري :

وكان بقيادة اللواء أحمد على الماوي . وبلغ عدد جنود الجيش في بداية الحرب المعلنة نحو ٥٠٠٠ مقاتل بينهم كالآتي : لواء مشاة من ثلاث كتائب مشاة وأورطة مدرعة وآلي مدفعية ميدان ٢٥ رطلا لم تستكمل تدريبها إلا على مستوى الفصائل والسرايا فحسب - ٦ طائرات مقاتلة - ٥ طائرات نقل داكوتا - ١ طائرة استطلاع - ٢ كاسحة ألغام في العريش وبور سعيد - ٥ زوارق إنزال تستطيع نقل سرب مشاة أو ٢٥٠ طنا - قوات سودانية وسعودية .

٢ - جيش شرق الأردن (الفيلق الأردني) :

بقيادة الفريق جون ياجوت جلوب بلغ تعدادة حوالي ٤٥٥٠ مقاتلا بينهم كالآتي :

٤ كتائب ميكانيكية تشكل لوائين تعدادهما ٢٢٥٠ ، ٢٣٠٠ فرد على الترتيب .

٢ بطارية مدفعية ميدان ٢٥ رطلا كل منهما ٤ مدافع .

٣ - جيش العراق :

بقيادة الزعيم محمد الزبيدي ، وبلغ تعدادة حوالي ٢٥٠٠ مقاتل بينهم كالآتي :

كتيبة مدرعة (٣٦ دبابة خفيفة) فوج مشاة آلي - ٢ فوج مشاة - كتيبة مدفعية ميدان ٢٥ رطلا ناقص بطارية (١٢ مدفع ميدان) - بطارية مضادة للطائرات - سرية قاذفات قنابل (١٢ طائرة) .

٤ - جيش سوريا :

بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم . وبلغ تعدادة ألتي مقاتل بينهم كالآتي : ٢ كتيبة مشاة تشكيلات لواء - كتيبة مدفعية ٧٥ مم فرنسية .

(١) نضال البعث الجزء الأول بيروت دار الطليعة ١٩٦٣ ص ٢٣٨ - ص ٢٣٩ .

٥ - جيش لبنان :

بقيادة الزعيم فؤاد شهاب . بلغ تعدادهم حوالي ١٠٠٠ مقاتل بينهم كالاتي : كتيبة مشاة - بطارية مدفعية ٧٥ مم فرنسية .

وبهذا يكون إجمالي حجم الجيوش النظامية الخمسة التي دخلت فلسطين في بداية فترة الحرب المعلنة يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ نحو ١٥ ألف فرد تشكلوا في ١٢ كتيبة مشاة أو ميكانيكية هي كل ما أمكن لسبع دول عربية أن تعبته وتدفعه إلى مسرح الحرب في هذه الجولة .

هذا وقد ظل حجم القوات العربية النظامية على هذا النحو فيما عدا الجيش المصري الذي زاد حجمه نظراً لأن العدو ركز قتاله في القطاع الجنوبي فبلغت الزيادة في حجمه حتى المدة الأولى ثلاثة أمثال ما كان عليه عند بدء القتال أي بلغ ١٥ ألف مقاتل وبذلك أصبح حجم القوات العربية في فلسطين حوالي ٢٤٠٠٠ مقاتل^(١) . وكان كل جيش لا يأتمر إلا بأوامر دولته ولم يكن الملك عبد الله الذي قلده جامعة الدول العربية قيادة هذه الجيوش يوم ١٠ مايو ١٩٤٨ يملك حق إصدار الأوامر إليها أو حتى حق تفقدتها فكان بذلك قائداً إسمياً فقط^(٢) .

وفيما يتعلق بالقوات الإسرائيلية^(٣) :

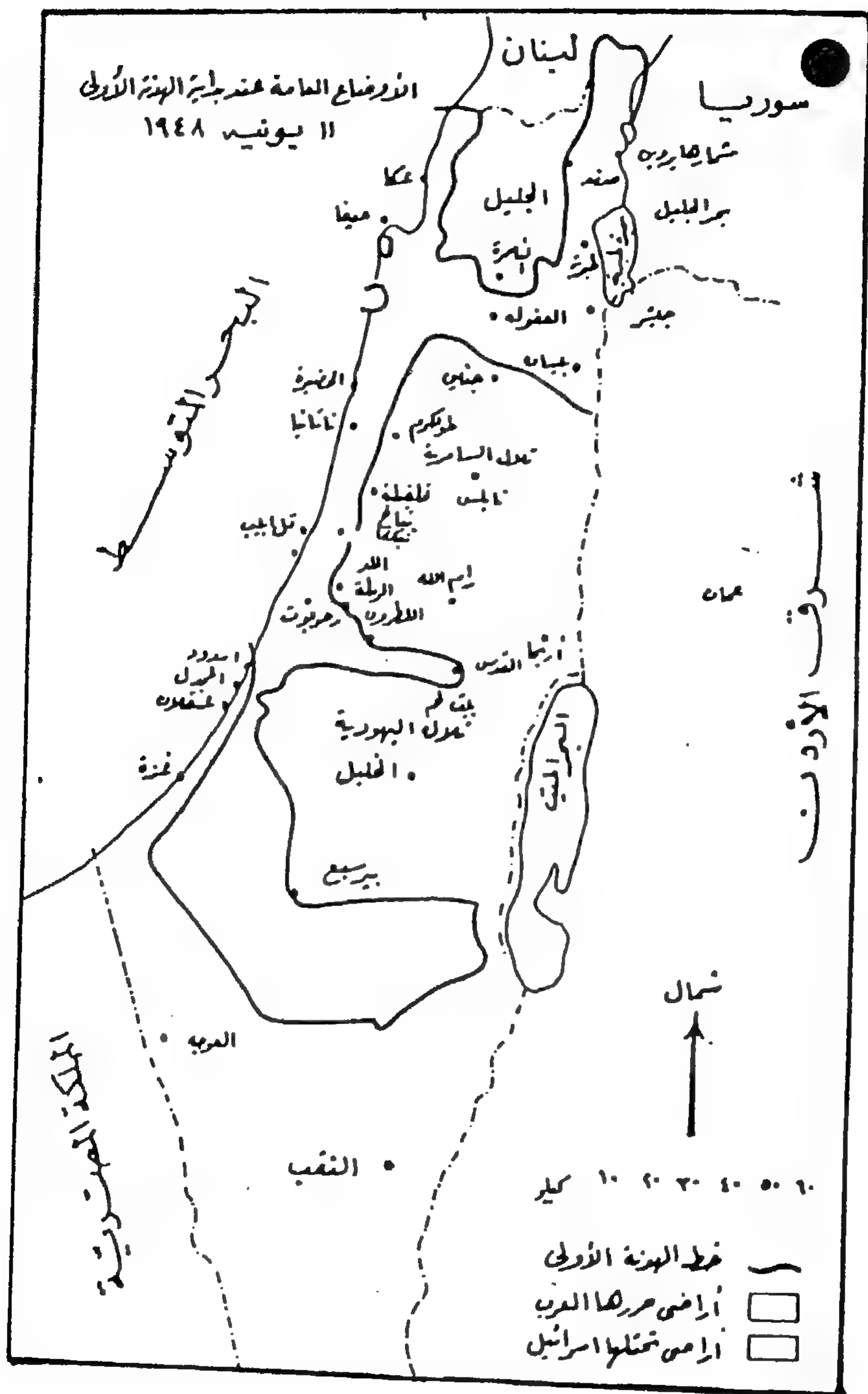
ربما تكون أكثر المصادر دقة في تحديد الحجم الحقيقي للقوات الإسرائيلية في الجولة الأولى هي الوثيقة رقم ٦٨٧٢ من الكتاب الأبيض عن (الإرهاب الصهيوني) الصادرة من وزارة المستعمرات البريطانية نقلاً عن أجهزة مخبرات سلطة الانتداب في فلسطين . لقد قدرت هذه الوثيقة حجم القوات الإسرائيلية في يوليو ١٩٤٦ بالآتي :

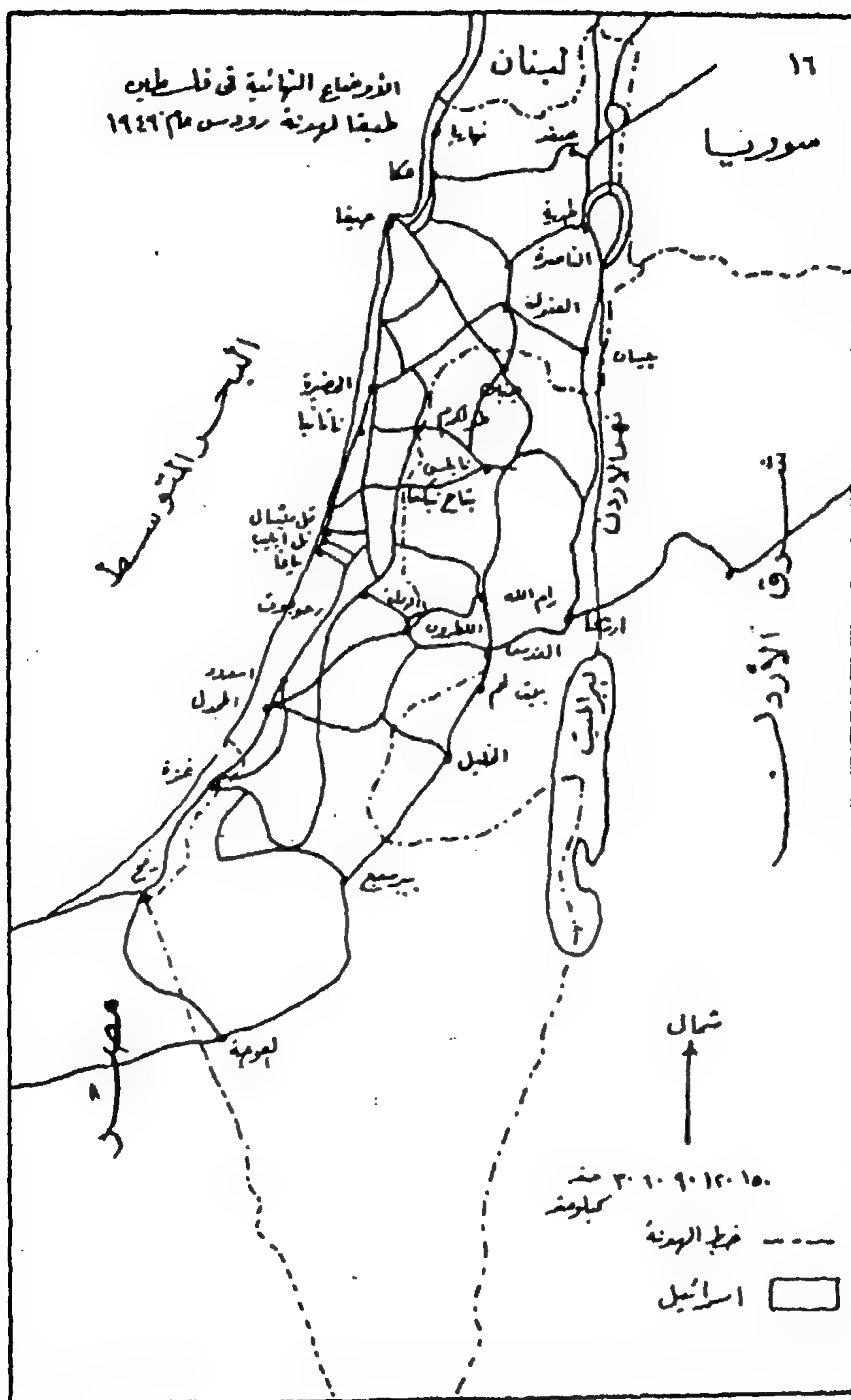
١ - قوات عسكرية جيدة التسليح تتألف من الهاجاناة والبالماخ	
وحرص المستعمرات .	٤٠,٠٠٠ مقاتل
٢ - جيش ميدان مدرب على العمليات ذو قدرة كبيرة على الحركة	١٦,٠٠٠ مقاتل
٣ - قوة ضاربة خفيفة الحركة عالية التدريب من البالماخ	٦,٠٠٠ مقاتل
٤ - قوة من الأرجون والشتيرون	٥,٠٠٠ مقاتل
المجموع الكلي	٦٧,٠٠٠ مقاتل

وليس ثمة شك في أن هذا العدد من المقاتلين قد زاد زيادة كبيرة منذ بداية الجولة الأولى بفضل الهجرة الغزيرة التي راحت تتدفق على فلسطين بطريقة شرعية وغير شرعية .

وفي ١٤ مايو ١٩٤٨ - يوم إعلان مولد دولة إسرائيل كانت قواتها المسلحة مشكلة في عشرة ألوية ميدانية ولواء دفاع مدني وقوة جوية وأخرى بحرية . هذا ويتكون جيش الدفاع الإسرائيلي من عنصرين هما :

-
- (١) الحرب في أرض السلام - لواء حسن البدرى ص ١٢٢ .
 - (٢) الحرب في أرض السلام - لواء حسن البدرى ص ١١٨ .
 - (٣) المرجع السابق ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، ص ١٤١ .



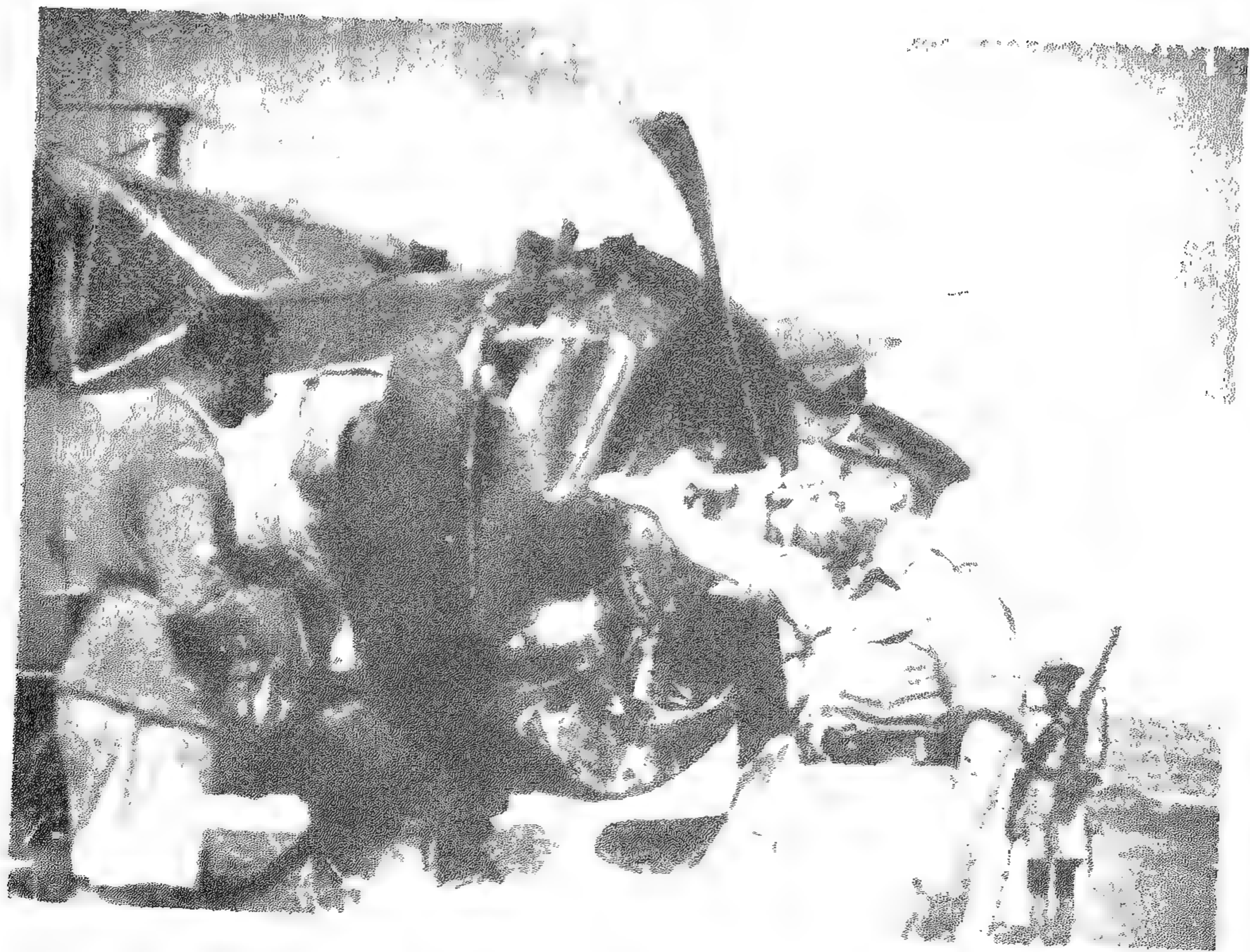




بعض القادة المصريين يشاهدون إحدى المستعمرات اليهودية التي سقطت في أيدي القوات
المصرية - ١٩٤٨



الفريق فؤاد صادق
قائد القوات المصرية بفلسطين
١٩٤٨

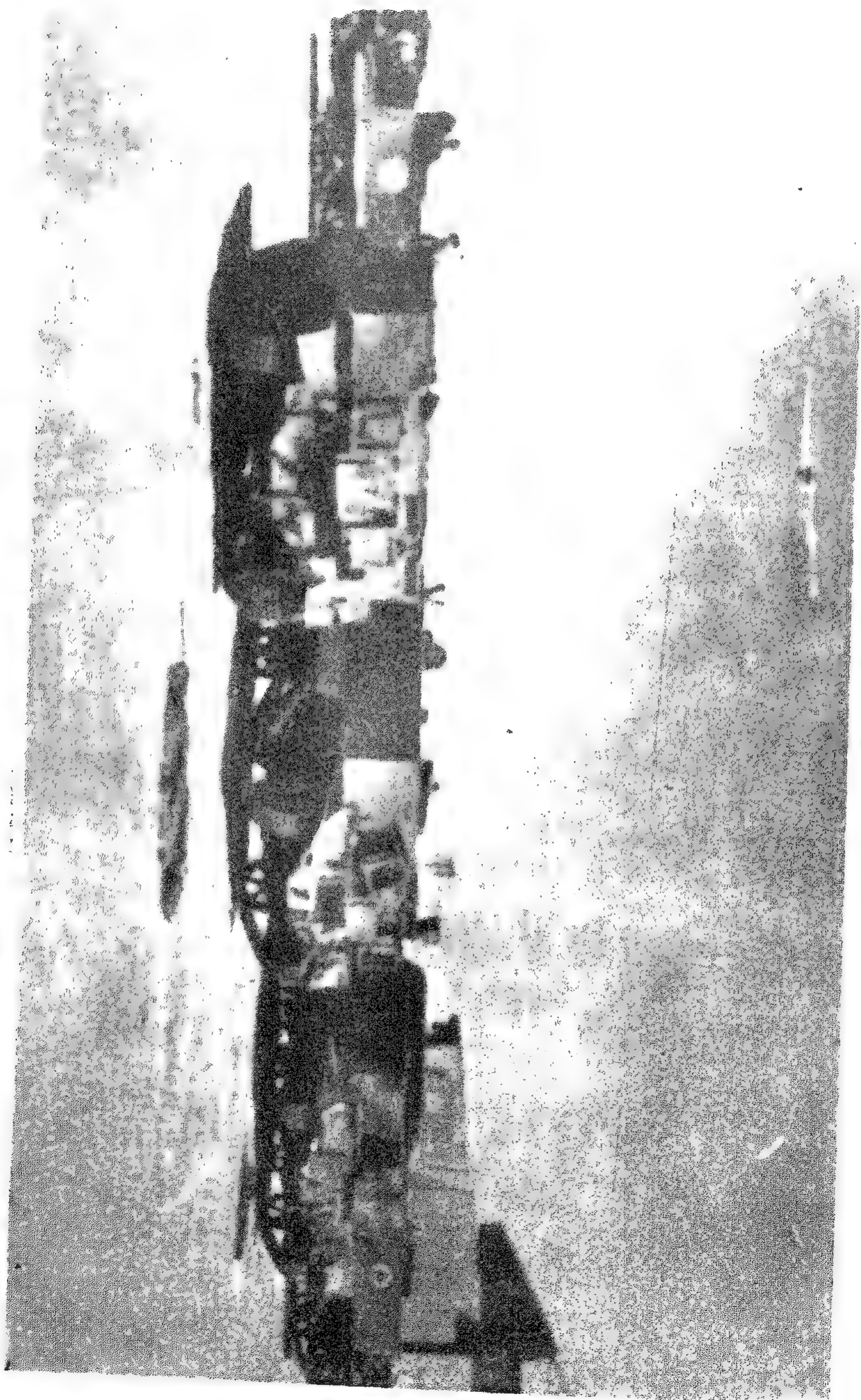


احدى المقاتلات المصرية بعد عودتها من غارة على تل أبيب
وقد أصيبت أصابة في مقدمها - ١٩٤٨



مطار اللد أثناء حرب فلسطين
١٩٤٨

بعض المحلات المرممة المربعة الخاصة بقوات الفلوجا



بداية النساء : خروج شعب فلسطين من بلادهم - ١٩٤٨



مفيمات اللاجئين في ربيع - ١٩٤٩





خريطة فلسطين بموجب قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٧

١ - البالماخ :

وهي وحدات الاستطلاع والعمل خلف الخطوط وتحتوى على أربعة ألوية مقاتلة . ومعنى كلمة « بالماخ » هي السرايا الضاربة وهي كلمة عبرية .

٢ - الهاجاناة :

وهي الوحدات المقاتلة في الجيش الإسرائيلي ، وتحتوى على ستة ألوية ومعنى كلمة « هاجاناة » هي الدفاع وهي كلمة عبرية .

وكان العمود الفقرى لهذه القوات مشكلا من متطوعي اليهود في الحرب العالمية الثانية والذين عادوا من ميادين القتال المختلفة وهم مشحونون بالخبرة والمهارة القتالية :

ونخلص من كل هذا إلى الحجم الحقيقي للقوات الإسرائيلية الذى ارتفع من ٦٧ ألف مقاتل عام ١٩٤٦ طبقاً لتقدير مخبرات حكومة الانتداب بلغ ١٠٦ آلاف مقاتل عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ منهم ٨٠ ألف في الهاجاناة ، ٢٦ آلاف في البالماخ ، ١٥ ألفاً في الأرجون ، ٥ آلاف في الشيرن^(١) :

الخطط الحربية في حرب ١٩٤٨ :

الجانب العربى :

لقد احتدم الجدل وتضاربت الأقوال وما زال أمر خطط الهجوم العربى في الجولة الأولى موضع نقاش بين مفكر ومتشكك ومؤكد بوجود خطة حربية عربية مشتركة في فلسطين .

فقد أنكر وجودها الفريق صالح صائب الجبورى رئيس الأركان العراقى الذى ألمح بأن العرب كانوا في حاجة ماسة إلى خطة حقيقية^(٢) . كما أنكر وجودها أيضاً الجنرال جلوب الذى أصر على أنه لم يكن هناك وجود لمثل هذه الخطة في أى وقت من^(٣) الأوقات .

ومن تشكك في وجودها عبد الله التل الذى قال : « إننى لا أدري أكانت هناك خطة أم لا ولكنه كان واضحاً لجميع الرجال العسكريين أن فلسطين قد قسمت إلى مناطق عمل أوكلت مسؤولية كل قسم منها إلى أحد الجيوش العربية^(٤) .

(١) الحرب في أرض السلام - ص ١٥٠ ، ص ١٥٠ . ويقول اللواء البدرى عن هذا الحجم وهو يزيد عما قدرته سلطة الانتداب البريطانى عام ١٩٤٦ بحوالى ٣٩ ألف مقاتل يمكن أن يكونوا حصيلة الهجرة الكثيفة إلى فلسطين خلال هذه المدة بالإضافة إلى المتطوعين الذين تدفقوا عليها من الخارج للإسهام في إقامة الدولة علاوة على سكان المستعمرات الدفاعية الذين كان لهم نصيب في الجهود الحربى .

(٢) « محنة فلسطين » : الفريق أول صالح صائب الجبورى ص ٣١ .

(٣) الحرب في أرض السلام اللواء حسن البدرى ص ١٣٠ .

(٤) كارثة فلسطين لعبد الله التل ص ٢٥١ .

أما من أكد وجود خطة عمل مشتركة لجيوش العرب النظامية^(١) فقد زعم أنها كانت تقضى بأن تطبق جيوش سوريا ولبنان والأردن والعراق على العقولة ثم تواصل الزحف مجتمعة في مرحلة تالية لتمزق تجمعات القوات الإسرائيلية وتصل إلى ساحل البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يزحف فيه جيش مصر نحو عسقلان والمجدل ثم يتقدم في مرحلة تالية للالتقاء بباقي الجيوش العربية الزاحفة من الشمال والشرق حتى يكون قادراً على أن يهاجم ويحقق مهامه .
ومهما يكن الأمر فيمكن القول أن كل جيش من الجيوش العربية كان له على الأقل هدف هجوم خاص به يتناسب مع القطاع الذي يعمل فيه وكانت هذه الأهداف محددة على النحو التالي :

القوات المصرية :

تهاجم غزة بينما تقوم القوات شبه النظامية بمحاصرة القدس وتكون القوات جاهزة للتقدم بعد ذلك في اتجاه تل أبيب .

القوات الأردنية :

تتقدم في اتجاه نابلس ورام الله ، وتمزل بذلك القدس وتكون مستعدة للتقدم في اتجاه تل أبيب .

القوات العراقية والسورية :

تهاجم في اتجاه عقولة وتطهر المنطقة من القوات الإسرائيلية .

القوات اللبنانية :

تتقدم إلى نهاريا ومنها إلى عكا وحيفا .

ويقول اللواء البدرى^(٢) : « نستخلص من ذلك أن جيوش العرب النظامية دخلت فلسطين بلا خطة مشتركة للعمل المنسق بينها بل ان بعضها لم يكن يبطن للبعض الآخر ما يرجوه الصديق لصديقه من توفيق » .

الجانب الإسرائيلي :

لقد رسمت القيادة الإسرائيلية مع صدور قرار التقسيم سياسة عامة لمجابهة متطلبات المرحلة المترتبة على هذا القرار تلخص في الاحتفاظ بالمستعمرات اليهودية في فلسطين وتأمين المواصلات ضامناً لإمكان تحريك القوات واستخدام المستعمرات الدفاعية كقواعد لشن أعمال العصابات خلف الخطوط .

هذا وقد تكفلت قوات الهاجاناة والبالماخ وحرس المستعمرات بتنفيذ هذه السياسة أما العصابات الصهيونية أمثال الأرجون والشتيرون ونيلي فقد تكفلت بشن الحرب الإرهابية التي تعتمد على البطش والتنكيل لإجبار عرب فلسطين على مغادرة أرضهم تحقيقاً للبقاء العنصرى للدولة اليهودية أما الأهداف والمهام فقد وضعها القيادة الإسرائيلية العليا وعملت على إخراجها إلى حيز الوجود من خلال عدة خطط حربية هي أ ، ب ، ج ، يوشع د .

(١) تاريخ حرب الجيش العراقي في فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ص ٦١ اللواء الركن خليل سعيد .

(٢) الحرب في أرض السلام .

وكان أهم ما جاء في الخطة د هو :

- ١ - مهمة تأمين الاستيلاء على مساحات كبيرة من الأراضي بأسلوب الضرب مع الحركة .
 - ٢ - الاستيلاء على القدس وتأمين باب الطريق بينها وبين تل أبيب . هذا ولم تغفل الخطة « د » الركائز الأساسية .
 - ٣ - التمكين من مواصلة القتال في حالة تدخل الجيوش العربية النظامية في الحرب .
- وعموماً كانت الخطط الإسرائيلية تهدف إلى « السيطرة » على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من أرض فلسطين بما استلزم إعداد جيش كبير وتزويده بأسلحة هجومية واتجهت الجهود بعد ذلك من أجل تطوير هذه الأسلحة الهجومية :

سير القتال :

فترة الحرب غير المعلنة : (ديسمبر ١٩٤٧ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨) :

كانت نية الحرب متوفرة لدى الأطراف المتنازعة خاصة بالنسبة لليهود الذين جاءوا إلى فلسطين بفرض إقامة دولتهم بكل الوسائل والأساليب ولم يكن من الممكن أن يعلن اليهود الحرب على العرب - وفلسطين لازالت تحت الانتداب البريطاني .

ويمكن تقسيم الأعمال القتالية التي تمت خلال فترة الحرب غير المعلنة إلى مرحلتين :

١ - المرحلة الأولى : من ١ ديسمبر ١٩٤٧ إلى ٣١ مارس ١٩٤٨ .

وفي هذه المرحلة نشط الجانب العربي في مواجهة اليهود والقوى المؤيدة لهم للحفاظ على عروبة فلسطين .

وقامت الجماعات الصهيونية المسلحة باغارات محدودة بفرض تأمين الاتصال البري بين المناطق التي يتجمع فيها اليهود ، والتأهب لاحتلال المراكز التي تتحكم فيها القوات البريطانية . وبالرغم من ذلك تمكنت عناصر جيش الإنقاذ والجهاد المقدس من السيطرة على أغلب طرق المواصلات وتم عزل الحى اليهودى في القدس القديمة والجديدة وذلك حتى نهاية مارس ١٩٤٨ .

٢ - المرحلة الثانية : من ابريل إلى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ .

قامت العصابات الصهيونية المسلحة بنشاط مكثف خلال تلك الفترة (٤٤ يوماً) واشترك فيها الهاجاناة ، والأرجون ومنظمة نيلي ، وشيرون الإرهائيون وقد استعان الجانب اليهودى في ذلك بألاف من المتطوعين الذين تدفقوا على فلسطين في هذه الفترة للمعاونة والاشتراك في قيام الدولة اليهودية .

ويمكن حصر المعارك التي دارت خلال هذه المرحلة في ١٤ معركة وهذه المعارك كانت تستهدف :

- تأمين الممر الذي يربط تل أبيب بالقدس .
- والاستيلاء على موانئ فلسطين الرئيسية لتأمين استقبال المهاجرين والأسلحة والذخائر .

- وكذلك تأمين منطقة الجليل في مواجهة القوات السورية والعراقية .
- وأيضاً تهديد أمن العرب المقيمين ودفعهم إلى الفرار خارج فلسطين بأسلوب المذابح الجماعية .

أساليب القتال في هذه الفترة :

اتبعت القوات العربية وكذلك الإسرائيلية أسلوب الإنجازات بأعداد محدودة على أهداف صغيرة الحجم يكون الغاية منها تدمير بناية أو قفل طريق أو نصب كمين ، وكان ذلك في المرحلة الأولى من هذه الفترة والتي استطاع فيها العرب السيطرة على أغلب خطوط المواصلات ونجحوا في عزل الحى اليهودى في القدس القديمة والجديدة .

قامت إسرائيل خلال المرحلة الأولى من هذه الفترة بحماية المستعمرات النائية وتأمين طرق المواصلات .

ثم تطورت الأعمال القتالية قبل نهاية المرحلة الأولى وخلال المرحلة الثانية فانتخدت طابع العمليات القتالية في صورة معارك مثل معارك باب الوادى ومعارك الاستيلاء على موانئ فلسطين الرئيسية التي قامت بها القوات الإسرائيلية.

واستخدم الجانب الإسرائيلي أسلوب الإرهاب لحمل العرب على ترك الأراضي التي ترغب إسرائيل في إخضاعها لسيطرتها فشنت الغارات الإرهابية حيث نفذت عدة مذابح دموية حققت الغرض منها وأجبرت كثيراً من الأهالي على ترك قراهم والمهجرة منها مثل مذبحة دير ياسين ، ومذبحة ناصر الدين ومذبحة عيلوط .

هذا وقد تمكنت إسرائيل في نهاية فترة الحرب غير المعلنة من السيطرة على أراضى جديدة انتزعتها من أيدي العرب مما أدى إلى تدخل اللول العربية تدخلا إيجابياً وأرسلت تلك اللول جيوشها لوقف المد الصهيوني في فلسطين .

تحليل نتيجة حرب ١٩٤٨ :

تعتبر حرب ١٩٤٨ أطول جولات الصراع العربى الإسرائيلى من حيث مدتها الزمنية وقد مرت هذه الحرب بفترتين : فترة الحرب غير المعلنة ، وفترة الحرب المعلنة .

فترة الحرب غير المعلنة :

تمتع العرب فيها بمزايا مبادئ الحرب كلها وبالأخص المبادأة وهى من أهم تلك المبادئ وقد استمرت هذه الفترة نحو ١٢٢ يوماً .

ثم أخذ أسلوب القتال شكل حجم الاشتباكات الصغيرة ثم اتسع حتى استعمل في مداه وغاياته خلال المراحل الأخيرة من الحرب وتراوح الاشتباك بين (الإغارة) المحلودة المهدف القليلة الأثر الصغيرة الحجم التي كان غاية مداها تدمير بناية أو قفل طريق أو نصب كمين إلى (المعركة) التي جنى منها هذا الطرف أو ذاك ثمرة تكتيكية في الميدان فأحرز نصراً لنفسه أو أوقع هزيمة لها وزنها وقيمتها في صفوف خصمه (إلى العملية الحربية) التي ترتبة عليها ميزة تعبوية أو استراتيجية لمن فاز بها .

فترة الحرب المعلنة :

تمتع العرب فيها بالمبادأة لمدة ٢٧ يوماً تمكنوا خلالها من شن ١٩ معركة ما بين هجوم أو إحباط أو هجوم مضاد وإن تمت جميعها بلا تنسيق أو تعاون استراتيجي بين جبهات الجيوش العربية المختلفة أو حتى تعبوا في الجبهة الواحدة .

ولإجهاض الهجمات العربية خلال تلك الفترة تدخلت الدول الاستعمارية لغرض هدنة بين الأطراف وبالفعل حدثت الهدنة الأولى وعلى الفور تحولت المبادأة عن العرب وانتقلت إلى الخصم واستمرت معه حتى نهاية الجولة وبالتالي استغلها الخصم في شن ٢٤ معركة وعملية حربية على امتداد ٥١ يوماً من القتال النشط فصلت بينهما أربع هدنات فرضها مجلس الأمن بالتعاون مع الاستعمار والقوى المساندة للصهاينة وبلغت مدتها ٢٢٤ يوماً كانت كل هدنة منها طويلة بالقدر الذي يرقى بها إلى مصاف الوقفات الاستراتيجية . . ونتيجة لطول مدد هذه الهدنات وما حدث خلال كل منها من تغير جذري في موقف العدو وبالمسرح من ناحية التسليح والعدد والحشد صارت « وقفات استراتيجية » بكل ما حملته هذه الكلمة من معنى :

أما عن مدد القتال النشط خلال فترة الحرب المعلنة فقد اختلفت كثافة الأعمال الحربية مما جعل طولها أو قصرها ليس هو المؤثر الصحيح لمقدار حدثها فقد شن العرب بجيوشهم النظامية ١٩ معركة على امتداد ٢٧ يوماً هي كل مرحلة القتال الأولى وشنّت إسرائيل ٢٤ معركة وعملية حربية على امتداد ٥١ يوماً هي كل مدة القتال النشط في المراحل التالية :

وفيما يتعلق بحجم الإنجاز نجد أن العرب قد حرروا ألف كيلو متر مربع من أرض فلسطين سقطت خلال المرحلة الأولى على حين اغتصبت إسرائيل عشرة آلاف كيلو متر مربع في المرحلة الرابعة فكان حجم إنجازها يزيد عن العرب خمس مرات^(١) .

وقد أثبتت المعارك التي دارت بين العرب واليهود في هذه الجولة « اتباع إسرائيل لنظرية قتال وأسلوب عمل مستمد من خبرة طويلة لمعظم جنودها في مسارح الحرب العالمية الثانية » .

فترة الهدنة الأولى (١١ يونيو - ٧ يوليو) :

فرضت هذه الهدنة لصالح إسرائيل ليمكنها أن تعيد تنظيم قواتها وتلتقط أنفاسها ، وصرحت لجنة الهدنة لها بتحريك قوات الإمداد إلى المستعمرات الجنوبية - وتمكنت خلال تلك الفترة من الحصول على قدر كبير من الأسلحة والعتاد حيث إنهالت عليها المساعدات من دول أوروبا ومن أمريكا ، وقامت بتقوية دفاعاتها في مواجهة الجيوش العربية وتحسين أوضاعها حيث خرقت الهدنة أكثر من مرة لاسترداد بعض المواقع الحيوية .

بينما كانت القوات العربية في كافة الاتجاهات جامدة في أماكنها تحترم قرار وقف إطلاق النار وتطبيقه بمنتهى الدقة والأمانة . للرجة أن كافة الدول العربية لم تعزز قواتها المشتركة في القتال - فيما عدا مصر التي أرسلت بعض الوحدات الخفيفة لدعم دفاعاتها .

(١) الحرب في أرض السلام ص ٨١ .

المرحلة الثانية من العمليات ٨ يوليو إلى ١٨ يوليو :

تمكنت القوات الإسرائيلية من اختطاف المبادأة من العرب بعد أن أفادت من المدة أفضل فائدة فما أن انتهت أيام المدة حتى بادرت بالقتال في أكثر من اتجاه فتمكنت من استرداد اللد والرملة وانسحبت القوات الأردنية من المناطق التي احتلتها فسمحت بذلك للإسرائيليين من الوصول إلى المستعمرات اليهودية وكشف جناح القوات المصرية من الشرق وتمكنت من الضغط عليها من اتجاه الشمال في نفس الوقت حتى أصبح موقف القوات المصرية حرجاً إلى حد كبير .

قرار المدة الثانية ١٨ يوليو :

صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وفرض المدة الثانية يوم ١٨ يوليو ١٩٤٨ إلا أن اليهود لم يعبأوا بهذا القرار واستمرت القوات الإسرائيلية في استغلال النجاح واستطاعت أن تركز هجماتها في القطاع الجنوبي الذي تسيطر عليه القوات المصرية - ولم يكن هناك أي تهديد يواجه إسرائيل من الاتجاهات الأخرى - وقام الإسرائيليون بمهاجمة الخط الدفاعي المصري عدة مرات ولم ينجحوا في اختراقه إلا أنهم استطاعوا قطع طريق الفالوجا - المحجل وطريق غزة - رفع واستعادة العسلوج ويبر سبع وبذلك أصبحت القوات المصرية محصورة في تلك المنطقة عندما صدر قرار آخر من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

المرحلة الأخيرة من العمليات ٢٢ أكتوبر - ٨ يناير ١٩٤٩ :

كانت إسرائيل في موقف القوة ولم يكن أمامها سوى القوات المصرية واستمر القتال بين الجانبين وتمكنت مصر خلال تلك الفترة من سحب قواتها على الخط الساحلي فيما عدا قوات الفالوجا التي بقيت تحت الحصار ولم تنسلم حتى تم إعادتها بعد ذلك بالجهود السياسية و صدر قرار من مجلس الأمن بهدنة رابعة اعتباراً من ٨ يناير ١٩٤٩ .

فترة الحرب المعلنة :

١ - المرحلة الأولى من العمليات (١٥ مايو إلى ١٠ يونيو) :

بدأت العمليات القتالية بين القوات العربية وإسرائيل بعد أن رفعت بريطانيا يدها عن فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨ فقامت الجيوش العربية اعتباراً من ١٥ مايو بالتقدم داخل فلسطين كل في اتجاه هدف هجومه .

وحققت هذه القوات تفوقاً واضحاً فقد تمكنت القوات المصرية من دخول غزة واحتلال دير سنيد ، المحجل ، وأسلود بينما تمكنت القوة الخفيفة المصرية (المتطوعون) من الوصول إلى بيت لحم وحققت الاتصال بالقوات الأردنية عند الخليل يوم ٢٩ مايو .

كما تمكنت القوات الأردنية خلال الأسبوع الأول من الاستيلاء على اللد والرملة ووصلت إلى مسافة ٦ أميال من تل أبيب قبل نهاية مايو وأصبحت بذلك المستعمرات اليهودية في التقب معزولة عن باقي الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل .

أما القوات العراقية فقد وصلت إلى طولكرم بينما وصلت القوات السورية إلى الناصرة .

ويمكن القول أن القوات الإسرائيلية أصبحت محصورة في الشريط الساحلي الممتد من عكا شمالاً حتى أسدود جنوباً مما دفع الدول الاستعمارية إلى التدخل بغرض عقد هدنة بين الجانبين اعتباراً من ١١ يونيو ١٩٤٨ .

أما العرب فلم تكن لهم نظرية قتال متفق عليها ولا أسلوب عمل موحد يلائم خصائص القتال في المسرح أو الأحوال السائدة فيه كما لم يكن لهم هدف واضح^(١) .

وقد ترتب على ذلك أن اتصفت الأنشطة الحربية الإسرائيلية في هذه الجولة بالعمل التعرضي المتراكم الذي يخدم أوله آخره والمناورة الواسعة بالالتفاف والتطويق البعيد المدى والتسلل إلى مؤخرة وأجناب العدو وقد ساعد إسرائيل على ذلك اتفاقها العمل من خطوط داخلية إزاء صمود العرب أغلب الوقت . . وضعف التنسيق والتعاون الصادق بين جبهاتهم حتى جاز على حلفهم أن يقال في شأنه كلمة الماريشال فوشى : « لقد قل إعجابي بانتصارات نابليون عندما علمت أن أعداءه كانوا يحاربون في حلف »^(٢) .

اتصفت جولة ١٩٤٨ وظهرت بصورة فريدة في نوعها من حيث جهل العرب بإمكانات قدرات خطط وأهداف علومهم ومن حيث ضعف وقلة ما أعلنوه من قوات وأسلحة وذخائر لهذا الصراع المصيري ومن حيث إهمال تهيئة المناخ الدولي وإقناع الرأي العام العالمي بعدالة قضيتهم . ثم زاد الأمر سوءاً انجاح إسرائيل في حشد القوى والوسائل وفي حجب الحقائق وفي إدارة الصراع بالشكل الذي يستثمر مكاسب قوتها ويحيد إن لم يشل مكاسب قوة العرب .

ولم تتمكن الدول العربية عن طريق دفع جيوشها لفلسطين من استعادتها ومنع قيام الدولة الصهيونية في فلسطين والتي قامت بالفعل وأعلنت في ١٠ مايو ١٩٤٨ واعترف بها كثير من دول العالم وعلى رأسهم أمريكا والاتحاد السوفيتي وإنجلترا وفرنسا .

واستطاعت إسرائيل أن تضع نواة دولتها الكبرى في هذه الحرب وأن تقف على أول الطريق لتحقيق « دولة إسرائيل » من النيل إلى الفرات .

الدروس المستفادة من حرب ١٩٤٨ :

أهمية الاستعداد للقتال :

لم تكن الجيوش العربية على درجة من الاستعداد القتالي بحيث يمكنها أن تخوض الحرب مع إسرائيل لا من جهة التسليح والتدريب أو من جهة الاستكمال الإداري هذا بالرغم من التفوق الملموس الذي أمكن تحقيقه في المرحلة الأولى من القتال والذي يعزى إلى أسباب أخرى إلا أنه ثبت باستمرار القتال الأثر السيء لهذا العامل على القوات العربية بحيث جعلها تنسحب من المعركة الواحدة تلو الأخرى .

أهمية العمل الهجوى :

وقد اتضح كيف تمكنت إسرائيل في الاستعداد لخوض الحرب يؤكد ذلك أنها جلبت الأفراد والعتاد والسلاح من كافة بلاد العالم في ظروف صعبة خلال فترة الانتداب من تعبئة معظم مواردها بينما كان الأمر أكثر سهولة

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) صفحات مطوية عن فلسطين .

ويسراً بالنسبة للعرب بالإضافة إلى ضخامة إمكانياتهم العددية والاقتصادية ومع ذلك لم يحسن العرب استغلال هذه الظروف ودفعوا من رجالهم إلى الحرب ما لا يزيد عن ١٠٥ ٪ من تعدادهم ولم تحظ العمليات الحربية في فلسطين باهتمام الدول العربية بالقدر الذي يحقق لها النجاح .

أهمية التعاون وتوحيد القيادة :

ما من شك في أن القوات العربية التي اشتركت في الحرب لم تكن على قلب رجل واحد كما لم يكن هناك أي درجة من التنسيق يكفل لها النجاح بينما نجد على الجانب الآخر جيشاً موحداً بقيادة واحدة وليس أدل على ذلك من أن القوات الأردنية اتخذت موقف الدفاع اعتباراً من ٧/١٤ وكشفت جناح القوات المصرية من الشرق وتركت لإسرائيل تعمل في حرية تامة في مواجهة المصريين .

أهمية وضوح الهدف والاقتناع به :

لقد كان للفرقة التي تميزت بها الحكومات العربية في ذلك الوقت أثر كبير على نتيجة القتال فلم تتمكن الدول العربية من تحديد الهدف الحقيقي للقتال في فلسطين أو تسليم جيوشها لقيادة موحدة ولم يكن الدفاع لإرسال هذا الجيش سوى تنفيذ التزام أصبح لا يمكن الهروب منه ولذلك خرجت هذه الجيوش دون شعور وطني بمسئولية القتال فكانت أشبه بعمل شكلي لا يدعمه سوى روح المقاتلين ومشاعرهم الفردية ، ومع ذلك فإن قتال هذه القوات في أرض خارج حدود أوطانهم - بالرغم من أنها أرض عربية - إلا أنه يختلف بالضرورة عن مشاعر اليهود الذين اتخذوا هذه الأرض وطناً لهم وعملت الدعاية الصهيونية طوال أعوام مضت على إقناعهم بأنها أرض الميعاد المقدسة التي وهبها لهم الرب :

أهمية المحافظة على الغرض :

لقد جعل التدخل السيامي المستمر هذه الحملة تسير دون غرض استراتيجي محدد فالحكومة المصرية لم تبين لرئاسة هيئة أركان حرب الجيش في أي وقت من الأوقات الغرض بوضوح هذه الحملة .

مبدأ الحشد في حرب فلسطين :

لقد بدأ الحشد بعد أن دخل الجيش حدود فلسطين واشتبك مع العدو وهذا يعكس ما هو مفروض .

مبدأ خطة الحركة :

نتج عن قصر المدة التي جرى فيها التجهيز أن دخلت القوات المعركة دون أن تكون لديها وسائل الحملة الميكانيكية أو وحدات الاستطلاع والوحدات المدرعة الأخرى وقد ظل هذا النقص ملموساً من أول العمليات حتى انتهائها ونتج عن ذلك أن عجزت القوات عن تطبيق مبدأ خفة الحركة خصوصاً في المراحل الأخيرة من العمليات وبالتالي فقدت ميزة المبادرة التي أمسك العدو بزمامها .

مبدأ الأمن :

فرضت السياسة على قائد القوات بفلسطين التقدم السريع في أول الحملة إلى غزة ثم إلى المجدل وأسدود وإلى الخليل وبيت لحم ثم احتلال خط من المجدل إلى الخليل فاضطر تنفيذاً لذلك إلى ترك عدد كبير من مستعمرات العدو ومواقم القوة خلف خطوط المواصلات مما شكل تهديداً دائماً لهذه الخطوط .

مبدأ الاقتصاد في القوة :

اضطرت سياسة قائد القوات إلى احتلال مناطق واسعة بقوات صغيرة ذات دفاعات رقيقة متباعدة غير متأسكة ولم يتمكن في أي وقت من تجميع أي قوة لازمة لأي عملية لاستخدامها كاحتياطي لإيقاف هجمات العدو وتهديده لخطوط مواصلاتها :

مبدأ العمل الهجوى التعرضى :

تمكنت قواتنا من تطبيق هذا المبدأ في الأيام الأولى من العمليات فقط ، ولكن تغير الحال بمجرد أن أرغمت المطالب السياسية قواتنا على احتلال أراضى واسعة والدفاع عنها فارتبطت القوات بالأرض واضطرت للدفاع عن مناطق كبيرة متباعدة وانتقلت ميزة المبادأة بالعمليات إلى العدو .

مبدأ المفاجأة :

جاء قرار الحكومة بالتدخل عسكرياً في فلسطين في آخر لحظة قبل بدء التدخل فعلاً وبذلك كانت المفاجأة لرئاسة الجيش وليست للعدو . والعمل الوحيد الذى طبق فيه هذا المبدأ وكان مفاجأة تامة للعدو هو زحف القوة الحقيقية نحو بير سبع وإلى الخليل وبيت لحم في المراحل الأولى من العمليات أما ما عدا ذلك فقد كانت معلومات العدو عن قواتنا تكاد تكون تامة في حين أننا كنا نجهل نواياه تماماً في معظم الأحوال .

مبدأ التعاون :

تمكنت قواتنا إلى حد ما من تطبيق هذا المبدأ بين أسلحتنا البرية والجوية والبحرية في أغلب العمليات التى اشتركت فيها وقد يرجع السبب في ذلك إلى أنه المبدأ الوحيد الذى لا يتأثر في داخلية الجيش بالعوامل السياسية .

الشئون الإدارية :

وعندما بدأت حملة فلسطين في ١٥ مايو من عام ١٩٤٨ لم يكن الجيش مستكلاً للشئون الإدارية .

الروح المعنوية :

لقد دخلت القوات المصرية فلسطين وكانت الظروف تمشى مع وجود روح معنوية قوية الأمر الذى كان يعوض إلى حد ما النقص في النواحي الأخرى .

التدريب :

لقد دخل جيش مصر العمليات الحربية بفلسطين عام ١٩٤٨ بدون التدريب الذى يجب أن يكون عليه .

الأسلحة :

لوحظ النقص الشديد في الأسلحة المضادة للدبابات وكذلك أثبتت العمليات الاحتياج الشديد للدفعات الميدان وكذلك لوحظ أنه يجب أن نهتم بالأسلحة الصغيرة والماونات والألغام .

الفصل الثالث

الجمولة العربية الإسرائيلية الثانية (*)

خريف (١٩٥٦)

لم يكن العلوان الثلاى عام ١٩٥٦ حدثاً مفاجئاً وإنما جاء نتيجة لظروف وملابسات أدت مجتمعة إلى إثارة دول العلوان ضد مصر، بدأت تلك الأحداث بثورة يوليو عام ١٩٥٢، وتطورت حتى وصلت إلى تأميم قناة السويس واتجاه مصر بكل ثقلها نحو الكتلة الشرقية، وهذه الأحداث الهامة تتطلب منا شيئاً من التفصيل :

ثورة يوليو ١٩٥٢ :

قام الضباط الأحرار بالثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بهدف تحرير الإرادة المصرية من سيطرة الاستعمار وأدواته في مصر وهما الإقطاع ورأس المال . ووضعت برنامجاً لإصلاح الدولة بأقامة عدالة إجتماعية وحياة ديمقراطية سليمة وإعداد جيش وطنى قوى .

فتم تغيير نظام الحكم الملكى إلى جمهورى ، وتم توقيع معاهدة الجلاء مع إنجلترا في يونيو ١٩٥٤ وبذلك رحلت القوات البريطانية عن مصر بعد احتلال دام سبعين سنة ، كما قامت حكومة الثورة بالقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم وخطت خطوات واسعة في سبيل تحقيق باقى أهداف الثورة وإصلاح المسار الاقتصادى للبلاد ، وانتهجت مصر سياسة معادية للول الاستعمارية ووقفت إلى جانب الول النامية في سبيل التخلص من الاستعمار والحصول على الاستقلال ، الأمر الذى عرضها لمواجهة مع الول الكبرى والدخول في صراعات عنيفة معها . من هذه المواقف تأييد مصر لثورة الجزائر وتقديم المساعدات لها الأمر الذى أزعج فرنسا وأثارها ضد مصر .

توتر الموقف بين مصر وإسرائيل :

لم تكف مصر - بعد إعلان الهدنة في يناير ١٩٤٩ بين إسرائيل والول العربية - عن المطالبة بالحق العربى في فلسطين ، وقد تطور الموقف بعد الثورة حيث أغلقت مصر طريق الملاحة في وجه إسرائيل في قناة السويس وخليج العقبة ، كما عملت على تشجيع الهجمات الفدائية عليها عبر الحدود مما ساعد على زيادة حدة التوتر بينها وبين إسرائيل .

اتجاه مصر إلى الكتلة الشرقية :

عملت حكومة الثورة على تقوية الجيش ، وتزويده بالأسلحة الحديثة إلا أن هذا الأمر تعارض مع مصالح الول الغربية في تحديد قدرات مصر العسكرية في مواجهة إسرائيل ، مما دفع حكومة الثورة إلى الاتجاه للكتلة الشرقية

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية - المرجع العسكرى - المستوى الأول .

الحصول على الأسلحة فقدت صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ . . كما اعترفت مصر بالصين الشعبية في مايو سنة ١٩٥٥ وزادت بذلك الفجوة بينها وبين العالم الغربي .

تأميم قناة السويس :

قامت مصر بالعمل على إعداد مشروع السد العالي بغرض الحصول على الطاقة واستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي الصحراوية والاستفادة بمياه النيل التي تضيع هباء في البحر المتوسط في موسم الفيضان - ولما لجأت مصر إلى البنك الدولي لتمويل المشروع وافق في بداية الأمر ثم تعرض لضغوط مختلفة من الدول الاستعمارية خاصة أمريكا فامتنع عن تقديم المساعدات المالية لتنفيذ المشروع مما دفع إلى اتخاذ قرار بتأميم شركة قناة السويس .

ويعتبر قرار تأميم قناة السويس هو الضربة الفاصلة التي طاش لها صواب الدول الاستعمارية (خاصة إنجلترا وفرنسا) مما دفع هاتين الدولتين إلى الاتفاق على مواجهة مصر عسكرياً .

المسئول من العدوان الثلاثي على مصر :

اجتمعت كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على تحطيم الإرادة المصرية : فبريطانيا تهدف من ذلك إلى استعادة هيبتها في الوطن العربي ، وفرنسا تسعى إلى الانتقام من مصر لمساندتها ثورة الجزائر ولكرامتها التي أهدرت بقرار تأميم قناة السويس ، وإسرائيل ترى في ذلك فرصة تحقق لها نصراً رخيصاً لا تتحمل فيه أي عبء ، وفرصة تمكنها من الانتقام لمهجومات الفدائيين ، وإجبار مصر على الاعتراف بها فيتحقق لها الأمن مع كافة الدول العربية ، وتتمتع بحرية الملاحة في البحر الأحمر .

ويمكن إجمال هدف العدوان في نقاط ثلاث :

- ١ - تدمير القوات المسلحة المصرية بعد استدراجها داخل سيناء .
- ٢ - احتلال مصر وهي بدون جيش ، أو تغيير نظام الحكم فيها وإجبارها على التمشي مع السياسة الاستعمارية والكف عن مساعدة الدول النامية :
- ٣ - إرغام مصر على التصالح مع إسرائيل وعدم التعرض لمصالحها الملاحية في خليج العقبة .

أرض المعركة :

في سيناء :

تقع الحدود بين مصر وإسرائيل في الطرف الشرقي لسيناء بين خليج العقبة وساحل البحر المتوسط وتمتد بمواجهة ١٧٠ كيلو متراً وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) السهل الساحلي :

يمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط وهو لا يصلح في معظم أجزائه لعمليات الإنزال نظراً لوجود سبخات كثيرة ولا توجد عليه موانئ : وتعتبر المنطقة بصفة عامة كثباناً رملية لا تصلح للتحركات إلا على الطريق الساحلي الذي يمتد بين القنطرة - وغزة .

(ب) المنطقة الوسطى :

تلى الكتبان الرملية . وهي هضبة جيرية تحتوى على كثير من الهياث المرتفعة التى تعرف التحركات وتتصل من الجنوب بسلسلة المرتفعات الجنوبية ويخترق هذه المنطقة طريق الإسماعيلية - العوجة .

(ج) المنطقة الجنوبية :

وهي منطقة جبلية وعرة تبلغ أقصى ارتفاعها فى الجنوب (جبل كاترين) وتدرج فى الانخفاض نحو الشمال وتتصل السلسلة الجبلية من جانبها الغربى بمرتفعات المنطقة الوسطى وتسمى بالحائط الغربى لسيناء . ولا يمكن اختراق هذا الحائط إلا من خلال ممرات محدودة أهمها ممر : الجدى ومتلا ، والأرض شرق الممرات صالحة لتحرك جميع أنواع الحملات :

منطقة قناة السويس :

تقع بور سعيد عند رأس القناة على شاطئ البحر المتوسط وتمتد القناة إلى الإسماعيلية حيث بحيرة النمساح ثم تصل إلى البحيرات المرة وتلتى بخليج السويس عند السويس والمنطقة الشمالية للقناة تتميز بأنها شريط ضعيف من الأرض ينحصر بين القناة وبين بحيرة المنزلة غرباً ثم الأراضى الزراعية الحافلة بالترع والمصارف حتى شمال الإسماعيلية .

أما شرق القناة فان الطريق يكاد يعدم فى القطاع الشمالى من الضفة الشرقية نظراً لوجود سهل الطينة الملاصق للقناة فى هذه المنطقة .

حجم وأوضاع الجانبين :

ليس هناك وجه للمقارنة بين حجم الجانبين المتصارعين فى هذه الجولة ، فصر كانت تواجه ثلاث دول ، وبالرغم من أن النزاع ظهر فى بدايته أنه بين مصر وإسرائيل - الأمر الذى اتفق عليه أثناء التخطيط للعملية - إلا أن ظروف لقتال سرعان ما أبرزت جانب كل دولة من الدول المعتدية .

وعلى الرغم من ذلك تمكنت إسرائيل وحدها فى هذه المعركة من حشد قوات تفوق الجانب المصرى عدداً نوعاً - هذا بالإضافة إلى أن إنجلترا وفرنسا تكفلتا بحماية سواحلها وسماها حتى قبل التدخل الفعلى فى القتال، ومع لك ترددت إسرائيل كثيراً فى قبول هذا الدور وصممت على عدم دفع قواتها الرئيسية إلا بعد أن نطمئن لتدخل بلترا وفرنسا فى المعركة^(١) ويوضح الجدول التالى مقارنة بين القوات المصرية وقوات الغزو الثلاثية :

(١) يتضح ذلك من أقوال موسى ديان نفسه فى كتاب يوميات معركة سيناء ص (١١٣ ، ١١٤) .

القوات المصرية	القوات الإسرائيلية	القوات البريطانية	القوات الفرنسية
القوات البرية	١٢ لواء + ٣٠٠ دبابة	٢١ لواء + ٢٥٠ دبابة	١٢ لواء + ٤٠٠ دبابة
٧٧٦ مدفع وهاون	٩٩٠ مدفع وهاون	٣٠٠ مدفع وهاون	٢٢٠ مدفع وهاون
القوات الجوية	١٤ سراب	٢٧٥ طائرة من مختلف الأنواع	٢٩ سراب
القوات البحرية	٧٣ قطعة بحرية	٥٥ قطعة بحرية	٦٥ قطعة بحرية
			٢٦ قطعة بحرية بالإضافة لعدد كبير من قوارب الإنزال

مخطط الجانبين :

أسلوب الدفاع عن مصر :

بالرغم من أن إنجلترا وفرنسا قد أخفيا أمر اشتراكهما في أعمال قتالية ضد مصر إلا أن القيادة السياسية كانت تضع ذلك في اعتبارها خاصة بعد أن قامت بتأمين قناة السويس - ولذلك تم توزيع القوات المصرية للدفاع في اتجاهين .

الاتجاه الأول :

ضد احتمالات تدخل دول الغرب ، والذي كان متوقفاً له ساحل البحر المتوسط وقناة السويس .

الاتجاه الثاني :

شبه جزيرة سيناء حيث منطقة الحدود مع إسرائيل ولهذا تم سحب معظم القوات المدرعة من سيناء لتكون مستعدة لمواجهة الاحتمالات المختلفة حسب خطة الدفاع عن الاتجاه الأول .

خطة العدوان السلافي :

الفكرة العامة للعمليات :

بدأ التفكير في ضرب مصر منذ بداية عام ١٩٥٦ وقد وضعت الخطة لذلك دون إشراك إسرائيل فيها ، وتم تطوير هذه الخطة تباعاً حتى نشأت فكرة إشراك إسرائيل بتنفيذ عدوان محدود في منطقة قريبة من قناة السويس بحيث يمكن اعتباره تهديداً للملاحة في قناة السويس مما يستلزم تدخل إنجلترا وفرنسا بحجة حماية القناة باعتبارها ممراً مائياً دولياً وإذ لم تقبل مصر ذلك سلمياً فإنه يتم التدخل عسكرياً بإزالة القوات المشتركة في بور سعيد واحتلال قناة السويس .

مراحل تنفيذ العدوان :

- ١ - تقوم إسرائيل بتنفيذ عدوان محدود قرب قناة السويس باسقاط عناصر من المظلات ويتم عقب ذلك تقديم الإنذار الأنجلو فرنسى إلى مصر .
- ٢ - تندفع القوات الإسرائيلية إلى سيناء وتستلج القوات المصرية الرئيسية إلى مناطق قتال يمكن فيها تدميرها بمعاونة القوات البلغوية الإنجليزية والفرنسية وذلك خلال الأيام الثلاثة التالية .
- ٣ - تقوم القوات الجوية الأنجلو فرنسية بتنفيذ ضربة جوية شاملة يتم خلالها تحريك قوات الغزو وإنزالها في بور سعيد واحتلال المدينة .
- ٤ - تنطلق القوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة جنوباً وتسيطر على قناة السويس حيث يمكن بعد ذلك إخضاع حكومة مصر وإجبارها على إتباع السياسة الملائمة لصالح الدول الغربية .

سير الأعمال القتالية :

المرحلة الأولى :

بدء القتال في سيناء :

بدأت إسرائيل تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة قبل آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ باسقاط كتيبة مظلات في منطقة سدر الحيطان شرق ممر متلا ، وقبل فجر يوم ١٠/٣٠ بدأت طلائع القوات الإسرائيلية في التقدم عبر الحدود في القطاع الأوسط والجنوبى من سيناء .

وقد أبلغت عناصر الاستطلاع في سيناء عن هذه الأعمال العدوانية ولذلك تحركت الاحتياطات المصرية - التى كانت تتمركز في منطقة القتال - بعد أول ضوء يوم ١٠/٣٠ لتعبر قناة السويس حتى يمكن دعم الدفاعات المصرية في سيناء ، وحتى لا تتعطل الملاحه في القناة تأخر عبور هذه القوات إلى الليل وظلت عناصر الاستطلاع في سيناء تناوش القوات الإسرائيلية طوال هذا اليوم ، حتى أن لواء المظلات الإسرائيلى لم يتمكن من الوصول إلى الكتيبة التى تم إسقاطها إلا في آخر ضوء يوم ١٠/٣٠ - كما فشل هجوم اللواء المدرع في منطقة أبو عجيلة وتمكنت القوات المصرية في هذا القطاع من تكييده خسائر فادحة .

والملاحظ أن إسرائيل كانت تحاول تنفيذ الخطة المتفق عليها دون أن تتورط في القتال حتى تطمئن إلى تدخل إنجلترا وفرنسا بصورة فعالة .

التصدي للعدوان الإسرائيلى :

وجهت إنجلترا وفرنسا إنذاراً إلى مصر مساء يوم ١٠/٣٠ بالتدخل سلباً أو حرباً خلال ١٢ ساعة لحماية قناة السويس من خطر العدوان الإسرائيلى وكان من الطيبى أن ترفض مصر الإنذار في نفس الوقت الذى تقوم فيه بمقاومة عدوان إسرائيل ، وهكذا طمأنت إسرائيل إلى جدية التدخل الأنجلو فرنسى مما دفعها إلى تحريك قواتها الرئيسية في القطاع الشمالى من سيناء وبدأت تدعم هجماتها في باقى القطاعات .

وعلى الجانب الآخر كانت مصر ترى أن إنجلترا وفرنسا يمكنهما درء الخطر عن القناة بمنع إسرائيل من الاستمرار في العدوان وليس باحتلال قناة السويس ومهاجمة الجانب المعتدى عليه ولم يكن معروفاً بالطبع أن هناك تواطؤاً بين الأطراف الثلاثة .

وتمكنت القوات المصرية خلال ليلة ١٠/٣٠ وطوال نهار ١٠/٣١ من التصدي للهجمات الإسرائيلية في كافة الاتجاهات وكبدتها خسائر فادحة وأمكن تثبيت القوات المهاجمة أمام دفاعات أم قطف وفي ممر متلا .

المرحلة الثانية :

بدأ تنفيذ الضربة الجوية الشاملة بعد آخر ضوء يوم ١٠/٣١ ضد المطارات المصرية وانضمت النوايا السيئة بما لا يدع مجالاً للشك . وأصبح مؤكداً أن هناك اتفاقاً بين الدول الثلاث على الإيقاع بمصر ، وليس الأمر مجرد حماية الملاحة في قناة السويس ، وكان أول ما تبادر إلى ذهن القيادة المصرية هو تدارك الموقف وإنقاذ الجيش الذي تم استنراجه إلى سيناء قبل أن تطبق عليه القوات المعتدية من الشرق والغرب :

وصدرت أوامر القائد العام بسحب القوات المصرية إلى غرب القناة لدعم الدفاع في هذا القطاع بعد أن أصبح تدخل الإنجليز والفرنسيين أمراً واقعاً .

وكانت قوات النزوح قد تم إيجارها حسب الخطة المرسومة من مالطة، إلا أن إنجلترا وفرنسا رأتا ضرورة الإسراع بتنفيذ النزوح قبل أن يمنعهما من ذلك تدخل إحدى الدولتين العظميين .

سحب القوات المصرية وإخلاء سيناء :

تمكنت القوات المصرية الرئيسية من التخلص من القتال في سيناء خلال يومي ١ ، ٢ نوفمبر وتركزت عناصر محدودة الحجم تقاتل في مواجهة القوات الإسرائيلية المهاجمة . وقد أصبحت مهمتها أكثر يسراً ، وبالرغم من ذلك فإن إسرائيل لم تستأنف القتال إلا بعد أن تأكدت تماماً من خلو هذه المواقع من القوات المصرية ، وتمكنت بنهاية يوم ٣ نوفمبر من احتلال شرم الشيخ ورأس نصراني ، واختراق ممر متلا والوصول إلى شمال العريش بينما كانت سيناء خالية تماماً قبل نهاية يوم ٢ نوفمبر .

تعديل خطة الغزو واحتلال بور سعيد :

قررت إنجلترا وفرنسا البدء في التخلل عسكرياً في بور سعيد على وجه السرعة فقامت بتركيز القصف الجوي على المدينة خلال يومي ٢ ، ٣ نوفمبر بصورة عنيفة ثم قامت بإسقاط عناصر المظلات في منطقتي الجميل ، والرسوة - غرب وجنوب بور سعيد ودارت معارك رهيبية بين عناصر المقاومة الشعبية وجنود القوات المسلحة وبين القوات المعادية خلال يوم ٥ نوفمبر وأيذت موجات كاملة من المظليين .

ووصلت سفن الإنزال إلى ساحل بور سعيد صباح يوم ٦ نوفمبر وقصفت مدافعها شاطئ بور سعيد وبور فؤاد بعنف بالغ ثم قامت بانزال القوات المشتركة حيث تمكنت من احتلال بور سعيد بمهاجمتها من عدة اتجاهات، وبالرغم



سرايا

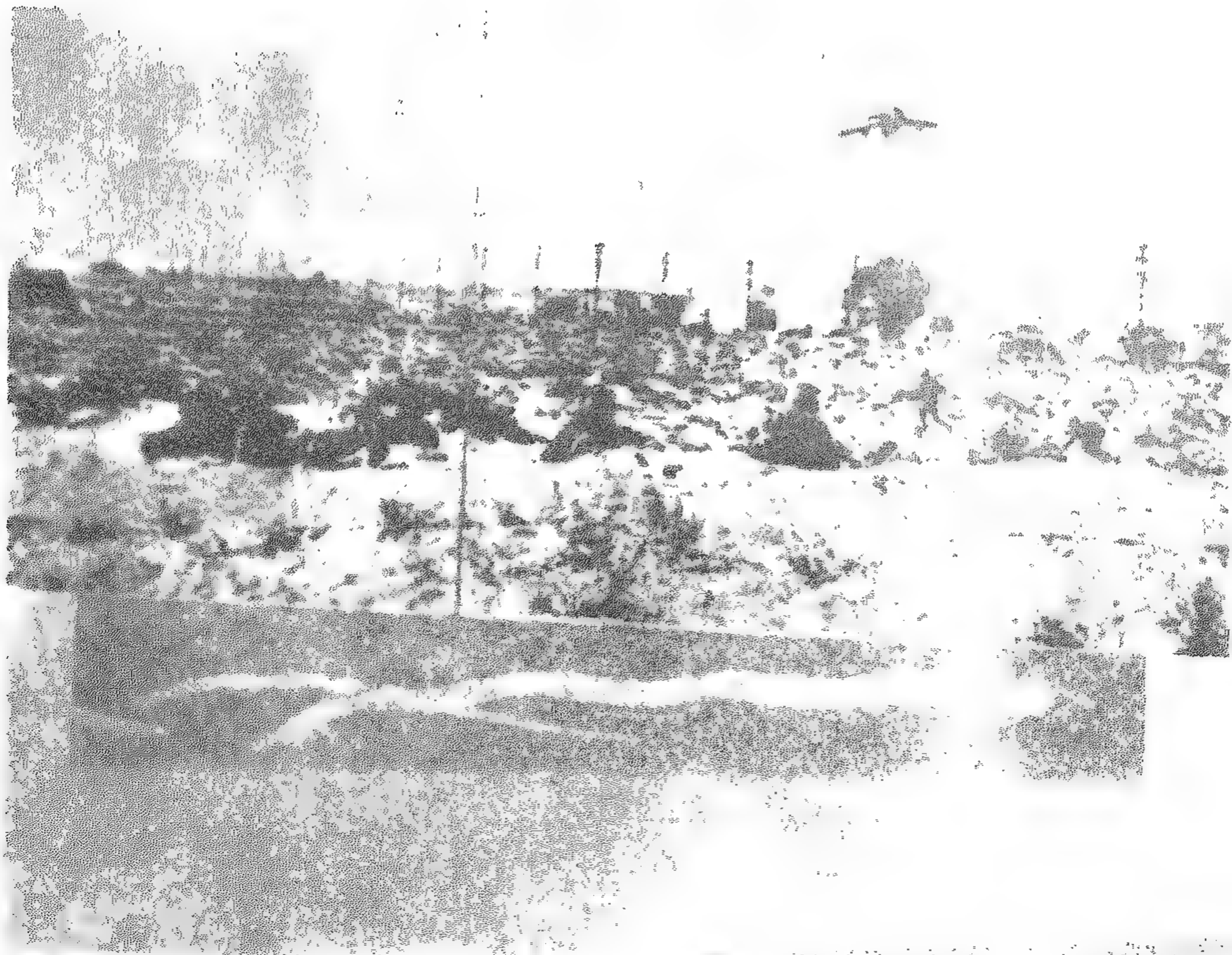
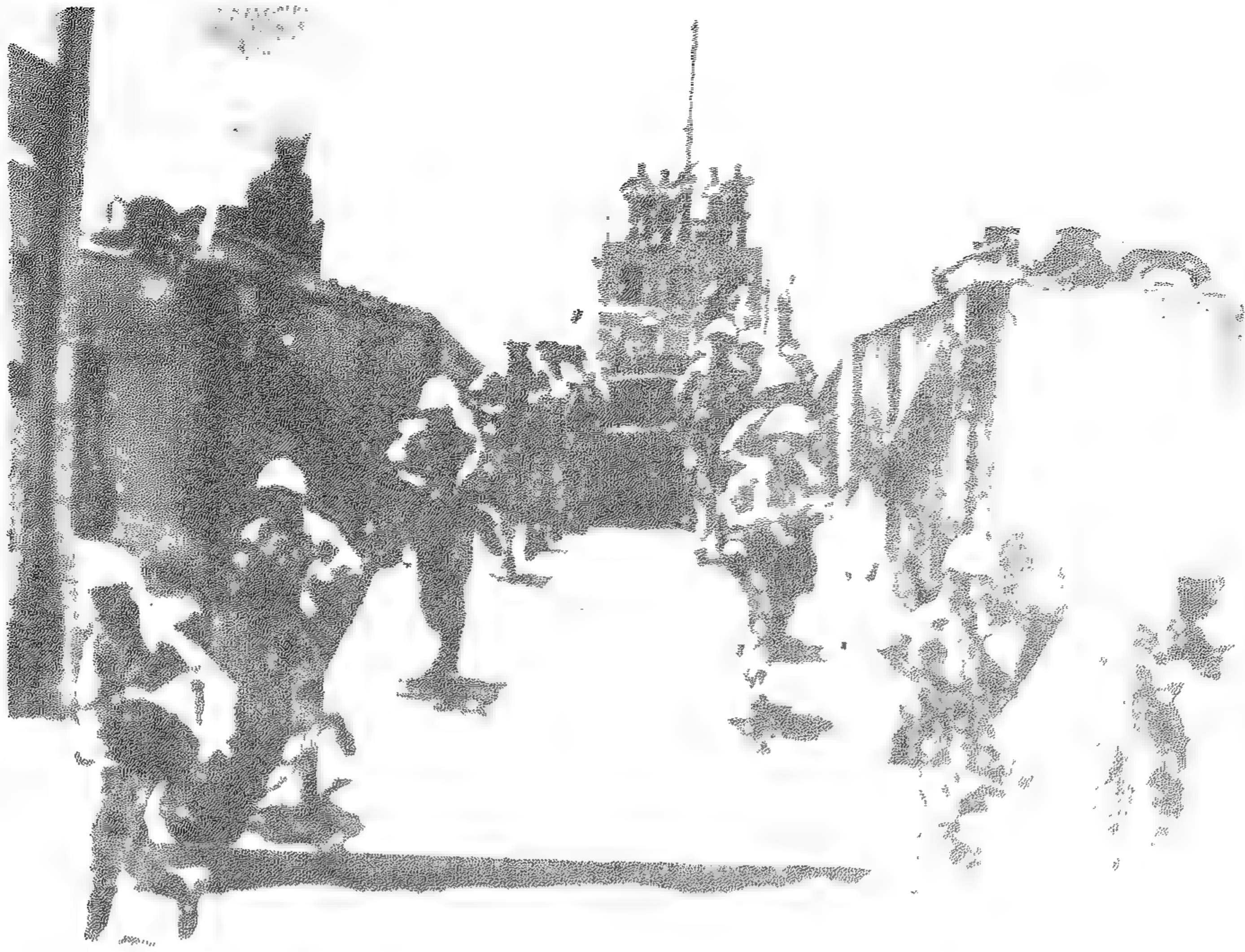
استهلت اسرائيل اعمال القتال في عام ١٩٥٦ باسقاط كتية مظلية
في (صدر الحيطان) على مشارف مصر (ممثلا)



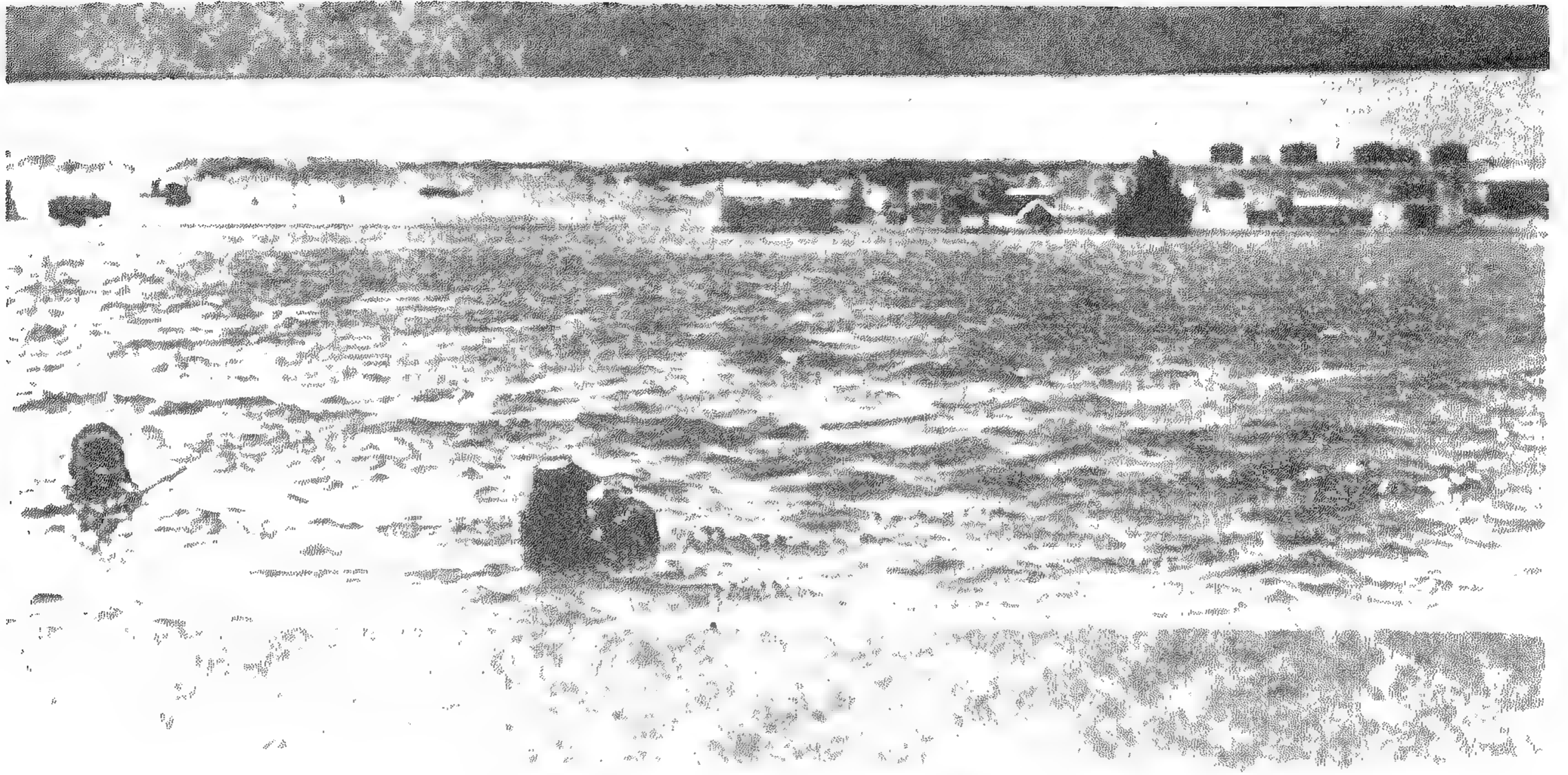
آثار القصف الجوي لدول العدوان الثلاثي
بور سعيد - ١٩٥٦



قوات الطوارئ الدولية - بور سعيد ١٩٥٧



في ١٢ يونيو ١٩٦٧ قام السلاح الجوي المصرى بمهاجمة القوات الاسرائيلية شرقى القناة



قوات الضفادع البشرية المصرية في مياه شرم الشيخ
بعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية (مايو ١٩٦٧)

من ذلك لم تكف أعمال المقاومة الشعبية عن مهاجمة القوات المعتدية وأمكن الإيقاع بكثير من ضباط وجنود الاحتلال .

المرحلة الثالثة :

أصدر مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار بين الأطراف المتحاربة وذلك في جلسته يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

وقد استجابت إسرائيل للقرار يوم ١٤ نوفمبر بعد أن حققت أهدافها وتمكنت من السيطرة على مضائق نيران ووصلت قواتها إلى غرب المضائق ، بينما استمرت إنجلترا وفرنسا في تنفيذ مخططاتها والإسراع باحتلال بور سعيد وفي مساء يوم ٥ نوفمبر وجه الاتحاد السوفيتي إنذاراً إلى الأطراف الثلاثة المشتركة في العدوان ، ومع ذلك لم تكف إنجلترا وفرنسا عن تنفيذ عملية الغزو واستجابتا لقرار وقف إطلاق النار في نهاية يوم ٦ نوفمبر بعد أن وصلت قواتها المشتركة إلى رأس العش .

لم تحقق إسرائيل أهدافها :

إذا أخذنا في اعتبارنا أهداف العدوان الثلاثي نجد أن القوات المعتدية لم تتمكن من تحقيق أهدافها ، فهي - وإن كانت قد حققت نصراً عسكرياً محدوداً - لم تتمكن من تدمير القوات المسلحة المصرية في سيناء كما لم يتم لها احتلال مصر أو تغيير النظام الحاكم فيها .

كما كان ارتداد القوات المصرية إلى غرب القناة وإتقاذ الجزء الأكبر منها يعتبر عملاً عسكرياً ناجحاً أثر على سير العملية وعلى نتيجة المعركة فقد أدى ذلك إلى تردد إنجلترا في الاشتراك إيجابياً في القتال^(١) وكان سبباً من الأسباب التي دعت إلى تغيير خطة الغزو والتعجيل بمهاجمة بور سعيد والاكتفاء بذلك دون تطوير الهجوم واحتلال قناة السويس .

وأيضاً نجد النجاح العسكري المحدود الذي حصلت عليه قوات ثلاث دول متفوقة تفوقاً ساحقاً من خصم محدود الإمكانيات لا يعتبر نصراً عسكرياً خاصة وأنه لم يتجاوز الاستيلاء على قطعة من الأرض لفترة محدودة من الزمن ثم بعدها الجلاء عنها بالجهود السياسية .

أهمية الصمود والتشبث بالدفاع :

ضربت قوة أبو عجيبة في هذه الجولة مثلاً يحتذى به في التصدي للهجمات الإسرائيلية وتمكنت من الدفاع عن المحور الأوسط بتشبيهاً بموقعها حتى بعد صدور أمر الانسحاب وكان من الممكن صد العدوان الإسرائيلي كله نتيجة لهذا الموقف لولا ما استدعته الظروف من سحب للقوات إلى غرب القناة .

(١) ورد في كتاب يوميات سيناء أن إنجلترا تراجعت عن تنفيذ مهامها في خطة الغزو . رنين يوم ١٠/٢١ ،

يوم ١١/٢ .

الهجمات والتحركات الإسرائيلية تميزت بالخطر والحرص الشديد :

يتبين من تصرفات إسرائيل بصفة عامة وفي كافة الهجمات عدم اندفاع إسرائيل إلا بعد التأكد من خلو المنطقة تماماً من عناصر المقاومة وقد اتضح هذا جلياً في الساعات الأولى عند اندفاع اللواء المظلي ، وفي معارك أبو عجيله ومتلا والختمية مما يؤكد أن صمود الدفاعات يكون له أثر فعال لإزاء تقدم القوات الإسرائيلية :

أهمية التدريب على القتال الليلي :

يعتبر الليل ستاراً لمن لا ستار له وأن الحصول على التفوق الجوي أمر يخضع لكثير من الظروف ، ولذلك كان من الضروري العمل على الاهتمام بالتدريب على القتال ليلًا ، والتحركات تحت ستار الظلام حتى يمكن تحقيق التفوق على الخصم بواسطة الطيران .

إعطاء الأولوية المطلقة لمهام العمليات :

مهما كان الموقف السياسي فإن عبور القوات لمواجهة العدوان يجب أن تكون له الأسبقية . ولقد ضاعت ساعات ثمينة عندما تأخر عبور الاحتياطي للقناة ليلة ٢٩ - ٣٠ أكتوبر كما أن ذلك كان سبباً في تعرضها للقصف الجوي في نهار يوم ٣٠ / ١٠ وكبدتها خسائر كبيرة .

مواجهة الحرب النفسية :

استطاعت القوات المصرية بمعنوياتها المرتفعة أن تغلب على أسلوب الحرب النفسية الذي اتبعته إنجلترا وفرنسا قبل المعركة بأيام وخلال القتال مما أدى إلى تميز عمليات المقاومة بالجدية والفاعلية ، وتمكنت من صد كثير من الهجمات في بورسعيد بقوات محددة وأسلحة بسيطة .

هذه الاحتمالات غير المتوقعة :

مهما كانت طبيعة الأرض صعبة في أحد الاتجاهات فلا يجب أن يكون ذلك سبباً لإغفال أهميتها . فكثيراً ما يلجأ المهاجمون للهجوم من هذه الاتجاهات ، مهما كبدهم من مشقة ليحققوا المفاجأة التي تكون ذات تأثير فعال على القوات المدافعة . وقد لجأت إسرائيل مراراً لهذا الأسلوب لأنه يتسم بالمكر ويحقق سلامة قواتها حيث تنفذ منه في العادة إلى مناطق خالية من القوات أو يتم الدفاع عنها بمجموع محدود الدفاعات .

الفصل الرابع

الجولة العربية الإسرائيلية الثالثة (*)

يونيه ١٩٦٧

الظروف السائدة قبل الحرب :

بدأت إسرائيل في أعقاب حرب ١٩٥٦ ترسم لنفسها سياسة جديدة تقوم على الاعتماد على القوة الذاتية لها ، خاصة بعدما تبين لها مدى الحاجة إلى القدرات العسكرية الأجنبية مثلما حدث في حرب العدوان الثلاثي ، فبدأت تعيد بناء قواتها المسلحة على أسس جديدة تركزت على الاهتمام بالقوات الجوية والمدركات والقوات الخاصة .

ويمكن القول أن حرب ١٩٦٧ بدأ الإعداد لها منذ عام ١٩٦١ حيث وقعت حرب اليمن التي أرادها الاستعمار استنزافاً لمصر وللأسلحة الجديدة التي جلبتها من الاتحاد السوفيتي عوضاً عما فقدته في حرب العدوان الثلاثي كما أن إسرائيل بدأت في نفس الوقت تهيج الرأي العام العالمي لتقبل قيامها بشن حرب ضد العرب فقد استغلت الشعارات العدائية التي نادى بها العرب ومؤتمرات القمة التي اجتمع فيها ملوك ورؤساء الدول العربية ، والهجمات الفدائية التي بدأت تزايد خاصة بعد تشكيل المنظمات الفلسطينية . وأبرزت نفسها بأنها الدولة المغلوبة على أمرها وأن العرب قد تكاثروا عليها حتى أنهم ليكادون يلقون بها في البحر .

وفي عام ١٩٦٦ كانت القوات المسلحة الإسرائيلية قد أصبحت على درجة من الاستعداد تكفل لها تحقيق أمانها ، فبدأت إسرائيل تحتل المنازعات وتثير الفلاقل وتشن الهجمات الانتقامية ضد الدول العربية المجاورة لها فأثارت مشكلة في العالم العربي بعزمها على تحويل مجرى نهر الأردن كما أعلنت على سوريا في نوفمبر ١٩٦٦ وقامت بعنوان آخر في ٧ ابريل سنة ١٩٦٧ ثم هددت بأنها ستقوم بضرب الفدائيين المتجمعين في سوريا .

وهكذا ظلت الأحداث تتوالى وشبح الحرب ينجم على المنطقة وأصبح الجو مهيئاً لنشوب الحرب فما أن علمت مصر بأن إسرائيل قد بدأت تحشد قواتها على حدود سوريا حتى أعلنت التعبئة العامة بحكم الإتفاقية التي وقعها عبد الناصر مع سوريا وبدأت القوات المصرية المسلحة في عبور قناة السويس استعداداً للقيام بعمليات قتالية ضد إسرائيل ، ومما زاد من تفاقم الموقف إعلان مصر طلب سحب قوات الطوارئ الدولية وإغلاق مضائق تيران الأمر الذي اعتبرته إسرائيل قراراً بالحرب فبدأت تعلن التعبئة الشاملة لمواجهة المعركة التي أصبحت مؤكدة الوقوع .

(*) وزارة الدفاع - هيئة البحوث العسكرية - المرجع العسكري : المستوى الأول .

المهدف من الحرب :

كان المهدف الرئيسى لإسرائيل هو تثبيت دعائم الدولة والتوسع الإقليمى بالحصول على قطعة جديدة من الأرض تساعد على تحقيق حلم « دولة إسرائيل الكبرى » ، إلا أن حرب ١٩٦٧ كانت فرصة ترقبها إسرائيل لتحقيق أهداف أخرى إلى جانب المهدف الرئيسى وتمثلت هذه الأهداف فى :

- ١ - توجيه ضربة عنيفة إلى الدول التى تنادى بالقومية العربية لتغيير نظام الحكم فيها .
- ٢ - إلحاق هزيمة عسكرية بالدول المجاورة لها التى تأوى الفدائيين لكى يتوفر لها جو من الهدوء والاستقرار .
- ٣ - إهمال القضية الفلسطينية وخلق مشاكل أخرى تشغل العرب عن هذه القضية ونهىء لإسرائيل الفرصة لإيجاد الحل الذى تراه من وجهة نظرها للاجئين الفلسطينيين .
- ٤ - تحقيق مكاسب اقليمية بما يوفر :
 - مساحة أكبر من الأرض لاستيعاب عدد أكثر من المهاجرين الجدد .
 - حدوداً أكثر أمناً بإعتبارها موانع طبيعية بعيدة عن عمق إسرائيل .
 - تأمين الملاحة فى خليج العقبة ، وقناة السويس .

٥ - اكتساب ثقة الجبهة الداخلية فى إسرائيل بتحقيق جزء من الأمن القومية والحصول على مزيد من الموارد الاقتصادية :

استعداد الجانبين للقتال :

القوات المصرية :

بدأت مصر التعبئة العامة فى ١٤/٥/٦٧ كرد على الحشود الاسرائيلية على حدود سوريا والتى علمت بها مصر من الاتحاد السوفيتى وقد بدأت هذه التحركات بهدف اتخاذ أوضاع الدفاع فى سيناء وبعد تمركزها أعيد توزيعها مرة أخرى عند التفكير فى القيام بعمليات هجومية على إسرائيل كما استلزم الأمر تعبئة مزيد من القوات الاحتياطية .

وعندما بدأت إسرائيل فى حشد قواتها تغير التفكير فى الهجوم وأعادت القوات المصرية تنظيم أوضاعها فى سيناء تبعاً للتحركات الاسرائيلية الأمر الذى استلزم اجراء تحركات كثيرة جداً لكل الوحدات المصرية خلال تلك الفترة فادى هذا إلى اضعاف قدراتها القتالية وتقليل درجة استعدادها لمواجهة العدو :

وكنتيجة لسرعة تعبئة القوات الاحتياطية المصرية لم تكن هذه الوحدات على درجة من الكفاءة كفاءة فى الاستعداد والتسلح حتى تتمكن من القتال بالكفاءة المطلوبة .

القوات الإسرائيلية :

من المعروف أن إسرائيل تحتفظ بقوات عاملة محدودة الحجم بينما تعتبر القوات الاحتياطية هى قوام جيش إسرائيل ، لذلك وضعت نظاماً محكماً لتعبئة هذه القوات كما تميز الشعب الاسرائيلى بالاستجابة والجدية فى التدريب

دوريا طبقا لنظام تدريب قوات الاحتياط علاوة على سرعة تلبية نداء التعبئة بمجرد صدور الإشارة بذلك ومن هنا تمكنت اسرائيل من تعبئة قواتها المسلحة في مرحلتين :

المرحلة الأولى : من ١٤ مايو حتى ٢٣ مايو

تم فيها التعبئة الجزئية بحيث تضاعف عدد اللوآات المشاة من ٧ إلى ١٤ كما تمكنت من تعبئة ٤ لوآات مدرعة .

المرحلة الثانية : من ٢٤ مايو إلى ٣١ مايو

عندما احست اسرائيل بجمجمة الحرب قامت باستكمال حشد قواتها الاحتياطية فبلغت في نهاية هذه المرحلة ٢٤ لوآ مشاة ومظلي ، و ٧ لوآات مدرعة .

والجدول التالي يوضح الفرق بين كلا الجانبين ويجب أن نضع في اعتبارنا أن القوات الاسرائيلية كانت متمخوة بدرجة كبيرة في التدريب والتسليح .

القوات المصرية		القوات الإسرائيلية
المشاة	٧ فرق + ١٢ لوآامستقلا	٢٢ لوآ
المدرعات	فرقة + ٦ لوآات مستقلة	٧ لوآات - ١٠ كتائب دبابات
القوات الجوية ^(١)	٢٦٤ طائرة مقاتلة وقاذفة	٣٩٨ طائرة مقاتلة وقاذفة
	٦٦ طائرة نقل ومواصلات	٧٧ طائرة نقل ومواصلات
	٢٢ طائرة هليكوبتر	٥٦ طائرة هليكوبتر
	٣٥٢	٥٣١
القوات البحرية ^(٢)	١٠١ قطعة بحرية	٦٣ قطعة بحرية

- (١) كان عدد الطائرات الصالحة من المقاتلات والقاذفات في القوات المصرية ١٦٤ ، وفي اسرائيل ٣٩٠ وبالنسبة للطائرات الصالحة في النقل والمواصلات كان في مصر ٦٦ طائرة وفي اسرائيل ٧٠ طائرة .
- (٢) كان عدد القطع العاطلة في القوات البحرية المصرية كبيراً

خطط وأوضاع الجانبين :

القوات المصرية :

الخطّة الدفاعية المصرية :

وضعت القيادة المصرية خطة دفاعية عن سيناء أطلق عليها اسم « الخطة قاهر » وبنيت فكرة هذه الخطة على ما يلي :

١ - تركيز الجهود للقول الرئيسى للقوات المصرية للدفاع عن سيناء بغرض التشبث بالدفاعات وإنزال أشد الخسائر بالعدو المهاجم مع تحمل بعض الخسائر فى القوات المدافعة .

٢ - قبول تلقى الضربة الأولى والتسليم للعدو بالمبادأة مع التركيز على ضرورة تخفيف آثار هذه الضربة وتقليل الخسائر المترتبة عليها ثم العمل على استعادة المبادأة والتحول للهجوم العام :

٣ - وجود عدد من الخطوط الدفاعية تحتلها بعض القوات المخصصة بكامل أسلحتها والبعض الآخر بدفع وحدات فرعية تتمركز فى المناطق الدفاعية . بحيث يمكن احتلال باقى القوة بمجرد رفع درجات الاستعداد .

٤ - تم اجراء تجارب على سرعة اتخاذ أوضاع القتال وتم تدريب القوات على واجب العمليات بناء على هذه الأوضاع الدفاعية .

إلا أنه بعد رفع درجات الاستعداد وعبور القوات المصرية قناة السويس وبدء التفكير فى تغيير خطط العمليات . . أعيد توزيع القوات أكثر من مرة مما ترتب عليه الكثير من التحركات ودخول وحدات إلى مناطق جديدة بالنسبة لها مع ضرورة البدء فى اجراء أعمال الحفر من جديد وقد بدأ القتال ومعظم الوحدات فى أماكن غير التى كانت مخصصة لها فى الخطة « قاهر » ، ولم تكن قد استعدت بعد للحرب ، كما أن بعض هذه الوحدات كانت قائمة بالتحرك فعلا إلى مناطق أخرى جديدة .

صورة للقوات المصرية عند بدء القتال :

كانت القوات المصرية يوم ٥ يونيو تتخذ أوضاعا دفاعية داخل سيناء فى خطين رئيسيين :

الخط الأول :

يمتد على طول الحدود الشرقية بين مصر وإسرائيل من الكونتيللا إلى القسيمة ، وأبو عجيلة وحتى رفح والشيخ زويد .

الخط الثانى :

يمتد إلى الغرب من الخط الأول وتمتلك الوحدات المصرية مناطق دفاعية فى نخل ، ومظلة خرم ، والحسنة ، وجبل لبنى . . كما كانت هناك قوات رمزية على الجانب الشرقى للمضائق عند متلا ، والجلدى ، والجفجافة ، ومصفق :

القوات الاسرائيلية :

خطة اسرائيل للهجوم : (ضربة هجومية صهيونية) :

هدف الخطة :

استهدفت الخطة الإسرائيلية احتلال سيناء وتدمير الجيش المصري فيها والسيطرة على منخل خليج العقبة لتأمين الملاحة الإسرائيلية في البحر الأحمر .

فكرة الخطة :

تم إعداد الخطة على أساس أن تنفذ على ثلاث مراحل متتالية هي :

• المرحلة الأولى :

يتم فيها توجيه ضربة شاملة على المطارات والقواعد المصرية ثم القيام باختراق سريع للدفاعات المصرية على الخط العام .

العريش ، بير الحفن - جبل لبنى - شرق الحسة .

• المرحلة الثانية :

تطوير الهجوم نحو الغرب والاستيلاء على خط المضائق لمنع القوات المصرية من الانسحاب غرباً أو وصول تعزيزات إليها من منطقة القناة :

• المرحلة الثالثة :

يتم فيها القضاء على القوات المصرية المحصورة في قلب سيناء بواسطة القوات البرية والجوية الاسرائيلية .

أوضاع القوات الاسرائيلية قبل بدء القتال :

قامت اسرائيل بحشد قواتها الرئيسية في القطاع الشمالى والأوسط فأعدت ثلاث مجموعات عمليات بحيث يتم هجوم المجموعة الأولى على المحور الساحلى والمجموعة الثالثة على المحور الأوسط وتكون المجموعة الثانية بين المجموعتين الأولى والثالثة :

كما وضعت اسرائيل بعض الوحدات من المشاة والمدفعات في مواجهة قطاع غزة وفي القطاع الجنوبي لتهديد القوات المصرية في هذا القطاع والاستعداد للقيام بالهجوم على محور خليج العقبة جنوباً .

وكذلك قامت اسرائيل ببعض التحركات والأعمال الخداعية بحيث اقنعت القيادة المصرية أن هجومها الرئيسى سيكون على المحور الجنوبي وقد حققت هذه الأعمال هدفها بحيث ركزت مصر دفاعاتها تبعاً لذلك على المحور الجنوبي.

سير العمليات القتالية :

• بدء القتال :

بينما كان قادة الوحدات في سيناء مجتمعين في مطار المليز ليكونوا في استقبال نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية . . بدأت اسرائيل ضربتها الجوية المركزة على المطارات المصرية بما فيها مطار المليز وتمكنت خلال هذه الضربة من تدمير معظم الطائرات المصرية وهي رابضة على الأرض ، وبذلك كفلت لقواتها البرية العمل في حرية وأمان خلال الأيام التالية بينما كان على القوات البرية المصرية أن تقاتل في أشد الظروف صعوبة وفي ظل السيطرة الجوية الكاملة لاسرائيل على أرض سيناء .

• القتال على خط الدفاع الأول :

تقدمت اسرائيل على ثلاث مجموعات في القطاع الشمالى والأوسط من سيناء وتمكنت المجموعة الأولى خلال يوم ٥ يونيو من اختراق الدفاعات المصرية على المحور الساحلى والوصول إلى العريش بينما وصلت المجموعة الثانية إلى جنوب العريش في نفس اليوم أما المجموعة الثالثة فقد توقفت أمام دفاعات أبو عجيلة حتى صباح اليوم التالى .

وقد دفعت القيادة المصرية مجموعة هجوم مضاد لاسترداد العريش ولكنها لم تتمكن من الوصول إليها حيث تورطت في القتال مع قوات المجموعة الوسطى الاسرائيلية عند بير لحفن جنوب العريش ليلة ٥-٦ يونيو .

ونجحت قوات المجموعة الثالثة الإسرائيلية في اختراق دفاعات أبو عجيلة صباح يوم ٦ بينما قامت القيادة المصرية بدفع اللواء ٤ مدرع في هجوم مضاد لاسترداد أبو عجيلة إلا أنه توقف نتيجة للقصف الجوى المركز خلال يوم ٦ يونيو .

ولم تتمكن باقى القوات الاسرائيلية التى كانت في مواجهة الدفاعات المصرية في الجنوب عند الكونتيلا من تحقيق أى نجاح حيث كانت هذه الدفاعات متماسكة ونتيجة لاختراق الدفاعات المصرية في المحورين الشمالى والأوسط ، ولعدم نجاح الهجمات المضادة بسبب سيطرة الطائرات الاسرائيلية على سماء سيناء أصدرت القيادة المصرية أمراً للقوات المتبقية على خط الدفاع الأول بالانتقال إلى خط الدفاع الثانى في نهاية يوم ٦ يونيو .

• القتال على خط الدفاع الثانى :

وقد تمكنت القوات الاسرائيلية التى نجحت في اختراق الدفاعات المصرية في المحور الشمالى والأوسط من سيناء — من التقدم بعد ظهر يوم ٦ يونيو إلى منطقة جبل لبنى حيث تعرضت لها القوات المصرية على الخط الدفاعى الثانى وتمكن اللواء ١٤ مدرع من التصدى لهذه المجموعات واشتبك في معارك عنيفة مع الدبابات الاسرائيلية وتمكن من تدمير ٤٠ دبابة معادية ونجح في إيقاف تقدم القوات الاسرائيلية على هذا المحور حتى صباح اليوم التالى . ولم تتمكن القيادة المصرية من دفع الاحتياطى العام (الفرقة الرابعة المدرعة) لاستعادة الموقف خوفاً من القصف الجوى ، وكانت طلائع القوات الاسرائيلية تحاول التقدم بسرعة لتصل إلى المضائق حتى يمكنها احكام الحصار على القوات المصرية في سيناء فأصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قراراً بالإرتداد العام إلى غرب قناة السويس وذلك (سعت ١٧٠٠) يوم ٦ يونيو بينما كانت الوحدات يجرى انتقالها إلى الخط الدفاعى الثانى ، بل ان بعضها لم يكن قد بدأ التحرك بعد ، والبعض الآخر كان يقاتل في مواجهة القوات المهاجمة .

• الارتداد العام إلى غرب القناة :

أصدرت القيادة المصرية أوامرها بتنفيذ الارتداد إلى غرب القناة خلال ليلة ٦-٧ يونيو ولم تكن هذه الأوامر قد وصلت إلى القوات المتمركزة جنوب جبل خرم (قوات الستارة) فتقرر أن تقوم هذه القوات بسر ارتداد بقية الوحدات - كما كلفت الفرقة الرابعة المدرعة باحتلال خط المضائق ليتمكن تأمين عملية الارتداد . فعادت وحدات الفرقة الرابعة مرة أخرى لإتخاذ أوضاعها شرق المضائق بعد أن كان بعض وحداتها الفرعية قد وصلت إلى غرب القناة .

وقد انتهزت القوات الاسرائيلية هذه الفرصة الثمينة وضاعفت من جهودها للوصول إلى خط المضائق حتى تمنع القوات المصرية من الارتداد واختلطت الارتال على الطرق المختلفة وكانت خسائر مصر من عملية الارتداد أضعاف خسائرها في القتال :

وتمكنت معظم الوحدات المصرية من تدمير معداتها الثقيلة وذخائرها التي لم تتمكن من اصطحابها (بسبب تعليمات القيادة المصرية) والوصول إلى قناة السويس في نهاية يوم ٧ يونيو ، بينما دارت عدة اشتباكات تعطيلية على المحاور المختلفة خلال يومى ٨ ، ٩ إلا أنها لم تكن مؤثرة بالقدر الكافى .

• السيطرة على القوات غرب القناة :

قامت القيادة الشرقية بالسيطرة على القوات المرتدة وتم تشكيل معسكرات لتجميع المائدين كما تم نسف المعابر بعد عبور القوات المصرية وقسمت الضفة الغربية إلى قطاعات دفاعية من بور سعيد شمالاً حتى الشط والسويس جنوباً وتم احتلالها ببعض العناصر المتأسكة ثم دعمت بعد ذلك بوحدات أخرى وأمكن تقوية الدفاعات على الضفة الغربية في مواجهة القوات الاسرائيلية التي تمكنت من الوصول إلى الضفة الشرقية في نهاية يوم ٩ يونيو .

• مدى نجاح اسرائيل في معركة يونيو ١٩٦٧ :

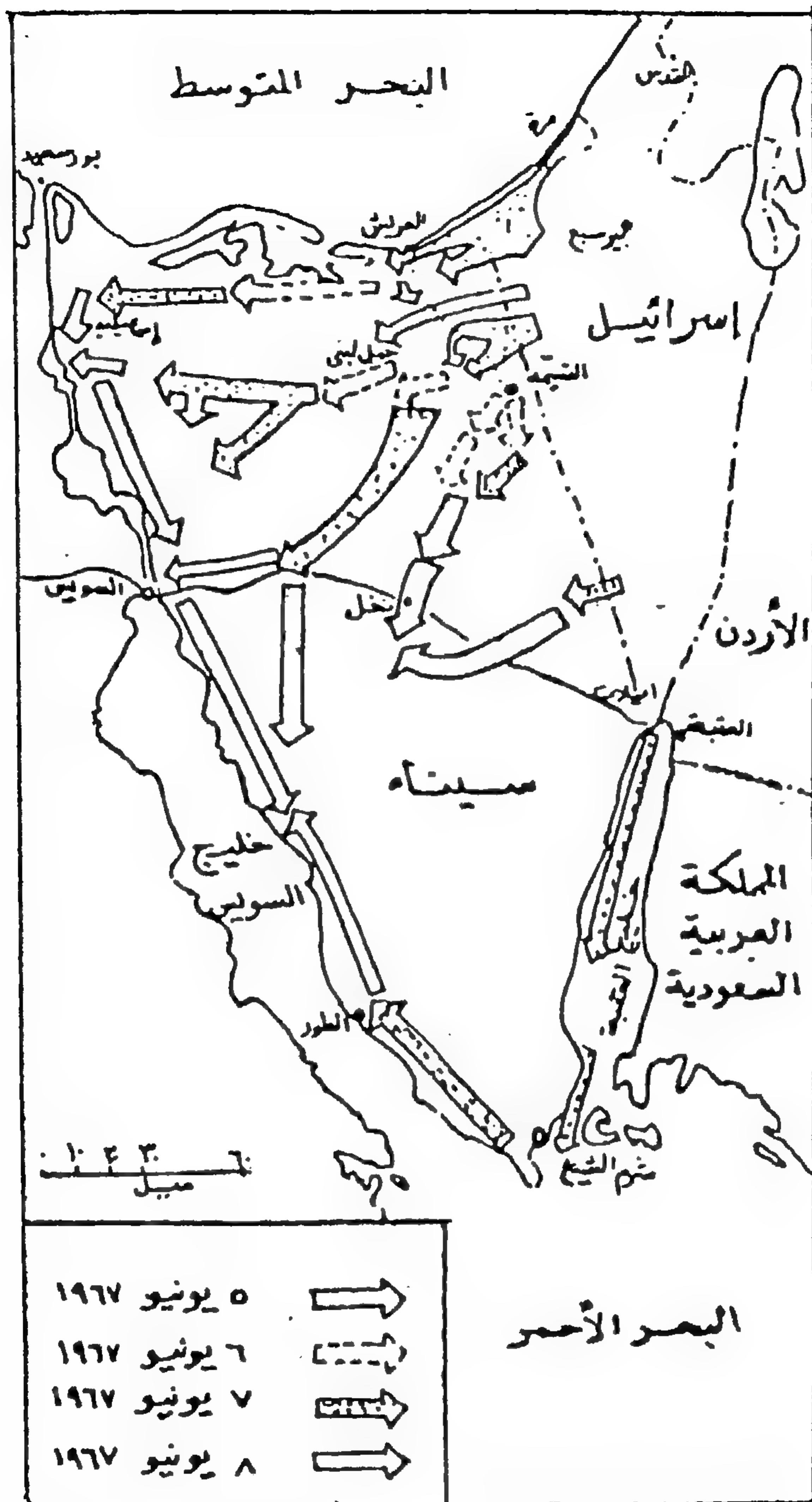
تعتبر هذه الجولة بالنسبة لاسرائيل هي قمة النجاح فقد حققت جميع أهدافها في مختلف النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية ويمكن حصر هذه النتائج في :

(أ) إيقاع الهزيمة بالدول المجاورة بحيث يصعب على هذه الدول استعادة نشاطها مرة أخرى قبل وقت طويل .
(ب) الوصول إلى مواقع طبيعية (قناة السويس ، ومرتفعات الجولان) يمكن اعتبارها حلوذاً أكثر أمناً لإسرائيل .
(ج) اكتساب مساحات كبيرة من الأراضي يمكن إقامة مستعمرات جديدة عليها لإستيعاب عدد أكبر من المهاجرين :

(د) تحقيق الهدوء والاستقرار بالتخلص من متاعب الأعمال الفدائية - التي كانت تعاني منها اسرائيل بما يضمن ازدياد معدلات هجرة اليهود إليها .

(هـ) السيطرة على خليج العقبة وتأمين الملاحة الإسرائيلية في البحر الأحمر .

(و) الحصول على كمية كبيرة من الاسلحة والغنائم ، وتحقيق مكاسب اقتصادية باستغلال الثروات السكانية في الأراضي المختلفة من بترول وذهب ومعادن .



• عوامل النجاح وأسباب الفشل :

لا شك أن إسرائيل تميزت في هذه الجولة بكثير من المميزات التي ساعدتها على كسب المعركة إلا أن أهم العوامل التي مكنتها من تحقيق النصر هي نفسها أسباب الفشل في الجانب العربي وهي التي هيأت أفضل الفرص لإسرائيل كي تحصل على نصر لم تكن تعلم به .

وأهم هذه العوامل هي :

- (أ) تعاطف الصهيونية العالمية وتفكك العرب .
- (ب) تميزت إسرائيل بالجديّة في كافة قراراتها وتصرفاتها بينما كانت مصر تنادي بالحرب وهي غير جاهزة فعلاً للقتال .
- (ج) كفاءة نظام التعبئة في إسرائيل على حين لم يكن في مصر أسلوب منظم لتدريب الاحتياط دورياً أو لاستدعائهم وتوزيعهم على التشكيلات المقاتلة بما يتناسب مع تخصصاتهم .
- (د) صدور قرار الانسحاب من سيناء بدون تنظيم أو سيطرة أدى إلى زيادة نسبة الخسائر بين القوات المصرية وسهل إلى حد كبير مهمة القوات الإسرائيلية .
- (هـ) ضعف مستوى القيادة المصرية وترددها في كافة قراراتها .

الدروس المستفادة من جولة ١٩٦٧ :

بالرغم من أن هناك أسباباً كثيرة كانت السبب في خسارة هذه الجولة وكلها ترجع إلى سوء القيادة إلا أنه يمكن استنباط بعض الدروس التي نشأت من أخطاء وتصرفات لمستويات أخرى دون مستوى القيادة ومنها .

• ضعف مستوى الضبط والربط :

تبين هذا جلياً خلال القتال وكان له أثر بالغ على صمود القوات المصرية في يوم ٥ و ٦ قبل إصدار قرار الارتداد ، ويرجع السبب في انهيار الضبط والربط إلى ظروف حرب اليمن التي كانت القوات المصرية لا تزال متورطة فيها .

• ضعف مستوى التجهيز الهندسي :

نظراً لتمكن إسرائيل من السيطرة الجوية فقد برزت أهمية أعمال الحفر والتجهيز الهندسي ، فلم تتحقق للقوات المصرية أية درجة من درجات الوقاية تجاه القصف الجوي ، ولو أن بعض القوات لم تتوفر لديها الفرصة لإتمام التجهيز الهندسي إلا أن كثيراً من الوحدات كان في نفس المناطق التي تخصصت في الحطة « قاهر » ومع ذلك لم تكن أعمال الحفر كما ينبغي مما ضاعف من تأثير الهجمات الجوية ونيران المدفعية الإسرائيلية .

• ضعف معلومات الاستطلاع :

نتيجة للاختلاط بين الوحدات المقاتلة خلال العمليات أخطأ كثير من الضباط والجنود في تمييز الأسلحة الإسرائيلية عن المصرية مما أدى إلى إصابة بعض قواتنا أحياناً بنيران أسلحتنا ، كما تعرض كثير من الوحدات لمفاجأة العدو نتيجة لعدم القدرة على تمييز أسلحة العدو وضعف معلومات الاستطلاع .

الفصل الخامس

الجملة العربية الإسرائيلية الرابعة (*)

اكتوبر ١٩٧٣

بواذر الرفض

عندما انقشع غبار حرب الأيام الستة ، أعلن قادة إسرائيل أن تلك الحرب قد أنهت جميع الحروب بين العرب وإسرائيل ، ذلك أن الجيش الإسرائيلي - الذي لا يقهر - قد حسم الموقف تماماً ولعشرات السنين بينما أعلن موسى ديان فارس هذه الحرب عن رقم تليفونه بتل أبيب لمن يريد من الزعماء العرب طلب الاستسلام . في الوقت الذي عم فيه الفرح والنشوة الشارع الإسرائيلي ، الذي فوجئ بحجم الانتصار الساحق لجيش الدفاع على الجبهات العربية الثلاث .

على الجانب الآخر كانت الصدمة قاسية ومريرة ، لقد صبغ الحزن كل الوجوه .. وأصيبت القلوب بطعنات نافذة .. ووسط هذا الكم الخفيف من اليأس انطلقت الإرادة المصرية لتعلن رفضها للهزيمة وتصميمها على إزالة آثار العدوان مهما كانت التضحيات .. كان إيمان الجميع أنها كبوة لفرسان ظلموا في حرب لم يتح لهم فيها النزال المتكافئ ، في حلبة الصراع ، فكانوا أحد ضحايا النكسة خلال تلك الحرب ولم يكونوا أبداً أحد أسبابها .

تلك شهادة التاريخ التي سجلها إنصافاً للرجال ..

وبعد أيام معدودة لم تتعد العشرين يوماً كانت البداية .. وكانت الخطوات الأولى على الطريق .. طريق التحرير قبل أن تندلع الشرارة بأكثر من ست سنوات .

• الزمان : الأول من يوليو ١٩٦٧

• المكان : موقع صغير على رمال سيناء في منطقة رأس العش يضم ثلاثين مقاتلاً من رجال الصاعقة المصرية .

• الأحداث : قوة مدرعة إسرائيلية تتقدم صوب موقع الرجال في محاولة لإكمال السيطرة على الضفة الشرقية للقناة .. يتصدى الرجال للقوة المعادية في معركة شرسة كانت نتائجها بمثابة صدمة كهربائية للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية .. في نفس الوقت الذي كانت فيه نقطة تحول هامة وعلامة بارزة لإرادة الصمود المصري .. وفي اليوم التالي حاولت القوات الإسرائيلية التقدم مرة ثانية ، وكانت النتيجة مزيداً من الخسائر في المعدات والأرواح .. وباءت كل محاولاتها بالفشل الذريع .

(*) العقيد / محمد صبرى الشربيني .

وفي يوم ٨ يوليو - أى بعد اسبوع من معارك رأس العش - حاولت قوة إسرائيلية التقدم من جنوب بورقواد وفشلت المحاولة بعد مقاومة عنيفة وشجاعة فريدة للمقاتلين المصريين - وكانت ضراوة هذه المعارك وشراسة القتال خلالها وحجم الخسائر التي تكبدتها القوات الإسرائيلية كافية بعدم تكرار محاولاتها تلك لمدة ست سنوات تالية حتى اندلعت الشرارة ظهر ذلك اليوم المجيد - .. السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

وكانت معارك رأس العش بداية مرحلة الصمود التي امتدت حتى سبتمبر ١٩٦٨ خلال هذه الفترة - يونيو ٦٧ .. سبتمبر ٦٨ - شهدت جبهة القتال أحداثاً لها دلالاتها .. ففي الرابع عشر من يوليو ١٩٦٧ ، انطلق نسورنا إلى سماء سيناء الأسيرة ببضع طائرات كانت هي البقية الباقية من طائرات قواتنا الجوية التي دمرت على الأرض يوم الخامس من يونيو ، يقصفون بعنف قوات العدو المدرعة والميكانيكية ومدفعياته في عمق سيناء .. وحيناً تصدت لهم طائرات العدو دارت معارك جوية ضارية أثبت فيها نسورنا شجاعة وكفاءة أذهلت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية . يومها سجلت وكالات الأنباء العالمية التي كانت منتشرة في سيناء ترصد انتصارات إسرائيل في حرب الأيام الستة .. للدعر والهلل الذين أصابوا الجنود والقادة الإسرائيليين الذين تركوا مواقعهم وأسلحتهم وفروا مذعورين من شراسة القصف الجوي المصري .

وتتوالى الأيام ، وترداد التراشقات بالأسلحة الصغيرة والمدفعية بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية ، وترداد حدة هذه التراشقات خلال شهر سبتمبر ١٩٦٧ ، وترتفع معدلات خسائر إسرائيل في الأفراد والمعدات مما حدا بها إلى توجيه ضرباتها إلى مدن القناة بواسطة مدفعياتها الثقيلة حيث استشهد عدد كبير من مواطني هذه المدن ..

ويجيء يوم الحادى والعشرون من أكتوبر ١٩٦٧ ، وتسجل البحرية المصرية حدثاً فريداً في تاريخ الحروب البحرية على المستوى العالمى .. عندما تقلعت المدمرة الإسرائيلية «إيلات» في غرور وصلف إلى مياهنا الإقليمية أمام مدينة بورسعيد .. وانطلقت لنشأتنا الصاروخية تسبقها إرادة الرجال لتطلق صواريخها بحر - بحر لأول مرة في الحروب البحرية لتسكن المدمرة «إيلات» التي تمثل نصف القوة البحرية الإسرائيلية ، تسكنها قاع البحر ، ومعها غرقت آمال المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وخطرسها ودعايتها عن جيش إسرائيل الذي لا يقهر بعد أن بلغت خسائرها في الأفراد فقط ٣٠٠ جندي وضابط .

وفي صباح الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٦٧ ، ردت إسرائيل على إغراق مدمرتها «إيلات» بقصف معادل تكرير البترول في السويس وعلى الأهال المدنيين في مدن القناة .

وصدر قرار مصرى كان له أكبر من معنى ودلالة ..

القرار «إخلاء منطقة القناة من سكانها المدنيين» .

قرار خطير اتخذته القيادة السياسية .. وكان يعنى بوضوح اننا ماضون على الطريق لتحرير الأرض بقوة السلاح . رافضين أن تكون أهاليها في مدن القناة رهينة تحت رحمة القوات الإسرائيلية أو عتبة أمام حرية قواتنا في الاشتباك مع العدو .

الأيام تتوالى .. والراشقات بالنيران مع العدو مستمرة .. لكن القيادة المصرية تتبع أسلوب ضبط النفس حتى تتاح لها فرصة لإعادة بناء القوات المسلحة تنظيمياً وتسليحاً وتدريباً .. ومع اقتراب عام ١٩٦٨ ، كانت القوات المصرية قد أصبحت قادرة على الانتقال من مرحلة الصمود في مواجهة العدوان الإسرائيلي إلى مرحلة .. الردع ..

ففي الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٦٨ استهلّت قواتنا مرحلة الردع التي استمرت حتى مارس ١٩٦٩ ، استهلّها بأعمال تعرضية لمنع قوات العدو من تقوية دفاعاتها على الضفة الشرقية للقناة .

وكانت معركة المدافع الشميرة يوم ٨ سبتمبر ١٩٦٨ بداية تلك المرحلة ، حيث بدأت قواتنا بقصف قوات العدو على الضفة الشرقية للقناة وعلى طول المواجهة في وقت واحد ، مكبدة العدو خسائر فادحة في الأفراد والمعدات .

وبجملت يوم ٢٦ أكتوبر ٦٨ حدثاً ذات دلالة هامة ، حيث عبرت دورية مصرية إلى الضفة الغربية للقناة تحت سائر من القصف المدفعي العنيف لقواتنا ، وعادت بأسيرين من جنود العدو تحت ستر الظلام .

وردت إسرائيل بإغارة على نجع حمادى ليلة ١٣١ أكتوبر-١ نوفمبر حيث تمكنت قوة من أفراد الكوماندوز الإسرائيليين بحملهم طائرات المليكوبتر بوضع عبوات ناسفة في محطة محولات نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا ..

وبدأت المواجهة على جبهة القتال تتصاعد يوماً بعد يوم . وتدخل الطيران الإسرائيلي بصورة فعالة بعد أن زادت المدفعية المصرية من قصفاتها المستمرة ضد المواقع الإسرائيلية ، وقبل نهاية عام ١٩٦٨ كانت طائراتنا قد بدأت تحد من نشاط إسرائيل الجوى على امتداد جبهة القتال .

ويجئ يوم الثامن من مارس ١٩٦٩ ليعلن بداية مرحلة الاستنزاف ضد القوات الإسرائيلية شرق القناة .. حيث تطورت الاشتباكات وتصاعدت حدتها ، كما زادت دوريات العبور إلى الضفة الشرقية للقناة ، وفرضت قواتنا حرباً طويلة الأمد على القوات الإسرائيلية لاستنزاف مواردها وقوتها البشرية بعد ارتفاع معدلات خسائرها في الأفراد والمعدات ..

ففي يوم ٨ مارس ١٩٦٩ قصفت المدفعية المصرية قوات العدو على طول المواجهة وبتركيز شديد لمدة خمس ساعات كاملة .. واستمر القصف يوم التاسع من مارس دون انقطاع حتى تحطم أكثر من ٨٠٪ من تحصينات وقلاع خط بارليف ، ومنى العدو يومها بأضخم خسائر عرفها بين ضباطه وجنوده .. يومها استشهد الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة بين ضباطه وجنوده في الخطوط الأمامية ضارباً أروع صور البطولة والفداء وهو يتابع عن كثب تنفيذ الخطة المصرية المحكمة لتدمير خط بارليف ..

وتابعت قواتنا مخططها لاستنزاف العدو ، فكانت عمليات العبور والإغارة على العدو شرق القناة ليلاً ونهاراً . تدمير معسكراته ، وقتل وتأسر أفرادها ، وأصبحت عمليات العبور ليلاً أملاً يراود كل ضابط وجندى ، بل أصبحت هذه المهام وساماً يعلق له شارة على صدور الرجال .

وبدأت جماعات الميمور تأخذ أحجاماً أكبر حتى وصلت إلى سرية بل استطاعت كتيبة كاملة أن تعبر القناة إلى الضفة الشرقية وتمسك بمواقعها وترفع عليها أعلام مصر ..

وكان أهم حصاد عمليات العبور كالاتي :

- الإغارة على النقطة القوية جنوب البحيرات ليلة ٢١-٢٢ ابريل ١٩٦٩ وتم فيها قتل ٦ أفراد للعدو والعودة بأسير .
- الإغارة على النقطة القوية ١٤٦ على الضفة الشرقية للقناة ليلة ٢٣-٢٤ يونيو ١٩٦٩ حيث تم تدمير عدد من عربات العدو وقتل حوالي ٥ أفراد له :
- الإغارة على قوات العدو بمعسكر القرش شرق القناة يوم ١٠ يوليو ٦٩ وتم تدمير جميع دشم الأسلحة بالمواقع :
- الإغارة على النقطة القوية المعادية في لسان بور توفيق يوم ١٠ يوليو ٦٩ ، حيث أمكن تدمير عدد من الملاجئ والدبابات وقتل للعدو ما يقرب من ٤٠ فرداً والعودة بأسير .
- يوم ٥ نوفمبر ٦٩ نصبت قواتنا كميناً لقوات العدو بالشط في سيناء ودمرت عربتين للعدو وقتل ٨ من جنوده وأسر أحد الجنود .
- كمين آخر تم ليلة ٦/٥ نوفمبر بمنطقة الشط حيث تم فيه قطع طريق الجباسات وأمكن تدمير دبابة إسرائيلية .
- شهدت منطقة جسر الحرش على الضفة الشرقية للقناة كميناً جريئاً تم فيه التعرض لدورية إسرائيلية حيث دمرت دبابتان للعدو وقتل له ١٨ فرداً .
- وبدأت قواتنا البحرية تدخل حلبة الصراع ، حيث قامت وحداتنا البحرية يوم ٩ نوفمبر ٦٩ بقصف مواقع العدو في مناطق رمانة وبالوظة على الساحل الشمالى بسيناء ومنى العدو بخسائر ضخمة من جراء ذلك كما قامت الضفادع البشرية بهجوم جريئ على ميناء « إيلات » الإسرائيلى يوم ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ وتمكنت من إغراق ٣ قطع بحرية للعدو .
- وخلال يوم ٢٩ نوفمبر ٦٩ قامت قواتنا بإغارة على النقطة القوية المعادية ١٤٦ للمرة الثانية ، حيث تم تدمير عدد من الملاجئ والدبابات والعربات للعدو وبلغت خسائره في الأفراد ٤٠ فرداً بين قتيل وجريح .
- وفي ١٤ ديسمبر ٦٩ شهدت منطقة سرايوم شرق القناة كميناً تم فيه تدمير عربة معادية وقتل فردين وأسر ضابط .
- كما قامت قواتنا البحرية في السابع والعشرين من يناير ١٩٧٠ بقصف مستعمرة ناحال ديكلا في الشيخ زويد شرق العريش حيث دمر العديد من المباني وقتل حوالي ٢٢ فرداً للعدو . وكان لهذا القصف أثره البالغ في إشاعة القوضى والرعب لقوات العدو بالمنطقة .
- وفي ٥ فبراير ١٩٧٠ قامت قواتنا بعمل كمين لقوات العدو على طريق القنطرة - التينة على الضفة الشرقية للقناة حيث تم تدمير ثلاث دبابات وثلاث عربات للعدو .
- وشهد ميناء « إيلات » الإسرائيلى للمرة الثانية هجوماً جريئاً لمجموعة من ضفادعنا البشرية يوم السادس من فبراير ١٩٧٠ ، دمر للعدو سفينتان وأصيب سفينه ثالثة .

• كما شهدت المنطقة شمالى موقع الشط كيناً يوم ١١ فبراير ١٩٦٠ تم فيه تدمير عربية لورى محملة بالجنود الإسرائيليين ودبابية وعربتين مدرعتين :

• وفى ٢٦ مارس ١٩٧٠ ، اقامت مجموعة من رجالنا كيناً على طريق القنطرة الشط ، وتمكنوا من قطع الطريق وتدمير لورى وعربة مجنزة وقتل للعدو حوالى ١٥ فرداً .

• وفى منطقة رأس العش تم عمل كمين للعدو يوم ٣٠ مايو ١٩٧٠ ، حيث هوجمت دورية إسرائيلية ودمرت ثلاث دبابات معادية وعربتان مجنزرتان وقتل ٣٠ جندياً إسرائيلياً .

— وفى نفس اليوم وفى منطقة التينة على الضفة الشرقية للقناة قامت مجموعة أخرى من رجالنا بعمل كمين للعدو دمر خلاله دبابة وعربة مدرعة وقتل ٦ أفراد إسرائيليين وأسر جندي آخر ..

وفى الوقت الذى كانت قواتنا تنفذ فيه مخططاً دقيقاً لاستنزاف العدو على طول المواجهة ، حاولت القوات الإسرائيلية أن تقوم بعمليات خاطفة على بعض مواقعنا المنعزلة فى الجزيرة الخضراء وساحل خليج السويس وجزيرة شلوان :: ومخطمت كل هذه المحاولات على صخرة الإرادة الصلبة للمقاتل المصرى .. ودفع خلالها العدو ثمناً باهظاً لمحاولاته من الرجال والمعدات والأسلحة :

أيضاً بدأت قواتنا الجوية مهامها المخطط لها بكل دقة : ودخل نسورنا فى معارك جوية شرسة مع الطيران الإسرائيلى .. وأصبح هبوط الطيارين الإسرائيليين بالمظلة بعد إصابة طائراتهم مناظر مألوفة لرجالنا على امتداد الجبهة ..

ويوماً بعد يوم .. بدأت شبكة الصواريخ المصرية تشكل حائطاً صلباً فى مواجهة الطائرات الإسرائيلية ، بعد أن فشلت فى محاولاتها المحمومة لعرقلة بنائها .. ومعها بدأت معارك استنزاف الطائرات الإسرائيلية .. وشهد شهر يوليو ١٩٧٠ تحطيم ٢١ طائرة إسرائيلية ..

وبدأت القيادة الإسرائيلية تعرف .. لقد خلقت حرب الاستنزاف موقفاً جديداً تماماً ::

وأدركت أمريكا حجم الكارثة التى باتت تنتظر إسرائيل .. فكانت مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار الذى بدأ فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ .

وصمتت المدافع .. واشتعلت جبهة القتال بنوع جديد .. الإعداد والاستعداد لمعركة التحرير الكبرى .

فى انتظار ساعة الصفر :

عندما صمتت المدافع بعد مرحلة الاستنزاف .. كان هناك تساؤل ملح أمام القيادة المصرية : ما هى الخطوة التالية ؟

كانت كل الشواهد تؤكد أن العدو الإسرائيلى ما زال غير قادر على استيعاب الحقائق التى أكلتها الأحداث خلال المراحل المتوالية :

— مرحلة الصمود من يونيو ٦٧ وحتى أغسطس ٦٨ —

— مرحلة الردع أو الدفاع النشط من سبتمبر ٦٨ وحتى فبراير ٦٩ —

— مرحلة الاستنزاف من مارس ٦٩ وحتى أغسطس ٧٠ —

ومن وجهة النظر المصرية كانت هذه المراحل قد حققت أهدافها تماماً وفي مقدمتها استنزاف قوة العدو مادياً وبشرياً ومعنوياً ، وعدم إعطائه الفرصة للعيش هائناً على الأرض التي احتلها غداة حرب الأيام الستة .. كما كانت هذه المراحل تدريجياً واقعية راقية على القتال في مسارح العصابات المختلفة وأخيراً وهو الأهم إقناع العالم وإسرائيل على وجه الخصوص أن مصر لن تسكت على احتلال ترابها ، وأنها عاقدة العزم على تحرير أرضها بقوة السلاح إذا لم تدع إسرائيل بمجهود الحل السلمي التي تستهدف جلاء القوات الإسرائيلية عن سيناء .

وتأكدت القيادة المصرية أن الخطوة القادمة يجب أن تكون أكبر وأشمل من مراحل الصراع السابقة .. وبدأت الخطوات تتوالى استعداداً للأمل الكبير .. تحرير سيناء الأسيرة .

كان الكم والكيف للعراقيل والصعاب يجعل الأمل سراباً ، وفي بعض الأحيان الاستحالة التامة لتحقيقه ..

• كانت أول هذه العراقيل هذا المانع المائي الكبير المتمثل في قناة السويس ، حيث ينحدر الشاطئ بشدة ، ويفطى بستائر أسمنتية وحديدية تعرقل نزول وصعود المركبات البرمائية .. أيضاً كانت ظاهرة المد والجزر بالقناة وما يتبعها من انخفاض وارتفاع في منسوب المياه بها إلى ٦٠ سنتيمتراً تقريباً ، بل ويصل قرب مدينة السويس إلى مترين كاملين بالإضافة إلى سرعة التيار وتغيير اتجاهاته ، والذي يصل إلى ٩٠ متراً في الدقيقة في القطاع الجنوبي وينخفض إلى ١٨ متراً في القطاع الشمالي ، بينما يتراوح عرض القناة بين ١٨٠ متراً ، ٢٢٠ متراً وبعثق من ١٦ — ١٨ متراً ، في الوقت الذي ينخفض فيه سطح الماء عن حافة الشاطئ بحوالى مترين . بالإضافة إلى وجود كميات كبيرة من الأتربة الناتجة عن حفر القناة على الضفة الشرقية للقناة مما يصعب عملية فتح ممرات فيها ، خاصة بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بتعليق هذه الأتربة حتى جعلت منها ساتراً بلغ في بعض المناطق عشرين متراً ، ولم تكف برفع الساتر فقط بل وإزاحته حتى لاس حافة القناة تماماً بزاوية ميل تزيد على ٤٥ درجة .

• وكانت ثانية العراقيل هذا الخط الدفاعي المنيع الذي أقامه العدو داخل الساتر الرملى وفوق قناته والمسمى « بخط بارليف » .. وهو الخط الثانى الذى أقامه بعد أن دمرت قواتنا الخط الأول في مرحلة الردع يوم ٨ ، ٩ مارس ١٩٦٩ ، وقد تكلف هذا الخط ٢٣٨ مليون دولار .

وقد أقام العدو منطقة دفاعية تمتد من هذا الخط على طول المواجهة وبعثق يصل إلى ٣٥ كيلو متراً في سيناء . وتحتوى هذه المنطقة الدفاعية التي تبلغ مساحتها أكثر من خمسة آلاف كيلو متر مربع على نظام متكامل من التجهيزات الهندسية والسواتر الصناعية والمواقع القوية وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد .

وتتمركز قوات العدو المدرعة ومشاته الميكانيكية ومدفعيته وقوات دفاعه الجوى في تلك المنطقة الدفاعية الحصينة .

ويتكون خط بارليف من ٢٢ موقعاً حصيناً يضم ٣١ نقطة قوية ، تبلغ مساحة كل منها حوالى ٤ آلاف متر مربع ، وهى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تحت الأرض .. ويتكون الطابق الواحد من عدة دشم من الأسمنت المسلح المقوى بقضبان السكك الحديدية وألواح الصلب ، وقد جهزت كل دشمة بعدة فتحات تمكنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات ، بالإضافة إلى الدشم المجهزة للدبابات والمدفعية .. وتحيط بالنقط القوية نطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد .

كماجهز العدو بعض النقط الحصينة بخزانات لمواد حارقة تخرج منها مواسير إلى القناة عند فتحها تغطى سطح مياه القناة بلهب حارق تصل درجة حرارته إلى ٧٠٠ درجة مئوية :

وإلى الخلف من خط بارليف أنشأ العدو خطاً دفاعياً ثانياً يبعد عن خط بارليف بحوالى ٣٠٠ - ٥٠٠ متر ويتركز فى الاتجاهات الأكثر صلاحية للعبور .. ومجهزاً لاحتلاله بالقوات المدرعة الموجودة على الأجناب والخلف وهذا الخط روعى فى بنائه أن يركز شيئاً بالخط الأول .

وعلى مسافة من ٣ - ٥ كيلو مترات يقع خط الدفاع الثالث والذي يتركز فى بعض الاتجاهات الهامة وعلى أجناب الطرق الرئيسية المؤدية إلى العمق .

وكان الخط الدفاعى الإسرائيلى الحصين بما أنتجه من مشاكل وعقبات موضع دراسة مستفيضة من القيادة المصرية وبرزت الحلول التالية :

لكى تؤمن مجموعات الاقتحام الأولى من نيران العدو والمصوبة برشاشاته ومدفيعته ودباباته والتي ضببطت مراميها لتغطى سطح القناة بستارة من نيران متشابكة .. وصنعت خطة محكمة للمدفعية المصرية وأسلحة الرمي الأخرى لتنفيذ أقوى تهديد نيرانى لتدمير مصادر نيران العدو قبل البدء فى العبور ، وعمل ستارة نيران قوية تعبر تحتها طلائع العبور الأولى لفتح ممرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة ، أجريت أكثر من ٣٠٠ تجربة لاختبار أنسب الوسائل . وكانت مدافع المياه هى الوسيلة التى ابتكرتها العقول المصرية ، وتعتمد على تجريف المياه بوساطة مضخات مياه قوية لإمكان فتح ٨٥ ممراً فى الساتر الترابى ، يبلغ حجم الأثرية المزاحة من كل ممر ١٥٠٠ متر مكعب :

ولارتقاء الساتر الترابى بالتحذاره الرهيب بوساطة مجموعات الاقتحام بأسلحتهم وذخائرهم فقد أعدت سلام من الجبال تحمل بوساطة أحد الأفراد يتسلق بها الساتر ثم يفرد لها ليتسلق عليها زملاؤه .

ولتفادى إشعال العدو لسطح القناة جهزت مجموعات من الصاعقة للعبور إلى الضفة الشرقية قبل بدء الهجوم وقفل مواسير النيران بالأسمنت ..

وأخيراً وهو الأهم كانت مشكلة قتال رجال المجموعات الأولى للعبور ضد دبابات العدو وعرباته المدرعة فى منطقة دفاعه الحصينة منذ الدقائق الأولى للعبور وحتى تلحق بهم القوات الرئيسية بعد إقامة الكبارى على سطح القناة . ووضعت الخطط التالية :

تم تجهيز مجموعات كبيرة من الهياكل الحاكمة في الضفة الشرقية للقناة ، تحتلها الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات ، لتشتبك بالضرب المباشر من الضفة الغربية مع دبابات العدو وعرباته المدرعة في الضفة الشرقية .

شكلت مجموعات اقتناص للدبابات تدفع إلى الضفة الشرقية للقناة تحت ستر نيران المدفعية وقبل عبور الموجات الأولى ، وتنتشر في مواقع العدو وخلف خط بارليف ، تقيم الكمائن للدبابات العدو التي ستحاول مهاجمة طلائع العبور الأولى .

تسليح رجال مجموعات العبور الأولى بمزيد من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات ، خاصة الصواريخ الخفيفة المضادة للدبابات .

ظهرت عربات يد صغيرة تجر بالأيدى تحمل عليها الذخائر والأسلحة تعبر مع مجموعات الاقتحام الأولى :

جهاز ٢٥٠٠ قارب لتعبر عليها الموجات الأولى من الاقتحام حتى تقام الكبارى ..

ثم كان تجهيز مسرح العمليات هو الآخر يضم كماً كبيراً من المشاكل والصعوبات ..

فقد كان لازماً أن يقام على الضفة الشرقية للقناة سائر ترابى لتوفير الوقاية لقواتنا أثناء إعدادها وتدريباتها ، خاصة في المراحل الأخيرة مثل الاستعداد للهجوم .

ولإعطاء القوات على طول الجبهة القدرة على المناورة ، تم تجهيز شبكة من الطرق والمدقات يبلغ طولها أكثر من ألفي كيلو متر ..

وكان تجهيز ساحات الإسقاط لوحدة الكبارى على الضفة الغربية للقناة ، والمنازل اللازمة لاستخدام المعدات بطرق ووسائل لا يكتشف منها العدو خططنا ، وفي نفس الوقت لا تمكنه من التدخل في اللحظات الحاسمة .

أيضاً كانت المواقع الحاكمة التي تحتلها الدبابات والأسلحة الثقيلة المعاونة ببرأتها المباشرة لمجموعات الاقتحام الأولى .

ولمواجهة أعمال العدو المنتظرة ضد مطاراتنا وخاصة الممرات .. فقد أعدت خطة مناسبة من الأسفلت والأسمنت سريع التصلب لرصف أى مساحات ينجح العدو في تدميرها .. كما شكلت وحدات هندسية للتعامل مع القنابل الزمنية الخاصة بالممرات .. في نفس الوقت كان العمل مستمراً في إقامة التحصينات الخاصة بالطائرات (دشم الطائرات) كما أقيمت شبكة ممرات تبادلية بكل مطار وقاعدة جوية تمكنه من العمل تحت كل الظروف ..

أيضاً كانت ملحمة بناء قواعد الصواريخ المصرية ، والتي شكلت قمة التحدى بيننا وبين العدو حيث بدأ العمل المكثف بها في يناير ١٩٧٠ ، واستمر ليلاً ونهاراً تحت قصف العدو المكثف ، وتلك ملحمة فريدة من البذل والعطاء اشترك فيها عشرات الألوف من أبناء مصر من مهندسينا العسكريين والشركات المدنية المختلفة بأفرادها من الرجال والنساء وحتى الأطفال . ولقد بلغت تكلفة إقامة شبكة الصواريخ أكثر من مائة مليون من الجنيهات ، وبحجم وصل إلى ٢٤ مليون من الأمتار المكعبة من أعمال الحفر والردم ، وخرماتة مسلحة وعادية بحجم ٢,٥ مليون متر مكعب ، وكية من الحجارة بحجم ٢ مليون متر مكعب ..

عندما صممت المدافع بعد رحلة مرهقة من الصراع مع العدو لمدة ٣ سنوات متصلة قضاها رجالنا في الخنادق ، وعندما بدأت الاستعدادات لمعركة التحرير الكبرى ، كانت المشكلة الرئيسية أمام القيادة مواجهة «مرض الخنادق» الذى يصيب قوات تتعرض للظروف التى عاشتها قواتنا وبدأت المواجهة بخطط مدروسة اعتمدت على التوعية المستمرة بمشروعية القتال لتحرير الأرض .. والثقة فى السلاح .. ثم كان العنصر الأهم وهو التدريب القتالى الواقعى على مهام لها نفس طبيعة المهام القتالية المقبلة .

وكانت هناك مشكلة رئيسية وُضعت فى المقدمة منذ البداية وصاحبت كل مراحل الإعداد وهى كيف نحقق المفاجأة على المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية فى مواجهة عدو يملك كل الإمكانيات الحديثة للاستطلاع والمراقبة وتوفر له حليفته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية كل سبل المعلومات الدقيقة المباشرة .. بالإضافة إلى الاتصال الدائم بين قواتنا والعدو حيث لا يفصل بينهما سوى قناة السويس وأعمال وتحركات كل جانب مكشوفة للجانب الآخر تماماً ::

وتلك قصة طويلة لا بد من سرد بعض وقائعها :

- على صعيد الخداع الإستراتيجى .. فقد وضعت خطة محكمة شاركت فيها جميع أجهزة الدولة خاصة وزارات الدفاع والخارجية والإعلام بهدف خداع العدو وتضليله عن نوايا شن عملية هجومية مع الاحتفاظ بالسرية الكاملة لخطط العمليات وإخفاء التوقيتات المحددة للحرب ..
- ولاشك أن إجراءات الخداع العسكرى كانت أهم مقومات الخداع الإستراتيجى حيث اعتمدت على :
 - العمل المستمر فى استكمال الأوضاع الدفاعية استعداداً لأي هجوم من العدو .
 - دفع وتجميع القوات الرئيسية القائمة بالمعجم عن طريق التحريك فى اتجاهات متعددة منها ما هو عرضى وما هو عكسى لبليلة العدو الذى يرصد كل صغيرة وكبيرة .. ونفس الأسلوب تم مع معدات العبور . وتم ذلك أكثر من مرة تحت ستر إجراء مناورات دورية ، كان آخرها المناورة التى قامت العمليات خلالها ..
 - إجراء عدة تجارب لاستدعاء الاحتياط ، بحيث يتم أضخمها فى التوقيت المحدد لتنفيذ الهجوم .
- كذلك اعتمدت المفاجأة على تحديد دقيق بعد دراسات علمية عن أنسب التوقيتات لتنفيذ العملية الهجومية سواء للشهر أو لليوم أو ساعة بدء الهجوم أى ساعة الصفر .
- أيضاً اعتمدت المفاجأة على السرية الكاملة لتوقيت بدء الهجوم وإبلاغه للمستويات القيادية المختلفة فى توقيتات لا تسمح بأدنى فرصة لتسرب أى معلومات عنه ..
- ثم كان أهم عنصر فى تحقيق المفاجأة الاستراتيجية وهو التنسيق الدقيق من الجبهة السورية لتبدأ عمليات الجبهتين فى وقت واحد .

وبدأ العد التنازلى فى اليوم المشهود ..

بدأت قواتنا المسلحة طبقاً لخطط علمى دقيق فى عملية فتح تعبوى استعداداً لاتخاذ أوضاع الهجوم .. وشملت عملية الفتح التعبوى القوات الجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوى وقوات الجيشين الثانى والثالث الميدانيين .

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم الأول من أكتوبر ٧٣ رفعت درجة استعداد القوات المسلحة إلى الحالة الكاملة ، حيث تم احتلال جميع مراكز القيادة والسيطرة على مختلف المستويات تحت ستار إجراءات المناورة التى تقوم بها القوات .

وبدأت القوات المختلفة تأخذ أماكنها التى ستكون عليها مع بدء العملية الهجومية .. كما قامت قوات المهندسين العسكريين بفتح الثغرات فى مواقعنا على الضفة الغربية للقناة .. وعبرت مجموعات خاصة إلى الضفة الشرقية للقناة حيث نجحت فى تعطيل مواسير المواد الحارقة التى أعدها العدو لإشغال سطح القناة ..

وفى مركز العمليات الرئيسى للقوات المسلحة نشرت خرائط ووثائق العملية الهجومية .. وتوالى الساعات والدقائق والثوانى .

وبسط التاريخ صحائفه .. وبدأ يسجل أروع معارك العسكرية المصرية ٥

الزوال !

في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر انطلقت أكثر من ٢٢٠ طائرة إلى سيناء الأسيرة في توقيت واحد متجهة صوب أهدافها المحددة بحلق ومهارة .. كان لكل تشكيل جوى أهدافه المحددة ولكل تشكيل سرعته وارتفاعه . حيث نفذت ضربة جوية مركزة رائعة كان من نتائجها :

- أن تحولت مطارات العدو في المليز وتماما ورأس نصراني إلى حطام .
- ودمرت عشرات مواقع الصواريخ الإسرائيلية أرض-جو من طراز « هوك »
- كما دمرت عشرات المواقع لمدفعات العدو ومواقع راداراته ومراكز التوجيه والإنذار .
- بالإضافة إلى تدمير محطتي أم خشيب وأم مرجم المرصودتين لعمليات الإعاقة والشوشرة .
- فضلا عن تدمير العديد من المناطق الإدارية للعدو .

في نفس الوقت - الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السادس من أكتوبر - أعلنت المدفعية المصرية على طول المواجهة كسر الصمت الرهيب الذي ساد الجبهة منذ أغسطس ١٩٧٠ .. وتحول الشاطئ الشرقي للقناة إلى جحيم .. وفوجئ العدو بأقوى تمهيد نيرانى تم تنفيذه في الشرق الأوسط .

وخلال التمهيد النيرانى سقطت على مواقع العدو وقلاع بالصفة الشرقية للقناة في الدقيقة الأولى من بدء ضربة المدفعية عشرة آلاف وخمسمائة دانة مدفعية بمعدل ١٧٥ دانة في كل ثانية .

وتوالى البلاغات عن مدى تأثير النيران والحسائر التي أحدثتها بالعدو ، وعن نجاح المدفعية في فتح جميع الثغرات المخطط لها في مواقع الأسلاك الشائكة والألغام على الميل الأمامى للساتر الترابي وحول النقاط القوية والحصون والقلاع المعادية .

وتحت ستر هذه النيران الكثيفة عبرت مجموعات من الصاعقة وأطقم اقتناص الدبابات القناة لتبث الألغام في مصاطب الدبابات المعادية وتشل حركتها بالكائن لمنعها من التدخل في عملية اقتحام القناة .

وفي الساعة الثانية والثلاث - من بعد ظهر السادس من أكتوبر العاشر من رمضان - بدأ طوفان من الرجال تسبقهم تهليلاتهم « الله أكبر .. الله أكبر » صيحة الجهاد الخالدة .. بدأت الموجات الأولى لحمس فرق مشاة وقوات قطاع بورسعيد العسكرية في اقتحام قناة السويس مستخدمة حوالى ألف قارب اقتحام مطاط .. وبعد عدة دقائق وضع ثمانية آلاف جندي أقدامهم على الضفة الشرقية للقناة وبدأوا في تسليق الساتر الترابي المرتفع واقتحام دفاعات العدو الحصينة وهم يحملون أسلحتهم الشخصية ، والأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات .

وعادت أعلام مصر ترفرف من جديد على الضفة الشرقية للقناة .. بينما اندفعت الموجات التالية للعبور تفتح القناة في نفس الوقت الذي بدأت فيه القوات البرمائية تعبر البحيرات المرة من جنوب بحيرة التمساح عند الإسماعيلية .

ومنذ الدقائق الأولى للاقتحام قامت قواتنا بحصار النقاط القوية للعدو ومراكز قياداته وقلاع الحصينة ، وبدأت القلاع تنهار .. في نفس الوقت الذي قامت فيه قواتنا بصد وتدمير هجمات العدو المضادة .

وتحت ستر هجوم قوات المشاة ونبيران المدفعية تقلعت وحدات المهندسين العسكريين ، وقامت بفتح الممرات اللازمة في الساتر الترابي باستخدام طلبات المياه القوية « مدافع المياه » وأتمت فتح أول ممر منها في زمن قياسي لم يتجاوز الساعة .. وفي أثناء ذلك كانت وحدات أخرى من المهندسين تقوم بإسقاط معدات « براطيم » المعدات والكبارى وتقيمها فوق مياه القناة .

ودارت عجلة الحرب . والتاريخ يلهث بقلمه يسجل أروع إنجاز للعسكرية المصرية من خلال معارك الأسلحة المشتركة . من بحرية وجوية ودفاع جوى وقوات برية ..

والسطور التالية لإنجاز لمصلحة الأعمال القتالية لقواتنا المسلحة خلال معارك التحرير الكبرى في السادس من أكتوبر العاشر من رمضان ..

اللقاء في سيناء !

عندما اندلعت الشرارة الأولى لحرب التحرير الكبرى ، كانت جماعات من الصاعقة تعبر بقواربها المصنوعة من المطاط مياه القناة على طول امتدادها من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً ، لتشكل طلائع الزحف المقدس ، وكان لها شرف رفع أول مجموعة من أعلامنا فوق الضفة الشرقية للقناة ، لتنتقل بعدها موجات متتالية من المشاة . وعلى الحد الأمامي كان رجال الصاعقة أول من قهروا الساتر الترابي العالي ، فتسلقوه بالحبال والأظافر ، واستولوا على المصاطب التي أعدها العدو لدباباته وقاموا ببيت الألغام فيها . ثم اندفعت مجموعات منهم إلى الشرق ، حيث أقاموا الكائن لاقتناص دبابات العدو التي حاولت الاقتراب من الساتر الترابي فقاموا باقتحام مواقع العدو الحصينة ، كما اشتركوا مع رجال المشاة في مهاجمة باقي حصون العدو وقلاع القوية .

وقبل أن تغرب شمس السادس من أكتوبر ، كانت أعدادا كبيرة من طائرات الهليكوبتر قد أفرغت حمولتها من رجال الصاعقة في عمق سيناء شمالاً وجنوباً بين جبالها ووهادها .. وبعد ساعات قليلة من انطلاق الشرارة الأولى كان رجال الصاعقة ينقضون على أهدافهم في أعماق العدو .

وفي نفس الوقت كانت جماعات منهم تزحف على مياه البحرين الأحمر والمتوسط لتصل إلى أهدافها على سواحل سيناء .

وفي شمال سيناء قاتل رجال الصاعقة في مواجهة الجيشين الثاني والثالث الميدانيين قتالا مستميتاً على الطرق والمضائق ضد مدرعات العدو التي حاولت الاقتراب لإجهاض عملية العبور وإنشاء رؤوس الكبارى فواجهوا دبابات العدو بأسلحتهم الخفيفة المضادة للدبابات وبقنابلهم اليدوية ، بل وألقوا بأنفسهم في طريق تقدم العدو ، وعلى ظهورهم الألغام المضادة للدبابات كي تنفجر فوق أجسامهم مدرعات العدو ، وتركوا على رمال سيناء بصمات

من دماهم تشهد بأن هذه البقعة أو تلك قد استشهد فوقها فدائي بطل من رجال الصاعقة ، قدم حياته فداء لزميل لكي ينجح العبور ويتحقق تحرير الأرض المقدسة .

وفي عمق سيناء استمرت قوات الصاعقة متمسكة بالمضائق الجبلية والممرات ، ومنعت قوات العدو من المناورة إلا بخسائر جسيمة ، واستطاعت إحدى الوحدات أن تظل متمسكة بمضيق سدر من يوم السادس من أكتوبر وحتى يوم ٢٢ منه فحرمت بذلك العدو من المرور في هذا المضيق لمدة ١٦ يوماً كاملة ، حتى جاءها الأمر بالارتداد فعادت إلى قواعدنا بأسلحتها ومعداتها .

أما في جنوب سيناء فقد أقام رجال الصاعقة قواعدهم في وديانها واستمروا في إغاراتهم على أهداف العدو وفي مناطق أبورديس وبلاعيم وأبو زينة والطور ، فبثوا الرعب في قلوب العدو ، وأجبروه على دفع قوات كبيرة من المدرعات والمشاة الميكانيكية لحماية أهدافه الحيوية بهذه المناطق :

ونجحت بذلك قوات الصاعقة في استئراج قوات العدو ومحاصرة جزء كبير منها في جنوب سيناء مما خفف الضغط على قواتنا في الشمال أثناء إنشاء رؤوس الكبارى .

وعندما تقرر حرمان العدو من بترول سيناء ، شارك رجال الصاعقة في نسف وتدمير منشآت ومستودعات البترول في مناطق أبورديس وأبو زينة وسدر واستمرت قوات الصاعقة منتشرة في أعماق العدو طوال مراحل القتال تبث الذعر في صفوفه ، وتهاجم أهدافه الحيوية في جنوب سيناء حتى توقف إطلاق النار .

نسور الجو :

في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السادس من أكتوبر العاشر من رمضان كانت الضربة الجوية المركزة لأكثر من ٢٢٠ طائرة من قواتنا الجوية ما بين مقاتلة ومقاتلة قاذفة وقاذفة . كانت ضربتها الجوية إعلاناً ببدء القتال ونجاح المفاجأة لقوات العدو على طول المواجهة .

لقد أصابت قواتنا الجوية العدو في اليوم الأول للقتال بالشلل التام بعد أن وجهت لمواقع قياداته وسيطرته ضربة قوية قاصمة أحوالها إلى جحيم من النيران . . وكان مقرر أن تتم الضربة الجوية المركزة لقواتنا الجوية لمواقع العدو على مرتين ، ونظراً للنتائج المذهلة التي حققتها الضربة الأولى فقد تم اكتفاء القيادة المصرية بها ، فلم تكن في حاجة إلى ضربة ثانية ، فقد أحدثت الضربة الأولى الارتباك التام للعدو في أول أيام المعركة ، وأفقدته السيطرة والتوازن تماماً ، وشتت تفكيره عن الحركة ، بعد أن ضرب نسورنا مراكز السيطرة المعادية في أم خشيب وأم مرجم ، ومطاراته في سيناء .

ومنذ فجر السابع من أكتوبر وطوال أيام الحرب تصدت مقاتلاتنا لهجمات العدو الجوية ضد مطاراتنا ، واشتبكت معها في معارك جوية دارت أعنفها خلال الأيام الأربعة الأولى من الحرب ، حيث كان العدو يدفع في كل هجمة من ٦٠ - ٧٠ طائرة ، وأمكن لمقاتلاتنا بالتعاون الوثيق مع الدفاع الجوي أن تصيب وتسقط العديد من طائرات العدو ، وأن تمنعها من تحقيق أهدافها ، مما كان يجبرها على التخلص من قنابلها وصواريخها بعيداً عن أهدافها .

وخلال المدة من ٧ حتى ٢٠ أكتوبر ، حاولت الطائرات المعادية مهاجمة عشرة من مطاراتنا فقط هي : القطامية والمنصورة والصالحية وطنطا وشبراخيت وجناكليس وقويسنا وأبو حماد وبنى سويف وبير عريضة ، وكانت أبرز محاولة يوم السابع من أكتوبر حينما حاول العدو مهاجمة سبعة مطارات ، وبعد ذلك قلل من حجم مجهوده الجوى ضد مطاراتنا ، فأصبح يهاجمها بمعدل من ١ - ٤ مرات في اليوم ، بعد أن أيقن من فشل محاولاته لإخراج قواتنا الجوية من المعركة .

وخلال حرب أكتوبر خاضت قواتنا الجوية مع قوات العدو الجوية خمسين معركة جديدة ، منها ثمانى معارك كبيرة ، أسقط خلالها طيارونا للعدو ٦ تسعين طائرة .

ومنذ صباح السابع من أكتوبر ، وقواتنا الجوية تضرب احتياطيات العدو التعبوية ، وتلحق به طوال أيام القتال التالية أفدح الخسائر في مدرعاته ومعداته وأسلحته وأفراده .

وكانت أسراب المقاتلات القاذفة من طراز سونخوى والميج ١٧ والميج ٢١ تحقق أرقاماً قياسية في معدلات إصابة وتدمير الأهداف المعادية وقد حققت أكثر من ألف طلعة أثناء المعارك . .

كما كانت المعاونة الجوية المباشرة للجيشين الثانى والثالث الميدانيين تتم بكفاءة نادرة وتنسيق فعال منذ أن بدأ القتال ، وتحقق في هذا المجال وحده ثلاثة آلاف طلعة طيران .

وفي مجال الاقتحام الجوى الرأسى ، كان لطائرات الهليكوبتر المصرية دور هام في إبرار رجال الصاعقة في عمق سيناء شمالاً وجنوباً ، بما يحقق المفاجأة وأثار الذعر والارتباك في صفوف العدو وشل حركته وعرقلة إمداداته ومناوراته واستمرت طائرات الهليكوبتر طوال أيام القتال تمد وحدات الصاعقة في عمق دفاعات العدو باحتياجاتها حتى تواصل استنزافها للعدو في أشق الظروف وأحفلها بالمخاطر .

وأيضاً كان لقاذفاتنا دور هام عندما انطلقت من قواعدنا تصب الدمار على الأهداف المعادية ، وتلقى بمئات الاطنان من القنابل على مطارات العدو ، وتبيد وتشتت تجمعات قواته المدرعة والميكانيكية التى تسلت في منطقة الدفرسوار وتحطم معايره ومراكز قياداته ، كما قامت طائراتنا القاذفة أيضاً طوال مراحل القتال بحماية أهدافنا الحيوية في عمق البلاد .

وحقق الفنيون والمهندسون الجويون أعلى درجات الكفاءة والمهارة في أداء الواجب المنوط بهم ، واحتفظوا بنسبة صلاحية عالية للطائرات . . ونجحوا في إتمام أعمال إعادة ملء وتجهيز الطائرات بالوقود والذخائر والقنابل في مدة لا تتجاوز الست دقائق في المرة الواحدة .

وخلال معارك أكتوبر ، حفلت الاحداث بالعديد من البطولات ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

خلال القيام بالفضية الجوية المركزة ، وفي بعض القطاعات قامت طائرات العدو باعتراض طائراتنا التي لم تكن قد وصلت بعد إلى أهدافها ، وصمم طيارونا على إنجاز المهمة مهما كان الثمن ، واشتبك عدد منهم وطائراتهم محملة بالقنابل والصواريخ مع طائرات العدو الاعتراضية ، حتى جاءت طائرات الحماية لتتولى المهمة ، ولينطلقوا هم ليستكملوا مهامهم المحسدة .

وخلال تنفيذ الضربة الجوية الأولى وفي أول دورة لقصف أهداف العدو تصاعدت منها النيران ومحبب الدخان التي غطت سماء المنطقة كلها ، ورغم هذا لم يحاول طيارونا إعادة القصف للمرة الثانية عشوئياً ، وانتظروا حتى انقشع الدخان ، وقاموا بالقصف المباشر على الأهداف المحددة بدقة تامة .

وفي اليوم الرابع عشر من أكتوبر دارت أطول معركة جوية في التاريخ استمرت ٥٥ دقيقة ، اشتركت فيها ثمانون طائرة للعدو في تشكيلات جوية يضم كل منها ثمانى طائرات ، وخسر العدو خلال المعركة اثنتى عشرة طائرة من طراز فانتوم . ولم يتمكن العدو من تحقيق مهمته التي جاء من أجلها ، واضطرت طائراته لإلقاء حمولتها من القنابل وسط المزارع والقرى .

وسجل التاريخ حدثاً فريداً . . عندما استطاع طيار مصرى بطائرته المليكوبتر التي حملت عدداً من رجال الصاعقة إلى عمق دفاعات العدو وعلى بعد سبعين كيلومتراً من القناة ، استطاع هذا الطيار أن يتفادى نيران طائرات العدو التي حاولت عرقلة مهمته ، وبعد نجاحه في إبرار الرجال في موقعهم المحدد . . قام بتفادى نيران طائرات العدو التي حاولت تدميره وهو في طريق العودة ، بل واستطاع أن يدمر طائرة فانتوم من الطائرات المهاجمة له بوساطة صواريخه المضادة للدبابات .

وإذا كان طيارونا قد حققوا بطولات رائعة في السماء ، فقد حقق زملاء لهم في القواعد الجوية بطولات على الأرض لا تقل روعة عما تحقّق في السماء . فلقد استطاع المهندسون والفنيون الجويون تجهيز الطائرات للاقلاع في زمن قياسي لم يتحقّق في الحروب السابقة على المستوى العالمى . . بل أنهم استطاعوا استبدال موتور الطائرة في ليلة واحدة وهو زمن قياسي لم يشاركهم فيه أحد .

لقد وصل الحال بالطيار الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر أنه كان يخشى مواجهة الطيار المصرى في الاشتباكات الجوية ، وقبل حصول الإسرائيليين على الدعم الأمريكى كان التفوق والغلبة لطيارينا في جميع الاشتباكات الجوية .. حتى وصل الحال بطيارى العدو في أحد الاشتباكات الجوية أن اشتبكوا بطائراتهم مع بعضهم نتيجة الارتباك الذى أصيبوا به .

اقتحام المستحيل :

وفي أقل من ست ساعات عقب انطلاق الشرارة الأولى في الساعة الثانية وخمس دقائق ظهر السادس من أكتوبر - العاشر من رمضان - بدأت طلائع الزحف المقدس إلى سيناء الأسيرة في أروع عملية اقتحام لمانع مائى .

وفي أقل من ست ساعات كان على الضفة الشرقية للقناة أكثر من ٨٠ ألف جندى مصرى ، اقتحموا قناة السويس بالنار والدم ، وهاجموا مواقع العدو الحصينة ونقطه القويه على مواجهة ١٧٠ كيلو متراً في موجات متتالية بلغت اثنتى عشرة موجة ..

وتمكنت قواتنا من الاستيلاء على ١٥ نقطة قوية للعدو على الضفة الشرقية للقناة ، وأكملت قواتنا حصار باقى النقاط القوية ، كما تمكنت من الاستيلاء على رؤوس الكبارى بعمق حتى ٤ كيلو مترات ، كما دمرنا ٦٠ دبابة للعدو وأسقطنا له ٢٧ طائرة .

وفي أقل من ست ساعات دمرت قواتنا خط بارليف الدفاعي ، وحطمت حصونه ، وغسلت عار الهزيمة في حرب الأيام الستة ، وأطاحت بأسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر ، وأظهرت زيف نظرية الأمن الإسرائيلي .

وقبل أن يیزغ فجر السابع من أكتوبر ، كانت قواتنا قد عززت مواقعها شرق القناة بأعداد كبيرة من المدرعات والمدفعية والأسلحة الثقيلة بعد أن نجحت في إقامة عدد كبير من الممديات وإنشاء ١٠ كبرى ثقيلة و ١٠ كبرى للمشاة .

ويجي السابع من أكتوبر - اليوم الثاني للقتال - وتنجح قواتنا في تعميق رؤوس الكباري حتى ٨ كيلو مترات في المتوسط ، كما قامت قوات الجيشين الثاني والثالث بمعاونة قواتنا الجوية بصد الهجمات المضادة لاحتياطيات العدو المحلية والقرية والتكتيكية والتعبوية التي قام بها العدو ليلة السابع من أكتوبر وطوال اليوم الثاني للقتال من اتجاهات عدة وبقوات مختلفة ، بلغ إجمالها ثلاثة ألوية مدرعة بالإضافة إلى ألوية المشاة المتمركزة شرق القناة مباشرة .

وخلال هذا اليوم فشل العدو في ضرب معاير قواتنا على القناة في أكثر من محاولة ، واستمر تدفق قواتنا بمعدلات عالية إلى داخل سيناء عبر الجسور ، كما تمكنت قواتنا من صد هجوم مدرع مضاد للعدو ، حشد له أكثر من ١٨٠ دبابة .. ومنى العدو بخسائر لا قبل له بها ، واستسلم العشرات من جنوده ليقعوا أسرى في أيدي قواتنا .

كما قامت تشكيلات من قواتنا الجوية بتوجيه ضربات مركزة ضد المواقع الإسرائيلية في القطاعين الأوسط والشمال حيث أصابها بخسائر جسيمة ..

ومع بزوغ فجر الثامن من أكتوبر ، أصدرت القيادة الإسرائيلية لجبهة سيناء أمراً إلى جنودها بالقلاع والحصون في رأس مسلة وشرق الشط وجنوب البحيرات المرة وبحيرة التمساح بترك مواقعهم ومحاولة الانضمام إلى القوات الإسرائيلية عند المضائق ، وسمحت لهم في حالة تعذر ذلك أن يستسلموا بسلاحهم للقوات المصرية .

وخلال اليوم الثالث للقتال - ٨ أكتوبر - نجحت قوات الجيشين الثاني والثالث في صد جميع الهجمات المعادية المضادة التي قامت بها احتياطيات العدو القادمة من العمق وكبدتها خسائر كبيرة وخاصة في المدرعات والأفراد .

وواصلت قواتنا تقدمها في سيناء ، بعد أن استولت على جميع مواقع العدو الحصينة على الضفة الشرقية للقناة عددها خمسة وعشرون موقعاً كما نجحت قواتنا في تحرير مدينة القنطرة شرق بعد حصار شامل من القوات المصرية منذ الساعات الأولى للقتال ظهر السادس من أكتوبر .

وبنهاية يوم الثامن من أكتوبر تمكنت خمس فرق مشاة من الجيشين الثاني والثالث من إنشاء رؤوس الكباري طط لها بعمق حتى ١٠ كيلو مترات .

وخلال اليوم الثالث للقتال حاولت القوات الجوية الإسرائيلية مهاجمة قواتنا في بورسعيد ، وتصدت لها طائراتنا نرمتها من تحقيق أهدافها .

وكانت حصيلة خسائر العدو في يوم ٨ أكتوبر تدمير ٢٤ طائرة « فانتوم » وسكاي هوك ، وعدد من طائرات كوبر وأسر عدد من طيارها كما دمرت قواتنا للعدو ٣٦ دبابة وعدداً من عرباته المجهزة ، كما أسرت قواتنا فرداً للعدو .

وأعلنت إسرائيل على لسان قادتها انسحاب قواتها إلى خط دفاعي جديد في مواجهة الهجوم المصري الساحق .

وفي يوم التاسع من أكتوبر - اليوم الرابع للقتال - أتمت قواتنا تحقيق المهمة المباشرة - الأولية - بنجاح .. حيث قامت تشكيلات نسق أول الجيشين الثاني والثالث الميدانيين « الفرق المشاة الخمس » بتوسيع وتعزيز رؤوس الكبارى ، كما نجحت في صد وتدمير هجمات العدو المضادة وأوقعت بالعدو خسائر فادحة .

وخلال هذا اليوم نجحت قواتنا في تدمير لواء مدرع إسرائيلي ، هو اللواء ١٩٠ وأسرت قائده العقيد عساف ياجورى مع مئات من جنوده الذين نجوا من الموت .

وحاولت موجات جديدة من لواءين مدرعين للعدو التقدم صوب القناة ، فتصدت لها قواتنا ، وقبل أن تغرب شمس اليوم الرابع للقتال كانت قلوب العدو تنسحب بسرعة ناحية الشرق بعد أن تكبد العدو خلال قتال هذا اليوم - خسائر فادحة بلغت في الدبابات فقط ١٠٢ دبابة ٥

وفي البحر خسر العدو خلال معركة بحرية مع قواتنا خمسة زوارق ، كما أسقطنا للعدو ١٦ طائرة وأسرننا ٤ طيارين إسرائيليين ٥

وتميز اليوم الخامس للقتال - ١٠ أكتوبر - بعمليات مطاردة واسعة قامت بها قواتنا في سيناء .. وحينما حاولت القوات الجوية المعادية مهاجمة بعض قواعدنا الجوية تصدت لها وسائل دفاعنا الجوي وأجبرتها على الفرار .. وقد بلغت خسائر العدو خلال هذا اليوم تدمير ست طائرات ، وثلاث دبابات وأربعة مدافع ١٠٥ مم وستة مدافع ذاتية الحركة وأربعة هاونات كما استولت قواتنا على ١٢ دبابة معادية سليمة من طراز « إم - ٦٠ » وستوربيون وثلاث عربات مدرعة وعدد من الأسرى . بالإضافة إلى أعداد كبيرة من البنادق والرشاشات .

وتشهد ضراوة المعارك في اليوم السادس للقتال - ١١ أكتوبر - وتشهد جبهة سيناء معارك طاحنة بين الجانبين . تشترك فيها مئات الدبابات والمدافع والمدفعية .. وحاول العدو خلال هذا اليوم أن يدفع بالمزيد من طائراته لمهاجمة مطاراتنا فتصدت له مقاتلاتنا ودفاعنا الجوي وأسقطنا له ٤ طائرات فانتوم وميراج بوساطة مقاتلاتنا ، كما استطاعت وحدات دفاعنا الجوي أن تسقط له ٥ طائرات أخرى .. وجن جنون العدو ودفع بمزيد من طائراته لمهاجمة مطار المنصورة فتصدت له مقاتلاتنا وأسقطت له ٤ طائرات ، وعندما حاول اختراق مجالنا الجوي للمرة الثالثة أسقطنا له ست طائرات ، وطائرة أخرى سابعة أسقطت في منطقة سدر على الضفة الشرقية لخليج السويس .

وخلال اليوم الثاني عشر من أكتوبر - اليوم السابع للقتال - تركز القتال الشرس في المحور الأوسط ، وتم تدمير ١٣ دبابة و ١٩ عربة مدرعة من طابور إسرائيلي حاول وقف تقدم قواتنا .. كما خسر العدو ١٥ طائرة خلال معارك هذا اليوم .

ويجئ اليوم الثامن للقتال .. حيث استمرت معارك الدبابات في سيناء .. في الوقت الذي استطاعت فيه قواتنا أن تعزز مواقعها المحررة وأن تنشئ أحد عشر معبرا على طول القناة . وعندما حاول العدو الإغارة بطائراته على قواتنا شرق القناة أسقطنا له ١٦ طائرة منها ثلاث طائرات هليكوبتر .

وبصير نصريح من المتحدث العسكري المصرى عن استسلام الموقع الإسرائيلى الحصين فى بورتوفيق بجميع أفراده من قادة وضباط وجنود بأسلحتهم ومعداتهم :

وبدأت قواتنا مع صباح الرابع عشر من أكتوبر - اليوم التاسع للقتال - تطوير الهجوم شرقاً حيث تقدمت قواتنا بنجاح على طول المواجهة . وتمكنت قواتنا من تحرير مساحات جليدة من الأرض ، كما نجحت قواتنا فى تدمير ١٥٠ دبابة للعدو واستطاعت قوات دفاعنا الجوى أن تسقط للعدو ٢٩ طائرة ، فى الوقت الذى دارت فيه معارك جوية واسعة فى شمال الدلتا دمر فيها للعدو ١٥ طائرة أخرى ..

وتبدأ أحداث اليوم العاشر للقتال بقتال شرس وعنيف للمدرعات فى سيناء استمر طوال اليوم وبكثافة عالية من القوات ، ودمر للعدو خلاله سبع دبابات وثلاث عربات مدرعة وعشرون عربة إدارية ، كما أسقطت قواتنا للعدو تسع طائرات ..

ونجى أحداث اليوم الحادى عشر للقتال حيث تشهد مسارح العمليات تصاعداً خطيراً فى البر والبحر والجو . فى مسرح العمليات البرى تصدت قواتنا لهجوم إسرائيلى مدرع على المخور الأوسط استمر ست ساعات وانتهى بتدمير الجزء الأكبر من مدرعات العدو الذى انسحب بعد تكبده خسائر عالية . [١]

وفى مسرح العمليات البحرى دارت معارك بحرية شرسة فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط شاركت فيها قواتنا الجوية .

وفى مسرح العمليات الجوى جرت معركة جوية أسقطنا فيها للعدو ١١ طائرة .

وشهد هذا اليوم بدء المحاولة الإسرائيلية لعبور القناة إلى الضفة الغربية . حيث تعرضت المحاولة لثيران كثيفة ومركزة من قواتنا .

وخلال يوم ١٧ أكتوبر - اليوم الثانى عشر للقتال - شهد القطاع الأوسط من سيناء أعنف معارك الدبابات فى التاريخ . فمن يوم ١٥ أكتوبر وعلى مدى ثلاثة أيام دفع العدو بحوالى ١٢٠٠ دبابة : دمر جزء كبير منها ومنى العدو بخسائر جسيمة فى معداته وأفراده ، وخلال معارك هذا اليوم فقد العدو ٢١ طائرة وعدداً كبيراً من دباباته وعرباته المدرعة .

ويشهد القتال ضراوة فى اليوم الثالث عشر للقتال - ١٨ أكتوبر - وتستمر معارك الدبابات الكبرى على أرض سيناء . وقد بلغت خسائر العدو خلال معارك هذا اليوم ٣٠ دبابة و ١٠ عربات مدرعة و ٥ بطاريات مدفعية وقاعدتين للصواريخ وعدداً من مستودعات الذخيرة ، كما أسقطت قواتنا للعدو ١٥ طائرة وتم أسر ٤ طيارين .

وعلى طول جبهة القتال - خلال يوم ١٩ أكتوبر - واصلت قواتنا الجوية قصفها لتجمعات مدرعات العدو بينما واصلت قواتنا حصارها حول القوات الإسرائيلية المتسللة غرب القناة ، وتكبدت قواتنا العدو خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات وتسقط له ثلاث طائرات وتأسر أحد طياريهما ..

وفي اليوم الخامس عشر للقتال يزداد القتال عنفاً وضراوة خاصة في منطقة الدفرسوار بين قواتنا وقوات العدو المتسللة .. والعدو يتكبد خسائر كبيرة منها ٧٠ دبابة ، ٤٠ عربة مدرعة ، و ٢٥ طائرة . وتقوم إسرائيل باستدعاء مزيد من قوات الاحتياطى للمرة الثالثة منذ بدء الحرب ، وكانت المرة الأولى يوم ٦ أكتوبر والثانية يوم ١٠ أكتوبر .

وخلال يوم ٢١ أكتوبر دارت معارك عنيفة شرق القناة في منطقة الدفرسوار بين قواتنا وقوات العدو ، تكبد العدو خلالها خسائر جسيمة في معداته وأفراده ، وتمكنت قواتنا من تحرير مزيد من الأراضي المحتلة بسيناء وأسرت عدداً من أطقم الدبابات الإسرائيلية . و خلال معارك هذا اليوم دارت معارك جوية عنيفة بين طائراتنا وطائرات العدو ، دمرنا له خلالها ٩ طائرات وأسرى ٣ طيارين ، كما تمكنت قواتنا من إسقاط ٧ طائرات معادية منها ٥ طائرات هليكوبتر كانت تحاول إمداد القوات الإسرائيلية في الدفرسوار .

ويجئ اليوم السابع عشر للقتال ، وتقوم قواتنا بذلك تجمعات العدو من الدبابات والمدفعات شرق القناة وفي منطقة الدفرسوار وكبدته خسائر فادحة في المعدات والأفراد ، كما دارت معركة بحرية على الساحل الشمالى أمام بورسعيد ، وأسفرت المعركة عن تدمير ٣ قطع بحرية للعدو وإصابة طائرتين هليكوبتر له ، وانسحبت باقى الوحدات المعادية شرقاً .

ويصدر قرار بإيقاف إطلاق النار من مجلس الأمن الدولى .

وخلال يوم ٢٣ أكتوبر ، انفجر الموقف على الجبهة في قتال عنيف بعد ساعات من وقف إطلاق النار بعد محاولة قوات العدو في الدفرسوار التحرك لخطوط جديدة غرب القناة ، وتكبد العدو خلال القتال خسائر كبيرة في الدبابات والعربات والأفراد كما دمر له سبع طائرات .

ومع الساعات الأولى من يوم القتال التاسع عشر حاول العدو أن يقطع الطرق المؤدية إلى مدينة السويس ، وحاولت قوات العدو اقتحام المدينة .. وتدور على مشارف المدينة أشرس وأعنف المعارك ويفشل العدو في اقتحام المدينة ويتكبد المزيد من الخسائر ، حيث دمر له ١٣ دبابة و ٨ طائرات مبراج .

ويجئ يوم الخامس والعشرين - يوم القتال العشرون - ويحاول العدو من جديد اقتحام مدينة السويس ويمنى بفشل ذريع في مواجهة المقاومة المستميتة من قواتنا بالمدينة يدعمها الأهالى . ويدمر للعدو ١١ دبابة ويحاول العدو اقتحام المدينة للمرة الثانية وتلحق له ٨ دبابات أخرى .

وقد كان لرجال المهندسين المصريين دور عظيم في معارك التحرير الكبرى . عبروا مع موجات العبور الأولى ، حيث قاموا بتأمين مرور رجال الموجة الأولى من حقول الألغام ، كما قاموا بفتح الثغرات في الساتر الترابى ، ثم تجهيز الأرصفة للمعديات والكبارى .

وخلال ساعتين من انطلاقة الشرارة ، كان حجم قوات المهندسين العسكريين التى عبرت القناة ، والتى اندفعت فوق سطح الساتر الترابى وفوق صفحة مياه القناة ، كان قد تجاوز خمسة عشر ألف مقاتل .

وباستخدام طلبات المياه المصرية الصنع - مدافع المياه - قام الرجال بفتح الثغرات في الساتر الترابى على طول المواجهة ، بينما اندفعت مئات العربات المحملة بمعدات الكبارى واللنشات إلى سطح القناة لإقامة جسور العبور ،

وبدأت الكبارى تقام أمام الثغرات التي فتحت في الساتر الترابي . وخلال ساعات كان قد أقيم عشرة كبارى ثقيلة وعشرة أخرى خفيفة للمشاة ، وعدد كبير من المعدات . مما أتاح لدبابتنا ومعدتنا وأسلحتنا الثقيلة أن تعبر القناة وتصل رؤوس الكبارى في وقت مناسب .

وركز العدو نيرانه على الكبارى في محاولة مستميتة لمنع تدفق قواتنا الرئيسية وأصيب معظم الكبارى أكثر من خمس مرات ، وكانت إرادة الرجال أكبر من أي تحد . حيث كان يتم إصلاح الكبارى أثناء القصف المعادي عليها ، ولم يتعطل كوبرى واحد طوا فترة العبور .

ولم يقتصر دور المهندسين العسكريين على إنشاء المعدات والكبارى . بل قاموا ببذل مجهود ضخم في الاستيلاء على رؤوس الكبارى وتعزيزها ، وذلك بالتعاون مع باقي الأسلحة المشتركة في صد هجمات العدو المدرعة برص الألغام في مواجهة العدو ولحصر مناوراته وإيقاف تحركاته . كما عبرت إلى رؤوس الكبارى مئات القطع من المعدات الهندسية المتنوعة لتعاون القوات الرئيسية في تجهيز مواقعها بخر خنادق ومواقع الدبابات والمدفعية ويكنى قوات المهندسين فخراً أنها استطاعت أن تقوم بزرع مليون لغم مضاد للدبابات خلال حرب أكتوبر - رمضان .

وقد انفجر البركان بعد صمت الغليان حيث انطلقت ١٠٠,٠٠٠ قذيفة في أكبر حشد للتمهيد النيرانى في الشرق الأوسط وبحجم ٢ مليون كيلو جرام من المتفجرات بمعدل ١٧٥ طلقة في الثانية وعشرة آلاف وخمسمائة طلقة في الدقيقة . إنه البركان الذى ثار بعد صمت طويل .

لقد نفذ التمهيد النيرانى كما خطط له تماماً ، وكانت نتائجه أكثر مما كان متوقفاً . وأوقع بالعدو الإسرائيلى خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات ، ودمر جميع تحصيناته الميدانية وهدم قلاعه وحصونه القوية في خط بارليف ، وأصبحت النقاط القوية مقابر لمن فيها .

ومع بداية عبور الموجات الأولى للاقتحام انطلقت الصواريخ التكتيكية تشق عنان السماء لتصيب أهدافها في عمق سيناء وتحيلها إلى دمار .

ومع توالى الموجات الأخرى للعبور ، استمرت المدفعية تلك تحصينات العدو في خط بارليف ، وتضرب إحتياطياته وتسكت مدفعياته تماماً .

ونجحت المدفعية المصرية في إسكات مدفعية العدو ، وشل جميع إحتياطاته القوية حتى انه لم يتمكن إحتياطى واحد منها أن يتحرك لمنع عبور قواتنا ، كما لم تتمكن دبابة معادية واحدة من صعود الساتر الترابى واحتلال المصاطب المجهزة به لوقت العبور ، كما لم يتمكن مدفع معاد واحد من التدخل في عملية العبور إلا بعد ساعة من اقتحام القناة .

وتابعت المدفعية إطلاق نيرانها الكثيفة والمركزة على النقاط القوية والقلاع المعادية حتى وصات قواتنا المكلفة باقتحامها لمسافة ٢٠٠ متر فقط منها ، حيث قامت قواتنا باقتحامها وتدميرها أو حصارها .

واستمرت نيران المدفعية ترحف أمام قواتنا التى تابعت توسيع رؤوس الكبارى بفضل رجال الملاحظة الذين عبروا مع الموجات الأولى للاقتحام ، وكذا رجال ملاحظة المدفعية الذين كانوا يعملون خلف خطوط العدو . وبذلك أمكن لنيران المدفعية المصرية أن تصل إلى عمق العدو في الوقت والمكان المناسبين .

كذلك استطاعت الصواريخ أرض-أرض والتي وجهت إلى مراكز القيادة والسيطرة الرئيسية للعدو على المحور الشمالى والمحور الأوسط والمحور الجنوبي وضد مركز الإعاقة والشوشرة الرئيسى الموجود فى أم خشية ، استطاعت هذه الصواريخ أن تدمر هذه المواقع تدميراً شاملاً مما أربك العدو وأجبره على نقل مراكز القيادة والسيطرة بعيداً إلى العمق فى العريش .

وكان على المشاة التى عبرت ضمن الموجات الأولى للاقتحام أن تقاتل الدبابات المعادية بمفردها لبضع ساعات حتى تصل دباباتها وأسلحتها الثقيلة : : وهنا جاء دور رجال المدفعية المضادة للدبابات الذين عبروا مع المشاة فى اللحظات الأولى لاقتحام القناة .

وكانت الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات التى أعدها المدفعية لتدمير مدرعات العدو إحدى المفاجآت الكبرى فى حرب التحرير الكبرى : : وكان الرجال من خلفها بمهارتهم وتدريبهم العالى وروحهم المعنوية العالية وتصميمهم وثباتهم أكثر من مفاجأة مؤثرة خلال مراحل الحرب :

ويتنسق كامل بين هذه الصواريخ والمدفعية الثقيلة أمكن تدمير جميع دبابات العدو التى كانت متمركزة بالقرب من القناة أو فى العمق القريب خلال الساعات الأولى للقتال . :

وكان لتخطيط وإدارة أعمال المدفعية طوال أيام القتال فضل كبير فى إسكات بطاريات مدفعية العدو وحرقها من الحشد أو التأثير على قواتها :

فى البر والبحر :

منذ اللحظات الأولى لحرب التحرير ، كانت غابة الصواريخ قد بدأت تهتز بعنف وكان اعصارها قد اجتاحتها .

وكما توقع الرجال امتدت الذراع الطويلة لإسرائيل فى ثقة تحاول سحق القوات القائمة بالعبور . . وبدأت أروع سيمفونية بين الأرض والسماء . . وانطلق الرجال يعزفون على صواريخ سام ٢ ، سام ٣ ، سام ٦ ، سام ٧ :

وعندما غربت شمس اليوم الأول للقتال كانت إسرائيل قد هاجمت قواتنا بعدد ٤٤٦ طلعة طائرة ، فشلت تماماً فى أن تحقق أهدافها . . وكانت بداية النهاية لبتر ذراع إسرائيل الطويلة . :

وتحول ليل الجبهة إلى نهار ، وهاجمت إسرائيل بـ ٢٦٢ طائرة أخرى ، وبدأت طائراتها تنهوى محترقة ليزداد وهج السماء خلال تلك الليلة العظيمة :

ومع صباح السابع من أكتوبر زادت الهجمات الجوية المعادية وقصدت لها غابة الصواريخ لإحباط جميع محاولاتها لمنع تدفق القوات عبر الكبارى إلى سيناء وتمر الدقائق والساعات ، ولا تجد إسرائيل أمامها إلا زيادة كثافة الهجمات الجوية ، ويلتزم الطيارون الإسرائيليون استحالة اختراق هذه الغابة الرهيبة فراحوا يتخلصون من حمولاتهم المدمرة على المسافات التى تكفل الأمن لهم والأمان لنا : :

ونجح العبور ، وبدأت قواتنا تعزز مواقعها . . والطائرات الإسرائيلية تحاول التدخل ، ولكنها تدفع الثمن غالياً .

وتصدر القيادة الاسرائيلية في اليوم الأول للحرب أمراً مشدداً إلى طياريهما بعدم الاقتراب من قناة السويس لمسافة تقل عن خمسة عشر كيلومتراً ، وكان ذلك بعد ساعتين فقط من بدء القتال .

وتراوح متوسط ما يفقده العدو يوميا من الطائرات التي تهاجم قواتنا شرق القناة ما بين ٤-٦ طائرات ، وبدأ العدو يعيد حساباته :

وحققت قوات الدفاع الجوي غطاء جويّاً صلباً ، حيث قاتلت قواتنا البرية في حجة فحققت المعجزة .

وبدأ العدو يتجه إلى مطاراتنا ، مع مضاعفة عدد الطائرات القائمة بالهجوم ، وأصبح يهاجم المطار بعدد ما بين ١٦ - ٢٤ طائرة مع مهاجمة مواقع الرادار لفتح ثغرات في الحقل الراداري ، ومنى العدو بفشل ذريع ، وظلت القواعد الجوية والمطارات تعمل بكفاءة طوال أيام القتال ، ولم تصب أية طائرة وهي على الأرض .

مطار واحد فقط استطاعت الطائرات الإسرائيلية اغلقه لمدة تزيد على ثلاث ساعات ودفعت الثمن باهظاً : حيث دمرت لها خلال الهجوم اثنتا عشرة طائرة .

وكان هذا المطار هو الوحيد الذي لم يكن يدافع عنه بالصواريخ ولكن بوحدة مدفعية مضادة للطائرات .

وهكذا لم تستطع الطائرات الاسرائيلية أن تحقق شيئاً في جبهة القتال . . . فقواتنا عبرت بنجاح ، والجيشان الثاني والثالث قد عززا مواقعهما في سيناء .

وخلال مراحل القتال المختلفة ترايد سقوط الطائرات الإسرائيلية بنيران الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات . وذراع إسرائيل الطويلة مشلولة مغلولة أمام دفاعنا الجوي المتين . .

وبدأ طيران العدو يتجه إلى مواقع أخرى الهدف منها هو تحقيق بعض الثقة المفقودة في طيرانه .

واتجه إلى بور سعيد حيث يتواجد بقطاعها أربع بطاريات للصواريخ فقط . . وبدأت المواجهة الشرسة . . الصواريخ تنطلق إلى أعلى والطائرات الإسرائيلية تنهوى إلى أسفل . . إحدى المواجهات تهاجم العدو ب ٩٤ طائرة . . والثمن تدمير ١٢ طائرة معادية وتكرر المحاولة في اليوم الثاني بعد أن أيقنت إسرائيل أن الساحة أصبحت خالية لعربيتها ويرتفع الثمن إلى ٢١ طائرة إسرائيلية احترقت في سماء بور سعيد الباسلة :

ويصرح قادة العسكرية الإسرائيلية « أن الدفاع الجوي المصري يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب ، تفوق تلك التي واجهها الأمريكيون في فيتنام » .

وخلال مغارك أكتوبر - رمضان - استطاعت قوات دفاعنا الجوي أن تبتز ذراع إسرائيل الطويلة من جنودها وأن تسجل حدثاً فريداً في تاريخ الحروب العالمية .

في هدوء وصمت كانت تحركات وحداتنا البحرية ، وفي تنسيق رائع تأخذ مواقعها القتالية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط قبل ساعة الصفر يوم السادس من أكتوبر ، وعندما انطلقت الشرارة وطوال أيام القتال أثبتوا للعالم أنهم كانوا وما زالوا وسيقون سادة البحار .

منذ اللحظات الأولى للقتال انطلقت قواتنا البحرية من مدمرات وغواصات ولنشات صواريخ وطورييد ووحدات صاعقة بحرية وضفادع بشرية انطلقوا من خلال تنسيق وتخطيط دقيق يكيلون للعدو الضربات الموجعة .

وخلال الساعات الأولى للقتال قامت بطاريات المدفعية الساحلية في بورسعيد بقصف قلعة العدو الحصينة في بور فؤاد ، والحصن المنيع عند الكيلو ١٠ جنوب بور فؤاد ، كما قام سرب من اللنشات الصاروخية المسلحة بصواريخ غير موجهة بإنزال ضربة مركزة على تجمعات العدو في رمانة على المحور الشمالى ، وقام تشكيل آخر بمهاجمة مرسى العدو في رأس برون على البحر المتوسط . .

وفي البحر الأحمر قامت وحدات المدفعية الساحلية بمعاونة قوات الجيش الثالث وقصفت مواقع العدو في مواجهتها ، وقام سرب من لنشات الصواريخ بقصف أهداف العدو في شرم الشيخ . وفى نفس الوقت الذى وجهت فيه ضربة صاروخية ضد منطقة رأس سدر واندلعت الحرائق والانفجارات في مواقع العدو على سواحل البحرين الأبيض والأحمر .

وفي البحر الأحمر أيضاً استطاعت المدمرات والغواصات منذ اللحظات الأولى للقتال إغلاق باب المندب ، وفرض حصار بحرى على أى سفن متجهة إلى إسرائيل .

ودارت العديد من المعارك بين لنشاتنا الصاروخية وبين اللنشات الصاروخية للعدو . . وكانت أول مواجهة بحرية في التاريخ البحرى بالصواريخ الموجهة بحر - بحر ليلة ٨ - ٩ أكتوبر ، وبفضل طول مدى صواريخنا عن صواريخ العدو ، ودقة أجهزة الصواريخ وأجهزة الاكتشاف ، فاجأت صواريخنا العدو وهو ما زال متخذاً تشكيل الإبحار ، وأطلق التشكيل المصرى صواريخه الموجهة فأصاب أهدافها بدقة متناهية وما هى إلا لحظات معدودة حتى كانت أربع قطع من تشكيل العدو تنهوى إلى القاع . .

أيضاً كانت هناك معركة بحرية فريدة ليلة ١٥ - ١٦ أكتوبر ، حيث اشتبك سرب من لنشاتنا الصاروخية مع أربع قطع بحرية للعدو أمام أبى قير ، ودمرنا للعدو لنشين ، وأصيب الثالث ، وشحط أمام رشيد حيث قامت طائراتنا بمهاجمته مع فجر يوم ١٦ أكتوبر لتجهز عليه تماماً . .

وخلال فترة العمليات أغرقت غواصاتنا في البحر الأبيض المتوسط سفينتين الأولى حمولة ٤٦ ألف طن والأخرى حمولة ألفى طن . .

وكانت عمليات قواتنا البحرية لقطع مواصلات العدو البحرية مؤثرة للغاية ، فن بين ٢٠٠ سفينة كانت تدخل موانئ إسرائيل من البحر المتوسط شهرياً انخفض العدد فيما بين ٦ - ٣٠ أكتوبر ليصبح ٢٣ سفينة فقط . . أما في البحر الأحمر فكان الحصار كاملاً . . اذ لم تترك سفينة إسرائيلية واحدة تخرج أو تدخل ميناء لإيلات طوال الحرب . .

وقامت الصاعقة البحرية بغارة على مرسى بلاعيم ليلة ٧ - ٨ أكتوبر حيث نسفت حفار البترول المتمركز فيها .

وفي ليلة ٩ - ١٠ أغارت فصيلة من الصاعقة البحرية على منطقة أبو درية على خليج السويس ، وقامت بتلقيم مفارق الطرق ، ونسفت مستودعات البترول - الموجودة في المنطقة .

وفي ليلة ١٥ - ١٦ تمت عملية إغارة ناجحة بواسطة الصاعقة البحرية على منطقة الشيخ بيتان جنوب الطور .

وحاول العدو دون جدوى أن يغير بوحدات من الكوماندوز على قواعدنا البحرية ، واستطاعت قواتنا أن تدمر له في الغردقة قارباً بطقه من الضفادع البشرية شرق جزيرة جيفتون بالبحر الأحمر صباح يوم ١٢ أكتوبر ، كما دمرنا للعدو لنشاً مسلحاً وعدداً من قوارب المطاط المحملة بالكوماندوز عندما حاول الإغارة على مرسى السادات والأديبة .

وفي ليلة ١٦ - ١٧ حاول العدو الإغارة بواسطة الضفادع البشرية على قاعدة بور سعيد ، وكان رجالنا له بالمرصاد حيث أغرقوا له أحد القوارب ودمروا مجموعة الضفادع البشرية وانتشال جثث أفرادها . .

ولو قد كنا كشف حساب لقواتنا البحرية في حرب أكتوبر - رمضان ، فس نجد أنها خاضت أربع معارك رئيسية بالصواريخ البحرية ، وقصفت اثني عشر هدفاً ساحلياً معادياً ، وأغرقت خمس سفن ، منها ناقلة بترول ، وصدت بنجاح تسع هجمات بحرية للعدو ضد سواحلنا ، ونفذت أربع عمليات خاصة . . وبتفصيل أكثر اغرقت بحريتنا للعدو تسعاً وعشرين قطعة بحرية من أنواع مختلفة منها سبعة لنشات صواريخ ، وناقلة مجهزة لحمل طائرات هليكوبتر وناقلة بترول متوسطة وأخرى صغيرة ، وثلاث سفن ، كما أصابت سبع قطع معادية أخرى ، وأسقطت للعدو اثني عشرة طائرة هليكوبتر .

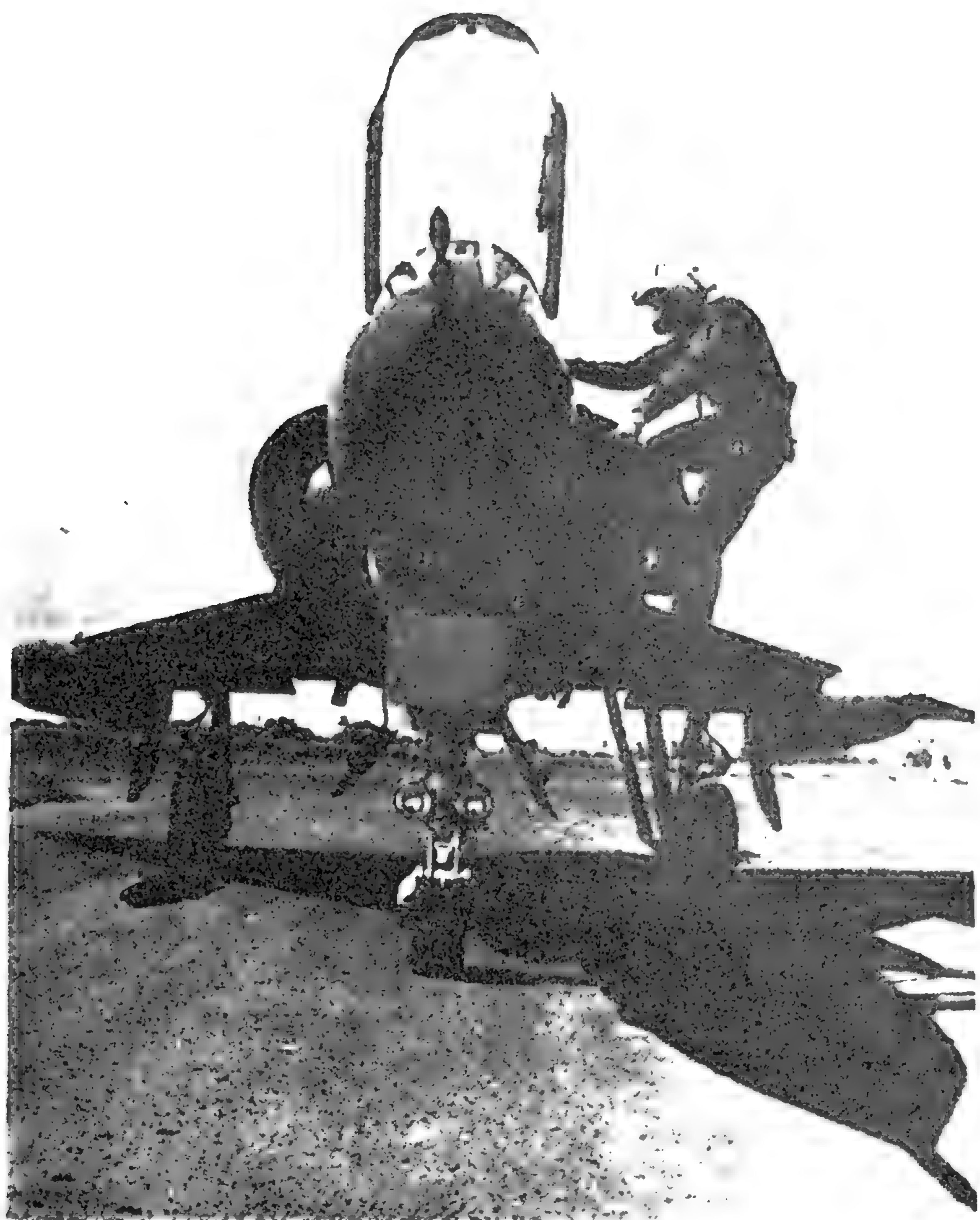
دروس الحرب الرابعة ! :

أسفرت حرب التحرير الكبرى عن نتائج مباشرة على الصعيدين العالمي والمحلي . من بين هذه النتائج الجديرة بالذكر :

- انقلاب المعايير العسكرية في العالم شرقاً وغرباً .
- تغيير الاستراتيجيات العسكرية في العالم ، والتأثير على مستقبل كثير من الأسلحة والمعدات .
- أعادت حرب أكتوبر إلى المقاتل المصري والعربي ثقته بنفسه وقيادته وعدالة قضيته ، كما أعادت للشعب ثقته بدارع الحماية له المتمثل في قواته المسلحة .
- حققت الوحدة العربية الشاملة في أروع صورها .
- جعلت من العرب قوة دولية - لها ثقلها ووزنها .
- صمود الإرادة المصرية والعربية وسقوط الإسطورة الإسرائيلية .



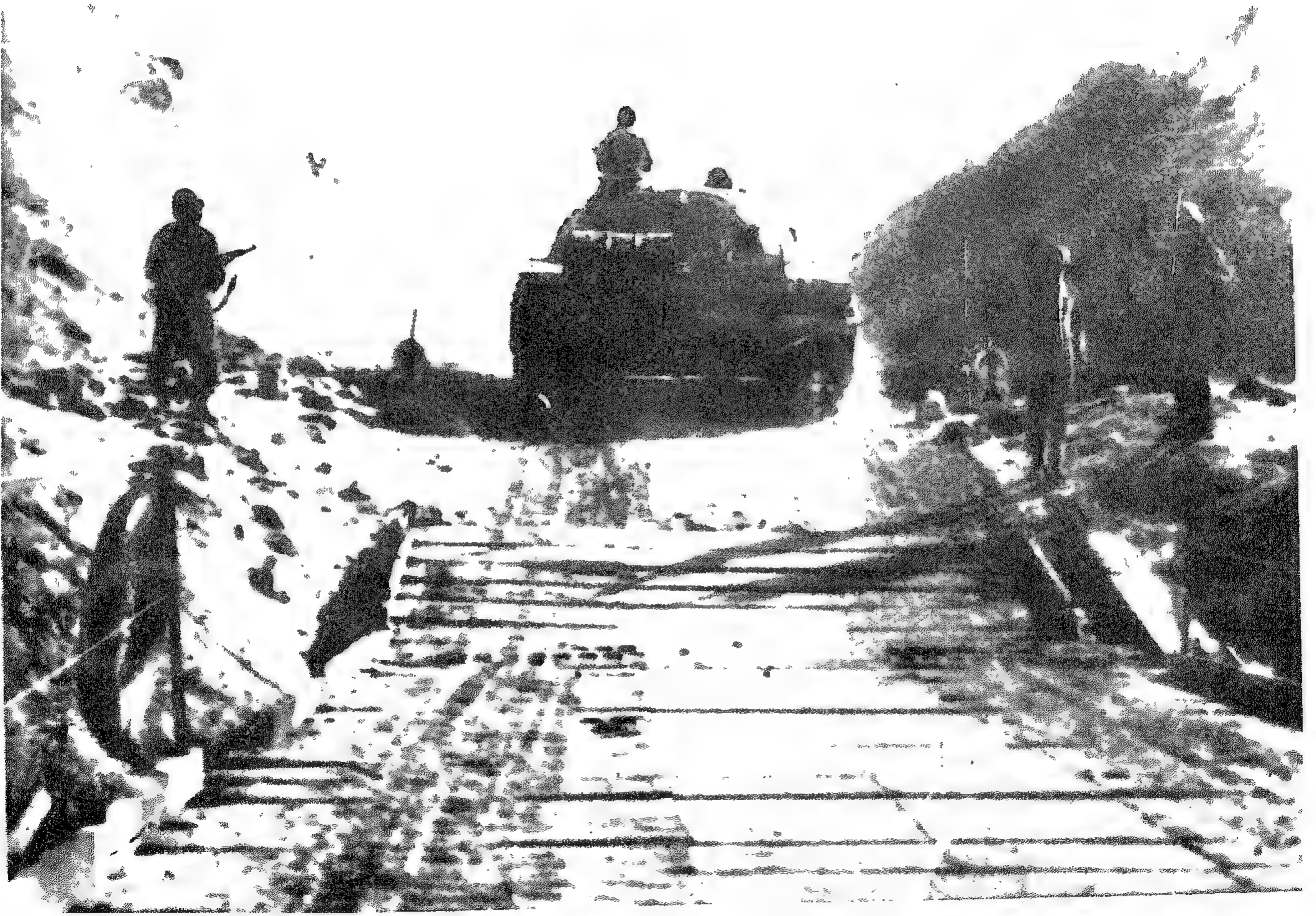
اللواء طيار محمد حسنى مبارك : افتتاحية ناجحة لسيمفونية العبور



نسر الجو المصريين .. الاستعداد للقلاع



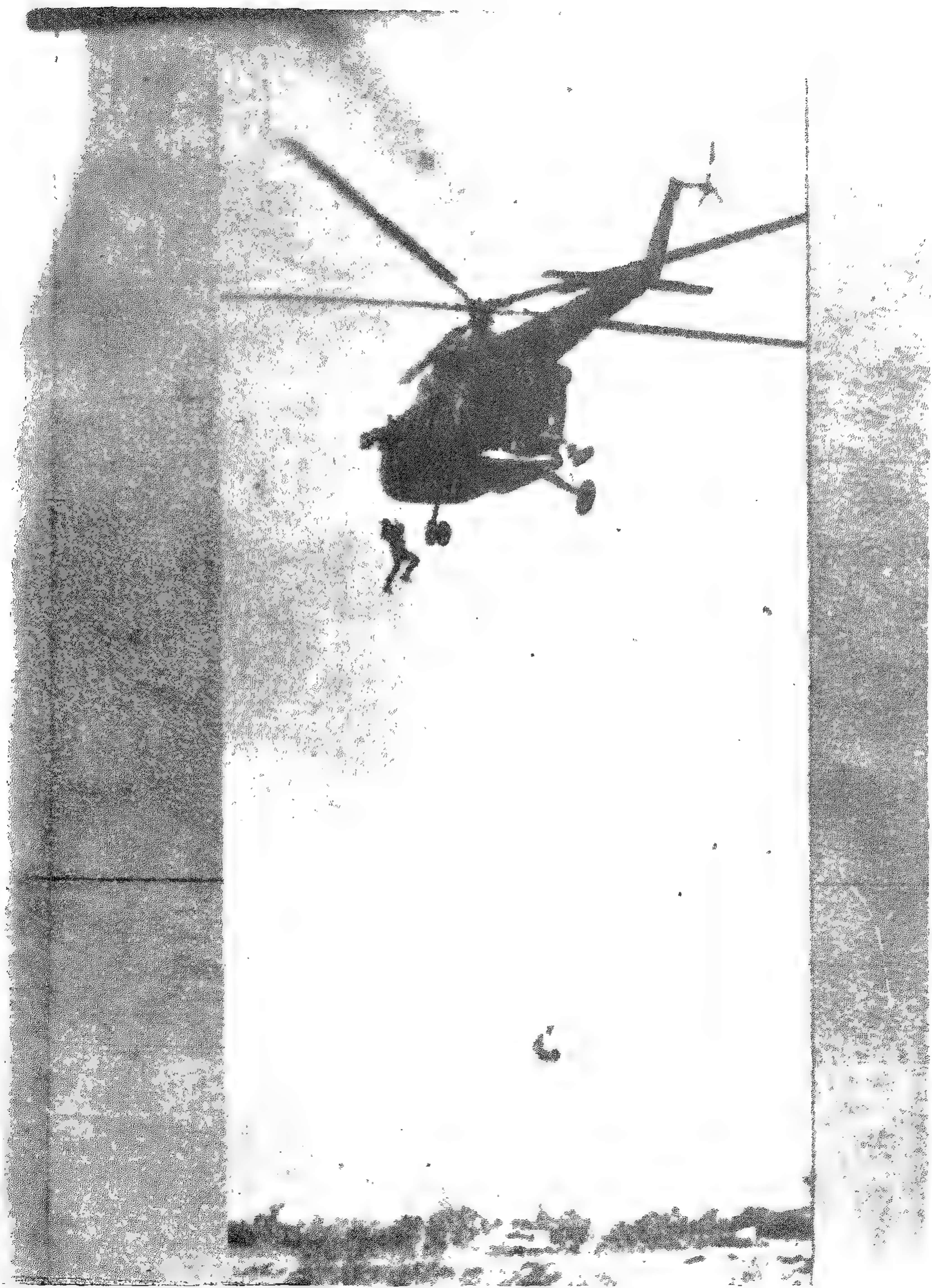
مشهد لاينسى : استسلام النقطة الحصينة بلسان بور توفيق ورفع علم مصر عليها



الدرعات .. سلاح الحرب في الصحراء .. لحظة العبور الى الشرق ..



اللحظات الحاسمة .. أمام خط بارليف .



القوات المصرية الخاصة .. العمل خلف خطوط العدو !



الحرب للتحرير ... التحرك الى سيناء ..



جنود المشاة يحملون أسلحتهم ويصعدون الساتر المتراعى العالى .. خط بارليف ..



فرحة الانتصار ..



جنود المشاة لحظة العبور العظيم — يسرعون بالقوارب الى خط الماء



الجندي المصري يسيطر على خط بارليف

عبور قناة السويس بقوارب المظاظ





المنفعة لك خط بارليف

نسلیم موقع اسرائیلی





عظام احدى دبابات اسرائيل بالقنطرة



مجموعة من الاسرى الاسرائيليين



العلم المصرى على رئاسة موقع اسرائيلى

عظم احدى الطائرات الاسرائيلية





البحرية المصرية تشارك في المعركة





وارتفع علم مصر على أرض سيناء

فهرس

الصفحة

٧	مقدمة الدكتور ممدوح البتاجى
١١	مدخل مصر . التاريخ والحضارة

الباب الأول

الجيش المصرى الفرعونى

٢١	الفصل الأول : تطور الجيش المصرى الفرعونى
٢٥	الفصل الثانى : أحسن الأول وطرد الهكسوس من مصر
٢٨	الفصل الثالث : تحتمس الثالث ومعركة نجلو
٤١	الفصل الرابع : رعمسيس الثانى ومعركة قادش

الباب الثانى

مصر الإسلامية

٥١	الفصل الأول : فتح مصر
٥٨	الفصل الثانى : معارك فتح مصر
٦٦	الفصل الثالث : النصر العظيم فى حطين
٧١	الفصل الرابع : معركة المنصورة
٧٨	الفصل الخامس : جيش مصر يحقق نصراً خالداً على التار فى عين جالوت

الباب الثالث

معارك الجيش المصرى فى الشام

٩٧	الفصل الأول : فى مواجهة الجيوش التركية
١٠٤	الفصل الثانى : معركة الزرعة (١٤ أبريل)
١٠٥	الفصل الثالث : معركة عكا (٢٧ مايو ١٨٣٢)
١١٠	الفصل الرابع : معركة (حمص)
١١٥	الفصل الخامس : معركة بيلان (٣٠ يولية ١٨٣٢)

الصفحة

١١٩	الفصل السادس : معركة قونية
١٢٦	الفصل السابع : اتفاقية (كوتاهية) ١٨٣٣/٥/١٤
١٢٨	الفصل الثامن : معركة (نزيب) ٢٤ يونية ١٨٣٩
١٣٥	الفصل التاسع : قوى الاستعمار تتحرك

الباب الرابع

الجيش المصرى يحرز الانتصارات فى المكسيك

١٤٧	الفصل الأول : الأورطة المصرية السودانية
-----	---

الباب الخامس

معارك الثورة العرابية

١٦١	الفصل الأول : أحمد عرابى فى دائرة الضوء
١٦٥	الفصل الثانى : أنظار بريطانيا على مصر
١٧٠	الفصل الثالث : ضرب الاسكندرية
٢١٨	الفصل الرابع : معارك الجبهة الغربية (كفر النوار)
٢٣١	الفصل الخامس : معارك الميدان الشرقى

الباب السادس

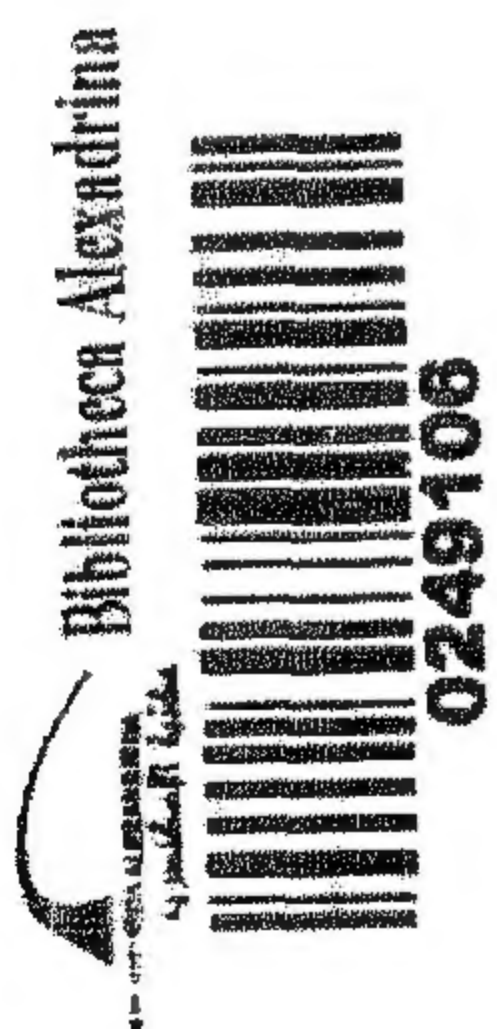
الجولات العربية الإسرائيلية المسلحة

(١٩٤٨ - ١٩٧٣)

٢٥٩	الفصل الأول : خلفية الصراع العربى الإسرائيلى
٢٦٦	الفصل الثانى : الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (حرب ١٩٤٨)
٢٨٣	الفصل الثالث : الجولة العربية الإسرائيلية الثانية (خريف ١٩٥٦)
٢٩١	الفصل الرابع : الجولة العربية الإسرائيلية الثالثة (يونية ١٩٦٧)
٣٠٤	الفصل الخامس : الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة (أكتوبر ١٩٧٣)



١٩٩٢



مطابع الهيئة العامة للإستعلامات